إيفان تورغينيف

المؤلفات المختارة

• الآباء والبنون
• في العشية

ترجمة
غائب طعمة فرمان- خيري الضامن



إيفان تورغينيف

الآباء والبنون

في العشية

ترجمة

غائب طعمة فرمان- خيري الضامن





المؤلف: إيفان تورغينيف
عنوان الكتاب: الآباء والبنون
في العشية
ترجمة: غائب طعمة فرمان
خير الضامن
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 2014

Author: Ivan Turgenev
Title: Fathers and Sons
On the Eve
Translator: Gaeb Tohme Faraman
Khairi Al Damen
Cover designed by: Majed AlMajedy
P.C. : Al-Mada
First Edition: 2014



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

في العشية

ترجمة غائب طعمة فرمان

١

في يوم من أشد الأيام قيظاً من صيف ١٨٥٣ كان شابان يستلقيان على العشب في ظل شجرة زيزافون عالية على شاطئ نهر موسكو، غير بعيد عن كونتسوفو. كان أحدهما، وهو شاب طويل القامة، أسمر البشرة، أسود الشعر، ذو انف حاد معوج بعض الشيء، وجبين عال، في نحو الثالثة والعشرين كما يدل مظهره، مستلقياً على ظهره، ينظر إلى البعيد في استغراق، وقد قلص قليلاً عينيه الرماديتين الصغيرتين، ورسم على شفتيه العريضتين ابتسامة متحفظة. وكان الثاني يرقد على صدره، وقد أسند رأسه الأشقر الشعر، والأجعد على يديه كلتيهما، متطلعاً أيضاً إلى البعيد. كان أكبر سناً من رفيقه بثلاث سنوات، ولكنه يلوح أصغر منه بكثير، وقد طر شارباه أو كادا، وعلى ذقنه زغب خفيف. وكان في القسمات الدقيقة لوجهه المدور الغض، وفي عينيه البنيتين العسليتين، وشفتيه الجميلتين البارزتين، ويديه البيضاوين شيء طفولي حلو، شيء رشيق على نحو جذاب. وكان كل شيء فيه يفوح بمرح العافية السعيد، يفوح بالفتوة - بخلو البال، وبالثقة بالنفس، والدلال، بسحر الشباب. كان يقلّب عينيه، ويبتسم، ويسند رأسه، وكل ذلك على طريقة الصبيان الذين يعرفون ان الابصار تتطلع إليهم بلطف. كان يرتدي معطفاً أبيض فضفاضاً أشبه بالبلوزة، ويلف على رقبته النحيلة منديلاً أزرق، وقد انطرحت قبعة قش مدعوكة على العشب، بالقرب منه.

كان رفيقه، بالقياس إليه، يبدو عجوزاً، وما كان لأحد أن يظن، وهو ينظر إلى شكله النافر، بأنه هو الآخر كان يستمتع، ويحس بالارتياح. كان يرقد في وضع غير مريح، ورأسه الكبير العريض من الأعلى، والضيق إلى

الاسفل، يستقر على رقبته الطويلة بطريقة خرقاء. وكان التثاقل يبدو حتى في وضعية يديه، وفي جذعه المشدود بأحكام بسترة سوداء قصيرة، ورجليه الطويلتين بركبتيها المرفوعتين، الشبيهتين بقائمتي الجندب الخلفيتين. ومع كل هـذه الاوصاف لا يفوت المـرء أن يرى فيه رجلاً حسـن التربية، فأن طابـع «الاستقامة» كان يبدو في كل كيانـه المتخلخل، كما أن وجهه غير الوسيم، بل والمضحك بعض الشيء، كان ينم عن تعوده على التأمل، وعن الطيبـة. كان يدعى اندريه بيتروفيتش بيرسينيف. وكان اسم رفيقه الشاب الاشقر الشعر بافل ياكوفليتش شوبين.

ابتدر شوبين يقول:

– لماذا لا تستلقي على صدرك، مثلما استلقي أنا؟ ذلك احسن بكثير. لا سيمـا حـين ترفع ساقيك، وتضـرب كعبيك أحدهمـا بالآخر. هكذا. والعشـب قرب انفـك. وحين تمل من التطلع إلى المنظـر الطبيعي انظر إلى حشـرة منتفخة البطن، كيف تدب على العشب، أو إلى نملة، وكيف تروح وتجيء. حقاً، ذلك أفضل. وإلا فها أنت الآن قد اتخذت وضعاً كلاسيكياً مزيفاً، تماماً كراقصة الباليه، حين ترتفق على طُنف كارتوني. تذكر أن لك الآن كامـل الحق في الاستراحة. فليسـ مزاجاً أن تحصل على درجة علمية وتصبح مرشحاً ثالثاً. استرح، سير. وكف عن التصلب. ارخ اطرافك!

نطق شوبـين بكل هذا الكلام بخُنة، في شبـه تكاسل، وفي شبه مزاح (الأطفال المدللون يتكلمون بهذا الشكل مع أصدقاء العائلة الذين يجلبون لهم الحلوى)، واستطرد قائلاً، دون أن ينتظر رد صاحبه:

– أكـثر ما يبهرني في النمل والخنافسـ وغيرها من السادات الحشرات جديتهـا المدهشة. أنها تركض رواحاً ومجيئـاً وفي مظهرها عظمة واهمية وكأن لحياتهـا معنـى ما! حقـاً فإن الإنسـان، ملك الكائنـات، المخلوق الاسمى، يتطلع إليها باهتمام، فلا يبدو عليها اكتراث به. والأكثر من ذلك

أن بعوضة ما تحط علـى أنف ملك الكائنات هذا، وتستخدمه طعاماً لها. هذا شـيء مهين. ومن ناحية أخرى: بأي شـيء تقصر حياتها عن حياتنا؟ ولماذا لا تتبختر، إذا كنا نحن نسمح لأنفسنا بالتبختر؟ طيب، يا فيلسوف، حلَّ هذه المسألة لي! لماذا أنت ساكت؟ ها؟

انتفض بيرسينيف وقال:

– ماذا؟

– ماذا!–كرر شوبين– أن صديقك يطرح أمامك أفكاراً عميقة، بينما أنت لا تستمتع له.

– كنـت استمتع بالمنظر. انظـر إلى هذه الحقول، كيف تلمع ساكنة في الشمس! (كان بيرسينيف يلفظ حرف السين بدلا من حرف الشين).

قال شوبين:

– الوان عظيمة زاخرة. الطبيعة، بكلمة واحدة.

هز بيرسينيف رأسه.

– كان ينبغي أن تعجب بذلك اكثر مني. هذا ميدانك. فأنت فنان.

– لاء! هـذا ليس ميداني – اعترض شوبين، وليس قبعته على قفاه–أنا لحام. وشغلي اللحم. تشكيـل اللحم، الاكتاف، والاقدام، الايدي. وهنا لا يوجـد شكل، ولا إكتمال. أنفرط على كل الجوانب... ولا تستطيع أن تجمعه!

قال بيرسينيف مذكراً:

– ولكن هنا الجمال أيضاً. بالمناسبة، هل انتهيت من لوحتك المحفورة؟

– أي لوحة؟

– الطفل والعنز.

– إلى جهنـم! إلى جهنم! إلى جهنم!– هتف شوبين بصوت– ممطوط نظـرت إلى أعمال الفنانين القدامـى الحقيقيين، إلى الفن القديم، فحطمت لوحتـي التافهة. أنت تشير علي إلى الطبيعة، وتقول: «هنا الجمال أيضاً». الجمال، بالطبع، في كل شيء، الجمال حتى في أنفك، ولكنك لا تستطيع أن تتسقـط كل جمـال. حتى القدامـى لم يحاولـوا أن يتسقطوه. بل هو انصـب في خليقتهم من تلقاء نفسه، والله يعلم من أين أو لعله من السماء. كان العـالم كله ملكاً لهـم. ولكنه يعز علينا أن نحيط بـه على سعة. فاليد قصـيرة. نحن نلقي الشص على نقطة واحدة صغيرة، وننتظر، فإذا علق به شيء، فمرحى بك، وإذا لا يعلق...

واخرج شوبين لسانه.

اعترض بيرسينيف قائلاً:

– علـى مهلك، على مهلك. هذه معاضلـة. إذا كنت لا تتجاوب مع الجمـال، ولا تحبه في أي مـكان تلتقيه، فلن يظهر في فنك أيضاً. وإذا كان المنظر الجميل، والموسيقـى الجميلة لا يقولان شيئاً لروحك، أريد أن أقول إذا أنت لا تتجاوب معهما...

– آخ، يـا متجاوب!– قـال شوبين فجأة، وضحـك نفسه من كلمته المبتكـرة، بينما غرق بيرسينيف في افكاره. ومضى شوبين يقول: – لا، يا اخ، أنت ذكي، فيلسوف، مرشـح ثالث في جامعة موسكو، من الفظاعة الجـدال معـك، لا سيما بالنسبـة لي، أنا الطالب الـذي لم يكمل دراسته. ولكننـي أقـول لك: ما عـدا فني، لا أحـب الجمـال إلا في النساء... في الفتيات، وحتى هذا لم يكن إلا منذ بعض الوقت...

وانقلب على ظهره، ووضع يديه تحت رأسه.

مضت بضع لحظـات في صمت. كان سكون قيظ الظهيرة يجثم على الأرض اللامعة الغافية.

وعاد شوبين يقول:

-بمناسبة النساء، كيف لا يستطيع أحد أن يسيطر على ستاخوف؟ هل رأيته في موسكو؟

- لا.

- فقـد عقله تماماً، العجوز هذا. يقضي أياماً كاملة قاعداً عند صاحبته افغوستينا خريستيانوفنا، ويسأم كثيراً، ولكنه يظل قاعداً. يحدق احدهما في الآخر، شيء سخيف... بل من المقرف النظر إليهما. عجيب! أن الله مَنَّ على هذا الرجل بعائلة طيبة، فلا يقنع، ويريد افغوستينا خريستيانوفنا! أنا لا اعرف امقت من بوزها الوزي! قبل أيام، شكلت له صورة كاريكاتورية، على طريقة دانتان. فطلعت لا بأس بها تماماً. سأريك اياها...

فسأل بيرسينيف:

- وتمثال يلينا نيقولايفنا النصفي؟ هل يتقدم في يديك؟

- لا، يـا اخ، لا يتقـدم. أن هذا الوجه يمكـن أن يسلمك إلى القنوط. فأنت تـرى أمامك خطوطاً صافية، حادة، مستقيمـة. فتتصور أن إلتقاط الشبـه ليس بالأمر الصعب ولكن ليس الأمـر كذلك... لن تظفر به، مثل كنز. هل لاحظت كيف تصغي هي؟ لا تتحرك قسمة واحدة من قسمات وجهها، سـوى أن تعبير نظراتها يتغير باستمـرار، وبسببها تتغير صورتها كلهـا. فماذا يمكن أن يفعل نحات في هذه الحال، ولا سيما إذا كان سيئاً؟ مخلوقة مدهشة... مخلوقة عجيبة.

اضاف ذلك بعد صمت قصير. فكرر بيرسينيف في اثره:

- نعم، أنها فتاة مدهشة.

- بينمـا هي ابنة نيقولاي ارتيميفيتشـ ستاخوف! وبعد ذلك حاول أن تتناقشـ عن الدم، وعن الطبيعة.. الطريف أنهـا ابنته بالضبط، تشبهه،

وتشبه أمها، آنا فاسيليفنا. أنا احترم آنا فاسيليفنا من كل قلبي، فهي راعيتي. ولكنهــا بلهــاء كالدجاجة. فمن أين اخذت يلينــا طبيعتها؟ من اشعل هذه الجذوة؟ هذه مسألة أخرى، عليك أن تحلها، يا فيلسوف!

ولكن «الفيلسوف» كالسابق لم يجب بشيء! كان بيرسينيف، بشكل عــام، لا يحب الــكلام الكثير، وحــين كان يتكلم، كان يتكلــم بابتسار، وبلعثمــات، وبتلويــح زائد من يديــه، أما في هذه المــرة، فقد لفت روحه سكينــة غير اعتيادية، اشبه بالتعب، والحزن، كان قبل وقت قصير قد انتقل إلى السكن في بيت خارج المدينة، بعد عمل طويل شاق، كان يضنيه خلال بضع ساعات في اليــوم. وكان الاسترخاء وطيب الهواء ونقاوته، والوعي بادراك المــرام، والحديث المتقلــب الطليق مع صديقــه، وصورة المخلوق الحبيــب تبرز في خياله فجــأة، كل هذه الانطباعــات المختلفة والمتواشجة لسبــب ما، انصبــت فيه بشعور شامل واحد كان يهدئــه، ويقلقه، ويستل قوته في وقت واحد... لقد كان شاباً شديد التأثر جداً.

كان الظــل تحت شجــرة الزيزفون ندياً ساكنــاً، وكان الذباب والنحل الحائــم تحتها يبدو وكأنما خفف من طنينه. وكان العشب الصغير النظيف، بلون الزمرد، لا يتمايــل ولا تتمازج فيه التلاوين الذهبية. كانت الانصال الطويلــة تقف جامدة كالمسحورة، وعناقيد الازاهير الصغيرة الصفر تتدلى جامــدة على أغصــان الزيزفون السفلــي. كانت الرائحة الحلــوة تنفذ إلى أعمــاق الصدر مــع كل شهيق، ولكــن صدرك كان يستنشقهــا بارتياح. وفي البعيــد، وراء النهر، وحتى انطباق السمــاء كان كل شيء يلتمع، كل شيء يتألــق، ومن حين لآخر كانت نسمة تهب هنــاك، وتخترق اللمعان وتزيد حدتــه، وكان الاغبشاش المشع يتماوج فــوق الارض. والطيور لا يسمــع لها صوت، فهي لا تغرد في ساعات القيظ، ولكن الجنادب كانت تشقشق في كل مكان، وكان لطيفاً سماع صوت الحياة الحار هذا، وأنت في مكان ندي، والسكون يهدهد إليك سنة من النوم، مثيراً فيك الاحلام.

وفجأة قال بيرسينيف معيناً لسانه بحركات يديه:

– هـل لاحظـت أي شعور غريب تثـيره الطبيعة فينـا؟ كل شيء فيها علـى درجة عالية من الامتلاء والصفاء، واريد أن أقول، الاكتفاء بالنفس، ونحن ندرك ذلـك، ونستمتع به، والطبيعة في الوقت ذاته، علـى الاقـل بالنسبة لي، تثير دائمـاً قلقاً، فزعاً، بل وشجنـاً. ما يعني هذا؟ ايعني أننا، حين نقف أمامها، ونجابهها، نعي أكثر بعدم امتلائنا، وغموضنـا، أم لا يكفينا مـا يُشعرها هي بالاكتفـاء، في حين الشيء الآخر، وأريد أن أقول، الشيء الذي نحتاجه لا نجده فيها؟

قال شوبين:

– حـم. سأقول لك، يا اندريه بيتروفيتش، ما مبعث هذا كله. لقد وصفت أنت أحاسيس إنسان وحيد لا يعيش، بل ينظر فقط، ويصيبه الانبهار. فما فائدة النظـر؟ عش حياتك، وستكون نعم الفتى. مهما طرقت باب الطبيعة، فلـن ترد عليك بكلمة مفهومة، لأنها لا تنطق. ستـرن وتئن كالوتر، فلا تنتظر منها غنـاء. النفس الحية هي التي ترد، والنفـس النسائية في الغالب الأعم. ولهـذا، انصحك، أيها الصديق النبيـل، أن توفر صديقة لقلبك، وستختفـي أحاسيسك الشجية على الفـور. هذا «ما نحتاجـه» على حد تعبيرك. ذلـك لأن هذا الفزع، هـذا الشجـن، ما هو إلا جـوع من نوع خاص. قـدم للمعدة طعاماً حقيقياً، وسيكون كل شـيء على ما يرام. احتَل موضعك من العالم، كـن جسماً، يا اخي. ثم مـا هي الطبيعة، وما شأنهـا هنا؟ أعِرّ اذنك واسمـع: الحب... أية كلمة قوية، حـارة! الطبيعة... أي تعبير بارد، مدرسي للتلاميذ! ولهـذا (وأخذ شوبين يغني) «تحيا ماريا بيتروفنا!» أو، لا – اضـاف قائلاً – ليس ماريا بيتروفنـا، ولكن لا فرق! فو مي كومبرنيه

رفـع بيرسينيف جسمه قليلا، واسند ذقنه على ذراعيه المطويتين. وقال دون أن ينظر إلى صاحبه:

– مـا الحاجة إلى التهكم، ما الحاجـة إلى السخرية؟ ولكنك على حق. الحب كلمة عظيمة، عاطفة عظيمة... ولكن عن أي حب تتحدث؟

رفع شوبين جسمه قليلاً أيضاً.

– عن أي حب؟ عن أي حب تشاء، فقط أن يكون موجوداً. واعترف لك بأنني لا أظن أن هناك أنواعاً مختلفة من الحب. إذا أحببت...

فابتدر بيرسينيف قائلاً:

– من كل قلبي.

– نعـم، هذا طبيعي، فالقلب ليس تفاحة ليقسـم. فإذا أحببت، فأنت علـى حـق. ولكن لم يخطـر في بـالي أن استهزئ. فأن في قلبـي الآن من الرقـة ما يجعله ناعماً... أردت فقط أن اوضح لك، لماذا تؤثر الطبيعة فينا هذا التأثير، حسـب رأيك. لأنها تثير فينا الحاجة إلى الحب، دون أن تقدر هـي على تلبيتها. أنها تدفعنا بهدوء إلى أحضان أخرى حية، بينما نحن لا نفهمها، وننتظر منها شيئاً. آه، اندريه، اندريه، رائعة هذه الشمس، وهذه السمـاء، ورائع كل ما حولنا، بينمـا أنت تحزن. ولكن لو امسكت بيدك، في هذه اللحظة، يـد إمرأة تحبها، ولو أن هذه اليد، وتلك المرأة كلها كانتا ملكاً لك، بل ولو كنت تنظـر بعينيها، وتشعر بعاطفتها، وليس بعاطفتك الوحيـدة، لما اثـارت هذه الطبيعة فيـك شجناً، يا اندريـه، ولا فزعاً، ولما صرت تلاحـظ جمالها. ولابتهجت الطبيعة نفسهـا وغنت، وكأنما تردد نغمـك، لأنك، عند ذاك، كنـت ستجعل لها، لهذه العاجـزة عن النطق، لساناً ينطق!

وثب شوبين على قدميه، ومشى مرتين أو نحوهما جيئة وذهاباً، بينما احنى بيرسينيف رأسه، وغشيت وجهه حمرة خفيفة. قال:

- لست متفقاً معك تماماً. الطبيعة لا توحي لنا دائماً... بالحب (لم ينطق بهذه الكلمة رأساً). أنها تهددنا أيضاً. تذكرنا بالأسرار المخيفة، أجل، الاسرار التي لا تُنال. أليست هي التي ينبغي أن تبتلعنا، والتي تبتلعنا باستمرار؟ فيها الحياة والموت. وللموت صوت عال فيها، كما للحياة.

قاطعه شوبين قائلاً:

- وفي الحب أيضاً حياة وموت.

فمضى بيرسينيف يقول:

- ثم، مثلاً، حين أقف في الربيع، في غابة، في حرش اخضر، ويخيل اليَّ أنني اسمع أنغاماً رومانسية لبوق اوبيرون. (اعترى بيرسينيف بعض الخجل، وهو ينطق هذه الكلمات). - أمعقول أن هذا أيضاً...

فأسرع شوبين يقول:

- ظمأ للحب، ظمأ للسعادة، ولا أكثر! أنا اعرف هذه الانغام أيضاً، واعرف أيضاً ذلك الحنان والتوقع اللذين يغمران النفس وهي في حمى الغابة، في أحضانها، أو عند المساء، في الحقول المكشوفة، حين تغرب الشمس، والنهر تتصاعد انفاسه وراء الاجمات. ولكنني أتوقع، وأريد السعادة من الغابة، ومن النهر، ومن الأرض، ومن السماء، ومن كل غيمة. ومن كل عشبة، وأحس في كل شيء باقترابها، واسمع نداءها! «ربي منير وبهيج!» بهذا بدأت احدى قصائدي. ولا بد أن تقر بأنه مطلع رائع، ولكن لم استطع أن اثنّيه. السعادة! السعادة! ما دامت الحياة لم تنقض، وما دامت كل أعضائنا تحت سيطرتنا، ما دمنا نصعد التل، لا أن ننحدر منه! أوه، اللعنة! - مضى شوبين يقول في اندفاع فجائي - نحن شبان، ولسنا ذوي عاهة، ولا بلهاً. سنكسب السعادة لأنفسنا.

وهزَّ خصلات شعره، ونظر إلى فوق، إلى السماء، بثقة في النفس، وبتحد تقريباً. رفع بيرسينيف إليه بصره. وقال بخفوت:

– كأنما لا شيء ارفع من السعادة، هيه؟

سأل شوبين:

– مثلاً؟

– خــذ هذا مثلاً، هــا نحن، أنا وأنــت شابان، كما تقــول، ولنفرض أننــا طيبان، وكل واحد منــا ينتظر لنفسه السعــادة... ولكن هذه الكلمة «السعــادة» هي التي يمكن أن توحدنا، وتلهبنا نحن الاثنين، وتجعل أحدنا يمد يده للآخر؟ أليست أنانية هذه الكلمة، أقصد أليست كلمة مفرقة؟

– وأنت هل تعرف الكلمات التي توحّد؟

– نعم، وهي ليست قليلة، وأنت أيضاً تعرفها.

– حقاً؟ ما هي هذه الكلمات؟

– الفــن، علــى الاقل، مــا دمت فنانــاً، والوطــن، والعلــم، والحرية، والعدالة.

فسأل شوبين:

– والحب؟

– الحب كلمة موحدة، ولكن ليس الحب الذي تتعطش أنت اليه الآن. ليس الحب – المتعة، الحب الضحية.

تعبّس شوبين.

– هذ جيــد للالمان. ولكنني أريد الحب لنفســي، أريد أن أكون الرقم الأول.

كرر بيرسينيف:

– الرقــم الأول. أمــا أنا فاعتقــد أن كل هدف حياتنــا هو في أن نجعل أنفسنا الرقم الثاني.

قال شوبين بتعبيسة شاكية:

– إذا كان الجميع سيتصرفون كما تقول أنت فلن يأكل أحد على الأرض أناناساً، لأن الجميع سيقدمونه للآخرين.

– اذن، لا حاجة إلى الاناناس. وعلى أية حال لا تخف، فلن تَعدِم أبداً أناساً هواة حتى في انتزاع الخبز من افواه الآخرين.

وصمت الصديقان كلاهما. ثم قال بيرسينيف:

– قبل أيام التقيت مرة أخرى باينساروف. دعوته إلى بيتي، أريد، من كل بد، أن اعرفه بك... وبافراد عائلة ستاخوف.

– من اينساروف هذا؟ آه، تذكرت، أهو الصربي أو البلغاري الذي كنت تحدثني عنه؟ أهو هذا المناضل؟ العله هو الذي أوحى لك بكل هذه الافكار الفلسفية؟

– ربما.

– اتراه شخصاً فريداً؟

– نعم.

– ذكي؟ موهوب؟

– ذكي؟.. نعم. موهوب؟ لا ادري. لا أظن.

– لا؟ فماذا فيه ملفت للنظر؟

– ستراه. والآن، اعتقد أن علينا أن نذهب. آنا فاسيليفنا في انتظارنا، على ما اظن، كم الساعة؟

– الثالثة. لنذهب. ما اكتم الهواء! أن هذا الحديث أجج كل دمي. كما أنك تجليت أيضاً... وليس دون طائل أنني فنان. الحظ كل شيء. أعترف بأن امرأة تشغلك، أليس كذلك؟

واراد شوبين أن ينظر إلى وجه بيرسينيف، إلا أن هذا اشاح بوجهه، وخرج من تحت شجرة الزيزفون. تبعه شوبين. منقلاً قدميه الصغيرتين بتراخ ورشاقة. كان بيرسينيف يمشي مشية ثقيلة، يرفع كتفيه عالياً أثناء سيره، ويمد رقبته، ومع ذلك فقد بدا أكثر «استقامة» من شوبين، وكان من الممكن أن نقول أكثر جنتلمانية، لو لم تبتذل هذه الكلمة عندنا كثيراً.

٢

نزل الشابان إلى نهر موسكو، وسارا بمحاذاة الشاطئ. كانت النداوة تهب من النهر، وطرطشة الامواج الصغيرة تداعب السمع. انشأ شوبين يقول:

– كنت ساسبح مرة أخرى، ولكني أخشى أن أتأخر. انظر إلى النهر، فكأنه يغمز لنا غاوياً. لو أن الاغريق القدامى كانوا هنا لرأوا فيه حورية، ولكننا لسنا اغريقاً، يا حورية! نحن سكيفيون غلاظ الجلود.

قال بيرسينيف:

– عندنا ما يقابلها... حورية الماء.

– افٍ منك ومن حورياتك! ما الذي تجديني، أنا النحات، هذه، سعالى[1] الخيال المذعور البارد، هذه الأطياف المولودة في كوخ ريفي مكتوم الهواء، في عتمة ليالي الشتاء؟ أنا بحاجة إلى النور، إلى الرحاجة... اوه، يا الهي، متى سأسافر إلى ايطاليا؟ متى...

– يعني تريد أن تقول إلى اوكرانيا؟

– أخجل من نفسك، يا اندريه بيتروفيتش على تعبيري بحماقة طائشة،

---

(١) السعلاة: حيوان خرافي يثير الفزع. المترجم.

أنا بدون ذلك نادم عليها ندامة مرة. حسناً، لقد تصرفت كالأحمق. حين اعطتنـــي آنا فاسيليفنا الفائقة الطيبة نقـــوداً لأسافر إلى ايطاليا، فسافرت إلى الاوكرانيين، لأكل اللقم الاوكرانية و...

قاطعه بيرسينيف:

– لا تكمل كلامك، أرجوك.

– ولكني أقول أن هذه النقود لم تنفق هباء. فقد رأيت هناك نماذج من الناس، ولا سيما من النســاء... بالطبع، أنا أعــرف أن لا خلاص خارج ايطاليا.

قال بيرسينيف دون أن يلتفت إليه:

– تذهــب إلى ايطاليا، ولا تقوم بشيء. مجرد أن تخفق بجناحيك، ولا تطير. نحن نعرفك!

– ستافاســير طار... وليس هو الوحيــد في ذلك... إذا كنت لا أطير، فأنــا بطريق بحري، بــلا أجنحة – ثم مضى قائلاً – أنا اختنق هنا، أريد أن اسافر إلى ايطاليا. فهناك الشمس، هناك الجمال...

في تلــك اللحظة ظهــرت في الدرب الذي يسيران فيــه فتاة في مقتبل العمر، ترتدي قبعة عريضة من القش، وعلى كتفها مظلة وردية.

هتف شوبين فجأة، وهو يلوح بقبعته في حركة مسرحية:

– أوه، مــاذا أرى؟ وهنــا أيضــاً يأتي الجمال للقيانا. تحيــة فنان خاشع للفاتنة زويا.

توقفت الفتاة التي خاطبها بهذه الكلمات، وهددته باصبعها، وتركت كلا الصديقين يقتربان منها. وقالت بصوت صداح مع شيء من اللثغة:

– لماذا لا تأتيان إلى الغداء، يا سادة، المائدة جاهزة.

قال شوبين ثانياً ذراعيه:

– مـا هذا الذي اسمعه؟ هـل معقول أنك، زويـا الفاتنة، عزمت على الخروج في مثل هذا الحر لتبحثي عنا؟ أهكذا يجب أن أفهم معنى كلامك؟ قـولي، معقول؟ أو، لا، الافضل أن لا تنطقي بهذه الكلمة. ستقتلني الندامة في الحال.

قالت الفتاة دون أن يخلو كلامها من الضيق:

– أوه، كف عن ذلك، بافل ياكوفليفيتش. لماذا لا تتحدث معي بجدية أبداً؟ سأزعل.

أضافت بحركة عنجة من جسمها، ومطت شفتيها.

– لا تزعلـي علي، يا زويا نيكيتشينـا المثلى. فأنت لا تريدين أن ترميني في الهاويـة الكئيبة من اليأس المسعور. أما الكلام الجدي فلا أجيده، لأنني لست رجلاً جدياً.

هزت الفتاة كتفيها، وتوجهت إلى بيرسينيف قائلة:

– أنـه دائماً بهذا الشكل. يعاملني كمـا يعامل طفلاً، بينما تخطيت أنا الثامنة عشرة. أنا الآن كبيرة.

– أه، يا الهي!

توجـع شوبين، مقلّباً عينيـه إلى الأعلى. وكشـر بيرسينيف عن ابتسامة قصيرة في صمت.

ضربت الفتاة الارض بقدمها. ومضت تقول:

– بافل ياكوفليفيتش! سأزعل! ارادت Helène أن تذهب معي، ولكنها بقيت في الحديقة. خافت من الحر، ولكنني لم أخف منه. هيا لنذهب.

وسـارت في الـدرب في المقدمـة، تميس قليلاً بقدهـا الممشوق في كل خطوة، وتزيح عن وجهها خصـلات شعرها الناعمة الطويلة بيدها الحلوة المقفزة بقفاز غير مصبّع.

سـار الصديقـان في اثرهـا (كان شوبـين تـارة يضغط يديـه على قلبه

بصمت، وتـارة يرفعهما أعلى من رأسه). وبعـد لحظات وجدا أنفسهما أمـام أحد البيوت الريفيـة العديدة المحيطة بكونتسوفـو. كان هذا البيت الخشبي الصغير ذو العلية والمطلي بالطلاء الوردي يقع وسط حديقة، ويطل مـن وراء خضرة الاشجار في شـيء من السذاجة. كانت زويا أول مَن فتح بـاب الحديقة. ركضت في الحديقة، وراحت تصيح: "جئت بالأفَّاقين!". نهضـت من مسطبة قرب الممر فتـاة في ريعان الشباب ذات وجه شاحب معـبِّر، وظهرت على عتبـة البيت إمرأة في ثوب حريـري ليلقي، ورفعت منديـلاً مطرزاً من القماش القطني فوق رأسهـا إتقاء الشمس، وابتسمت بونى وفتور.

٣

كانـت آنا فاسيليفنا ستاخوفا (الملقبة بشوبينا، قبل زواجها) قد تيتمت من والديهـا، وهي في السابعة من العمر، وورثـت ضيعة على قدر كاف مـن السعة. وكان لها اقـارب أثرياء جداً، وفقراء جـداً. الفقراء من ابيها، والاغنياء من أمها: الشيخ فولغين، وامراء آل تشيكوراسوف. وقد وضعها الأمير ارداليون تشيكوراسوف الذي صار وصياً عليها، في أحسن مدرسة داخليـة في موسكو، وبعد تخرجها من المدرسـة، أخذها لتعيش في بيته. وكان يعيشـ حيـاة غير مغلقـة، ويقيم حفـلات راقصـة في الشتاء. وقد استمالهـا نيقولاي ارتيميفيتش ستاخـوف، زوجها المقبل، في واحدة من هذه الحفلات، حين كانت "في ثوب وردي فاتن بغطاء الرأس من الورود الصغيرة". وقد احتفظت بهذا الغطاء... ونيقولاي ارتيميفيتش ستاخوف هو ابن رائـد متقاعد جرح في عام ١٨١٢، وحصـل على وظيفة مريحة في بطرسبـورغ. وقد دخل الابـن، وهو في السادسة عشـرة، في مدرسة عسكريـة، وتخرج ضابط حرس. كان وسيم الطلعة، حسن البنيان، يكاد

يكــون الفارس الأول في حفلات الطبقة المتوسطـة التي كان يشهدها في الغالــب. أما المجتمع الراقي فلم يكن لــه سبيل إليه. وكانت له امنيتان منذ شبابــه: أن يكون ضابــط حاشية، وأن يتزوج زواجــاً مربحاً. وسرعان ما تخلــى عن امنيته الأولى، إلا أنه تشبث أكــثر في امنيته الثانية. وتبعاً لذلك كان يسافــر في كل شتــاء إلى موسكــو. كان نيقــولاي ارتيميفيتش يتكلم الفرنسيــة بشكل لا بأســ به، واشتهر بأنه فيلســوف، لأنه لم يكن يشترك في موائــد الخمــور، وصار، وهو مــا يزال برتبة ملازم، يحــب أن يجادل بحماس، مثلاً، هل في استطاعة الإنسان، أن يطوف الكرة الأرضية خلال عمــره كله، وهل يقدر أن يعرف ماذا يجري في قــاع البحر. وكان دائماً يجيب بالنفي.

كان نيقــولاي ارتيميفيتش قد تخطى الخامسة والعشرين حين "تعلّق" بآنــا فاسيليفنا. وقــد تقاعد عن الخدمــة، وسافر إلى الريــف ليدير شؤون الضيعــة. وسرعــان مــا سئم حيــاة القرية، فأعطــى الضيعــة إلى الفلاحين باللزمــة، واقام في موسكو، في بيت زوجتــه. في صباه لم يكن قد اشترك في لعبــة ورق، ولكن ولع في موسكو باليانصيب، وحين ألغي اليانصيب، اغــرم بلعبة الورق. وكان يسأم في البيت، وصارت له علاقة مع ارملة من اصــل الماني، وصار يقضي معها أوقاته كلها تقريباً. وفي صيف ١٨٥٣ لم ينتقــل إلى كونتسوفو، بل بقــي في موسكو، ليتعاطى الميــاه المعدنية، على حــد زعمه، بينمــا اراد، في الحقيقة، أن يظل مــع صاحبته الارملة. وعلى أيــة حــال، كان يتكلم قليــلاً معها أيضاً، ويجــادل أكثر عمــا إذا كان في مستطــاع الإنســان أن يتنبأ بالطقس إلى غير ذلــك. وذات مرة سماه أحد الناس Frondeur[٢]، فراق له هــذا اللقب كثيراً. كان يفكر مُرخياً طرفي

(٢) الوعق المعترض (بالفرنسية أصلاً).

شفتيه في رضى عن النفس هازاً جذعه: "نعم، ليس من السهل ارضائي، ولا سبيل إلى خداعي". وكان اعتراض نيقولاي ارتيميفيتش يتمثل في أنه إذا سمع، على سبيل المثال، كلمة "اعصاب"، فأنه سيقول: "أي شيء هذه الأعصاب؟" وإذا ذكر أحد في حضوره نجاحات الفلك، قال: "وهل تصدقون بالفلك؟". وحين كان يريد دحر الخصم كلياً كان يقول: "كل هذه مجرد اقوال". ولا بد من الاعتراف بأن الكثيرين كانوا (وما يزالون حتى الآن) يرون هذا اللون من الاعتراض لا يمكن أن يدحض. ولكن نيقولاي ارتيميفيتش لم يكن يظن أن افغوستينا خريستيانوفنا كانت تسميه في رسائلها إلى ابنة عمها فيودوليندا بيترزبليوس بـ "Mein Pinselehen"[٣].

كانت آنا فاسيليفنا، زوجة نيقولاي ارتيميفيتش إمرأة صغيرة الجسم نحيلة دقيقة القسمات، ميالة إلى الانفعال والاكتئاب. كانت في المدرسة الداخلية تدرس الموسيقى، وتقرأ الروايات، ثم تركت كل ذلك. وصارت تتأنق في ملابسها، وحتى هذا تركته، وانشغلت بتربية ابنتها، إلا أنها وهنت، فسلمتها إلى يدي مربية وانتهى بها المطاف إلى أن تنقطع إلى الاكتئاب والانفعال الهادئ، ولا شيء آخر. اضرّت ولادتها ليلينا نيقولايفنا بصحتها، ولم تعد قادرة على انجاب أولاد آخرين. وكان نيقولاي ارتيميفيتش يلمح إلى ذلك مبرراً علاقته بافغوستينا خريستيانوفنا. كانت خيانة الزوج تحزن آنا فاسيليفنا كثيراً، وقد آلمها بشكل خاص أنه اهدى، ذات مرة، لصاحبته الالمانية بالخديعة حصانين رماديين من حظيرتها، حظيرة آنا فاسيليفنا. لم تكن تعاتبه وجهاً لوجه قط، ولكنها كانت تشكوه، خفية، إلى أهل بيتها واحداً واحداً، وحتى لإبنتها. وكانت

---

(٣) احمقي (بالألمانية في الأصل).

آنـا فاسيليفنا لا تحب الخروج من البيـت، وكان يطيب لها أن يكون لديها ضيـف يروي لها شيئاً، وكانت الوحدة تسلمها إلى المرض في الحال. كان قلبها رقيقاً يحب الناس كثيراً، ولكن الحياة سرعان ما طحنتها.

كان بافـل ياكوفليفيتشـ شوبين ابن عمهـا الأكـبر. وكان أبوه يعمل في وظيفـة في موسكو، واخواه يدرسـان في مدرسة عسكرية، وكان هو اصغرهـم، والمفضل لدى امه، وكان هزيل البنيـة، فبقي في البيت. وكان الاهـل يودون لو يدخـل إلى الجامعة، ويجدون عسـراً في توفير متطلبات دراسته الثانوية. وكان قد أظهر، منذ صغره، ميلاً إلى النحت. وذات مرة، رأى الشيخ فولغين، الضخم البنية، تمثالاً صغيراً لدى عمته (كان آنذاك في السادسة عشرة) فأعلن أنه ينوي أن يشمل هذا النابغ الشاب برعايته. وقد غـيَّرت وفاة ابي شوبين المفاجئة كل مستقبل ابنه الشاب أو كادت. اهدى له الشيـخ راعي المواهـب، تمثالاً نصفياً من الجبـس لهوميروس، ولا أكثر. ولكن آنا فاسيليفنا أعانته بالنقود، فدبر، على نحو ما، أمر دخوله إلى كلية الطـب، في الجامعـة وهو في التاسعة عشـرة. وكان بافل لا يحس أي ميل إلى الطـب، ولكن كان من المستحيل حسب عدد الطلاب الموجود آنذاك التحاقـه في كلية أخرى، وفي الوقت ذاته كان يأمـل بأن يدرس التشريح. ولكنـه لم يتعلـم التشريح، و لم ينجح إلى السنـة الثانية، وخرج من الجامعة دون أن ينتظـر الامتحـان، يتفرغ كليـاً إلى مهمته. فعمل بـدأب، ولكن علـى فترات. وراح يتجول في ضواحي موسكـو، ويصيغ ويرسم الصور الشخصية للفلاحات الشابات، ويلتقي بأناس مختلفين، شباناً وشيوخاً من ذوي المراتب العالية والواطئة ومع المَقَوْلبين الايطاليين، والفنانين الروس، وكان يرفض الاكاديمية، ولا يعترف بأي استاذ. وكان لا يخلو من موهبة، فصـار الناس يعرفونـه في موسكو. وكانـت أمه، وهي امـرأة طيبة ذكية وباريسيـة المولد من عائلة معتبرة، قد علمتـه اللغة الفرنسية، واهتمت به، وأخذت ترعـاه ليل نهار، وتفتخر به، ولـدى احتضارها، وهي لم تودع

الشباب بعد، متأثرة بمرض السل رجت آنا فاسيليفنا أن تضمه إليها و تأخذ بزمامه. وكان هو آنـذاك في الحادية والعشرين. ونفذت آنا فاسيليفنا رغبة الأم الأخيرة. فصار بافل يحتل غرفة صغيرة في ملحق بيتها الريفي.

٤

قالت ربة البيت بصوت مشفق:

– لنذهب الى الغداء، لنذهب – واتجه الجميع الى غرفة الطعام، ومضت آنـا فاسيليفنـا تقول – اجلسـي بقربي Zoé، أما أنت يـا Helène فداري الضيـف، وأنت يـا Paul، أرجـوك لا تشاكس، ولا تناكـد Zoé. رأسي يوجعني اليوم.

قلَّـب شوبـين عينيـه صـوب السمـاء ثانية، فـردت عليـه Zoé بشبه ابتسامة. وZoé هذه، أو بعبـارة أصح، زويا نيكيتشنا ميولر فتاة روسية، المانيـة الاصل حلـوة، حولاء قليـلاً، ذات انف صغير عريض المنخرين، وشفتـين صغيرتين حمراوين، شقـراء الشعر، ممتلئة الجسـم. كانت تغني أغـاني الرومانس الروسية بطريقة لا بأس بها، وتعزف على البيانو بسلامة معزوفات مختلفة مرحة تارة، ومؤثرة تارة أخرى. وكانت تختار ملابسها بذوق، ولكن بشيء مـن الطفولية، وبعناية مفرطة. اخذتهـا آنا فاسيليفنا كمرافقـة لابنتها، وابقتها قريبة إلى نفسها على الـدوام تقريباً. و لم تتشك يلينا من ذلـك. وحين يصدف أن تخلو إلى زويا كانت لا تعرف قطعاً عم تتحدث معها.

استمـر الغداء وقتاً طويلاً، وصار بيرسينيف يتحدث مع يلينا عن الحياة الجامعيـة، وعن نوايـاه وآمالـه. وكان شوبين يستمع، ويـلازم الصمت، ويأكل بنهم مبالغ فيه، ملقياً، من حين لآخر نظرات جزعة بشكل فكاهي، إلى زويا التي كانت ترد عليه بنفس الابتسامة الفاترة. وبعد الغداء خرجت

يلينا مع بيرسينيف وشوبين إلى الحديقة. شيعتهم زويا بنظراتها، وقد هزّت كتفيها قليلاً، وجلست إلى البيانو. أخذت آنا فاسيليفنا تقول: "لماذا لا تتمشين أنت أيضاً؟" إلا أنها اضافت، دون أن تنتظر الجواب: "اعزفي لي شيئاً مشجياً...".

سألت زويا: – La dernière pensée" de Weber?"[٤]

– آه، نعم فيبر.

قالت آنا فاسيليفنا، وقعدت على الكرسي، واطلت الدمعة على رموشها.

وخلال ذلك قادت يلينا الصديقين إلى تعريشة من الاقاصيا تتوسطها طاولة خشبية حولها مساطب. تلفت شوبين فيما حوله، وقفز عدة مرات، وقال همساً: "انتظرا قليلاً"، وركض إلى حجرته، وجاء بقطعة من الطين، وأخذ يعجن تمثالاً لزويا، وهو يهز رأسه، ويغمغم، ويضحك.

– عاد إلى مزحه القديمة.

قالت يلينا، بعد أن نظرت إلى ما يفعله، مخاطبة بيرسينيف الذي كانت تتابع معه الحديث الذي بدئ على مائدة الغداء.

كرر شوبين:

– مزحه القديمة. موضوع لا ينضب أبداً. اليوم بشكل خاص تحرق الاعصاب.

سألت يلينا:

– ولماذا؟ كأنك تتكلم عن عجوز مزعجة خبيثة. إنها فتاة حلوة في ريعان الشباب...

---

(٤) «الفكرة الأخيرة» لفيبر؟ (بالفرنسية في الأصل).

قاطعها شوبين:

– حلوة، بالطبع، وحلوة جداً. أنا واثق من أن أي عابر سبيل ينظر إليها، لا بـد أن يفكر: هذه هي الفتاة التي تحلو معهـا... رقصة "البولكا". كما أننـي واثق من أنها تعرف ذلك، وتستلذ به... لَمِ هذه الحركات المخجلة، هذا التواضع الزائف؟ طيب، أنتما تعرفان ما أريَد أن أقوله. – اضاف من خَلَل أسنانه – على العموم أنتما الآن مشغولان بشيء آخر.

خرب شوبين تمثال زويا، وأخـذ يعجن الطين ويدعكه بعجالة، وكأن ذلك عن انزعاج.

سألت يلينا بيرسينيف:

– اذن، فأنت تود أن تكون استاذاً؟

– نعـم – ردَّ هـذا، ضاغطاً يديه الحمراوين بـين ركبتيه – هذه أمنيتي المفضلـة. بالطبع أنا أعرف جيـداً كل ما ينقصني لاستجيب لمتطلبات هذا المرام الرفيع... اريد أن أقول أنا قليل التأهل للغاية، ولكن آمل في الحصول على السمـاح بالسفر للخـارج. واقيم هناك ثلاث أو أربـع سنوات، إذا اقتضى الأمر، وعندئذ...

وتوقف، واطرق ببصره، ثم رفـع عينيه بسرعة، وعدل شعره، مبتسماً بحراجـة. وكان بيرسينيف حين يتكلم مع امرأة، يصير كلامه أبطأ من ذي قبل، وأكثر تلفظاً بحرف السين.

سألت يلينا:

– أتريد أن تكون أستاذ التاريخ؟

– نعم، أو الفلسفة – واضاف مخفضاً صوته – إذا كان ذلك ممكناً.

– أنـه منذ الآن قوي في الفلسفة، كالشيطان – قال شوبين، وهو يحز خطوطاً عميقة في الطين بأظفره – فما حاجته إلى السفر للخارج؟

سألت يلينا، وقد ارتفقت على كوعها، وراحت تنظر في وجهه:

– وستكون راضياً تماماً عن وضعك؟

– تمامـاً، يلينا نيقولايفنا، تماماً. فأي شيء يمكن أن يكون ارفع من هذه الرسالـة؟ السـير على خطا تيموفي نيقولايفيتشـ... مجرد التفكير في مثل هـذه الممارسة يملؤني حبوراً وخجـلاً، – نعم... خجلاً من ادراكي لصغر قابلياتـي. أبي المرحوم باركني على هـذا الأمر... أنا لن أنسى أبداً كلماته الأخيرة.

– أبوك توفي في شتاء هذا العام؟

– نعم، يلينا نيقولايفنا، في شباط.

فمضت يلينا تقول:

– يقال أنه ترك مخطوطة مؤلف عظيم، أهذا صحيح؟

– نعم، صحيح. لقد كان رجلاً رائعاً، كنت ستحبينه لو كنت تعرفينه، يلينا نيقولايفنا.

– أنا واثقة من ذلك، وما هو محتوى هذا المؤلف؟

– هنـاك بعضـ الصعوبة في تقـديم محتوى هذا المؤلـف لك بكلمات قليلة. كان أبي رجـلاً متعلماً جداً من اتباع شيلينغ. وكان يستخدم تعابير ليست واضحة دائماً...

قاطعته يلينا:

– اندريه بيتروفيتش، اعذرني على جهلي: ما معنى من اتباع شيلينغ؟

ابتسم بيرسينيف ابتسامة خفيفة.

– الفيلسوف الألماني شيلينغ، وكانت تعاليم شيلينغ...

وفجأة هتف شوبين:

– اندريــه بيتروفيتش! إكراماً للرب ذاته! يعني تريــد أن تلقي محاضرة على يلينا نيقولايفنا عن شيلينغ؟ رحماك!

تمتم بيرسينف واحمر:

– ليست محاضرة اطلاقاً، بل اردت...

فأسرعت يلينا تستدركه:

– ولماذا لا محاضرة؟ أنا وأنت محتاجان إلى محاضرات، بافل ياكوفليفيتش.

تفرس شوبين فيها، وقهقه فجأة.

استفهمت ببرود، وبحدة تقريباً:

– ولم تضحك؟

سكت شوبين. وبعد برهة قال:

– طيــب، يكفي. لا تزعلي. أنا المقصر. ولكن مع ذلك، ما الحاجة إلى الكلام عــن الفلسفة الآن، في مثــل هذا الطقس، وتحت هــذه الأشجار؟ الافضــل أن نتحــدث عــن البلابــل، عن الــورود، عــن العيــون الغضة، والبسمات.

فاستطردت يلينا قائلة:

– نعم، وعن الروايات الفرنسية، وعن الملابس النسائية.

فرد شوبين:

– وليكن عن الملابس النسائية، إذا كانت جميلة.

– ممكــن، ولكن إذا كنــا لا نريد أن نتحدث عن الملابــس؟ أنت تعتبر نفســك فناناً حــراً، فلماذا تعتدي علــى حرية الآخرين؟ ثــم اسمح لي أن اسألك لماذا تهاجم زويا إذا كنت تفكر بهذه الطريقة؟ الحديث عن الملابس وعن الورود يناسبها بشكل خاص.

احتــدم شوبين فجأة، ووثــب من على المسبطــة. وراح يقول بصوت متهدج:

– هكــذا اذن؟ أنا فاهم تلميحك. أنــت تريدين أن تعيديني إليها، يلينا نيقولايفنا. يعني أنا زائد هنا، بعبارة أخرى؟

– لم أفكر في ابعادك عن هنا.

فتابع شوبين يقول محتد المزاج:

– أنــت تريدين أن تقــولي أنا لا استأهل صحبة أخرى، وأنني لا أصلح إلا لها، فأنا فارغ وسخيف، وتافه، كتلك الالمانية المعسولة. أليس كذلك؟

قطبت يلينا حاجبيها. وقالت:

– لم يكن لك فيه هذا الرأي دائماً، يا بافل ياكوفليفيتش.

صاح شوبين:

– اهــا! توبيخ! توبيخ هذه المرة! طيب، نعم، كانت هناك لحظة، أنا لا انكــر، لحظة واحدة فقط، حين كان ذالك الخــدان الطريان، المبتذلان... ولكن لو كنت اريد أن ابادلك التوبيخ، واذكرك... وداعاً – اضاف فجأة – أنا مستعد أن اتخبط في الكذب.

وضــرب بيــده الرأس الذي صاغــه من الطــين، وخــرج راكضاً من التعريشة، ولاذ في حجرته.

قالت يلينا، وهي تشيعه بنظرها:

– طفل.

قال بيرسينيف بابتسامة خفيفة:

– فنــان. كل الفنانين بهذا الشكل. يجــب أن يسامحوا على نزاوتهم. هذا من حقهم.

قالت يلينا:

- نعم. ولكن بافل لم يأت حتى الآن بشيء يثبت له هذا الحق. ماذا صنع حتى الآن؟ هات يدك، ولنتمشى في الدرب المعرش. قطع بافل علينا حديثنا. كنا نتحدث عن مؤلف والدك.

تناول بيرسينيف يد يلينا، وسار وراءها في الحديقة، ولكن الحديث الذي استهل لم يستأنف، بعد أن قطع مبكراً جداً. عاد بيرسينيف يطرح من جديد تصوراته عن لقب الاستاذية، وعن نشاطه المقبل. كان يسير جنب يلينا ببطء، وبخطوات مرتبكة، ويمسك بيدها غير متمالك حركاته، يصدمها بكتفه أحياناً، و لم ينظر إليها قط. ولكن كلامه كان يجري بخفة وبطلاقة تامة تقريباً، وكان يعبر ببساطة وثقة. وكانت عيناه المطوفتان ببطء في جذوع الاشجار، ورمل الدرب والعشب، تشعان بالرقة الهادئة للمشاعر النبيلة، وصوته المطمئن يفصح عن فرحة إنسان يدرك أن التوفيق يحالفه في الاعراب عن نفسه أمام شخص آخر عزيز عليه. وكانت يلينا تصغي إليه بانتباه، وقد ادارت جسمها نحوه نصف استدارة، و لم تصرف بصرها عن وجهه الشاحب قليلاً، وعن عينيه الودودتين الوديعتين، المتحاشيتين في الوقت ذاته، الالتقاء بعينيها. وكانت روحها تتفتح، وتشعر بشيء رقيق عادل وطيب ينصب في قلبها، أو يتنامى فيه.

٥

ظل شوبين معتكفاً في حجرته حتى الليل. احلولك الظلام تماماً. وكان الهلال عالياً في السماء. وكانت المجرَّة قد طلعت، والنجوم شرعت تتوامض، حين ودَّع بيرسينيف آنا فاسيليفنا، ويلينا، وزويا، وتقدم من باب حجرة صديقه. وجد الباب مغلقاً، فأخذ يطرقه. فصدر صوت شوبين:

- من هناك؟

اجاب بيرسينيف:

– أنا.

– ماذا تريد؟

– بافل، دعني ادخل، لاتشاكس. كيف لا تخجل؟

– أنا لا أشاكس. أنا نائم واحلم بزويا.

– كفى، ارجوك. لستَ طفلاً. دعني ادخل، اريد أن اتحدث إليك.

– الم تشبع بعدُ حديثاً مع يلينا؟

– يكفي، يكفي، دعني ادخل!

رد شوبين بشخير مصطنع. هزَّ بيرسينيف كتفيه، وسار إلى البيت.

كانت الليلة دافئــة وساكنة سكوناً غير عادي وكان كل ما فيها يتسمع ويتربصـ. وكان بيرسينيف الذي شمله الظلام الساكن يتوقف دون ارادته ويتسمع ويتربص. وكان الحفيف الخافت الشبيه برفيف ثوب نسائي يرتفع مــن حين إلى آخــر في ذرى الاشجــار القريبة، ويثير في نفســ بيرسينيف احساســاً حلواً ومتوجساً، احساســاً في منتصف الطريق إلى الرهبة. سرى دبيــب القشعريرة على خديه، وتثلَّجت عيناه بدمعة خاطفة. فقد كان يود لو أنه يسير بلا صوت تماماً، يتخبأ، ينسل انسلالاً. مرَّت خفقة ريح حادة على جنبه، فكاد يجفل، وجمد في مكانه. وقعت خنفساء ناعسة من على غصــن، وارتطمت في الطريق. صاح بيرسينيف بخفوت: "ها!" وتوقف مــرة أخــرى. ولكنه شرع يفكــر في يلينا، فاختفت كل هــذه الاحاسيس العابــرة دفعة واحدة. ولم يبق إلا الوقع المنعشــ لطراوة الليل، لنزهة ليلية. وامتلأت روحــه كلها بصورة الفتاة. سار بيرسينيف مطرق الرأس، وراح يسترجع في ذاكرته كلماتهــا واسئلتها. وخيل إليه أنه يسمع وقع خطوت سريعة خلفه. ارهف سمعه. كان شخص يجري، ليلحق به. ترددت انفاس

متلاحقة، وفجأة طلع شوبين امامه من دائرة الظل السوداء لشجرة كبيرة، حاسر الرأس، منفوش الشعر، مقعاً بكليته في ضوء القمر. وراح يقول بصعوبة:

– أنا مسرور لأنك سلكت هذا الطريق. لو لم الحق بك لبقيت مسهداً طوال الليل. اعطني يدك. أنت ذاهب إلى البيت، أليس كذلك؟

– نعم.

– سأرافقك.

– ولكن كيف تسير حاسر الرأس؟

– لا بأس. وخلعت ربطة عنقي أيضاً. الجو دافئ الآن.

قطع الصديقان عدة خطوات. وسأل شوبين فجأة:

– كنتُ اليوم شديد الحماقة. أليس صحيحاً؟

– نعم، بصريح العبارة. لم استطع أن افهمك. أنا لم ارك بهذا الشكل قط. يا الله، ما الذي جعلك تغضب! من أجل مثل هذه التوافه؟

غمغم شوبين:

– حم. هذه طريقتك في التعبير، ولكن هذه ليست توافه بالنسبة لي. اسمع – اضاف قائلاً – يجب أن انبهك إلى اني... أني... ولك ان تظن بي ما تشاء... أنا... أي، نعم.. أنا مغرم بيلينا.

– مغرم بيلينا!

كرر بيرسينيف، وتوقف. فمضى شوبين يقول متصنعاً عدم المبالاة:

– نعم. وهل يدهشك ذلك؟ سأقول لك أكثر من هذا. أنني، حتى هذا المساء، كنت آمل بأنها ستحبني، هي الأخرى، مع مرور الزمن. ولكن اليوم اقتنعت بأن امنياتي خائبة، إذ أنها أحبت شخصاً آخر.

- شخصاً آخر؟ من هو؟

- مَن؟ احبتك أنت!

صاح شوبين، وضرب بيرسينيف على كتفه.

- احبتني!

كرر شوبين:

- احبتك.

تراجع بيرسينيف خطوة. وجمد بلا حراك. امعن شوبين النظر فيه بحدة.

- ويدهشك هذا، أيضاً؟ أنت فتى متواضع. ولكنها تحبك. وفي وسعك أن تطمئن بهذا الخصوص.

قال بيرسينيف أخيراً في ضيق:

- اي هراء تقول!

- لا، ليس هراء. على العموم، لماذا نحن واقفان؟ لنواصل السير. المشيء اخف عن النفس. أنا أعرفها منذ زمان، واعرفه بشكل جيد. ولا يمكن أن اخطأ. وقعت في قلبها موقعاً حسناً. في وقت ما كانت معجبة بي، ولكنني أولاً شاب طائش جداً بالنسبة لها بينما أنت مخلوق جدي، أنت شخصية نظيفة خلقياً وجسدياً، أنت... انتظر، أنا لم أكمل. أنت متحمس معتدل نقي الضمير ممثل حقيقي لكهنة العلم الذين تفخر بهم عن حق طبقة النبلاء الروس المتوسطي الحال! وثانياً، رأتني يلينا، قبل أيام، اقبل يد زويا.

- يد زويا؟

- نعم، يد زويا. فماذا تأمر أن افعل؟ كتفاها جميلتان.



– كتفاها؟

– نعم، كتفاها، يداها، هل هناك فرق؟ وجدتني يلينا وسط هذه الممارسات الحرة بعد الغداء، بينما كنت قبل الغداء اشتم زويا بحضورها. ويلينا، مع الاسف، لا تفهم كل مثل هذه التناقضات الطبيعية. وإذا بك تظهر هنا، أنت مثالي وتؤمن... على فكرة، بأي شيء تؤمن؟.. تحمر، وترتبك، وتتحدث عن شيللر، عن شيلينغ (وهي دائماً تبحث عن الناس المرموقين) فصار النصر حليفك، بينما أنا، التعيس، احاول أن امزح... و... في غضون ذلك...

وانفجر شوبين بالبكاء فجأة، وانتحى جانباً، وجلس على الارض، وانشب اصابعه في شعره.

اقترب بيرسينيف منه. وقال:

– بافل. ما هذه الطفولية؟ رحماك! ماذا بك اليوم؟ الله يعلم أية سخافة دارت في رأسك، وتبكي أيضاً. في الحقيقة يبدو لي أنك تتظاهر.

رفع شوبين رأسه. والتمعت الدموع على خديه في ضوء القمر، ولكن وجهه كان يبتسم. قال:

– اندريه بيتروفيتش، تستطيع أن تظن بي ما تشاء. بل ويمكن أن اوافق على انني الآن في حالة هستيريا، ولكنني اعشق يلينا، قسماً بالله، ويلينا تحبك. على العموم، وعدتك بأن ارافقك إلى البيت، وسأفي بوعدي.

ونهض.

– ما اروع الليل! فضياً، داجياً، فتيا! ما اطيب الوقت الآن للمحبوبين! وما ابهج سهرهم! هل ستنام، يا اندريه بيتروفيتش؟

لم يجب بيرسينيف، وغذ خطاه. ومضى شوبين يقول:

– إلى اين تستعجل؟ صدق بكلامي، لن تتكرر مثل هذه الليلة في

حياتـك، بينما ليس في انتظـارك في البيت غير شيلينغ. حقـاً أنه قدم لك خدمـة اليـوم، ولكـن لا تستعجل، على أيـة حال. غـنِّ، إذا كنت تحسن الغناء، وغنِّ بصوت أعلى، إذا كنت لا تحسنه؛ اخلع قبعتك، وادفع رأسك إلى الـوراء، وابتسم للنجوم. أنهـا جميعاً تصوب انظارهـا إليك، وإليك وحدك. النجوم لا تفعل شيئـاً غير النظر إلى العشاق، ولهذا السبب نراها بهـذه الفتنة. أنت عاشق، يا اندريه بيتروفيتش، أليس كذلك؟ لا تجيبني... لمـاذا لا تجيبني؟ – وعاد شوبين يقول – أوه، لـو كنت تشعر بأنك سعيد، فاصمـت، اصمت! أنا اثرثر، لأننـي عاثر الحظ، غير محبوب، حاوٍ، ممثل، بهلـوان، ولكن اي سرور صامت كنت سأشعر به في هذه النسائم الليلية، تحـت هـذه النجوم، تحـت احجـار الالماس هذه، لـو كنت أعـرف أنني محبوب!.. بيرسينيف، هل أنت سعيد؟

ظـل بيرسينيف علـى صمته، يسـير بسرعة في الطريـق المستوية. وإلى الأمـام كانت انـوار القرية التي يعيشـ فيها تتوامض مـن خَلَل الاشجار. وكانـت القرية كلها مؤلفة من عشرة بيوت ريفية صغيرة. وفي بداية القرية تمامـاً، إلى يمين الطريق، تحت شجرتي البتولا كثيرتي الفروع كان الحانوت الصغـير قد اغلـق كل نوافذه، ولكـن شريطاً عريضاً من النـور كان يرتمي كالمروحـة من بابه المفتوح، على العشـب المسحوق بالاقدام، ويسقط في الأعلـى على الشجرتين، مضيئـاً بقوة بطون اوراقهمـا المتكاثفة الضاربة إلى بياضـ. وكان ثمة فتاة، خادمة كما يـدل مظهرها، تقف في الحانوت مديرة ظهرهـا إلى العتبة، تماكس صاحب الحانـوت. وكان خدها المدور وعنقهـا الرقيق لا يكادان يبدوان من تحت المنديل الاحمر الذي القته على رأسهـا، واسندته بيدهـا العارية عند الذقن. دخل الشابـان شريط الضوء. نظر شوبين داخل الحانـوت، وتوقف، وهتف: "انوشكا!" التفتت الفتاة بخفـة، ولاح وجه حلو المحيّا عريض قليـلاً، ولكنه غض ذو عينين بنيتين مرحتين، وحاجبين اسودين. كرر شوبين: "آنوشكا!" امعنت الفتاة النظر

فيه، وارتعبت، وعلاها الخفر، ونزلت من درجات مدخل الحانوت، دون أن تكمل شراءهــا، وانسلت مارة بهما بخفة، وعبرت الطريق إلى اليسار، متلفتــة قليلاً. تنحنح الحانوتي، وتثاءب في أثرهــا. وكان رجلاً مترهلاً لا يكــترث لأي شــيء في الدنيا، مثل جميع أصحــاب الحوانيت الصغار في الضواحــي. بينما خاطــب شوبين بيرسينيف بهــذه الكلمات: "ها... ها أنت ترى... عندي عائلة اعرفها هنا... كما هو عندهم... لا يذهب بك الظن..." وركض وراء الفتاة المبتعدة دون أن يكمل كلامه.

صاح بيرسينيف في اثره:

- امسح دموعك، على الأقل.

و لم يستطــع أن يكبح ضحكته. ولكنه، حين عاد إلى بيته، لم يكن على وجهه أثر للمرح. و لم يضحك بعد. لم يصدق لحظة واحدة.بما قاله شوبين لــه، ولكن الكلمة التي نطــق بها نفذت عميقاً في قلبــه، وفكر مع نفسه: "بافل يستغفلني... ولكنها ستحب في وقت ما... فمن ستحب؟".

كان في حجرة بيرسينيف بيانو غير كبير ولا جديد، ولكن له نبرة ناعمة ولطيفة، وأن لم تكن صافية تماماً. جلس بيرسينيف إليه، وأخذ يضرب على مفاتيحــه. وكان مثل جميع النبلاء الروس قد تعلــم الموسيقى منذ الصغر، ومثل جميع النبلاء الروس تقريباً كان سيئاً في عزفه إلى درجة كبيرة، ولكنه كان كثير الولع بالموسيقى. في الواقع كان لا يحب في الموسيقى الفن، ولا تلــك الاشكال التي تعبر بها (كانت السيمفونيا والسوناته بل حتى الاوبرا تسلمــه إلى الضجر)، بــل كان يحــب عفويتها، يحب تلــك الاحاسيس المبهمة واللذيذة، الهائمة والشمولية التي يثيرها في النفس تآلف الاصوات وتنقلهــا من درجــة إلى أخرى. ظل أكثر من ساعة ملازمــاً البيانو، مكرراً عدة مرات نفس النغمات، باحثاً عن نغمات جديدة في غير اتقان، متوقفاً وجامداً على السباعيات المصغرة. وكان قلبه يئن، وعيناه تمتلئان بالدموع

غير مرة، ولم يخجل منها. فقد كان يسكبها في الظلام. ويفكر مع نفسه: "بافل على حق. أنا أشعر أن هذا المساء لن يتكرر". وأخيراً وقف، واشعل الشمعة، والقى الروب على كتفيه، وتناول من الرف المجلد الثاني لكتاب "تاريـخ أسرة هوغينشتاوفين" لراومـر، وزفر مرتين أو نحوهما، وانكب على القراءة بدأب.

٦

وفي أثناء ذلك كانت يلينا قد عادت إلى غرفتها، وجلست أمام النافذة المفتوحة، واسندت رأسها على يديها. صارت لها عادة الجلوس إلى نافذة غرفتهـا زهـاء ربع ساعة كل مسـاء. كانت تتحادث مـع نفسها في هذا الوقـت، وتراجع ما حصل في اليوم الجاري. قبل حين اتمت العشرين من عمرها. كانت طويلة القامة، شاحبـة الوجه بسمرة، وعيناها الوسيعتان الرماديتان تحت حاجبين مستديريـن كانتا محاطتين بنمش صغير، وانفها وجبينها مستقيمين تماماً، وفمهـا مطبقاً، وذقنها مستدقاً بدرجة معتبرة. وكانـت ضفيرتها الذهبية الداكنة تسـرح إلى الاسفل من جيدها الرقيق. وكان في كيانهـا كله، في تعبير وجهها المنتبه المرتعب قليلاً، وفي نظرتها الصافية والمتقلبة في الوقت ذاته، وفي ابتسامتها المتوترة، كما تبدو، وفي صوتهـا الهادئ، غـير المستوى في نبراتـه، شيء عصبـي، منفعل، شيء مندفـع عجول، وباختصار، شيء لا يروق لكل الناس، بل ينفر بعضهم. وكانت يداهـا ضيقتين، ورديتين، ذواتي اصابـع طويلة وكانت قدماها ضيقتين أيضاً. وكانت مشيتها سريعة، مندفعة تقريباً، في شيء من الميلان إلى الامـام. وقد نشأت نشـأة غريبة جداً. في البداية كانـت تعبد أباها، وبعـد ذلك تعلقـت بامها بهيام، ثم بـرد شعورها نحوهمـا كليهما، لا سيما نحـو الأب. وفي المدة الأخيرة كانت تعامـل أمها، وكأنها جدتها

المريضــة. وصار أبوها الذي كان يفتخــر بها، حين كانوا يعتبرونها طفلة غــير اعتياديــة، يخشاها حين كــبرت. وراح يقول عنهــا أنها جمهورية متحمســة، والله يعلم على مَن طلعــت! كان الضعف يضايقها، والحماقة تغضبها، والكذب لن تغفــره لأحد "ابد الآبدين". وكانت متطلباتها لا تتراجع أمــام أي شيء، وحتى الصلوات كانت تمزجهــا أحياناً بالتقريع. وحالما يفقد الإنسان احترامها - وكانت تكوّن رأيها بسرعة، وفي أحيان كثــيرة، بسرعة شديــدة جداً - حتى يكــف عن الوجــود بالنسبة لها.. وكانت كل الانطباعات تلتصق بقلبها بقوة. فالحياة ليست سهلة عليها.

كانــت المربية التــي عهدت آنا فاسيليفنــا إليها اكمــال تربية ابنتها - وهــذه التربيــة، ونضعها بين القوســين، لم تبدأها السيــدة الضجرة أمها أبــداً - مــن الروسيات، ابنة مرتشٍ قد افلس، وخريجــة معهد، مخلوقة شديدة الحساسية، طيبة، كاذبة. كانت تعشق من حين لآخر، حتى انتهى بهــا الأمر إلى أن تتزوج ١٨٥٠ (حين دخلــت يلينا سنتها الثامنة عشرة) ضابطاً، هجرها في الحال. وكانت هذه المربية شغوفة جداً بالأدب، تقوم بنظــم الشعر، وهي التي حببت القراءة إلى يلينا، ولكن القراءة لوحدها لم تكن ترضي يلينا، فقد كانت تتعطش إلى العمل والبرّ منذ الطفولة، وكان المتسولون والجياع والمرضى يشغلون بالهــا، ويثيرون قلقها ويسلمونها إلى العــذاب. كانــت تراهــم في احلامهــا، وتسأل عنهــم كل معارفها، وتقدم الاعانــات باهتمام، وبعظمــة لا إرادية، وبانفعــال تقريباً. وكان جميع الحيوانات المنبــوذة وكلاب الحراسة النحاف، والقطط المحكومة بالمــوت، والعصافير الساقطة من اعشاشها، وحتى الحشرات والزواحف تجــد عند يلينا الرعاية والحماية. كانت تطعمها بنفسها، ولا تقرف منها. وكانــت امها لا تمنعها، بينما كان أبوها يزعل على ابنته بسبب عاطفيتها المبتذلة، على حــد قوله، ويؤكد أن البيت مملــوء بالكلاب والقطط، ولا

محـط لقدم فيه. وكان يصيح عليها أحيانـاً: "لينوتشكا(٥)، هذا عنكبوت يبتلـع ذبابة، فتعالي بسرعة، وانقــذي الذبابة البائسة!" فكانت لينوتشكا تجري مذعورة تماماً وتحرر الذبابة من شراك العنكبوت وتنظف قوائمها. وكان أبوهــا يقــول متهكمــاً: "والآن، دعيها تلسعـك، إذا كنت بهذه الطيبــة". ولكنها لم تكن تصغي إليه. وعندمــا كانت في العاشرة تعرفت بفتاة متسولة تدعى كاتيا كانت تذهب للقائها في الحديقة سراً، تجلب لها الاطايب، وتهدي لها المناديل، والقطع النقدية من فئة العشرة كوبيكات، لأن كاتيــا لم تكــن تأخذ اللعــب. كانت تجلس إلى جانبهــا على الأرض الصلبة، في مــكان منعزل. وراء اجمة القرّاص، وتــأكل خبزها الناشف بشعــور الفرح المستكين، وتستمتــع إلى حكاياتها. وكانـت لكاتيا عمة، هــي عجوز حقــود، كثيراً مــا كانت تضربهــا. وكانت كاتيــا تكرهها، ولا تفتــأ تقول أنها ستهــرب منها، وتعيش طليقــة في أرض الله الواسعة وكانــت يلينا تنصت باحترام خفي وذعر في تلك الكلمات الجديدة التي لم تعهدهــا من قبل، وتتفرسـ في كاتيا، وعنــد ذاك كان كل شيء فيها، عيناهــا السوداوان السريعتان مثل عيني وحش صغير، ويداها الملوحتان، وصوتهــا النحيل الكامد، وحتــى ثوبها الممزق يبدو ليلينا غير عادي وله لون خاص ويكاد أن يكون مقدساً. وكانت يلينا تعود إلى البيت، وتفكر طويــلاً، بعد ذلــك، في المتسولين، في أرض الله الواسعـة، وتفكر كيف ستقطع لها عصا من شجرة جوز، وتضع جرابها على كتفها، وتهرب مع كاتيــا، وكيف ستضرب في الطرقات، وعلى رأسها اكليل من القنطريون العنــبري، مثل ذلك الــذي رأته على كاتيا ذات مرة. وكان إذا دخل أحد من أهلها غرفتها، في ذلك الوقت، كانت تنكمش، وتتعبس. وذات مرة هرعــت للقيا كاتيا، والمطر منهمــر، فتوسخ ثوبها، ورآها أبوها، وعيرها

---

(٥) صيغة تدليل من اسم يلينا. المترجم.

بأنهـا بنت قـذرة، فلاحـة. فصعد الـدم إلى وجهها، وجثـم على قلبها شعـور بالرعب والهناءة. كانت كاتيا كثيراً ما تغني أغنية خشنة من اغاني الجنـود. وقد تعلمتها يلينا منها... سمعتها آنـا فاسيليفنا تغنيها، فاستولى عليها الغيظ. وسألتها:

– من أين جئت بهذه الوضاعة؟

فاكتفـت يلينـا بالنظـر إلى امهـا، و لم تحر جوابـاً. فقـد أحست بأن تقطيعهـا اربـاً اهون عليها مـن البوح بسرهـا، وعاد إلى قلبهـا الشعور بالرهبـة والعذوبة معاً. وعلى أية حال، لم تستمر صحبتها لكاتيا طويلاً. فقد اصابت الحمى هذه الفتاة المسكينة، وتوفيت بعد بضعة أيام.

وعندما سمعت يلينا بوفاة كاتيا افتقدتها كثيراً وتأرق كثيراً في الليل. وظلـت آخر كلمات المتسولة ترن في اذنيها بلا انقطاع، بل وكان يخيل إليها أنها تسمع صوتاً يناديها...

وتتابعـت الاعوام، ومرَّ صبـا يلينا سريعاً وغير ملحـوظ كالمياه تحت طبقـة الجليد، خامـلاً من الخـارج، بينما هو في صـراع واضطراب في الداخـل. و لم تكـن لهـا صديقات، فهـي لم تصادق واحـدة من جميع الفتيـات اللاتي كن يـترددن على بيـت آل ستاخـوف. و لم تثقل سلطة الوالديـن على يلينـا قط، حتى أنها اصبحت، وهـي في السادسة عشرة، في كامـل الاستقلال تقريباً فعاشت حياتهـا الخاصة لكنها حياة وحيدة. وكانـت نفسها تهفو وتخمد وحيدة. كانت قلقـة مثل طائر في القفص وأن لم يكن للقفص وجود، و لم يمنعها أحد، ولكنها كانت تتحرق شوقاً، وتتعذب. و لم تكن هي نفسها تفهم أحياناً ذاتها، بل كانت تخاف منها. كان كل شـيء يحيـط بها يبدو لها فاقـد المعنى أو غـير مفهوم. وكانت تفكر: "كيـف سأعيش بدون حب؟ ولكن لا أحد أحبه!" فترعبها هذه الافكار، هـذه الاحاسيس. وكادت حمى خبيثة أن تودي بها، وهي في

الثامنــة عشرة، وظل كيانهــا يصراع زمناً طويــلاً، وإن كان معافى وقوياً بطبيعتــه، ولكنه هزَّ مــن الاساس. وأخيراً اختفت عقابيــل الداء. ولكن أباهــا مــا زال يتحدث عن أعصابها بشيء من الحنــق. أحياناً كان يخطر في ذهنهــا أنها تريــد شيئا لا يريده أحد ولا يفكر فيــه في كل روسيا. ثم هــدأت، بل وضحكت مــن نفسها، وراحت تقضي الأيــام خليّة البال، ولكــن شيئاً قويــاً لا اسم له، صار فجأة يغلــي في داخلها، دون أن تقدر علــى مقاومته، حتى ليكاد يطفح إلى الخارج. ومرَّت العاصفة، وارتخى جناحاها بتعب قبل أن يطيرا بها، ولكن هذه العواصف خلفت أثراً فيها. ومهما حاولت أن تخفي ما كان يجري في داخلها فقد كان الاضطراب والوحشــة المعتملة في صدرها تظهر حتــى في هدوئها الظاهري، وكان أهلهــا غالبــاً ما كانوا على حق، حــين يهزون اكتافهــم، في دهشة، غير فاهمين سرَّ "غرابة اطوارها".

في اليــوم الذي بدأت فيه قصتنا ظلت يلينــا ملازمة النافذة أطول من المعتــاد. فكرت طويــلاً في بيرسينيف، وفي حديثها معــه. لقد راق لها. صدّقــت بدفء مشاعره، ونقاء مقاصده. وكان من قبل لم يتحدث إليها قط كما تحدث في ذلك المساء. تذكرت تعبير عينيه المتهيبتين، وابتسامته، وكانــت هي الأخرى تبتسم، وتستغرق في التفكير، ولكنها لم تعد تفكر فيه. اخذت تحدق "في الليل" من خلال النافذة المفتوحة. وحدقت طويلاً في السمــاء القائمة الواطئــة. ثم نهضت، وازاحــت شعرها عن وجهها بحركــة مــن رأسهــا، ودون أن تعرف السبــب، مدَّت إلى هــذه السماء ذراعيها العاريتين المتجمدتين، ثــم اسبلتهما، وركعت على ركبتيها أمام سريرها، وضغطت وجهها علــى الوسادة، وراحت تبكي بدموع غريبة محيرة لكنها حارقة رغم كل جهودها لكبت العاطفة المسيطرة عليها.

٧

في نحـو الساعة الثانية عشرة مـن اليوم التالي اتخـذ بيرسينيف العربة العائدة إلى موسكو. فقد كان بحاجة إلى تسلم نقود من البريد، وشراء بعض الكتب، كما كان يريد أن ينتهـز الفرصة، ويلتقي باينساروف، ويتحدث إليه. فقد عنَّ له، أثناء حديثه الأخير مع شوبين، أن يدعو اينساروف إلى بيته الريفـي. إلا أنه لم يعثر عليه بسرعة، فقد انتقل اينساروف من شقته القديمة إلى شقة لم يكن الوصول إليها سهلاً. كانت تقع في فناء خلفي لبيت آجري قبيح، شُيد على الطراز البطرسبورغي بين اربات وشارع بوفارسكيا. راح بيرسينيـف ينتقل بـدون جدوى من مدخل بيت قـذر إلى آخر، ويستفهم عبثاً من بواب تارة، ومن "مستطرق" تارة أخرى. في بطرسبورغ يحاول البوابـون تحاشـي نظرات الزائريـن، إلا أنهم في موسكو أكـثر تحاشياً. لم يستجب أحد لبيرسينيف، سوى خياط فضولي ليس عليه غير صدار، وشلة من الخيوط الرمادية متدلية مـن كتفه، اطل صامتاً من فتحة شباكه العالية، بوجهـه الكابي غير الحليق وعينه المكدومـة، وسوى ماعز اسود بلا قرون التفـت إليه، وهو فوق كومة من الزبالة، وارسـل ثغاء شاكياً، وصار يجتر طعامه أسرع من ذي قبل. وأخيراً اشفقت على بيرسينيف امرأة في معطف قديم وحذاء بـالٍ، واشارت له إلى شقة اينسـاروف. وجده بيرسينيف في البيـت. وكان اينسـاروف يستأجر غرفة من نفس الخيـاط الذي نظر من فتحـة الشبـاك في كثير من اللامبـالاة إلى ورطة رجل ضائـع، وهي غرفة كبـيرة تكاد تكـون فارغـة، ذات جدران خضـراء داكنة، وثـلاث نوافذ مربعـة، فيها سرير صغير موضـوع في ركن، واريكة جلدية في ركن آخر، وقفصـ ضخم متدل قـرب السقف تماماً، كان مـأوى لبلبل في وقت ما. وحالمـا اجتاز بيرسينيف عتبة الباب، حتى اقبـل اينساروف للقائه، ولكنه لم يهتـف: "أها، هذا أنت!" أو: "اوه، يا إلهي! أية مصادفة؟" بل لم يقل

حتـى "مرحباً"، بل شد على يده فقط، وقـاده إلى المقعد الوحيد الموجود في الغرفة. وقال له:

– اجلس.

وجلـس هو على حافة الطاولة. واضاف اينساروف وهو يشير إلى تل من الاوراق والكتب على الأرض:

– هـا أنت ترى ما تـزال هناك فوضى، و لم ارتب اموري، كما ينبغي. لم يتح لي الوقت.

كان اينساروف يتكلم الروسيـة بطريقة سليمة جداً، ناطقاً، كل كلمة بقـوة وصفاء، ولكـن صوته الحنجري، واللطيف في الوقـت ذاته فيه رنَّة غـير روسيـة. وكان اصله الاجنبـي (كان بلغاري المولـد) يظهر بوضوح أكـثر في مظهـره الخارجي. كان شاباً في نحو الخامسـة والعشرين، نحيفاً ومعروفاً، ذا صدر غائص، ويدين معقَّدتين، وقسمات وجه حادة، وانف معكـوف، وشعر سبـط أسود فاحـم، وجبهة صغـيرة، وعينين صغيرتين غائصتـين متفرستين، وحاجبين كثيفـين، وكانت أسنانـه البيضاء الجميلة تلوح للحظة، حين يبتسم، من بـين شفتيه النحيلتين القاسيتين المرسومتين بدقة بالغة. وكان يلبس سترة قديمة، ونظيفة مزررة إلى الرقبة.

سأله بيرسينيف:

– لماذا انتقلت من منزلك السابق؟

– هذا ارخص، واقرب إلى الجامعة.

– ولكـن الآن عطلة... ثم ما هذه الرغبـة في العيش في المدينة صيفاً! كان الاحرى بك أن تستأجر بيتا ريفياً، ما دمت قد عزمت على الانتقال.

لم يرد اينساروف بشـيء على هذه الملاحظة، وقدم لبيرسينيف غليونه قائلاً: "ارجو المعذرة، لعدم توفر السيكائر والسيغار لديّ".

اشعل بيرسينيف الغليون. ومضى يقول:

– ها أنا قد اجرت بيتاً صغيراً قرب كونتسوفو. رخيص، ومريح جداً. بل عندي حجرة زائدة في الأعلى.

ومرة أخرى لم يرد اينساروف بشيء.

مصَّ بيرسينيف نفساً من غليونه، وعاد يقول نافثاً خيطاً رفيعاً من الدخان.

– بل قلت لنفسي: ما الطف لو رغب أحد من الناس... أنت مثلاً كما دار في ذهني... لو وافق أن يسكن في تلك الحجرة في الأعلى. ما رأيك، يا دميتري نيكانوريتش؟

رمقه اينساروف بعينيه الصغيرتين.

– أتقترح عليَّ أن أعيش معك في البيت الريفي؟

– نعم، عندي في الأعلى حجرة زائدة.

– أنا شاكر لك كثيراً، يا اندريه بيتروفيتش، ولكن اعتقد أن مواردي لا تسمح لي بذلك.

– كيف هذا، لا تسمح؟

– لا تسمح بأن اعيش في بيت ريفي في الضواحي. من المستحيل أن ادفع أجرة مسكنين.

– ولكنني... – شرع بيرسينيف يقول وتوقف، ثم مضى يقول – لن يكلفك ذلك أي مصرف زائد. لنقل ستظل هذه الحجرة مؤجرة لك، وفي المقابل سيكون كل شيء رخيصاً جداً في الريف. بل يمكن أن نعد طعامنا سوية، على سبيل المثال.

صمت اينساروف. وشعر بيرسينيف بالحراجة. وبعد برهة شرع يقول:

– علـى الأقل زرني في أحد الاوقات. على مقربة دانية مني تقيم عائلة كـم أود أن اعرفك بها. ليتـك تعرف يا اينساروف، أية فتاة رائعة في هذه العائلـة! ثم هناك صديق قريـب اليَّ، إنسان ذو موهبة كبيرة، وأنا واثق من أنك ستصادفه. (الروسي يعرض عليك معارفه، إذا لم يكن لديه ما يضيفك عليـه) تعال، حقاً. والافضل من ذلك أن تنتقل إلينا. حقاً. اذن، لاستطعنا أن نعمل سويـة ونقرأ سوية.. أنت تعرف أنني ادرس التاريخ والفلسفة. وأنت تهتم بكل ذلك. ثم أن لدي كتباً كثيرة.

نهض اينساروف، وصار يذرع الغرفة. وأخيراً سأل:

– هل لي أن اعرف كم تدفع ايجاراً لبيتك الريفي؟

– مائة روبل فضي.

– وكم غرفة فيه؟

– خمس.

– يعني حسابياً كل غرفة بعشرين روبلاً؟

– حسابياً... ولكنني لا احتاج إليها اطلاقاً. وستظل فارغة.

– ربمـا، ولكن اسمـع – اضاف اينساروف بحركة مـن رأسه قاطعة، وسمحـة في الوقت ذاته – لا أستطيع أن اقبل اقتراحك، إلا إذا قبلت أنت أن تأخذ النقود مني وفق الحساب. في مقدوري أن ادفع عشرين روبلاً، لا سيما أنني سأقتصد فيما عدا ذلك، حسب اقوالك.

– بالطبع. ولكنني، في الحقيقة، خجلان.

– وإلا لا يجوز، يا اندريه بيتروفيتش.

– حسب ما تشاء. ولكن كم أنت متصلب!

ومرة أخرى لم يرد اينساروف بشيء.

واتفق الشابان على اليوم الذي ينبغي أن ينتقل اينساروف فيه. واستدعيا صاحـب البيت، إلا أن هذا اكتفى، في البدايـة، بارسال إبنته، وهي صبية في نحـو السابعة من العمر، تضع على رأسها منديلاً زاهياً كبيراً. استمعت إلى كل مـا قاله اينساروف بانتباه، وبشيء مـن الفزع، وخرجت صامتة. وعلى أثرها ظهرت امها، وهي حامل في شهرها الأخير، تضع على رأسها منديلاً أيضـاً، ولكنه صغير جداً. واوضح لها اينسـاروف أنه سينتقل إلى بيت ريفي قـرب كونتسوفو، ولكنه سيبقي الغرفة علـى حسابه، ويأتمنها علـى كل اغراضه، وبدا الفزع على زوجـة الخياط أيضاً، وانصرفت أخيراً جاء صاحب البيت، وبدا أنه فهم كل شيء في أول الأمر، سوى أنه قال في سهـوم: "قرب كونتسوفو؟"، ثم فتح الباب فجأة، وراح يصرخ: "الغرفة تبقى على حسابك؟" وهدأه اينساروف فكرر الخياط بحدة: "لأنني اريد أن اعرف"، وانصرف.

عاد بيرسينيف إلى بيته راضياً جداً على نجاح اقتراحه. رافقه اينساروف إلى البـاب بلطف وادب قـلَّ أن يؤدي في روسيا، وحين بقي وحده، خلع سترته بحرص، وأخذ يصف اوراقه.

٨

في مسـاء ذلك اليوم جلست آنا فاسيليفنا في حجرة الجلوس في بيتها، وهـي توشك أن تبكي. وكان في الحجرة، فيما عداها، زوجها، وشخص يدعى اوفـار ايفانوفيتش ستاخـوف، هو أحد اقارب زوجهـا البعيدين، ضابـط متقاعـد في الستين من العمـر، سمين إلى حد الجمـود، ذو عينين ناعستـين صفراوين، وشفتـين سميكتين بلا لون في وجـه منتفخ اصفر. وكان منـذ تقاعده يعيش دائماً في موسكو من فوائد رأسمال صغير خلفته له زوجته، وهي من عائلة تجار. وكان لا يفعل شيئاً، ومن المستبعد أنه كان

يفكر، وحتى إذا فكر، فقد كان يحتفظ بافكاره في سره. مرة واحدة فقط انفعـل في حياته، وابدى نشاطاً، أي أنه قرأ في الجرائد نبأ عن آلة موسيقية جديـدة في معرض لنـدن الدولي تدعى "كونتروبومبـاردون" ورغب أن يوصـي عليها، بل وراح يسأل إلى أين يرســل النقود، وبوساطة أية دائرة؟ وكان اوفـار ايفانوفيتش يرتدي سترة فضفاضة بلون التبغ، ومنديلاً أبيض حـول رقبته، وكان يأكل مـرات عديدة وبكميات كبـيرة، وفي الحالات الحرجـة فقط، أي حـين يتعين عليه أن يبدي رأيـاً، كان يحرك اصابع يده اليمنى في الهواء بارتعاص – ابتداء من الابهام حتى الخنصر، وبعد ذلك من الخنصر حتى الابهام، قائلاً بتعسر: "بالاحرى... على نحو ما، ذاك...".

كان اوفار ايفانوفيتش جالساً في مقعد وثير قرب النافذة يتنفس بضيق. وكان نيقولاي ارتيميفيتش يذرع الحجرة بخطى كبيرة، وقد حشر يديه في جيبيه، وارتسم على وجهه عدم الرضى.

وأخيراً توقف، وهز رأسه. وقال:

– أجـل، في زماننا كانت تربية الشبان تختلـف. ولم يكونوا يبيحون لانفسهم الاستهانة بالشيوخ (لفظ النون من انفه على طريقة الفرنسيين). والآن انظـر فيمـا حـولي، ولا يسعنـي إلا أن اندهشـ. ربمـا لست على صواب، وهم الذيـن على صواب، ربما. ومع ذلك فأن لي نظرتي الخاصة إلى الاشياء. فلست اهبل بالولادة. ما رأيك في هذا، يا اوفار ايفانوفيتش؟

اكتفى اوفار ايفانوفيتش بأن نظر إليه، وحرك اصابعه. ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول:

– يلينـا نيقولايفنـا، مثلاً، لا افهمها تماماً. فأنـا بالنسبة لها لست على درجـة كافية من السمو. وقلبها من السعة بحيـث يحتضن الطبيعة كلها، إلى أصغـر صرصـار أو ضفدعـة، وباختصار، يحتضن كل شـيء باستثناء ابيهـا الذي انجبهـا. طيب، رائع، أنا اعرف ذلـك، ولا احشر نفسي. لأن

في ذلك اعصاباً، ودرجة عالية من التعلم، وافكاراً سامية. وكل ذلك ليس من اختصاصي. ولكن السيد شوبين، وليكن فناناً مدهشاً غير اعتيادي، فليس ذلك موضع جدالي، إلا أنه يستهين بمن هو أكبر سناً منه، ويمكن أن يقال أيضاً، بمن يدين له بالكثير، على أية حال. وهذا ما لا استطيع أن اسمح به dans mon gros bon sens[٦] واعترف بذلك. ولست متصلباً في طبيعتي. ولكن لكل شيء حده.

دقت آنا فاسيليفنا الجرس بانفعال، فدخل الصبي الخادم. قالت:

– لماذا لا يأتي بافل ياكوفليفيتش؟ يعني، لماذا لا يأتي وقد استدعيته؟

هز نيقولاي ارتيميفيتش كتفيه.

– ولكن لماذا تريدين استدعاءه؟ أنا لا اطلب ذلك مطلقاً، بل ولا ارغب فيه.

– كيف لماذا، نيقولاي ارتيميفيتش؟ هو الذي ضايقك، ولربما اعاق دورة علاجك. اريد أن استوضحه. أريد أن اعرف بم استطاع أن يثير غضبك؟

– اكرر لك أنني لا اطلب ذلك. ما هذا الهوس... devant les domestiques[٧]

احمرت آنا فاسيليفنا قليلاً.

– عبثاً أن تقول ذلك، يا نيقولاي ارتيميفيتش. أنا مستحيل... devant... les domestiques...... اذهب، فيديوشكا، وأتِ ببافل ياكوفليفيتش إلى هنا، حالاً...

---

(٦)مع كل ما املك من الادراك السليم (بالفرنسية في الأصل).

(٧) أمام الخدم (بالفرنسية في الاصل).

خرج الصبي الخادم.

– لا حاجـة إلى كل ذلك مطلقاً – قال نيقولاي ارتيميفيتش من خلال اسنانه، وعاد يذرع الحجرة – لم يكن هذا غرضي من كلامي.

– وكيف. يجب أن يعتذر Paul امامك.

– لا، وما حاجتي إلى اعتذاراته؟ ثم ما هي الاعتذارات؟ كلها اقوال.

– وكيف ما الحاجة؟ يجب أن نرده إلى الصواب.

– رديـه أنـت إلى الصواب. فهـو يطيعك أكثر. أما أنـا فليس لي عتب عليه.

– لا، يا نيقـولاي ارتيميفيتش، أنت اليوم متعكر المزاج منذ قدومك. بل اراك تنحف في المدة الأخيرة. اخشى أن دورة علاجك لا تساعدك.

قال نيقولاي ارتيميفيتش:

– دورة العلاج ضرورية لي. كبدي ليست على ما يرام.

وفي تلـك اللحظـة دخل شوبـين. وكل يبدو متعباً. وكانـت ابتسامة خفيفة وساخرة بعض الشيء ترف على شفتيه قال:

– هل طلبت مجيئي، يا آنا فاسيليفنا؟

– نعم، طلبت، طبعاً. لا، يا Paul، هذه فظاعة. أنا مستاءة منك كثيراً. كيف يمكنك أن تستهين بنيقولاي ارتيميفيتش؟

– وهل تشكى لك نيقولاي ارتيميفيتش مني؟

سأل شوبين ذلك، ونظر إلى ستاخوف بنفس تلك الابتسامة الساخرة.

استدار هذا، واطرق ببصره.

– نعـم، اشتكى. أنا لا اعـرف بم اذنبت في حقـه، ولكنك يجب أن تعتذر حالاً، لأن صحته منحرفة جـداً الآن، وأخيراً، يجب علينا جميعاً،

ونحن في سن الشباب، أن نحترم اصحاب الافضال علينا.

"آه، يا للمنطق!" – فكر شوبين، ووجه كلامه إلى ستاخوف.

– أنا مستعد للاعتذار إليك، نيقولاي ارتيميفيتش – قال بانحناءة احترام خفيفة – إذا كنت قد اساءت إليك بشيء حقاً.

– أنا اطلاقاً... لست – رد نيقولاي ارتيميفيتش، وهو يتحاشى النظر إلى شوبين كالسابق – على العموم، اسامحك بطيب خاطر، لأنني، كما تعلم، لست إنساناً متصلباً.

قال شوبين:

– اوه، هذا ليس موضع شك مطلقاً. ولكن اسمح لي أن استفسر: هل تعرف آنا فاسيليفنا ما يشكل ذنبي ازاءك؟

قالت آنا فاسيليفنا:

– لا، أنا لا اعرف شيئاً.

واشرأبت بعنقها. فاسرع نيقولاي ارتيميفيتش يهتف:

– اوه، يا ربي! كم مرة ترجيت، وتوسلت، كم مرة قلت: ما ابغض كل هذه الايضاحات والتمثيليات على نفسي! مرة في العمر يأتي الإنسان إلى بيته، ويريد أن يستريح – والناس تقول محيط عائلي، interieur[٨]، والإنسان يجب أن يكون وسط عائلته – ويجد أمامه التمثيليات والمنغصات. ولا لحظة راحة. فالإنسان مضطر إلى أن يذهب إلى النادي... أو إلى مكان آخر. والإنسان كائن حيّ، ولكيانه العضوي مطالب، بينما هنا...

---

(٨) المقصود هنا جو راحة في البيت (بالفرنسية في الأصل).

ولم يتم نيقولاي ارتيميفيتش كلامه، وخرج بسرعة وصفق الباب. وراقبته آنا فاسيليفنا، وهو يخرج. وهمست بمرارة:

– إلى النادي؟ أنت لا تذهب إلى هناك، أيها الطائش! لا أحد في النادي تهدي إليه الخيول من مجموعتي، وخيول رمادية فضلاً عن ذلك! اللون المفضل لدي. نعم، نعم، أيها الرجل المستخف – اضافت بعد أن رفعت صوتها – أنت لا تذهب إلى النادي. أما أنت، يا Paul – قالت ذلك واقفة – كيف لا تخجل من نفسك؟ لا اظنك طفلاً صغيراً. والآن صار رأسي يوجعني. هل تعرف أين زويا؟

– يبدو أنها في حجرتها في الأعلى. الثعلبة الحصيفة الصغيرة تلك تلوذ دائماً في جحرها، في مثل هذا الطقس.

– طيب، ارجوك، ارجوك – وراحت آنا فاسيليفنا تبحث فيما حولها – هل رأيت القدح الذي اضع فيه الفجل الحار المدقوق؟ Paul، اعمل معروفاً، ولا تجعلني اغضب في المستقبل.

– كيف يمكن أن اغضبك، يا عمة؟ اعطيني يدك لاقبلها. أما فجلك الحار فقد رأيته على المنضدة الصغيرة في غرفة مكتبك.

– داريا دائماً تنساه في مكان ما.

قالت آنا فاسيليفنا، وخرجت مع حفيف ثوبها الحريري.

اراد شوبين أن يتبعها، ولكنه توقف، بعد أن سمع وراءه صوت اوفار ايفانوفيتش البطيء.

قال الضابط المتقاعد مباعداً بين الكلمات:

– ما كان... تعامل... هكذا... يا رضيع.

اقترب شوبين منه.

– على أي شيء أُعامل، يا اوفار ايفانوفيتش المحمود الخصال؟

– على أي شيء؟ أنت شاب. يعني إحترم. نعم.

– احترم مَن؟

– مَن؟ معروف من. لا تكشر، هيه.

صالب شوبين ذراعيه على صدره. وهتف:

– آه منك، يا ممثل مبدأ المشاعة الفلاحية. أنت قوة الأرض السوداء، أساس الصرح الاجتماعي!

شرع اوفار ايفانوفيتش يحرك اصابعه.

– كفى، يا اخ، لا تثيرني.

ومضى شوبين يقول:

– هذا نبيل تخطى سن الشباب، على ما يبدو، ولكن أي إيمان طفولي سعيد ما يزال يكمن فيه! احترم! ولكن هل تعرف، أيها الرجل العاطفي، السبب في غضب نيقولاي ارتيميفيتش علي؟ لأنني قضيت معه صباح اليوم كله عند صاحبته الالمانية، واليوم غنينا، ثلاثتنا: "لا تبتعدي عني". فليتك سمعتنا. يبدو أن ذلك يؤثر فيك. غنينا، يا سيدي، غنينا. ولكن شعرت بالوحشة، بعد ذلك، إذ رأيت الأمر ليس على ما يرام، والعواطف الرقيقة أكثر من اللازم. فاخذت اناكدهما كليهما. وكانت النتيجة جيدة. في البداية غضبت الالمانية عليَّ، وبعد ذلك عليه، وبعدها غضب هو عليها، وقال لها إنه سعيد في بيته فقط، وأن الجنة هناك، في بيته. فقالت له أنه بلا خلق، فقلت لها: "آخ" بالالمانية. وخرج هو، وبقيت أنا. وجاء إلى هنا، اقصد، إلى الجنة، وإذا به يقرف من الجنة. وهكذا أخذ يتذمر.. طيب، والآن، من المذنب، في رأيك؟

قال اوفار ايفانوفيتش:

– أنت، بالطبع.

تفرس شوبين فيه. وشرع يقول بصوت متذلل:

– هل لي أن اتجـرأ واسألك، أيها الفارس المحترم: هل هاتان الكلمتان الغريبتان اللتان تكرمت بقولهما كانتا نتيجة لفعل قابليتك على التفكير، أم استجابة غريزية لحاجة فجائية في أن تنطق بشيء يهز الهواء يسمى صوتاً؟

قال اوفار ايفانوفيتش كالمتأوه:

– قلت... لا تثيرني...

أخذ شوبين يضحك، وخرج مسرعاً.

– أي – نطق اوفار ايفانوفيتش بعد ربع ساعة – هات... قدح فودكا.

جلب الصبي الخادم الفودكا والمزة على صينية. تناول اوفار ايفانوفيتش قدح الفـودكا من الصينية بهدوء. ونظر إليه باهتمام مشدد، ولمدة طويلة، وكأنه لا يفهم بشكل واضح ماذا في يده. ثم نظر إلى الصبي الخادم، وسأله هـل اسمه فاسكا؟ ثم اتخذ سمت المغموم، وشرب الفودكا، وتمزز، ودس يـده في جيبه ليخرج المنديـل. ولكن الصبي الخادم كان قـد عاد بالصينية والقـارورة إلى مكانهما منذ وقت طويل، ولحق أن يأكل الرنجة المتبقية من المـزة، وأن يغط في سنة من النوم سانـداً ظهره إلى معاطف اسياده، واوفار ايفانوفيتش مـا زال ممسكاً بمنديله أمامه، علـى اصابعه المتباعدة، ينظر في النافذة تارة، وإلى أرض الحجرة وجدرانها في نفس الاهتمام المشدد.

٩

عـاد شوبـين إلى مسكنـه في ملحق البيـت، وفتح كتابـاً. دخل خادم نيقـولاي ارتيميفيتش الشخصي إلى غرفته بحذر، وقدم له مذكرة صغيرة ثلاثيـة الشـكل مختومة بختم ضخـم يمثل شعار العائلـة. وقد جاء في هذه المذكرة: "آمل بأنـك، كرجل نزيه، لن تبيح لنفسك التلميح، حتى بكلمة

واحـدة، إلى السنـد النقدي الذي اشـير إليه اليوم صباحـاً. فأنت تعرف علاقاتـي، والقواعـد التـي اتبعهـا، وضآلة المبلـغ نفسه، وغـير ذلك من الظـروف. وأخيراً، هناك اسرار عائلية يجب احترامها، والطمأنينة العائلية شـيء مقدس لا يذكـره إلا êtres sans coeur[٩]، وليس لي سبب في أن اعدك منهم (ارجو أن تعيد لي هذه المذكرة) ن.س.".

كتب شوبين بقلم الرصاص في الاسفل: "لا تقلق، فأنا ما ازال لا استل المناديل من الجيـوب" وأعاد المذكرة إلى الخادم، واستمر في قراءته. ولكن الكتاب سرعان ما انزلق بين يديه. نظر إلى السماء الآخذة بالتوهج بحمرة المسـاء، وإلى شجرتي الصنوبـر الفتيتين الضخمتـين المنتصبتين بمعزل عن الاشجـار الأخرى، وفكر مع نفسه: "أشجـار الصنوبر ضاربة إلى الزرقة في النهـار، ولكنها بهذه الخضرة الرائعـة في المساء"، وخرج إلى الحديقة، بأمل خفي في أن يلتقي يلينا. و لم يخدعه أمله. فقد لاح فستانها في الطريق إلى الامام بين الاجمات. لحق بها، ولما حاذاها، قال:

- لا تنظري في ناحيتي. فأنا لا استحق.

القت عليه نظرة خاطفة، وابتسمت ابتسامة خاطفة، وواصلت سيرها في أعماق الحديقة. فمضى شوبين في أعقابها. وقال:

- ارجـوك أن لا تنظري اليَّ. ومع ذلك فأنـا اتحدث إليك. وتلك هي ظاهـرة متناقضة تمامـاً! ولكن هذا لا يهم. ليست هذه أول مرة يحدث لي ذلك. تذكرت هذه اللحظة أنني، حتى الآن، لم اسألك صفحاً، كما ينبغي، عن تصرفي الاحمق يوم أمس. الست غاضبة عليَّ، يا يلينا نيقولايفنا؟

توقفت، ولكنها لم تجبـه على الفور، لا لأنها غاضبة، بل لأن أفكارها

---

(٩) الذين لا قلب لهم (بالفرنسية في الأصل).

كانت بعيدة عنه. وأخيراً قالت:

– لا، لست غاضبة، البتة.

عض شوبين على شفته. وغمغم:

– اي وجـه مستغـرق لامبالٍ – ثم مضـى يقول رافعاً صوتـه – يلينا نيقولايفنـا، اسمحـي لي بأن اقص عليك حادثة صغـيرة. كان لي صديق، وكان لهذا الصديق صديق أيضاً. كان في بادئ الأمر، يتصرف كما يجدر بإنســان معتبر، وبعد ذلك صار يسرف في الشـرب. وفي صباح باكر من أحـد الايام التقـاه صديقي في الشـارع (وكانت علاقتهمـا قد انقطعت ولاحظي ذلـك)، التقاه ورآه سكران، فصـدَّ صديقي عنه. ولكن الرجل دنـا منه وقال: "ما كنت سأزعل لـو لم تسلمْ عليَّ، ولكن لماذا تصد عني؟ ربما سكرت لأنني في ضائقة. ويتغمدني الله برحمته!".

وصمت شوبين. فسألت يلينا:

– هذا فقط؟

– فقط.

– أنا لا افهمك. إلى أي شيء تغمز؟ قبل لحظة كنت تقول لي لا تنظري في ناحيتي.

– نعم، وقلت لك الآن: الصدُّ غير لطيف.

فشرعت يلينا تقول:

– ولكن هل معقول أنني...

– غير معقول؟

احمرت يلينا قليلاً، ومدت يدها لشوبين، فصافحها بقوة. قالت يلينا:

– كأنما ضبطتني بشعور سيء أزاءك. ولكنك غير منصف في ارتيابك. لم يخطر في بالي أن اتجنبك.

– وليكـــن، وليكن. ولكن يجب أن تقري بأن آلافاً من الافكار تدور في رأسك الآن، فلا تأتمنيني على أي واحد منها. ها؟ ألست اقول الحقيقة؟

– ربما.

– ولِمَ ذاك؟ لِمَ؟

قالت يلينا:

– افكاري ليست واضحة حتى لي.

فاهتبلها فرصة ليقول:

– ولهـــذا بالـــذات يجب أن تأتمنيها لأحد. ولكـــن سأقول لك لماذا لا تفعلين ذلك. إن لك فكرة سيئة عني.

– أنا؟

– نعم، أنـــت. تتصورين أن نصف ما في نفسي مصطنع، لأنني فنان، وأنـــي غـــير مقتدر ليس فقط علـــى أي عمل – ولربمـــا أنت على حق في ذلـــك – بـــل وعلى أية عاطفة عميقـــة حقيقية. وأنـــني لا استطيع حتى أن ابكـــي بصدق، وأنني ثرثار وناشر أقاويل. كل ذلك لأنني فنان. هل نحن بعـــد هذا، أناس بؤساء نحن مغضوب عليهـــم من قبل الرب، أنت، مثلاً، وأنا مستعد إلى أن اقسم، لا تصدقين بندامتي.

– لا، يا بافل ياكوفليفيتش، أنا مصدقة بندامتك، واصدق بدموعك. ولكن يبدو لي أن ندامتك بحد ذاتها ودموعك أيضاً تلذ لك.

جفل شوبين.

– أوه، احسب أن هـــذه حسب تعبير الاطباء، حالة مستعصية casus incurabilis. عندئـــذ لا يبقى أمامي غير أن احنـــي رأسي، واذعن. ومع ذلـــك، آه، يا إلهي! هل من الممكن حقاً، هل من الممكن أن انشغل طوال الوقـــت بنفســـي، بينما تعيشـــ إلى جانبي مثـــل هذه النفســـ؟ وأنا أعرف

أننـي لن أستطيع أبـداً أن انفذ إليهـا، ولا أن ارى مـا يحزنها ويفرحها، وما يطـوف في ذهنها، وماذا تريد وإلى أين تسـير... خبريني - قال بعد برهة من الصمت - اتظنين أنك لن تحبي فناناً ابداً، ومهما تكن الظروف والدوافع؟

حدقت يلينا في عينيه تماماً.

- لا، بافل ياكوفليفيتش، لا.

قال شوبين بجزع هزلي:

- وهـذا ما اقتضى البرهنة عليه. اذن، كان مـن الأليق، على ما اظن، لا اعرقـل نزهتـك الانفرادية. لو كنت معلمـاً لسألتك: علـى أساس أية معطيـات قلت: لا؟ ولكنني لست معلماً. أنـا طفل، حسب مفاهيمك، ولكـن الناس لا يصدون عن الاطفال، تذكري هـذا. وداعاً. وليتغمدني الله برحمته!

ارادت يلينا أن توقفه، ولكنها فكرت قليلاً، ثم قالت أيضاً:

- وداعاً.

خرج شوبين من الفناء، والتقاه بيرسينيف على مسافة قصيرة من بيت آل ستاخـوف الريفي. كان يسير بخطـى نشيطة، وقد احنى رأسه، ودفع قبعته على علبائه.

هتف شوبين:

اندريه بتروفيتش!

توقف هذا. فمضى شوبين يقول:

- سـر في طريقـك، سر. لا شيء. لم يكن في نيتـي أن اوقفك. اذهب قدمـاً إلى الحديقة، وستجدُ يلينا هناك. اظنهـا تنتظرك. على أية حال أنها تنتظر أحداً... أنت تفهـم قوة هاتين الكلمتين: أنها تنتظر! اتعرف يا أخ

أي ملابسة مدهشة؟ تصور أنني أعيش معها، منذ سنتين، في بيت واحد واعشقها، ولكن الآن فقط، في هذه اللحظة رأيتها لأول مرة، ولا اقول فهمتها لأول مرة، رأيتها، وبسطت ذراعي باندهاش. ارجوك لا تنظر اليّ بهذه الابتسامة الزائفة السخرية التي لا تناسب ملامحك الرصينة. افهم أنك تريد أن تذكرني بآنوشكا. ثم ماذا؟ أنا لا ارفض. انوشكا تناسب مقامي. فلتعش الانوشكات والزوبات، وحتى الافغوستينات الخريستينوفات انفسهن! اذهب إلى يلينا، الآن، وأنا ذاهب، فهل تظنني ذاهباً إلى آنوشكا؟ لا، يا اخ، بل اسوأ، إنا ذاهب إلى الأمير تشيكوراسوف. هناك راعي فنون بهذا الاسم، من تتر قازان، مثل فولغين. هل ترى رسالة الدعوة هذه، وهذه الحروف .R.S.V.P[10]؟ لا راحة لي في القرية أيضاً. Addio[11].

استمع بيرسينيف إلى خطبة شوبين الرنانة في صمت، وكأنما يأخذه شيء من الارتباك نيابة عنه، ثم دخل فناء بيت ستاخوف. أما شوبين فقد ذهب بالفعل، إلى الأمير تشيكوراسوف وصار يحدثه بالكثير من أوقح العبارات، بأكثر الطرق تهذيباً. وقد ضحك راعي الفنون هذا، من تتر قازان، وضحك ضيوفه، دون أي مرح من جانب احدهم، وتفرقوا، مغتاظين جميعاً مثل سيدين التقيا، في شارع نيفسكي، واحدهما قليل المعرفة بالآخر، فإذا بهما يكشران عن أسنانهما بابتسامة، ويحركان عيونهما وانفيهما وخديهما بعذوبة مفتعلة، وحالما يبتعد احدهما عن الآخر يتخذان عدم اكتراثهما السابق، أو سمتهما الوعِق البواسيري في أغلب الأحيان.

---

(١٠) الحروف الأولى من جملة فرنسية معناها: الرجاء اعلامنا بالجواب (بالفرنسية في الأصل).

(١١) وداعاً (بالايطالية في الاصل).

١٠

استقبلت يلينا بيرسينيف بود، ولكن ليس في الحديقة، بل في حجرة الجلوس، واستأنفت حديث الأمس حالاً، وفي شيء من نفاد الصبر. وكانت وحدها. فقد انسل نيقولاي ارتيميفيتش بهدوء إلى حيث لا تعلم. بينما كانت آنا فاسيليفنا منطرحة في الأعلى، وعلى رأسها عصابة مبللة. وكانت زويا جالسة إلى جانبها، وقد عدَّلت تنورتها باعتناء، وطوت يديها على كرتيها. وكان اوفار ايفانوفيتش يأخذ غفوة في العلية على اريكة عريضة مريحة اطلق عليها "جالبة النوم". عاد بيرسينيف إلى تذكر أبيه من جديد، فقد كان يحمل له ذكرى قدسية. فلنذكر نحن بعض الكلمات عنه.

كان والد بيرسينيف يملك اثنين وثمانين قناً اعتقهم قبيل وفاته، وكان من المتنورين ومن طلاب جامعة غوتينغين القدامى، وله مؤلف مخطوط عن "تجليات أو تحولات الروح في العالم" هو خليط فريد من فلسفة شيلينغ وسفيدينبورغ والنزعة الجمهورية. وقد أخذ ابنه إلى موسكو، وهو صبي، بعد وفاة امه مباشرة، وتولى تربيته بنفسه. وكان يتهيأ لكل درس، ويجتهد بنقاء ضمير غير اعتيادي، وبدون توفيق على الاطلاق. لأنه كان حالماً وكُتُبياً، وصوفياً، ويتكلم بلعثمة، وبصوت كامد، ويستخدم كلمات مبهمة ومنمقة، وبتشابيه، على الاغلب، وكان ينكمش حتى من ابنه، الذي كان متعلقاً به كثيراً. فلا غرابة في أن الإبن كان لا يفتأ يحملق بعينيه خلال دروسه، ولا يتقدم في الدراسة اطلاقاً. وأخيراً حدس العجوز (كان في نحو الخمسين من العمر، فقد تزوج متأخراً جداً) أن الأمور

لا تسير على ما يرام، فأدخل ابنه "اندريوشا"[١٢] في مدرسة داخلية. وصار اندريوشا يتعلم، ولكنه لم يخرج من رقابة ابيه. فكان ابوه يزوره باستمرار، مضجراً صاحب المدرسة بمواعظه واحاديثه، كما أن الضيف غير المدعو اثقل على المراقبين أيضاً، إذ كان من حين لآخر يحمل لهم كتباً في التربية معقدة جداً على حد تعبيرهم. وحتى تلامذة المدرسة صاروا يتحرجون لدى رؤيتهم وجه العجوز الأسمر المجدور وجسده الضامر في سترة فراك رمادية مدببة الذيل يرتديها دائماً. وكانوا لا يحسدون قط في أن هذا السيد الجهم الذي لم تلح الابتسامة على شفتيه قط، بأنفه الطويل ومشيته الشبيهة بمشية الغرانق كان يأسو بقلبه على كل واحد منهم، ويشفق تماماً تقريباً كما يأسو ويشفق على ابنه من صُلبه. وذات مرة عنَّ له أن يتحادث معهم عن واشنطن. وخاطبهم قائلاً "يا تلامذتي الصغار" ولكن تلامذته الصغار انفضوا من حوله حالما سمعوا الرنات الأولى من صوته الغريب. لم يكن طريق خريج جامعة غوتينغين النزيه هذا مفروشاً بالورود. كان دائماً مسحوقاً بسير التاريخ، وبمختلف ضروب الاسئلة والتخيلات. وحين دخل بيرسينيف الابن إلى الجامعة. كان الأب يذهب معه إلى المحاضرات، ولكن صحته اخذت تخونه. وهزته احداث ١٨٤٨ من الاساس (وكان عليه أن يغير الكتاب كله) غير أنه توفي شتاء ٥٣ قبل تخرج ابنه من الجامعة، إلا أنه قد هنأه مسبقاً بدرجة علمية وباركه لخدمة العلم. وقال له قبل ساعتين من وفاته: "اقدم المشعل لك، فقد حملته أنا طوال ما كنت قادراً على حمله، فلا تتخل أنت عنه إلى آخر العمر".

تحدث بيرسينيف ليلينا طويلاً عن ابيه. واختفى الارتباك الذي كان

---

(١٢) صيغة تدليل من اسم اندريه. المترجم.

يحسه في وجودها، ولم يعد يلفظ السين شيئاً كثيراً. وانتقل الحديث إلى الجامعة. فسألته يلينا:

- قل لي هل كان بين رفاقك أناس مرموقون؟

وتذكر بيرسينيف كلام شوبين.

- لا، يلينا نيقولايفنا، الحق أقول لك، لم يكن بيننا رجل واحد مرموق. ومن أين يأتي! يقال أن جامعة موسكو مرت بعهد طيب، ولكن ليس الآن. هي الآن مدرسة وليست جامعة. كنت أجد صعوبة مع رفاقي.

اضاف ذلك مخفضاً صوته. همست يلينا:

- صعوبة؟

فمضى بيرسينيف يقول:

- على أية حال، لا بد أن اذكر أنني اعرف طالباً - لم يكن في فصلي في الحقيقة، وهو بالفعل إنسان مرموق.

سألت يلينا بحماس:

- وما اسمه؟

- ابتساروف، دميتري نيكانوريتش، وهو بلغاري.

- ليس روسياً؟

- لا، ليس روسياً.

- ولماذا يعيش في موسكو، اذن؟

- جاء إليها للدراسة. وهل تعرفين لأي هدف يدرس؟ هناك فكرة واحدة تشغله؛ هي تحرير بلاده. وسيرته أيضاً غير اعتيادية. فقد كان أبوه تاجراً ميسوراً جداً، من مواليد تيرنوف. وتيرنوف الآن بلدة صغيرة، بينما كانت في ماضيها عاصمة بلغاريا، عندما كانت بلغاريا مملكة

مستقلـة. وكانت تجارته في صوفيـا، وله علاقات مع روسيـا. وشقيقته، عمـة اينسـاروف، ما تـزال تعيش في كييـف، وقد تزوجـت معلماً أقدم للتاريـخ في مدرسة ثانوية هنـاك. وفي عـام ١٨٣٥، أي قبل ثمانية عشر عاماً، وقعت حادثة نكـراء، إذ اختفت أم اينساروف فجأة، وبعد اسبوع وجدت مذبوحة.

ارتعدت يلينا، فتوقف بيرسينيف، ولكنها قالت:

– واصل، واصل.

– وأُشيـع أن احد الاغوات الاتـراك اختطفها وقتلها. ولما عرف والد اينساروف بالحقيقـة أراد أن ينتقم، ولكنه تمكن من جرح التركي بخنجر لا غير... وقد قُتل رمياً بالرصاص.

– قُتل؟ بدون محاكمة؟

– نعم، وكان اينساروف في ذلك الحين في سنه الثامنة فبقي بين ايدي الجـيران. وعرفت الأخـت بما حدث لعائلـة اخيها، فاعلنـت رغبتها في احتضـان ابن اخيها. فأُرسل إلى اوديسا، ومن هناك إلى كييف. وقضى في كييف اثنتي عشرة سنة كاملة، ولهذا يتكلم الروسية جيداً.

– يتكلم الروسية؟

– مثلـك ومثلي. وحـين اتم العشرين من العمـر (وكان ذلك في بداية ١٨٤٨) رغب في السفر إلى بلاده. وزار صوفيا وتيرنوف، وجاب بلغاريا كلهـا طولاً وعرضاً، وقضى فيهـا سنتين تعلم فيها لغته القومية من جديد. ولاحقتـه الحكومة التركية، ومن المحتمل أنـه تعرض، في هاتين السنتين، إلى مخاطـر كبيرة. فقد رأيت على رقبته ذات مـرة ندبة عريضة، لا بد أنها كانـت اثراً لجرح. ولكنـه لم يكن يحب الكلام عن ذلـك. فهو صموت أيضاً بطبعه. كنت احاول الاستفسار منه ولكنني لم اظفر بطائل. فهو يرد بعبارات شائعة، أنه عنود جداً. وفي عام ١٨٥٠ عاد من جديد إلى روسيا،



إلى موسكو بنية إكمال تعليمه كلياً، والاختلاط بالروس، وفيما بعد، حين يتخرج في الجامعة...

قاطعته يلينا:

– ماذا فيما بعد؟

– ما يقضي به الله. فمن الصعب التنبؤ بالمستقبل.

ظلت عينا يلينا معلقتين ببيرسينيف وقتاً طويلاً. ثم قالت:

– اثـرت اهتمامي الشديد بقصتك. كيف شـكل صاحبك هذا الذي سميته... اينساروف؟

– كيف أقول لك؟ ليس قبيحاً، على ما اظن. حسناً، سترينه بنفسك.

– وكيف؟

– سأتـي بـه إليك، هنـا. بعد غد سينتقـل إلى قريتنـا، ليعيش معي في مسكن واحد.

– صحيح؟ ولكن هل سيقبل بزيارتنا؟

– دون شك! سيكون مسروراً جداً.

– وهل هو فخور؟

– هـو؟ لا، البتة. يعنـي إذا اردت الحقيقة، فهو فخور، ولكن ليس في المعنى الذي تقصدين. فهو مثلاً لا يستدين الفلوس من أحد.

– وهل هو فقير؟

– نعـم، ليس غنياً. عندما سافر إلى بلغاريا جمع ما تيسر له من مخلفات ابيه الصغيرة، كما تساعده عمته. ولكن كل ذلك ضئيل تافه.

فلاحظت يلينا قائلة:

– لعل له الكثير من ضبط النفس.

– نعـم. أنـه رجل مـن حديد. وفيـه، في الوقت ذاتـه، وسترين ذلك بنفسك، شيء طفولي منزّه، مع كل تمركزه وصرامته وحتى تكتمه. والحق أن نزاهته ليست نزاهتنا التافهة، نزاهة الذين ليس لهم ما يخفونه... ولكن انتظري، سآتي به إليك.

سألت يلينا مرة أخرى:

– وهل هو خجول؟

– لا، ليس خجولاً. المغرورون وحدهم خجولون.

– وهل أنت مغرور؟

ارتبك بيرسينيف، وبسط ذراعيه بحيرة. فمضت يلينا تقول:

– أنت تثير فضولي. طيب، قل لي الم يثأر من الاغا التركي؟

ابتسم بيرسينيف:

– الثـأر يوجد في الروايـات فقط، يلينا نيقولايفنـا. فضلاً عن أن هذا الاغا ربما كان قد مات في غضون الأثنتي عشرة سنة هذه.

– على أية حال، ألم يقل السيد اينساروف لك شيئاً عن هذا؟

– لم يقل شيئاً.

– فلماذا سافر إلى صوفيا؟

– كان أبوه يعيش هناك.

غرقت يلينا في تفكير، ثم قالت:

– يحرر وطنه! حتى النطق بهذه الكلمتين رهيب، لعظمتهما...

وفي تلـك اللحظة دخلت الغرفة آنا فاسيليفنا، فانقطع الحديث. عندما كان بيرسينيف في طريق عودته إلى البيت هذا المساء انتابته أحاسيس غريبة. لم ينـدم على نيته في تعريف يلينـا باينساروف. ورأى من الطبيعي جداً أن

تخلـف احاديثه عن البلغاري الشاب ذلك التأثير العميق لدى يلينا... كما أنه هـو نفسه حاول أن يقوي ذلـك التأثير! ولكن شعـوراً مبهماً ومعتماً تسلل خفية إلى قلبه. فإكتأب إكتئاباً مسموماً. إلا أن هذا الاكتئاب لم يعقه عـن الانكباب على "تاريخ اسرة غوغينشتاوفين"، وبدأ يقرأه من الصفحة التي توقف عندها مساء اليوم الفائت.

١١

بعـد يومـين وصل اينسـاروف إلى مسكـن بيرسينيف مـع متاعه، بما عاهـد بـه بيرسينيـف، لم يكـن لديه خـادم، إلا أنـه نظم غرفتـه، ورتّب الاثـاث، ومسح الغبار، وكنس الارضية دون أيـة مساعدة. وامضى وقتاً طويـلاً جداً في وضع منضـدة الكتابة في المكان الذي أبـا أن يستوعبها، ولكـن اينساروف بما جبـل عليه من اصرار صموت، حقـق ما يريد. ولما هيـأ حجرته، رجا بيرسينيف أن يتقبل منه عشرة روبلات كمقدمة، وأخذ عصا غليظة، وخرج يتفقد ما يحيط بمنزله الجديد. وعاد بعد حوالي ثلاث ساعـات فدعـاه بيرسينيـف إلى أن يشاركه طعامه، فاجابـه أنه لا يمانع في تنـاول الغداء معه اليوم، ولكنه قد تفاوض مع ربة البيت بالفعل، وسيتلقى طعامه منها. اعترض بيرسينيف قائلاً:

– رحماك! ستطعمك بشكل سيء. أن هذه المرأة لا تجيد الطبخ نهائياً. فلماذا لا تريد أن تشاركني طعامي؟ سنقتسم المصروفات بالمناصفة.

أجاب اينساروف بابتسامة هادئة:

– امكانياتي لا تساعدني أن آكل مثلما تأكل.

وكان في ابتسامتـه تلك شيء لا يبيح أية مقاومة. فلم يضف بيرسينيف كلمة. وبعد الغـداء عرض بيرسينيف عليه أن يأخذه إلى آل ستاخوف، إلا

أن اينساروف رد بأنه يريد أن يكرس كل المساء للكتابة إلى أصحابه البلغار، ولهـذا يرجو أن تؤجل زيارة آل ستاخوف إلى يـوم غد. وكان بيرسينيف يعرف من قبل صلابة اينسـاروف فيما يريده، ولكنه الآن فقط، وهو معه تحـت سقف واحد، استطاع أن يقتنع كلياً بأن اينساروف لم يغير قط قراراً كان قد اتخذه، مثلما لم يؤجل قط تنفيذ وعد كان قد قطعه. في البداية كان هذا الضبط الأكثر شدة من الضبط الالماني يبدو لبيرسينيف، الروسي القح، غريبـاً بعض الشيء، بل ومضحـكاً قليلاً. ولكنه سرعان مـا ألفه، وأخيراً صار يجده مريحاً جداً، على أقل تقدير، أن لم يكن أهلاً للاحترام.

في اليـوم الثاني مـن وصول اينسـاروف استيقظ في الرابعـة صباحاً، وطـاف طوافاً سريعـاً في كل كونتسوفو تقريباً، وسبـح في النهر، وشرب كوباً مـن الحليب البارد، وجلـس يعمل. و لم يكن عملـه قليلاً، فقد كان يدرس التاريخ الروسي، والقانـون، والاقتصاد السياسـي، وكان يترجم الاغاني والمدونـات التاريخية البلغارية، ويجمع المواد عن المسألة الشرقية، ويضـع كتاباً في النحو الروسي للبلغار، وكتاباً في النحو البلغاري للروس. جـاءه بيرسينيف، وتحدث معه عن فورباخ. استمع اينساروف إليه بانتباه، و لم يعترض إلا نادراً، ولكن باقتدار، وكان واضحاً من اعتراضاته أنه كان يحـاول أن يحدد لنفسه مساراً، فأمـا إلى دراسة فورباخ، وأما إلى امكانية الاستغناء عنه. وبعد ذلك ساق بيرسينيف الحديث إلى دراساته، وسأله هل سيريـه شيئاً منها؟ فقرأ اينساروف له اغنيتـين أو ثلاثاً من الاغاني البلغارية التي ترجمها، ورغب في أن يسمع رأيه فيها. فرأى بيرسينيف أن الترجمة صحيحـة، وأن كان ينقصها القدر الكافي من التدفـق. فأخذ اينساروف ملاحظتـه بعين الاعتبـار. وانتقل بيرسينيف من الأغـاني إلى وضع بلغاريا الراهـن، فلحـظ، لأول مرة، التغـير الكبير الذي ظهر علـى اينساروف، بمجـرد ذكر اسم وطنـه. لم يتوهج وجهـه أو يرتفع صوتـه، لا، أبداً! بل أن كيانـه كله، بدا كما لـو صبت فيه صلابة واندفـاع، ولاحت خطوط

شفتيه اكثر حدة واصراراً، واشتعلت في اغوار عينيه نار صماء اقوى من أن تخمد. لم يكن اينساروف يحب الافاضة في الحديث عن سفرته إلى وطنه، ولكنه كان يتحدث عن بلغاريا عموماً بطواعية مع كل إنسان. كان يتحدث بتؤدة، عن الاتراك وعن مظالمهم، وعن محن ورزايا أهل وطنه، وعن امانيهم، وكانت كل كلمة من كلماته تنطق بهوى وحيد طالما تروّى فيه وركز تفكيره عليه من زمان.

وكان بيرسينيف في غضون ذلك يفكر مع نفسه: "اغلب الظن أن الاغا التركي دفع ثمن قتله لابيه وأمه".

وما كاد اينساروف يسكت حتى فتح الباب، وظهر شوبين على العتبة.

دخل الحجرة مسترخياً. وبيرسينيف الذي كان يعرفه جيداً، ادرك على الفور أنه مغتاظ من شيء ما.

ابتدر يقول، وقد انطلقت اسارير وجهه واشرقت:

– لاقدم نفسي، بلا كلفة. أُدعى شوبين، وأنا صديق هذا الشاب (واشار إلى بيرسينيف) أظن أنك السيد اينساروف، أليس كذلك؟

– نعم، اينساروف.

– اذن، هات يدك، ولنتعارف. لا اعرف هل حدثك بيرسينيف عني، ولكنه حدثني الشيء الكثير عنك. هل نزلت هنا؟ ممتاز! لا تغضب عليّ، إذا كنت اتفرس فيك بهذا الشكل. أنا، بالحرفة، نحات، واتنبأ بأنني، عن قريب، سأتقدم لك بطلب السماح لي بأن انحت رأسك.

قال اينساروف:

– رأسي في خدمتك.

– ماذا سنفعل اليوم؟ ها؟ – قال شوبين وقد جلس فجأة على مقعد واطئ، واسند كلتا يديه على ركبتيه المنفرجتين كثيراً – يا اندريه

بيتروفيتش، هل لسيادتك خطة ما لهذا اليوم؟ الطقس رائع. وفي الجو رائحة تبن وعُليق جاف حتى... كأنك تحتسي شاياً بالنعناع. حبذا لو نقوم بشيء خارق. فنري ساكن كونتسوفو الجديد كل مفاتنها العديدة. (ومضى بيرسينيف يفكر مع نفسه: "هو مغيظ") طيب، ما لك صامت، يا صديقي هارتسيو؟ افتح فمك النبوئي. هل نقوم بشيء خارق، أم لا؟

قال بيرسينيف:

– لا اعرف ما رأي اينساروف. اظن أنه يتهيأ ليعمل.

استدار شوبين على مقعده، وسأل في خُنَّة:

– أتريد أن تعمل؟

قال هذا؟

– لا. في امكاني أن اكرس اليوم لنزهة.

فقال:

– آه! رائع حقاً. هيا، يا صديقي اندريه بيتروفيتش، وغط رأسك الحكيم بقبعة، ولنذهب إلى حيث تمتد ابصارنا. وابصارنا فتية، وستمتد بعيداً. أنا اعرف حانة صغيرة، نفيسة في رداءتها، سيقدمون لنا فيها طعاماً فائقاً في سماجته، ولكننا سنكون مبتهجين كثيراً. فلنذهب.

بعد نصف ساعة كان الثلاثة يسيرون على شاطئ نهر موسكو. كان اينساروف يرتدي قبعة غريبة الشكل مرتخية الحاشية من الجانبين جعلت شوبين في بهجة غير طبيعية تماماً. كان اينساروف يسير على مهل، ويتطلع، ويستنشق الهواء، ويتكلم ويبتسم بهدوء. فقد وهب يومه هذا للاستمتاع، فكان يتلذذ به تماماً. أسر شوبين في اذن بيرسينيف: "بهذا الشكل يتنزه الأولاد المهذبون في أيام الآحاد". وكان شوبين نفسه يتصرف بخفة، يركض إلى الامام، يتوقف متخذاً اوضاع تماثيل

معروفة، يتقلب على العشب. فأن رصانة اينساروف لم تكن تغيظه، بل كانت تجعله يتصرف كالبهلول. وقد نبهه بيرسينيف مرة أو مرتين: "ما هـذه العفرتـة، يا فرنسي!" فكان شوبين يرد عليـه: "اجل، أنا فرنسي، نصـف فرنسي! أما أنت فابق في منتصف المسافة بين الهزل والجد، كما كان يقـول لي نادل حانة". استدار الشبـان مبتعدين عن النهر، وساروا في اخـدود ضيق عميـق بين حائطين تشكلهما سنابـل الجودار الذهبي العـالي، وقد القى عليهم أحـد هذين الحائطين ظلاً مزرقـاً. وبدا وكأن الشمس المشرقـة تنزلق على اعالي السنابل، والقُـبّرات تصدح، وطيور السماني تهدل، والعشـب مخضوضر في كل مكان. وكانت نسمة دافئة تنوس، وترفع انصاله، وتهز تويجات الزهور. ووصل الشبان إلى الحانة "النفيسة في رداءتهـا" بعد جولات طويلة واستراحات واحاديث قيل وقـال (بـل أن شوبـين حاول حتـى أن يلعـب القفازية مـع ريفي عابر تساقطـت أسنانه كان يضحك باستمـرار من الاعيب السادة معه). كاد النـادل يوقع كل واحد منهم أرضاً، وقدم لهم بالفعل طعاماً سمجاً جداً ونبيـذاً رديئـاً، إلا أن ذلك، على العموم، لم يمنعهـم من ان يمرحوا بكل قلوبهـم، كما تنبـأ شوبين. وكان شوبين نفسـه اضجهم مرحاً، واقلهم نصيباً منه في الوقت ذاته. شرب في صحة فينيلين الغامض والعظيم أيضاً وفي صحة ملك بلغاري يدعى كروم او خروم يعود تاريخه إلى عهد آدم تقريباً.

صحح له اينساروف:

– إلى القرن التاسع.

فهتف شوبين:

– إلى القرن التاسع؟ آوه، يا للسعادة!

لاحظ بيرسينيف أن شوبين مع كل الاعيبه ونزواته ونكاته، كان يبدو

كمن يمتحن اينساروف، ويتحسسه، ويقلق في دخيلة نفسه. بينما ظل اينساروف على هدوئه وصفائه.

وأخيراً عادوا إلى كونتسوفو، وغيروا ملابسهم، ولكي يحافظوا على المزاج الذي شملهم منذ الصباح عزموا على زيارة آل ستاخوف في المساء. وهرع شوبين في المقدمة ليعلن عن هذه الزيارة.

١٢

هتف بلهجة خطابية، وهو يدخل حجرة الجلوس في بيت آل ستاخوف، حيث لم يكن فيها، في تلك اللحظة، غير يلينا وزويا:

– البطل اينساروف سيشرف الآن هنا.

فسألت زويا بالالمانية:

– ? Wer[١٣] .

وكانت حين تؤخذ على غرة تعبر بلغتها القومية دائماً. رفعت يلينا جذعها. نظر شوبين إليها وعلى شفتيه ابتسامة لعوب، أحست بالضيق. ولكنها لم تقل شيئا.

وكرر قائلاً:

– سمعت؟ السيد اينساروف قادم إلى هنا.

قالت:

– سمعت. وسمعت كيف سميته. أنا مندهشة منك حقاً. السيد اينساروف لم يطأ بعد بقدمه هذا البيت، ومع ذلك ترى من الضروري أن تتهازل.

(١٣) من؟ (باللالمانية في الاصل).

استرخى شوبين فجأة. وغمغم:

- أنــت على حق، أنت دائمــاً على حق، يلينــا نيقولايفنا. ولكنني لا اقصــد شيئاً من كلامي. والله. لقــد تنزهنا النهار كله سوية، واؤكد لك أنه رجل ممتاز.

- لم أكن اسألك عن هذا.

قالت يلينا ذلك، ونهضت.

فسألت زويا:

- هل السيد اينساروف شاب؟

اجاب شوبين في ضيق:

- عمره مائة واربعة واربعون عاماً.

أعلــن الصبــي الخــادم وصــول الصديقين. فدخــلا. قــدم بيرسينيف اينســاروف. دعتهمــا يلينا إلى الجلوس، وجلست هــي. وذهبت زويا إلى الطابــق العلــوي، لتبلغ آنا فاسيليفنــا. وبدأ حديث عادي جــداً، مثل كل الاحاديث في اللقاء الأول. وكان شوبين يراقب من ركن في صمت، وأن لم يكن ما يستدعي المراقبة. وكان يلحظ في يلينا ضيقاً مكبوتاً منه، ولا شيء آخر. وكان ينظــر إلى بيرسينيف وإلى اينســاروف، ويقارن بين وجهيهما كنحــات. وكان يفكر مع نفسه: "كلاهما غير جميل. للبلغاري وجه مميز الملامــح، يستجيــب للنحــت. والآن توضح بشكل جيــد. وجه الروسي يصلح للرسم أكثر. الخطوط غائبة، والسمة موجودة. واظن كليهما يمكن أن يعشق. وهي لا تحب الآن، ولكنها ستحب بيرسينيف". انتهى إلى ذلك مــع نفسه. ودخلت آنــا فاسيليفنا حجرة الجلوس، واتخذ الحديث طابع الحديــث الذي يجري بين مستأجري البيــوت الريفية بالذات، لا حديث الريــف. أي أنه كان حديثاً متنوعاً جــداً في وفرة المواضيع المتناولة، إلا أن

وقفات قصيرة متعبة جداً كانت تقطعه كل ثلاث دقائق. وفي احدى تلك الوقفـات التفتت آنـا فاسيليفنا نحو زويا. وفهم شوبـين ايماءتها الصامتة، فتلّوت اساريره في زعل. جلست زويا إلى البيانو، وانشأت تعزف، وتغني كل مـا كانت تعرفه من اغان. ولاح اوفار ايفانوفيتش من وراء الباب، إلا أنـه حرك اصابعه، واختفى ثانيـة. وخرج الجميع ليتنزهوا في الحديقة بعد أن شربوا الشاي. وهبط الظلام وراء النافذة، فانصرف الضيوف.

لقـد ترك اينســاروف في نفس يلينـا، بالفعل، انطباعاً أقـل مما كانت تتوقع هي نفسها، أو بعبارة ادق، لم يترك في نفسها الانطباع الذي كانت تتوقعه. اعجبتها صراحته وعفويته، كما راق لها وجهه، ولكن اينساروف بشخصيته الركينة بهدوء، والبسيطـة بشكل غير ملفت للنظر لم ينسجم، علـى نحو ما، مـع الصورة التي خلفتهـا في ذهنها احاديـث بيرسينيف. كانـت يلينا تنتظـر شيئاً أكثر "غرابـة" دون أن تفكـر في ذلك. وكانت تقـول لنفسها: "ولكنه اليوم لم يتكلم إلا قليلاً. وأنا الملومة، إذ لم الح عليه بالاسئلـة، فلننتظر حتى المرة القادمة... غير أن عينيه معبرتان، نقيتان". لم تشعـر بالرغبة في احناء قامتها امامه باعجاب، بل في تقديم يدها إليه بود. وكانت في حيرة من أمرها، فقد كانت تتصور الناس "الابطال" من أمثال اينســاروف في صورة غير الصورة التي ظهر فيها. وذكرتها كلمة "بطل" بشوبين، فاحمرت، وهي ترقد في سريرها، واستبد بها الغضب.

في طريق العودة سأل بيرسينيف اينساروف:

– ما رأيك في المعارف الجدد؟

اجاب اينساروف:

– اعجبـوني كثيراً، ولا سيما الابنة. لا بد أنهـا فتاة طيبة. كانت بادية القلق، ولكن قلقها جميل.

فقال بيرسينيف:

– يجب أن نكثر من زيارتهم.

– نعم، يجب.

قال اينساروف، و لم يقل شيئاً آخر حتى وصوله إلى البيت. وعندما وصل أسرع إلى الاعتكاف في غرفته حالاً غالقاً الباب عليه، إلا أن الشمعة ظلت مشتعلة فيها إلى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل.

أما بيرسينيف فما كاد يقرأ صفحة واحدة من راومر، حتى اصابت حفنة من الرمل الدقيق زجاج نافذته. جفل مباغتاً. وفتح النافذة، ورأى شوبين شاحب الوجه بلون الكتان المبيض.

بادره بيرسينيف قائلاً:

– يا لك من همام، يا فراشة الليل!

قاطعه شوبين:

– همس! جئتك خفية، مثلما جاء ماكس إلى اغاثا. عندي كلمتان اريد أن احدثك بهما من دون بد، على انفراد.

– ولكن ادخل الغرفة.

– لا، لا حاجة – اعترض شوبين، واتكأ بمرفقيه على افريز النافذة – هنا أمرح، وأكثر شبهاً بما يجري في اسبانيا. أولاً، اهنئك. اسهمك رجحت. ورجلك الخارق المحمود الخصال سقط. واستطيع أن اضمن ذلك. ولكي اثبت لك عدم تحيزي هاك اسمع مواصفات السيد اينساروف. لا مواهب. ولا شاعرية، وقدرات على العمل هائلة؛ وذاكرة كبيرة، وعقل غير متعدد الجوانب، وغير عميق، ولكنه سليم ونشيط. جفاف وقوة، بل وحتى موهبة في الكلمات، حين يدور الحديث حول بلغاريا الكئيبة، بيني وبينك. اذن؟ هل ستقول أنني غير منصف؟ وهناك ملاحظة أخرى. لا اعتقد أنك ستخاطبه بضمير المفرد ولا أحد فعل ذلك من قبل. وأنا

كفنان، ممقـوت له، وأنا فخور بذلك. جاف، جـاف، ولكنه يستطيع أن يطحننـا جميعاً. أنه مرتبط بأرضـه. وليس مثل قِرَبنـا الفارغة التي تتودد للشعب قائلة: يا ماء الحياة، انصبٌ فينا! ومهمته، إلى جانب ذلك، سهلة، وايسر على الفهم: التخلص من الترك، ولا أكثر! ولكن هذه الخصال كلها، والحمـد لله، لا تـروق للنساء. أنه بلا جاذبية، بلا شـارم[١٤]، أي بدون ما لدينا أنت وأنا.

غمغم بيرسينيف:

– ومـا شأني أنا في هذا؟ ثم أنك في البقية أيضا غير محق. فهو لا يمقتك البتة. وهو يخاطب أبناء وطنه بضمير المفرد... أنا اعرف ذلك.

– هـذا شيء آخـر! أنه، بالنسبة لهم، بطل. واعـترف لك أن لي فكرة مغايـرة عـن الابطـال. البطل يجـب أن لا يجيـد الكلام، البطـل يجأر، كالثـور، إلا أنه إذا ضرب بقرنه انهارت الجـدران. ولا ينبغي له أن يعرف لمـاذا يستخدم قرنيه، ولكنـه يستخدمهما. ثم ربما زماننا يحتاج إلى ابطال من عيار آخر.

سأل بيرسينيف:

– لماذا يشغل اينساروف بالك إلى هذه الدرجة؟ هل معقول انك جئت راكضاً اليّ لغرض واحد، هو أن تصف لي خصاله؟

قال شوبين:

– جئت إليك، لأنني احسست بكآبة شديدة في بيتي.

– هكذا اذن! لعلك تريد أن تبكي مرة أخرى؟

– لـك أن تضحـك منـي! لقد جئت إلى هنـا لأنني مستعـد أن انتف شعري، لأن اليأس والضيق والغيرة تعذبني.

---

(١٤)كلمة فرنسية charme تعني فِتْنَةٌ. المترجم.

– الغيرة؟ الغيرة ممن؟

– منـك، ومنـه، ومن الجميـع. يعذبني حين افكر مـع نفسي، آه لو كنـت فهمتها من قبل. لـو استطعت أن ادبر الأمـر بحذق... ولكن لا جدوى من الـكلام! في النهاية سأظل اضحك، واتحامق، واتهازل كما تقول هي، وبعد ذلك سأشنق نفسي.

قال بيرسينيف:

– كل شيء تفعل إلا الشنق.

– لا بالطبـع، في مثل هذه الليلـة. ولكن تمهل حتى حلول الخريف. الناس أيضاً في مثل هذه الليلة لا يموتون إلا من السعادة. آه، السعادة! كل ظل من شجرة ملقى عبر الطريق يبدو وكأنه يهمس الآن: "أنا اعرف أين السعادة... هل تريـد أن ادلك؟" وددت لو ادعوك إلى النزهة، ولكنك الآن تحـت تأثير النـثر، نم، عسى أن تحلـم بالمعادلات الحسابيـة! أما أنا فروحـي تفيض. انتم، أيها السادة، حين ترون أحداً يضحك تتصورون أن الحيـاة سهلة عليه. وتستطيعون أن تثبتوا له أنه يناقض نفسه، يعني أنه لا يعاني. عفا الله عنكم!

ابتعـد شوبين عن النافذة بسرعـة. اراد بيرسينيف أن يصيح في اثره: "انوشـكا!" ولكنه امسك نفسه. لقد كان شوبين شاحب الوجه حقاً. حتـى أن بيرسينيف بعد دقيقتـين، تصور أنه يسمـع نشجات. فنهض، وفتح النافـذة، و لم يسمع شيئاً. وفي البعيد فقط، كان ريفي، عابر سبيل ربما، يغني، "يا سهب موزدوك"[١٥].

---

(١٥)أغنية شعبية روسية. الناشر.

١٣

لم يـزر اينســاروف آل ستاخــوف أكثر مــن أربــع أو خمس مرات خلال الاسبوعين الاولين من اقامته بجوار كونتسوفو. وكان بيرسينيف يزورهم بين يوم ويوم. وكانت يلينا تُسر به دائماً، وينعقد بينهما حديث طريــف حيوي علــى الدوام، ومع ذلــك فقد كان في الغالــب يعود إلى البيت مكتئب الوجه. وانقطع شوبين عن الزيارة كلياً تقريباً. فقد انغمر في فنه كالمحموم، فكان تارة يغلق عليه حجرته، ويخرج من هناك فجأة في بلوزة، وقد تلطخ كله بالطين، وتارة يقضي أياماً في الاستوديو الذي اتخذه في موسكو، حيث كان يستقبل الموديلات والمقولبين الايطاليين، واصدقــاؤه واساتذتــه. ولم تتح ليلينــا مرة واحدة فرصــة للتحدث إلى اينساروف كمــا تهوى. كانت في غيابه تتهيأ لسؤالــه عن اشياء كثيرة، ولكنها كانت تخجــل من استعداداتها، حين كان يأتي. وكانت رصانة اينســاروف بالــذات تربكها، فيخيَّل إليها أنها غــير محقة في حمله على أن يفصــح عن مكنون صدره، فقــررت أن تتريث. ومع كل هذا كانت تشعــر بأنه كان يجذبهــا إليه أكثر فأكثر، مع كل زيــارة يقوم به، ومهما كانت الكلمات المتبادلة قليلــة الاهمية، ولكن لم تسنح لها فرصة الخلو به، بينما الدنو من شخص يقتضي التحدث إليه على انفراد، مرة واحدة على الأقل. وكانت تتحدث عنــه إلى بيرسينيف كثيراً. وكان بيرسينيف يدرك أن اينساروف اثار خيال يلينا، فكان يبتهج بأن صديقه لم يسقط، كمــا كان شوبين يؤكد. فكان يحدثها بحرارة وبأدق التفاصيل عن كل مــا كان يعرفه عنه (نحــن في الغالــب، حين نريد أن نثير اعجاب شخص نظــري في احاديثنــا معه اصدقاءنا وفي الوقت ذاتــه لا يكاد يخطر على بالنــا أننا بذلك نطري أنفسنا أيضاً). وأحياناً فقط، كانت تعتمل في قلبه تلــك الكآبة غير اللطيفة المعروفة له، حــين كانت وجنتا يلينا الشاحبتان تكتسيان حمرة خفيفة، وعيناها تتألقان وتتسعان.

ذات مـرة جـاء بيرسينيف إلى آل ستاخوف في غـير الوقت المعتاد، في نحو الحادية عشرة صباحاً. وخرجت يلينا إليه في القاعة.

أنشأ يقول بابتسامة متكلفة:

– تصوري أن صاحبنا اينساروف اختفى.

قالت يلينا:

– كيف اختفى؟

– اختفى. خرج في مساء أمس الأول، و لم يعد حتى الآن.

– ألم يقل إلى أين ذهب؟

– لا.

حطت يلينا على مقعد.

– أغلب الظن أنه ذهب إلى موسكو.

قالـت ذلك، وهي تحـاول أن تبدو غير مكترثـة، ويُدهشها في الوقت ذاته أنها تحاول أن تبدو غير مكترثة. اعترض بيرسينيف قائلاً:

– لا أظن. لم يخرج وحده.

– مع مَنْ؟

– يـوم أمس الأول جاء إليه، قبيل الغداء، شخصان لا بد أنهما من أبناء وطنه.

– بلغاريان؟ لماذا تتصور ذلك؟

– لأنهم، إذا لم يخني سمعـي، كانوا يتكلمون لغة لا افهمها، ولكنها سلافية... وأنت، يا يلينا نيقولايفنا، لا تجدين في شخصية اينساروف غير القليل من الغموض. فأي شيء أكثر غموضاً من هذه الزيارة؟ فتصوري. جاءا إليـه وراحا يصيحان ويتجـادلان، وبكثير مـن الوحشية والحنق... وكان هو أيضاً يصرخ.

– هو أيضاً؟

– نعـم، كان يصـرخ بهما. يبـدو أن أحدهمـا يشكو مـن الآخر له. ليتـك نظـرت إلى هذينَ الزائريـن! الوجهان اسمران عريضـا الوجنات. بأنفـين كأنوف الصقور، وقد تخطى كل واحد منهما الاربعين من العمر. وثيابهمـا رديئة مغبَّرة مبللة بالعرق، وهما مـن حيث المظهر ليسا حرفيين ولا من السادة... الله يعلم أي رجلين هما.

– وخرج معهما؟

– نعـم، أطعمهما، وخرج معهما. وقد اخبرتني ربة البيت بأن الاثنين أكلا سلطانية ضخمة مملوءة بالعصيدة. حسب قولها كانا يتسابقان بالتهام الطعام كذئبين.

ابتسمت يلينا ابتسامة مقتضبة خفيفة. وقالت:

– سترى أن كل ذلك سيتكشف عن شيء اعتيادي جداً.

– عسـى أن يكون! ولكن ما كان عليـك أن تستخدمي هذه الكلمة. ليس في اينساروف شيء اعتيادي، رغم أن شوبين يؤكد...

– شوبين! – قاطعته يلينا، وهزت كتفيها – ولكن يجب أن تقرأ بأن ذينك السيدين الملتهمين العصيدة...

فلاحظ بيرسينيف مبتسماً:

– ثيميستوكليس أكل أيضاً في عشية معركة سالومي.

– صحيـح. ولكـن في اليـوم التالي حدثـت معركة. وعلـى أية حال اعلمني حين يعود.

اضافت يلينا، وحاولت تغيير الحديث، ولكن الحديث انفرط.

جاءت زويا، واخذت تسير في الحجرة على اطراف اصابعها، ملمّحة بذلك أن آنا فاسيليفنا لم تستيقظ بعد.

انصرف بيرسينيف.

وفي مســاء ذلك اليوم ارسل تذكرة إلى يلينا يقــول فيها: "عاد ملوحاً مغـبراً حتى حاجبيه. ولكننــي لا أعرف سبب رحيله والمكان الذي رحل إليه. فهل ستعرفين أنت؟".

همست يلينا:

– هل ستعرفين أنت؟ وهل هو يتحدث الي؟

١٤

في نحــو الساعة الثانية مــن اليوم التالي كانت يلينــا واقفة في الحديقة أمــام وجار صغير يضم جروين. (وجدهما البستاني مرمين عند السياج، فحملهمــا إليها، بعــد أن اسرت له الغســالات أن السيــدة الشابة تشفق على كل أنــواع الحيوانات. ولم يخطأ في تقديره. فقد اعطته يلينا خمسة وعشريــن كوبيــكا) نظرت في الوجــار، وتيقنت مــن أن الجروين سالمان معافيــان، وأن قشــاً طرياً قــد فُرِش لهما، واستــدارت، وكادت تند منها صيحة، حين رأت اينساروف مقبلاً عليها وحده عبر الدرب المعرش.

– مرحباً – قال وهو يقترب منها، رافعاً قبعته عن رأسه. وقد لاحظت أيضــاً أن بشرته قد تلوحت كثيراً بالفعل في الايام الثلاثة الأخيرة – أردت أن اجــيء مــع اندريه بيتروفيتشــ، ولكنه تأخر في تحضــير نفسه، فجئت بدونــه. لا أحــداً عندكم في البيت. أما نائمــون، أو يتنزهون، فجئت إلى هنا.

ردت يلينا:

– كأن في كلامك نبرة اعتذار. لا حاجة إلى هذا اطلاقاً. نحن جميعاً نسر كثيراً في رؤيتك. تفضل اجلس هنا، على المسطبة، في الظل.

وجلست هي، وجلس اينساروف إلى جانبها.

قالت:

– اظن أنك لم تكن في البيت في المدة الأخيرة؟

أجاب:

– نعم. سافرت... هل اخبرك اندريه بيتروفيتش بذلك؟

ونظر اينساروف اليها، وابتسم، وأخذ يلعب بقبعته. وكان، وهو يبتسم، يرمش بسرعة، ويمط شفتيه، مما اضفى عليه مظهراً سمحاً جداً.

وقال، وهو ما يزال يبتسم:

– اغلب الظن أن اندريه بيتروفيتش أخبرك أنني سافرت مع شخصين زريين.

ارتبكت يلينا قليلاً، ولكنها شعرت فوراً بضرورة قول الصدق مع اينساروف دائماً.

قالت بحزم:

– نعم.

فإذا به يسألها فجأة:

– وماذا فكرت في؟

رفعت يلينا بصرها إليه، وقالت:

– فكرت، فكرت أنك دائماً تعرف ما تفعل، وأنك غير قادر على أن تفعل شيئاً غير محمود.

– طيب، وشكراً لك على ذلك. المسألة، يا يلينا نيقولايفنا – بدأ قوله مقترباً منها في وثوق – لدينا هنا جماعة صغيرة من رجالنا. وبيننا أناس قليلو التعليم، ولكن الجميع أوفياء للقضية العامة وفاء قوياً. ومن سوء الحظ

أن الأمر لا يمضي دون مشاحنات. ولكن الجميع يعرفونني، ويثقون بي، ولهذا دعوني إلى البت في احدى المشاحنات. فسافرت.

– إلى مكان بعيد؟

– إلى ترويتسكي باساد، على بعد ستين فرسخاً، فإن لنا رجالنا في الدير أيضاً. و لم تذهب جهودي عبثاً، على أقل تقدير. فقد سويت الأمر.

– وواجهت صعوبة؟

– نعم. ظل احدهم متصلباً طوال الوقت. لا يريد أن يعيد النقود.

– كيف؟ كان الشجار بسبب النقود؟

– نعم، كما أنها ليست كثيرة. وأنت، ماذا كنت تظنين؟

– وتقطع ستين فرسخاً من أجل هذه التوافه؟ تضيع ثلاثة أيام؟

– ليست هذه توافه، يا يلينا نيقولايفنا، إذا كان أبناء وطني متورطين. فالرفض هنا غير معذور. ها أنا اراك لا تحجبين عونك حتى عن الجراء. ولك مني الثناء على ذلك. لا ضير في أن اضيع الوقت. وبعد ذلك اعوضه. وقتنا ليس ملكاً لنا.

– ملك مَنْ، اذن؟

– ملك كل مَنْ بحاجة إلينا. وأنا اعرب لك عن كل هذا، فجأة، لأنني اعتز برأيك. واتخيل كيف ادهشك اندريه بيتروفيتش.

قالت يلينا بصوت خافت:

– ولماذا تعتز برأيي؟

ابتسم اينساروف مرة أخرى.

– لأنك فتاة طيبة، ولست ارستقراطية. وهذا كل ما في الأمر.

وساد صمت قصير.

قالت يلينا:

– هل تدري، يا دميتري نيكانوروفيتش، أنك لأول مرة بمثل هذه الصراحة معي؟

– وكيف ذاك؟ اتصور أنني دائماً كنت احدثك بكل ما افكر فيه.

– لا، هذه هي المرة الأولى. وأنا مسرورة جداً بذلك. وأنا أيضاً أحب أن أكون صريحة معك. فهل هذا ممكن؟

ضحك اينساروف وقال:

– ممكن.

– احذرك من أنني فضولية جداً.

– لا بأس، تفضلي.

– حدثني اندريك بيتروفيتش بالكثير من القصص عن حياتك، وعن شبابك. وأنا اعرف حقيقة واحدة، حقيقة مريعة... اعرف أنك سافرت إلى بلادك فيما بعد... ارجوك، لا ترد عليّ، إذا كان سؤالي يبدو لك غير لائق، ولكن فكرة معينة تعذبني... خبرني، هل التقيت بذلك الرجل...

وتقطعت انفاس يلينا. فقد اخذها الخجل والارتعاب من جسارتها. وكان اينساروف يتفرس فيها، مقلصاً عينيه قليلاً، جاساً ذقنه باصابعه.

وأخيراً شرع يقول بصوت اوطأ من صوته الاعتيادي، فكاد ذلك يفزع يلينا:

– يلينا نيقولايفنا. أنا اعرف إلى من تشيرين بالرجل الذي ذكرته الآن. لا، لم التق به، والحمد لله! لم ابحث عنه. لم ابحث عنه، لا لأنني لم اعتبر نفسي محقاً في قتله – كان من الممكن أن اقتله بهدوء أعصاب – ولكن لأن الثأر الشخصي لا يجدي شيئاً، حين يتعلق الأمر بانتقام شعبي جماعي.. أو، لا، هذه الكلمة لا تفي بالغرض... حين يتعلق الأمر بتحرير

الشعب. عندئذ سيكون الأول منافياً للآخر. وحتى ذاك سيأتي وقته... سيأتي وقته.

كرر الجملة الأخيرة، هازاً رأسه.

نظرت يلينا إليه من جنب، وقالت بتهيب:

– أتحب وطنك كثيراً؟

أجاب:

– هذا غير معروف الآن. ولكن حين يموت احدنا في سبيله، عندئذ يمكن القول أنه كان يحب وطنه.

فتابعت يلينا قولها:

– اذن، لو مُنِعتَ من العودة إلى بلغاريا لضقت من العيش في روسيا؟

اطرق اينساروف برأسه. ثم قال:

– يبدو لي أن ذلك لن احمله.

وعادت يلينا تقول:

– قل لي: هل من الصعب تعلم اللغة البلغارية؟

– لا، قطعاً. من العيب على الروسي أن لا يعرف البلغارية. الروسي يجب أن يعرف كل اللغات السلافية. هل تريدين أن اجلب لك كتباً بلغارية؟ وسترين كم ذلك سهلاً. وأية اغان لنا! ليست اسوأ من الأغاني الصربية. دعيني اترجم لك واحدة منها. أنها تتحدث عن... ولكن هل تعرفين شيئاً من تاريخنا؟

أجابت يلينا:

– لا، لا اعرف شيئاً.

– انتظري، وسأجلب لك كتاباً. على الأقل ستعرفين منه حقائق

رئيسيــة. اذن، اسمعي الاغنية... على العمــوم من الأفضل أن اجلب لك ترجمة مكتوبة. أنا واثق من أنك ستحبيننا. فأنت تحبين جميع المضطهدين. آه، لــو تعرفين كم هو موفور اقليمنا! ومع ذلك يداس، ويعذب - اضاف بحركــة لا إرادية من يده، واكتسى وجهه دُكنة - سلبونا كل شيء. سلبوا كنائسنــا، وحقوقنا، واراضينا، والاتراك الملاعين يسوقوننا سوق القطيع، ويذبحوننا...

وهتفت يلينا:

- دميتري نيكانوروفيتش!

توقف.

- اعذريني. أنا لا استطيع أن اتكلم عن ذلك ببرودة أعصاب. ولكنك قبل لحظات كنــت تسألينني: هل أحب وطنــي؟ وأي شيء غيره يمكن أن يحب الإنسان في الدنيا؟ ما هو الوحيد الثابت، الاعلى من كل الشكوك، والــذي يأتي الايمان به بعد الإيمان بالله؟ وحــين يكون هذا الوطن بحاجة إليــك... لاحظي أن أشد الفلاحين فقــراً، أكثر البائسين مسغبة في بلغاريا وانا تجمعنا الرغبة في شــيء واحد، للجميع هدف واحد. فتصوري روح الثقة والصلابة التي يقدمها هذا!

صمــت اينساروف لحظة، ثم عاد يتحــدث عن بلغاريا. واصغت يلينا له بانتباه متلهف عميق وحزين أيضاً. وعندما انتهى عن كلامه سألته ثانية:

- اذن، لن تبقى في روسيا، مهما يكن من شيء؟

وحينمــا انصــرف ظلت تحــدق في أثره وقتــاً طويلاً. في ذلــك اليوم صــار، بالنسبة لها، إنساناً آخر. ودعته إنساناً آخر، غير الذي استقبلته قبل ساعتين.

ومنــذ ذلك اليوم صــار اينساروف يتردد أكثر فأكــثر، وبيرسينيف أقل

فأقل. ونشأ بين الصديقين شيء غريب كان كلاهما يحسه جيداً، ولكنه لا يستطيع تسميته، ويخشى من توضيحه. وانقضى شهر على هذا المنوال.

١٥

كانت آنا فاسيليفنا تحب البقاء في البيت، كما يعرف القارئ، إلا أن رغبة قاهرة كانت تستولي عليها أحياناً، بشكل مفاجئ تماماً، في شيء غير اعتيادي، في partie de plaisir[١٦] مذهلة، وكلما كانت هذه الـ partie de plaisir اصعب على التحقيق، تتطلب اعداداً وتحضيرات أكثر وقلقاً أشد لآنا فاسيليفنا نفسها كانت تطيب لها أكثر. فإذا اعترتها هذه النزوة شتاء أمرت بأن تحجز مقصورتان أو ثلاث مقصورات متجاورة، وجمعت كل معارفها وذهبت إلى المسرح وحتى إلى حفلة تنكرية. أما إذا جاءتها صيفاً طلعت إلى خارج المدينة، إلى أبعد ما تستطيع. وفي اليوم التالي كانت تشكو صداعاً، وتتأوه، وتلازم الفراش، وبعد شهرين أو نحوهما تتأجج في نفسها نفس الرغبة في شيء غير اعتيادي" مرة أخرى. وهذا ما حصل الآن أيضاً. فقد ذكر أحد في حضورها محاسن تساريتسينو، فأعلنت بغتة أنها تنوي السفر إلى تساريتسينو بعد غد. وحدث جيشان في البيت. وهرع رسول إلى موسكو يطلب نيقولاي ارتيميفيتش الزوج، وذهب كبير الخدم معه لشراء النبيذ أو معجون الطيور ومختلف المأكولات. وعهد إلى شوبين باستئجار عربة ركوب (لأن مركبة البيت وحدها لا تكفي) والحصول على خيول اضافية. وذهب صبي خادم مرتين إلى بيرسينيف واينساروف، حاملاً معه مذكرتي دعوة كتبتا أولاً بالروسية، وبعد ذلك كتبتها زويا بالفرنسية. واهتمت آنا فاسيليفنا نفسها باعداد لوازم السفر للآنستين. وفي غضون ذلك كادت partie de

---

(١٦) نزهة مبهجة (بالفرنسية في الاصل).

plaisir أن تفسـد، فقـد عاد نيقولاي ارتيميفيتش مـن موسكو كدر المزاج وعقاً متذمـراً (كان لا يزال يغضب على افغوستينا خريستيانوفنا) ولما عرف جليـة الأمر اعلن بحزم أنه لن يسافر، وأن من الحمق الانتقال من كونتسوفو إلى موسكو، ومن موسكو إلى تساريتسينو، ومن تساريتسينو مرة أخرى إلى موسكو، ومـن موسكو مرة أخرى إلى كونتسوفـو. واضاف أخيراً: ليثبتوا لي أولاً أن هـذه النقطـة من الكـرة الارضية أكثر بهجة من تلـك فسأسافر. بالطبـع، ما كان في وسع احدهم أن يثبت له ذلـك. فقد كانت آنا فاسيليفنا مستعـدة لالغاء partie de plaisir بسبب افتقارها إلى مرافق معتبر، ولكنها تذكـرت اوفـار ايفانوفيتش، ومن شدة الضيق ارسلـت من يطلبه في غرفته، قائلة: "الغريق يتشبث بالقشة". واوقظ اوفار ايفانوفيتش من نومه، فنزل إلى الاسفل، واستمع إلى عرض آنا فاسيليفنا صامتاً، وحرك اصابعه قليلاً، ووافق، وسط دهشة الجميـع. قبلته آنا فاسيليفنا من خده، وقالت له أنه لطيف جداً. ابتسم نيقولاي ارتيميفيتش بازدراء، وقال "Quelle bourde"[١٧]. (وكان عنـد سنوح الفرصة يجب أن يستعمـل الكلمات الفرنسية "الانيقة"). وفي الساعـة السابعة من صباح اليوم التالي خرجت مـن فناء منزل آل ستاخوف المركبـة والعربة المستأجرة محملتين إلى فـوق. وفي المركبة جلست السيدات وخادمـة وبيرسينيف، وجلس اينساروف إلى جانـب الحوذي، بينما جلس في العربـة المستأجـرة اوفـار ايفانوفيتش وشوبين. وكان اوفـار ايفانوفيتش نفسه قد دعا شوبين باشارة من اصبعه، وكان يعرف أن شوبين سيناكده أثناء الطريق، إلا أن "قوة الارض السوداء" والفنان الشاب كانا مشدودين برابطة غريبة وصراحـة مناكفة. وعلى أية حال، لم يتحرش شوبين بصديقه البدين هذه المرة، وتركه بسلام. فقد كان ميالاً إلى الصمت شارد الفكر، ناعماً.

---

(١٧) أية سخافة (بالفرنسية في الاصل).

كانت الشمس قد ارتفعت عالياً في السماء اللازوردية الصافية، حين كانت العربتان تدنوان من اطلال قلعة تساريتسينو، الكئيبة الجهماء حتى في الظهيرة. نزل جمع المسافرين بكليته إلى العشب، وسار، في الحال، إلى الحديقة. كانت يلينا وزويا واينساروف في المقدمة، وسارت آنا فاسيليفنا وراءهم وعلى وجهها سيماء السعادة التامة، متأبطة ذراع اوفار ايفانوفيتش. وكان هذا يلهث ويسير متثاقلاً وقبعة القش الجديدة تنغرز في جبينه، وقدماه تتلظيان في الحذاء الطويل الرقبة، ولكنه كان يحس بمتعة أيضاً. وكان شوبين وبيرسينيف آخر الموكب. همس شوبين لبيرسينيف: "سنكون، يا أخ، في الاحتياط كقدامى المحاربين" ثم اضاف، وهو يشير بحاجبيه إلى يلينا: "هناك بلغاريا الآن".

كان الطقس رائعاً، وكل شيء حولهم يزهر ويطنّ ويشدو. ومن بعيد كانت مياه الغدران تتلألأ، والنفس يغمرها احساس وضاء بالحبور. وكانت آنا فاسيليفنا لا تفتأ تردد "آه، ما الطف ذلك، ما الطفه!"، وكان اوفار ايفانوفيتش يهز رأسه بتأييد، وهو يرد على تعجبها المتهلل، بل ونبس ذات مرة: "من غير كلام!". وكانت يلينا تتبادل مع اينساروف الكلمات من حين لآخر. وكانت زويا تمسك حافة قبعتها العريضة باصبعين، وتحرك، بغنج، من تحت ثوبها الوردي الشفاف، قدميها الصغيرتين في حذاء رمادي فاتح مدوّر البوز، وتنظر تارة إلى الجنب، وتارة إلى الخلف. هتف شوبين فجأة بصوت خفيض: "اها! زويا نيكيتيشنا تلتفت كما يبدو. فلا ذهب أنا إليها. يلينا نيقولايفنا تزدريني الآن، وتحترمك أنت، يا اندريه بيتروفيتش، والأمر سيان، لاذهب. كفاي فتوراً. أما أنت يا صديقي، فانصحك بأن تدرس النباتات، فذلك في وضعك احسن ما تستطيع أن تفكر فيه. فهو نافع من الناحية العلمية أيضاً. مع السلامة!"

وأسرع شوبين نحو زويا، وقدم لها ذراعاً معكوفة قائلاً: [18]"Ihre Hand، Madame" وامسكها، وانطلق معها إلى الامام. توقفت يلينا، ونادت بيرسينيف، وتأبطت ذراعه أيضاً، ولكنها استمرت في حديثها مع اينساروف. كانت تسأله ماذا تسمى في لغته زنبقة الوادي، والقيقب، والبلوط، والزيزفون... (وكان اندريه بيتروفيتش المسكين يقول في سره: "بلغاريا!").

وفجأة صدرت صيحة من الامام. رفع الجميع رؤوسهم. طارت علبة سيكائر شوبين ووقعت في أجمة، بعد أن قذفتها يد زويا. صاح: "انتظري، وسأحاسبك على هذا!". وانسل إلى الاجمة، وعثر فيها على علبة السيكائر، وعاد إلى زويا. ولكن ما كاد يقترب منها حتى طارت علبة السيكائر مرة أخرى عبر الطريق. وتكررت هذه المزحة حوالي خمس مرات، فكان يضحك في كل مرة، ويهدد، أما زويا فكانت تبتسم في سرها، وتتكور كالقطة، وأخيراً قبض على اصابعها، وعصرها عصراً جعلها توصوص، وتنفخ على يدها وقتاً طويلاً، بعد ذلك، وتتظاهر بالزعل، بينما كان يسر هو في اذنها شيئاً.

قالت آنا فاسيليفنا إلى اوفار ايفانوفيتش بمرح:

– مشاكسون، الشباب.

فلاعب هذا اصابعه.

وقال بيرسينيف ليلينا:

– هل ترين ما تفعل زويا نيكيتيشنا؟

فردت عليه:

– وشوبين؟

١٨– اعطيني يدك، يا سيدة (بالألمانية في الاصل).

وخلال ذلك وصل الجمع كله إلى تعريشة الحسناء ميلوفيدوفا، وتوقف ليستمتع بمنظر بـرك تساريتسينو. وكانت تمتد عـدة فرستات واحدة بعد الأخـرى، ومن ورائها كانت الغابات الكثيفة تبدو سوداء. وكان العشب البارض الذي يكسو منحدر التل كله حتى البركة الرئيسية يضفي على الماء لوناً زمردياً يانعاً على نحو فذ. وما من موجة تسري حتى عند الشاطئ، وما من زبد، بل ولا رقرقة تدب في سطح الماء الصقيل. وبدأ وكأن كتلة زجاج متجمدة قد استقرت في جرن ضخم ثقيلة وضاءة، وغطست السماء فيها إلى القعر، وراحت الاشجار الفرعاء تحدق ساكنة في أعماقها الشفافة. ظل الجميـع يمتعون ابصارهم في المنظر بصمـت ولوقت طويل، وحتى شوبين هـدأ، وزويا غرقت في سهوم. وأخيراً رغب الجميع بالاجماع في ركوب مـتن الماء. ركض شوبين واينسـاروف وبيرسينيف متسابقين على العشب إلى الاسفـل. وعثروا على قارب كبير مصبـوغ، ووجدوا مجذِّفين، ودعوا السيدات. نزلت السيدات إليهم. وهبط اوفار ايفانوفيتش خلفهن بحذر. وبينمـا كان ينزل إلى القارب، ويتخذ مكانـه فيه ارتفع ضحك كثير. قال احـد المجذفين، وهو شاب افطس في قميص قطني أحمر مخطط: "حذار، يـا سيد، أن تغرقنـا" فرد اوفـار ايفانوفيتش: "هس، هس، يـا عربيدا!". وتحرك القارب. وتناول الشباب المجاذيف، ولكن اينساروف وحده كان يحسن التجذيف. اقترح شوبـين أن يغنوا جميعاً أغنية روسية، وشرع هو يغني: "بانحـدار الفولغا الام..."، وانضم إليـه بيرسينيف وزويا، وحتى آنـا فاسيليفنا (كان اينساروف لا يحسن الغناء) ولكن الاصوات تنافرت، وتشربك المغنون في البيت الثالث من الاغنية، وبيرسينيف وحده حاول أن يمضـي بالاغنية بصوته الواطئ: "لا شيء يرى في الامواج" ولكنه سرعان مـا ارتبك هـو الآخر. وتغامز المجذفـان، وكشرا عـن اسنانهما بصمت. قـال لهم شوبين: "ها؟ الظاهر أن السادة لا يعرفون كيف يغنون؟" اكتفى الشاب ذو القميص الاحمر المخطط بهز رأسه. قال شوبين: "على مهلك،

اذن، يـا افطس. ستريك، يا زويا نيكيتشنا، غني لنا: "Le lac" لنيدرميير. اتركـوا التجذيف!" ارتفعـت المجاذيـف المبللة في الهـواء، كالاجنحة، وجمـدت في مكانها، تفطر قطـرات ترن في سقوطهـا في الماء. انساب القـارب قليلاً، ثم وقف، ودار قليلاً في الماء كالبجعة. تمنعت زويا، فقالت آنـا فاسيليفنا بلطف: "Allon! "[19]. خلعـت زويا قبعتها، وغنت: "O lac! l'année à peine a fini sa carrière..."[20].

وانطلـق صوتها الصافي، وأن كان ضعيفـاً، منداحاً على مرآة البركة. وكانـت كل كلمة ترجـع صدى بعيـداً في الغابات، حيـث كان ثمة مَنْ يغني بصوت صداح وغامض، ولكنه لا إنساني ولا يمت بصلة إلى المكان. وحين فرغت زويا من الغناء ترددت "برافو" عالية من احدى التعريشات علـى الشاطـئ، وطلع منها بعض الالمـان الحمر الوجوه الذيـن جاءوا إلى تساريتسينو للهو والسمر. وكان بعضهم قد خلعوا سترهم واربطة العنق، وحتى الصدارات، وظلوا يصيحون "bis!" بالحاف، حتى أن آنا فاسيليفنا امـرت بالتحول إلى طرف البركة الآخر باسرع وقت. ولكن قبل أن يرسو القارب إلى الشاطئ لحق اوفار ايفانوفيتش أن يدهش أصحابه مرة أخرى. فقـد لاحـظ أن الصـدى في مكان معين مـن الغابة كان يرجـع كل كلمة بوضـوح مميز، فـراح فجأة يصيح بصوت السمَّـان. في بادئ الأمر جفل الجميـع، ولكنهـم شعروا على الفور بارتياح حقيقـي، لا سيما وأن اوفار ايفانوفيتش كان يصيح بمهارة شديدة وشبه كبير بالسمَّان. وقد شجعه هذا الأمـر، فحاول أن يموء كما تموء القطة، ولكن مـواءه لم يكن موفقاً كثيراً. فأطلـق صيـاح السمَّان، ونظـر إلى الجميع وصمت. اندفـع شوبين يقبله

---

(١٩) هيا! (بالفرنسية في الاصل).

(٢٠) ايه، ايتها البحيرة! ما كاد العام يقطع شوطه (بالفرنسية في الاصل).

فدفعه عنه. وفي تلك اللحظة رسا القارب، وهبط الجميع إلى الشاطئ.

وخلال ذلك كان الحوذي والخادم والخادمة قد جلبوا السلال من المركبة، واعدوا الغداء على العشب، تحت أشجار الزيزفون المعمرة. وجلس الجميع متحلقين حول الخوان المفروش على العشب، وشرعوا يأكلون معجون الطيور والاطايب الاخرى. وكانت شهية الجميع ممتازة، وكانت آنا فاسيليفنا من حين لآخر ترجو ضيوفها أن يتذوقوا الاطعمة، وتحثهم على أن يأكلوا أكثر، مؤكدة أن الاكل في الهواء الطلق صحة وعافية. وكانت تتوجه بمثل هذه الجمل إلى اوفار ايفانوفيتش، فكان هذا يتمتم من فم مملوء: "كوني مطمئنة". وكانت هي تؤكد باستمرار: "حمداً للرب على هذا اليوم الرائع!" وقد تغيرت كثيراً، فكأنها ارتدت إلى الشباب عشرين عاماً. ذكر بيرسينيف ذلك لها فقالت: "نعم، نعم. كنت في زماني مبرَّزة، إذا عدت عشر من النساء كنت واحدة منهن". وانضم شوبين إلى زويا، وراح يصب لها النبيذ دون انقطاع، فكانت ترفض، فيلح في استضافتها، حتى انتهى به الأمر إلى أن يشرب هو القدح كله، ثم عاد يستضيفها من جديد. كما كان يؤكد لها أنه يود أن يسند رأسه إلى ركبتيها، ولم ترد هي أن تبيح له "مثل هذه الفلتة الكبيرة". وكانت يلينا أكثر الجميع جدية، ولكن قلبها كان تغمره سكينة عجيبة لم تذقها منذ زمان. وكانت تشعر بأنها طيبة إلى ما لا حد له، فتود أن يرافقها بيرسينيف أيضاً، لا اينساروف وحده... وكان اندريه بيتروفيتش يدرك على نحو مبهم ما معنى ذلك، ويرسل الزفرات خلسة.

انقضت الساعات سراعاً، واقترب المساء. وفجأة لاح القلق على آنا فاسيليفنا، فقالت: "آه، يا ربي، الوقت متأخر. أكلتم وشربتم، يا سادة. والآن حان وقت الانصراف". واستعجلت، واستعجل الجميع معها، ونهضوا، وساروا باتجاه القلعة، حيث تقف العربتان. ولما مروا بالبرك وقفوا جميعاً ليمتعوا انظارهم في تساريتسينو للمرة الأخيرة. كانت الوان

مـا قبيل المســاء تتوهج ساطعة في كل مكان. تـوردت السماء، والتمعت اوراق الشجـر متماوجة الالوان، مستثارة بهبـوب النسيم. وكانت المياه البعيـدة تشـع كالذهــب المـذاب. وكانت الابـراج الضاربـة إلى الحمرة والتعريشــات المتناثرة في الحديقة تبرز حادة المعالم من بين خضرة الاشجار القـاتمـة. قالت آنا فاسيليفنا: "وداعاً، يا تساريتسينـو، لن ننسى أبداً رحلة اليـوم!" وفي تلك اللحظـة وقع حادث غريـب ليس من السهـل نسيانه بالفعل، وكان في حدوثه تأكيداً على قولها.

وهذا ما حدث: ما كادت آنا فاسيليفنا ترسل تحية الوداع إلى تساريتسينو حتـى ترددت فجأة، مـن وراء أجمة ليلق عالية، علـى بعد عدة خطوات منها، هتافات وضحكات، وصيحات متنافرة، وطلعت إلى الدرب عصبة مـن الرجال الشُعـث، هم نفس هواة الغناء الذيـن صفقوا الزويا بحماس. وكان الســادة الهواة هؤلاء في سكر شديـد. توقفوا عند مرأى السيدات، إلا أن احدهـم، وهو مديد القامة ذو رقبـة كرقبة الثور، وعينين حمراوين كعيني الثور أيضـاً، انفصل عن رفاقه، وتقدم من آنا فاسيليفنا التي سمّرها الفزع، منحنياً بحركة خرقاء، متمايلاً في مشيته. وقال بصوت اجش:

— بونجور، مدام. كيف صحتك؟

تراجعت آنا فاسيليفنا قليلاً! فمضى العملاق يقول بلغة روسية ركيكة:

— لمـاذا لم تريـدي أن تعيدي الغنـاء، عندما كانت جماعتنـا تصيح "bis!" وبرافو وفورو؟

فترددت اصوات من جماعته:

— نعم، نعم، لماذا؟

تقدم اينســاروف إلى الامام، إلا أن شوبين اوقفـه، وحجب بنفسه آنا فاسيـليفنا قائلاً:

– اسمـح لي، أيها الغريب المحترم، أن اعرب لك عن الدهشة الصادقة التـي تثيرهـا تصرفاتك فينا جميعـاً. أنت، بقدر مـا يسعفني حكمي، من الفرع الساكسـوني لقبيلة القفقاس، وبالتـالي نفترض فيك الاطلاع على آداب السلـوك الراقيـة، بينما أنت تتكلم مع سيـدة ليست لك معها سابق معرفة. تأكد أنني في ظرف غير هذا الظرف سأكون بشكل خاص مسروراً جداً للتعرف عليك، لأنني الحظ فيك تطوراً جباراً في عضلات biceps، triceps، deltoïdeus، ممـا سأعتـبره شرفاً حقيقيـاً لي، كنحات، أن اتخذك موديلاً. ولكن في هذه المرة اتركنا وشأننا.

اصغـى "الغريب المحـترم" إلى خطبة شوبـين كلها مميـلاً رأسه جانباً بازدراء، متخوصراً بيديه. وأخيراً قال:

– أنـا يعـرف لا شيء مما يقول أنـت. ربما أنت يحسب أنـا اسكافاً أو اوسطه ساعات؟ أي! أنا ضابط، أنا موظف نعم.

قال شوبين:

– أنا لا أشك في ذلك.

– الذي اقوله – مضى الغريب يقول مزيحاً اياه بيده الجبارة كما يُزاح غصن من الطريق – اقول لماذا لم تغن bis، لما صحنا bis؟ والآن سأنصرف في هـذه اللحظة لو أن هذه الفراولايـن، وليست تلك المدام، لا حاجة لي بهـا، لو أن هذه أو تلك (واشار إلى يلينا وإلى زويا) اعطتني einen kuss، كما تقول بالالمانية، بوسه. نعم. ها؟ هذا لا شيء.

وترددت أصوات في صفوف الجمع مرة أخرى:

– لا شيء، einen kuss، هذا لا شيء.

قال الماني مغرور للغاية مختنقاً بضحكته:

– Ach! Der Sakramenter! [٢١]

امسكت زويا بيد اينساروف، إلا أنه انفلت منها، وصار امام العملاق الوقح وجهاً لوجه. وقال له بصوت حاد وأن لم يكن عالياً:

– تفضل، انصرف.

قهقه الالماني بثقل.

– كيف انصرف؟ أنا أحب هذه أيضاً! يعني لا استطيع أنا أيضاً أن اتنزه؟ كيف انصرف؟ ولماذا انصرف؟

– لأنك تجاسرت على ازعاج سيدة – قال اينساروف، وشحب لونه فجأة – لأنك سكران.

– كيف؟ أنا سكران؟ سامعون؟ [٢٢] Hören Sie das‹ Herr Provisor? أنا ضابط، وهو يجسر... الآن اطالب [٢٣] Satisfaction! Einen Kuss will ieh!

قال اينساروف:

– لو خطوت خطوة أخرى...

– طيب؟ ماذا سيكون؟

– ساقذفك في الماء.

– في الماء؟ Herr Je !! [٢٤] وفقط؟ طيب، لنر، هذا طريف جداً، كيف هذا في الماء...

---

(٢١) آه، الملعون (بالالمانية في الاصل).

(٢٢) هل تسمع هذا، أيها السيد الصيدلي؟ (بالألمانية في الاصل).

(٢٣) تعويضاً! اريد قبلة (بالالمانية في الأصل).

(٢٤) أيها السيد المسيح (بالالمانية في الأصل).

ورفع السيد الضابط ذراعيه، وتقدم إلى الامام. ولكن شيئاً غير اعتيادي حصل فجأة. تآوه، وترنح جسده الضخم كله، وارتفع في الأرض، ورفست رجلاه في الهواء، وقبل أن تلحق السيدات على الصياح، وقبل أن يعي أحد كيف حصل ذلك انقذف السيد الضابط في البركة بكل جرمه مثيراً رشاشاً ثقيلاً، واختفى في الحال، تحت الماء الجياش.

زعقت السيدات في صوت واحد:

- آي!

وتردد من الجانب الآخر:

- Mein Gott ! (٢٥)

وانقضت دقيقة... وظهر من تحت الماء رأس مدوّر وشعره المبلل ملتصق به، والفقاعات خارجة منه. وتخبطت ذراعان بارتعاص قرب الشفتين تماماً...

صاحت آنا فاسيليفنا باينساروف:

- أنه يغرق، انقذه، انقذه!

وكان اينساروف يقف على الشاطئ منفرج الساقين، ثقيل الانفاس. فقال بلا مبالاة قاسية ومزدرية:

- سيخرج سباحة - ثم اضاف، وهو يمسك بيد آنا فاسيليفنا - لنذهب، لنذهب، يا اوفار ايفانوفيتش، يلينا نيقولايفنا.

وفي تلك اللحظة صدرت صيحة:

- أ.. آ.... أو.. أو...

---

(٢٥) يا الهي (بالألمانية في الأصل).

رددهـا ذلك الالماني التعيس، وقد استطـاع أن يتشبث بقصب قرب الشاطئ.

وسـار الجميـع في اثـر اينسـاروف، وكان علـى الجميع أن يمـروا بـ "الجماعـة" ذاتها، وقد خسرت رئيسها، فهدأت و لم تنبس بكلمة، سوى أن أحـد افرادها، وهو أكثر جرأة، تمتم، وهو يهز رأسه: "أوه، هذا.. على أيـة حـال... الله يعلم ماذا... بعد هـذا". بل أن آخر رفـع قبعته. لقد بدا اينساروف لهم رهيباً جداً، وعن صدق فقد ارتسم على وجهه شيء منذر، شيء خطير. هرع الالمان ليخرجوا رفيقهم، وما كاد هذا يقف على أرض صلبة حتى أخذ يشتم بعبرة، ويصرخ في أثر هؤلاء "المحتالين الروس" بأنه سيرفع شكوى، وسيذهب إلى سيادة الكونت فون - كيزيرتس نفسه...

إلا أن "المحتالـين الروس" لم يعـبروا لصياحاته التفاتـاً، وساروا نحو القلعة بأسرع مـا يستطيعون. التزم الجميع الصمـت، حين كانوا يسيرون في الحديقـة، إلا أن آنا فاسيليفنا كانت تتـأوه بخفوت. ولكنهم ما كادوا يقتربـون من العربتـين، وتوقفوا، حتـى ارتفع منهم ضحـك متواصل لا يكبح، مثـل ضحك الآلهة لدى هوميروس. في البداية انفجر شوبين في ضحك موصوص، كالمجنونّ، وتبعه بيرسينيف، في ضحك مكركر، ثم لحقتـه زويا في ضحك ناعم، وانفرجت آنـا فاسيليفنا هي الأخرى فجأة، وحتـى يلينـا لم تستطـع أن تكبح بسمتهـا وتلاشت مقاومـة اينساروف أخيراً، فضحك. ولكن اوفـار ايفانوفيتش كان اعلاهم ضحكاً واطولهم فيه، واكثرهم حماساً. ضحك حتـى وخزته خاصرته، وسعل، واختنقت انفاسه. وكان يهدأ قليلاً، ليقول والدموع في عينيه: "فكرت... ما هذا... يلبـط؟.. فهذا... هو... مبطوح..." وكانـت الكلمة الاخيرة المرعوصة تكتمهـا نوبة ضحك اخرى تهز كيانه كله. وكانت زويا تحضه أكثر قائلة: "رأيتـه... رجلاه في الهـواء..." فيقول اوفـار ايفانوفيتش: "نعم، نعم، رجـلان، رجـلان... وبمب! فهذا هـو... مبطوح!.." - فتسـأل زويا:

"وكيـف تحايـل عليه.. والالماني أكـبر منه بثلاث مـرات؟" فيقول اوفار ايفانوفيتش، وهو يمسـح الدموع من عينيه: "سأقـول لك. رأيت بعيني. طوَّقـه بيد، ووضع قدماً أمامه فتشقلب! سمعت الصوت. ما هذا؟.. فإذا هو مبطوح...".

و لم يهـدأ اوفـار ايفانوفيتش حتى بعد أن تحركـت العربتان، واختفت قلعـة تساريتسينو عن الانظار. وكان شوبـين يجلس معه في طريق العودة أيضاً، فأخذ يعيب عليه ليسكت.

وكان اينساروف يشعر بالخجل. كان يجلس في المركبة قبالة يلينا لائذاً بالصمت (كان بيرسينيف يجلس إلى جانب الحوذي) وكانت يلينا صامتة أيضـاً. كان اينساروف يفكر في أنها تدينه، و لم تكن هي تدينه. كانت قد فزعت فزعاً شديداً في الوهلة الأولى، ثم اذهلها التعبير الذي كان مرتسماً علـى وجهه، وبعد ذلك ظلـت تفكر. و لم يكن واضحاً لها تماماً ما كانت تفكـر فيه. لقد اختفى الشعور الذي كانت تحس به خلال النهار، وكانت تعي ذلك، إلا أن شعوراً آخر لم تكن تفهمه بعد قد حل محله. لقد استمرت partie de plaisir وقتـاً أطول من اللازم، وتحـول المساء إلى ليل دون أن يلحـظ. وكانت المركبـة تنطلق مسرعـة خلال حقول محاصيـل ناضجة، حيـث الهواء كثيف وأَرِج، وفواح برائحـة الخبز، ثم خلال مروج واسعة تمر نداوتها المفاجئة على الوجوه مثل مويجة خفيفة. وكانت السماء تبدو داخنة في حوافيها. وأخيراً انساب القمر احمر شاحباً. كانت آنا فاسيليفنا تهوم ناعسة، وزويا تطـل برأسها من النافذة، تتطلع إلى الطريق. خطر في بال يلينا أخيراً أنها لم تتحدث مع اينساروف منذ أكثر من ساعة. فتوجهت إليـه بسؤال بسيط، فاجابها على الفـور بفرح. وسرت في الهواء اصوات مبهمة، حتى لكأن آلاف الاصوات تتكلم في مكان بعيد: صارت موسكو تقـترب مندفعة نحوهم. وتوامضت اضواء إلى الامام، ظلت تكثر وتكثر، واخيرا صارت احجار الطـرق المرصوفة ترن تحت العجلات. استيقظت



آنا فاسيليفنا، وأخذ جميع مَنْ في المركبة يتكلمون، رغم أن أي واحد منهم لم يستطع أن يلتقط كلمات الحديث، بسبب القرقعة الشديدة التي كانت ترسلها العربتان واثنان وثلاثون حافراً على الطريق المبلط. وبدأ الطريق من موسكو إلى كونتسوفو طويلاً ومضجراً. نام الجميع أو لاذوا بالصمت، متكئين بروؤسهم إلى زوايا مختلفة.. ويلينا وحدها لم تغمض عينيها. فقد كانت تصوبهما إلى شبح اينساروف المعتم. وجثمت الكآبة على شوبين. كانت الريح تهب في عينيه، وتضايقه، لف رأسه في ياقة معطفه، وكاد أن ينفجر باكياً. وكان اوفار ايفانوفيتش يشخر في هناءة مترنحاً يميناً وشمالاً. وأخيراً توقفت العربتان. اخرج خادمان آنا فاسيليفنا من المركبة. فقد خارجت قواها كلياً، واعلنت، وهي تودّع المسافرين معها، أنها تكاد تموت أعياء، صاروا يشكرونها، بينما ظلت هي تردد "أكاد اموت". صافحت يلينا (للمرة الأولى) يد اينساروف، وبقيت جالسة إلى النافذة وقتاً طويلاً دون أن تخلع ملابسها. وسنحت لشوبين الفرصة ليهمس لبيرسينيف أثناء خروجه:

– بطل، بالطبع. يقذف الالمان السكارى في الماء.

– أما أنت فلم تقدم حتى على هذا.

ردّ بيرسينيف عليه، واتجه إلى البيت بصحبة اينساروف.

وعندما عاد الصديقان إلى بيتهما كان الفجر يتراءى في المساء. والشمس لم تنهض بعد، وفي الجو شيء من برودة الليل، والندى الفضي يغطي العشب، والقُبّرات الأول تصدح عالياً في الغور الهوائي الغاسق، حيث نجمة الليل الكبيرة الاخيرة تطل من هناك مثل عين وحيدة.

١٦

كانـت يلينا، بعد وقت قصير، من تعرفها علـى اينساروف قد شرعت تكتب يوميـات (للمرة الخامسة أو السادسة). وهـذه مقتطفات من هذه اليوميات:

... حزيـران، يجلب اندريـه بيتروفيتش لي كتبـاً، ولكنني لا استطيع قراءتهـا. وأنا اخجل من الاعـتراف له بذلك، ولا ارغـب في رد الكتب إليـه قائلة إليه كاذبة: لقد قرأتها.. اظن ذلك سيكدره. أنه يلحظ كل شيء يخصني، يبدو أنه متعلق بي جداً. اندريه بيتروفيتش رجل لطيف جداً.

... مـاذا اريد؟ ولماذا قلبـي مثقل ومنقبض بهذا الشـكل؟ ولماذا انظر إلى الطيـور العابرة بحسد؟ يبدو أنني اتمنى أن اطير معها، اطير، ولا ادري إلى أيـن، فقط أن اطير بعيـداً، بعيداً، عن هنا. اوليست هذه رغبة آثمة؟ أن لي، هنـا، أما وأباً وعائلة. أولست احبهـم؟ لا، لست احبهم الحب الذي اهوى. ويرعبني أن اقول ذلك. ولكنه حق. فلعلي آثمة كبيرة، ولربما لهذا السبـب احس بهذه الكآبة، وافتقر إلى سكينـة النفس. أن يداً تهبط عليَّ، وتسحقني. وكأننـي في سجن، وجدرانه ستنهار عليَّ بين لحظة وأخرى. لمـاذا لا يشعـر الآخـرون شعوري هـذا؟ ومَـنْ سأحب، إذا كنـت باردة الاحساس مـع أهلي؟ يبدو أن أبي على حق، حـين يؤنبني بأنني لا أحب غير الكلاب والقطط. يجب أن افكر في ذلك. أنا قليلة الصلاة، يجب أن اصلي... يبدو أنني قادرة على أن أحب، على أية حال!

... أنا مـا ازال اتهيب من السيد اينسـاروف، ولا اعرف السبب، لا اظنني صغيرة جـداً، أنه رجل بسيط وطيب. ووجهه، في بعض الأحيان، رزيـن جداً. ولعل في ذهنه ما يشغله عنا. وأنا اشعر بذلك، واخجل، على مـا يبدو، مـن أن انتزع منه وقتـه. واندريه بيتروفيتش شـيء مختلف. وأنا مستعـدة لأن اثرثر معه النهار بطوله، إذا اردت. ولكنه هو الآخر يحدثني

دائماً عن اينساروف. وبأية تفاصيل مرعبة! الليلة حلمت به، والخنجر في يده، وهو يقول لي: "سأقتلك، واقتل نفسي". اية سخافات!

.... آه، لـو أن احـداً قال لي: هذا ما ينبغـي أن تفعليه! قليل أن يكون الإنسان خـيراً. المهم أن يفعل الخير. أجل، ذلك هـو الاساسي في الحياة. ولكـن كيف يفعل الخير؟ آه، لو كنـت استطيع أن امسك بزمام نفسي! أنا لا ادري لمـاذا افكر في السيد اينسـاروف، وبهذه الكثرة. حين يأتي إلينا، ويجلس، ويصغي بانتباه، دون أن يبدو عليه تكلف أو اجهاد، احدق فيه، واحس بارتياح، ولكن لا شيء آخر. غير أنه حين ينصرف اظل اتذكر كل كلماتـه، واضيق من نفسي، بـل وانفعل... ولا اعرف لمـاذا. (أنه يتكلم الفرنسيـة بطريقة سيئة، ولكنه لا يخجـل من ذلك، وهذا ما يعجبني منه) وعلى العموم أنا دائماً افكر كثيراً في الوجوه الجديدة. عندما كنت اتحدث معـه تذكرت فجأة ساقينا فاسيلي الـذي اخرج عجوزاً مبتور القدمين من كـوخ يحترق، وكاد يُـوذي بحياته. وقد نعته أبـي بالشاطر، واعطته أمي خمسة روبلات، بينما اردت أنا أن انحني أمامه. أن له أيضاً وجهاً بسيطاً، بل وبليداً، ثم صار، بعد ذلك، سكيراً.

... اليـوم اعطيت قرشاً للشحاذة. ولكنهـا قالت لي: لماذا انت حزينة بهـذا الشـكل؟ أنا لا احدس أن لي مظهراً حزينـاً. اظن أن ذلك راجع إلى أنني وحيدة، طوال الوقت وحيدة، مع كل طيبتي، ومع كل شري. لا أحد أمد له يدي. لا اريد مَنْ يتقرب اليَّ... بل اريد مَنْ يتخاطاني.

... لا ادري مـاذا بي اليوم. رأسي غائم. أنا مستعدة إلى ان اركع على ركبتـي، واطلب واستجدي الرأفـة. يخيل اليَّ أنني أُقتل، لا اعرف كيف، ولا مَنْ يقتلني، واصرخ في سري واحنق. ابكي، ولا استطيع أن اصمت... يـا الهي! يا الهي! إكبح فيَّ هذه السورات! فأنت وحدك قادر على ذلك. ولا شـيء غـيرك. لا شيء يستطيع أن يسعفنـي، لا حسناتي الصغيرة، ولا

اشغالي، لا شيء. ليتني أخرج لاخدم في أحد البيوت، حقاً، فأن ذلك سيخفف مما اقاسي.

ما جدوى الشباب، ما جدوى أن اعيش، و لِمَ لي روح، لِمَ كل هذا؟

... اينساروف، السيد اينساروف - لا اعرف كيف اسميه - ماض في الاستحواذ على انتباهي. اود لو اعرف ماذا يجري في قلبه. وهو يبدو لي صريحاً جداً، وميسراً على الفهم، ومع ذلك لا انفذ إلى شيء. أحياناً ينظر اليَّ بعينين سابرتين... أم ذلك ما اتصوره لا غير؟ بول لا يزال يناكدني وأنا غاضبة عليه. ماذا يريد؟ أنه يعشقني، ولكنني لست بحاجة إلى هذا العشق. وهو يعشق زويا أيضاً. أنا لست منصفة معه. قال لي يوم أمس أنني لا استطيع أن اكون غير منصفة إلى النصف... هذا صحيح. هذا سيء جداً.

آه، أنا احس بأن الانسان يحتاج إلى بلية أو شقاء أو إلى مرض. وإلا فأنه يشمخ.

... لماذا حدثني اندريه بيتروفيتش اليوم عن هذين البلغاريين! يبدو أنه تقصد ذلك. وما شأني بالسيد اينساروف؟ أنا غاضبة على اندريه بيتروفيتش.

... أمسك الريشة، ولا اعرف كيف ابدأ. يا لها من مفاجأة حديثه اليوم معي في الحديقة! كم كان ودوداً وواثقاً! وكيف حصل هذا بهذه السرعة! وكأننا صديقان قديمان، قديمان، والآن فقط عرف احدهما الآخر. كيف لم استطع أن افهمه حتى الآن! وما اقربه اليَّ الآن. والشيء المذهل انني الآن صرت اهدأ بكثير. يضحكني أنني غضبت يوم أمس على اندريه بتروفيتش، وعليه، بل ناديته السيد اينساروف. أما اليوم... عثرت أخيراً على إنسان صادق يمكن الاعتماد عليه. أنه لا يكذب، أنه أول إنسان التقيه، لا يكذب. الآخرون جميعاً يكذبون، كل شيء كذب. يا عزيزي،

اندريه بتروفيتش، الطيب لماذا تراني أجور عليك؟ لا! ربما اندريه بتروفيتش اكثر منه علماً، بل ولربما أكثر ذكاء... ولكن يبدو أمامه صغيراً جداً، ولست ادري لماذا. وحين يتكلم ذاك عن وطنه ينمو وينمو ويكتسي وجهه رونقاً، وصوتـه كالفولاذ، فيبـدو لي، آنذاك، أن ما من إنسـان في العا لم يمكن أن ينكس بصره أمامه. وهو لا يتكلم فقط، بل هو يعمل وسيعمل. سأكثر من سؤالـه... وإذا به يستدير الي، ويبتسـم لي!.. الاخوة فقط يتسمون بهذا الشـكل. آه، كم أنا راضية! عندما جاءنا في المرة الأولى لم اكن اتصور قط أن احدنا سيقترب من الآخر بمثل هذه السرعة. بل يعجبني الآن أنني بقيت في المرة الأولى غير مبالية... غير مبالية! وهل معقول أنني مبالية الآن؟

... منـذ زمان لم اشعر بمثل هذه السكينة. هادئـة نفسي، هادئة جداً. وليس لي ما ادونه. غالباً ما اراه، وهذا كل ما في الأمر. فماذا ادون أكثر؟

... صـار بول يعتكف مع نفسه، وقلت زيارات اندريه بيتروفيتش... مسكين! يبدو لي أنه... على العموم هذا غير ممكن. أنا أحب التحدث إلى اندريـه بيتروفيتش. لم يتحدث بكلمة عن نفسه قط، دائماً عن شيء جدي ونافـع. وليس مثل شوبين المتأنق كالفراشة، ويعجب بقيافته. وهو شيء لا تفعله الفراشات. وشوبين واندريه بيتروفيتش كلاهما، على أية حال... أنا اعرف ماذا اريد أن اقول.

... أنـه يرتاح لزيارتنا، ويمكننـي أن ارى ذلك. ولكن لماذا؟ وما وجد فيَّ؟ حقـاً أن ذوقينـا متشابهان، وكلانـا، – هو وأنـا – لا يحب الشعر، فكلانـا ليس عليماً في الفن. ولكنه أفضل منـي بكثير! أنه هادئ، وأنا في اضطـراب دائـم. أنه له طريقاً، هدفاً، وأنا إلى أيـن اذهب؟ أين عشي؟ أنه هـادئ، ولكن كل افـكاره تحلق في البعيـد. سيأتي وقـت، وسيتركنا إلى الأبـد، يرحـل إلى وطنه، وراء البحر، هناك. ومـا في ذلك؟ مع عون الله! على أية حال سأكون مسرورة لأنني عرفته، حين كان هنا.

ولماذا هو غير روسي؟ لا، ما كان من الممكن أن يكون روسياً.

أمـي تحبه، وتقول أنه رجل متواضع. أمـي طيبة! أنها لا تفهمه. وبول صامـت، حدس أن تلميحاته لا تعجبني. ولكنـه يغار منه. صبي خبيث! وهل له حق في ذلك؟ هل كنت يوماً ما...

كل هذه توافه! ولِمَ يدور كل هذا في ذهني؟

... ولكن من الغريب، على أية حال، أنني حتى الآن، وأنا في العشرين مـن العمر لم أحب أحداً! يبـدو لي أن صفاء قلب د (ساسميه د، فان اسمه "دميـتري" يعجبني) أن صفاء قلبه بهذا الشـكل عائد إلى أنه وهـب نفسه كلهـا لقضيته، لامنيتـه. وما الداعي إلى أن يقلـق؟ أن كل مَنْ وهـب نفسه كلها... كلها... كلها لا يضطرب، ولا يأبه لشيء. لست أنا التي تريد بل ذلـك يريد. بالمناسبة، أنا وهو نحب نفس الزهـور. اليوم اقتطفت وردة. سقط تويج فرفعه... قدمت له وردتي.

حلمت منذ بعض الوقت احلاماً غريبة. فما معنى هذا؟

... د يـتردد علينا كثـيراً. يوم أمس قضـى المساء كله عندنـا، أنه يريد أن يُعلمنـي اللغـة البلغارية، وأنا أحس بارتياح معـه، وكأنما بين أهلي، بل احسن.

... الأيـام تمر سراعاً... وأنا أحس بارتياح، وخوف لسبب ما، واريد أن احمـد الله، والعبرات توشك أن تطفر من عيني. آيه، أيتها الايام الدافئة الوضيئة!

.... ما زلت احسـن بانشراح، كالسابق، ولكن شيئاً من الحزن ينتابني من حين لآخر. أنا سعيدة. هل أنا سعيدة؟

.... سأظل طويلاً اتذكر رحلة يوم أمس. أية انطباعات غريبة، جديدة، مخيفـة! عندما رفع ذلك العمـلاق فجأة، والقاه في الماء، كما تلقى كرة، لم

ارتعب... ولكن هو الذي ارعبني. رأيت وجهه بعد ذلك منذراً بالشؤم، يكاد أن يكون فظاً! كيف عبَّر عند ذاك: سيخرج سباحة! أثر فيَّ هذا جداً. يعني أنا لم افهمه. وفيما بعد، اخذ الجميع يضحكون، وحضكت أنا أيضاً، تألمت له! شعر بالخجل. هذا ما احسسته. خجل مني. وقد قال لي ذلك، فيما بعد، حينما كنا في المركبة، في الظلام، حين كنت اتفرس فيه، واخشاه. اجل، لا مجال للمزاح معه، وهو يجيد الدفاع. ولكن لِمَ هذا الغيظ، هاتان الشفتان المرتعشتان، هذا السم في العينين؟ أم لعل هذا لا بد منه؟ ولا يجوز أن تكون رجلاً، مناضلاً، وتظل وديعاً ناعماً في الوقت ذاته؟ قبل حين قال لي الحياة فظة. وقد كررت هذه الكلمة على اندريه بيتروفيتش، فلم يتفق مع د. فأيهما على حق؟ ثم ما اروع ما ابتدأنا به النهار! وما اهنأني وأنا اسير إلى جانبه، ولو نصمت... ولكنني مسرورة بما حدث. الظاهر أن هذا ما كان ينبغي.

... القلق مرة أخرى... لست في حالة صحية جيدة.

... خلال هذه الايام كلها لم اكتب شيئاً في هذا الدفتر، لأنني لم اجد في نفسي الرغبة في الكتابة. شعرت بأنني مهما كتبت لن اعبر عما في قلبي... ولكن ماذا في قلبي؟ جرى بينه وبيني حديث طويل كشف لي الكثير. حدثني عن مشاريعه (بالمناسبة أنا اعرف الآن سبب الجرح على رقبته... يا ربي! حين رحت افكر بأنه قد حكم بالاعدام، وما كاد ينجو، وأنه قد جرح...". وهو يستشعر بوقوع الحرب، ويفرح بها، ومع كل هذا لم اره قط حزيناً بهذا الشكل... ما الذي يمكن أن يحزنه هو؟ عاد بابا من المدينة، ووجدنا جالسين سوية، فنظر إلينا نظرة غريبة. زارنا اندريه بيتروفيتش، فلاحظت أنه قد نحف كثيراً وشحب لونه. وعاتبني زاعماً أنني أعامل شوبين ببرود شديد وباهمال. ولكنني نسيت بول هذا تماماً. إذا رأيته سأحاول أن اصلح ذات البين. لي ما يشغلني عنه الآن، وعن أي شخص آخر في الدنيا. كان اندريه بيتروفيتش يتكلم معي بشيء من

الأسف. فما يعني كل هذا؟ لم اشعر بالظلام حولي، وفي داخل نفسي؟ يبدو لي أن ما يحدث حولي وفي داخلي مُلغز، وأنا احتاج إلى العثور على الكلمة المعبرة عنه...

... لم انم الليل. رأسي يؤلمني. ولِمَ اكتب؟ اليوم انصرف بسرعة، وكنت في شوق إلى أن اتحدث إليه... يبدو وكأنه يتحاشاني. نعم، أنه يتحاشاني.

... وجدت الكلمة. غمرني ضوء! يا الهي، ارحمني... أنا عاشقة!

١٧

في نفس اليوم الذي كانت يلينا فيه تسجل تلك الكلمة الفَصْل في يومياتها، كان اينساروف جالساً في حجرة بيرسينيف، وكان بيرسينيف يقف أمامه والحيرة مرتسمة على وجهه. وكان اينساروف قد ابلغه لتوه عن نيته في الانتقال في اليوم التالي إلى موسكو، هتف بيرسينيف:

– رحماك! الآن سيبدأ اجمل وقت هنا. فما الذي تفعله في موسكو؟ أي قرار فجائي هذا! أم لعلك تلقيت خبراً معيناً؟

قال اينساروف:

– لم اتلق أي خبر. ولكن لا يجوز أن ابقى هنا، حسب ما ارى.

– ولكن كيف يمكن هذا...

قال اينساروف:

– اندريه بيتروفيتش، اعمل معروفاً، ولا تلح. ارجوك. أنا نفسي يعز عليَّ أن افارقك. ولكن لا بد مما ليس منه بد.

تفرس بيرسينيف فيه. ثم قال أخيراً:

– أنا اعرف أنه لا يمكن اقناعك. يعني قرارك نهائي؟

- نهائي تماماً.

رد اينساروف، ونهض وانصرف.

ذرع بيرسينيف حجرته ذهاباً ومجيئة، ثم تناول قبعته، وذهب إلى آل ستاخوف.

قالت له يلينا حين بقيا وحيدين:

- لديك ما تخبرني به.

- نعم، وكيف حدست؟

- هذا لا يهم. قل لي ماذا وراءك؟

واخبرها بيرسينيف بعزم اينساروف.

شَحُبت يلينا. ونطقت بعسر:

- ماذا يعني هذا؟

قال بيرسينيف:

- أنت تعرفين أن دميتري نيكانوروفيتش لا يحب الكشف عما وراء تصرفاته. ولكنني اعتقد... لنجلس، يلينا نيقولايفنا، يبدو عليك التوعك... أظن أنني استطيع أن احدس السبب الحقيقي لسفره المفاجئ.

- ما هو السبب الحقيقي؟

كررت يلينا، وهي تعصر بقوة يد بيرسينيف في يدها الباردة، دون أن تلحظ ذلك.

شرع بيرسينيف يقول بابتسامة حزينة:

- وكيف اشرح لك ذلك؟ يتعيّن عليّ أن أعود إلى الربيع الماضي، إلى الوقت الذي تعرفت باينساروف عن كثب. التقيته، آنذاك، في بيت أحد اقاربي. وكانت لقريبي هذا ابنة، مليحة جداً، وكان يخيل الي أن

اينساروف شغوف بها، وقلت له ذلك. ضحك واجاب بأنني مخطئ، وأن قلبه سليم، وأن ذلك لو حصل له فسيرحل على الفور، لأنه لا يرغب في أن يخون قضيته وواجبه من أجل اشباع عاطفة شخصية. وكانت هذه كلماته بالذات وقال: "أنا بلغاري، ولا حاجة بي إلى حب روسي...".

– طيب... وماذا... الآن أنت...

همست يلينا مشيحة رأسها لا ارادياً، كمن يتوقع صفعة، ولكنها بقيت تمسك بيد بيرسينيف.

قال بيرسينيف:

– أظن – ثم خفض صوته وكرر – اظن أن ما كنت اخمنه من قبل بدون موجب، قد تحقق الآن.

ندت من يلينا فجأة:

– يعني.... أنت تظن... لا تعذبني....

أسرع بيرسينيف ليقول:

– اظن أن اينساروف الآن قد احب فتاة روسية، فعزم على الفرار، وفاء بعهده.

زادت يلينا من ضغطها على يد بيرسينيف، وطأطأت رأسها أكثر، وكأنها تريد أن تخفي عن بصر الغريب حمرة الخجل التي ضرّجت فجأة وجهها وعنقها. قالت:

– أنت، يا اندريه بيتروفيتش، طاهر كملاك. ولكن إلا يأتي ليودعنا؟

– نعم، هذا ما اظن. سيأتي بالتأكيد، لأنه غير راغب في الرحيل...

– قل له، قل...

ولكـن هذه الفتاة المسكينـة لم تسيطر على مشاعرها في هذه اللحظة، فقد ترقرقت الدموع في عينيها، فركضت خارجة من الحجرة.

صار بيرسينيف يفكر، وهو يعود إلى بيته بطئ الخطى: "إذن، فهي تحبه بهـذه الصورة. لم أكن اتوقـع ذلك، لم أكن اتوقـع أن ذلك قوي إلى هذه الدرجـة - ومضى في افكاره - تقول أنني طاهـر النفس. فمن يدري أية مشاعـر وبواعـث دفعتنـي إلى أن اخبر يلينا بكل ذلك؟ كل شيء إلا طهارة النفسـ، إلا طهـارة النفس. بل مجرد الرغبة اللعينـة في أن اقتنع بأن النصل قد نفـذ إلى الجرح بالفعل؟ يجب أن اكون راضياً. احدهما يحب الآخر، وقـد ساعدتهما على ذلك. شوبـين يدعوني بـ "الوسيـط المقبل بين العلم والجمهـور الروسي". والظاهر أن القدر كتـب عليَّ منذ الولادة أن اكون وسيطاً. ولكن ماذا لو كنت على خطأ؟ لا، لست على خطأ...".

وكان اندريه بيتروفيتش يحس بالمرارة. ولم يفكر في قراءة "راومر".

في نحـو الساعة الثانيـة من اليوم التالي وصل اينسـاروف إلى بيت آل ستاخـوف. ومن نكد الطالع أن آنـا فاسيليفنا كانت تستضيف في حجرة الجلوسـ، في ذلك الوقت، جارة، زوجة قسـ، وهي امرأة طيبة ومحترمة، ولكـن مشكلـة صغيرة كانت قد حصلت لها مـع الشرطة، حين خطر في ذهنهـا أن تسبـح في اوج الحر، في بركة قرب طريـق كان كثيراً ما تسلكه عائلة جنرال ذي شـأن. في بادئ الأمر كانت يلينا مرتاحة بوجود الضيفة الغريبة، وقد غاض الدم من وجههـا حالما سمعت وقع اقدام اينساروف، ولكـن قلبهـا تقلص، حين فكـرت في أنه قـد ينصرف مودعـاً، دون أن يتكلـم معهـا على انفراد. أمـا اينساروف فقـد بدا مرتبـكاً، وقد تحاشى نظراتهـا. كانت يلينا تفكـر: "معقول أنه سيـودع الآن؟" وبالفعل توجه اينسـاروف نحو آنا فاسيليفنا. اسرعت يلينا بالنهوض، وانتحت به جانباً، قرب النافذة. دهشت زوجة القسـ، وحاولت أن تلتفت، ولكنها كانت

مضغوطـة جداً، حتـى أن مِشد الوسط كان يصر عنـد كل حركة. فبقيت جامدة في موضعها. اسرعت يلينا تقول:

– اسمع. أنا اعرف لماذا جئـت. فقد ابلغني اندريه بيتروفيتش بنيتك، ولكننـي ارجوك، اتوسل إليـك أن لا تودعنا اليوم، بل تعال غداً في وقت مبكر، في نحو الحادية عشرة. فأنا اريد أن اقول لك كلمتين.

احنى اينساروف رأسه صامتاً.

– لن اؤخرك... فهل تعدني؟

انحنى اينساروف ثانية، ولكنه لم يقل شيئاً.

قالت آنا فاسيليفنا:

– لينوتشكا، تعالي هنا. وانظري أية محفظة يدوية رائعة هذه.

قالت زوجة القس:

– طرزتها بيدي.

ابتعدت يلينا عن النافذة.

قضى اينساروف لـدى آل ستاخوف ما لا يزيد عن ربع ساعة. كانت يلينـا تراقبه خلسة. كان يراوح في مكانه، ولا يعرف، على عهده السابق، إلى أين يصوب بصره، وانصرف على نحو غريب وخطفاً، وكأنه تلاشى.

انقضى ذلـك اليوم ببطء، بالنسبـة ليلينا، والليل الطويـل تراخى أكثر بطئـاً. كانت أحيانـاً تجلس على السريـر محتضنة ركبتيهـا بيديها، واضعة رأسهـا عليهمـا، وأحيانـاً تقترب مـن النافـذة، ملقية جبينهـا الحار على زجاجهـا البارد، وتظل تفكر وتفكر بنفس الافكار إلى حد الاعياء. وكان قلبهـا يصـير كالحجارة تـارة أو يختفي من صدرها، فـلا تحس به، ولكن العروق في رأسها كانت تدق متوترة، وشعرها يلسعها، وشفتاها تتيبسان. كانت تقـول لنفسها: "سيأتي... إذ لم يودع أمـي... وهو لن يخدع...

هـل معقـول أن اندريه بيتروفيتشـ كان صادقاً في قولـه؟ غير ممكن... لم يعـد بلسانه أنـه سيأتي. معقـول أنني فارقتـه إلى الأبـد؟" ولم تغب هذه الافـكار عـن ذهنها، لم تغـب بالضبط، لم تأت و لم تعـد - ظلت تطوف فيهـا كالضباب دون انقطاع. وفجأة توهـج "أنه يحبني!" في كيانها كله فحدَّقـت متفرّسـة في الظلمة، وافترت شفتاها عـن ابتسامة سرية لا يراها أحد... ولكنها هزت رأسها على الفور، ورفعت إلى علبائها أصابع يديها المعقـودة، ومن جديـد طافت الافـكار السابقة في رأسهـا كالضباب... وقبيل الصباح خلعت ملابسها، واستلقت على الفراش، ولكنها لم تستطع أن تغفـو. وقعت شعاعـات الشمس الناريـة الأولى في حجرتها، فهتفت فجـأة: "آه، لو كان يحبني"، وبسطت ذراعيها دون أن تخجل من الضوء الذي اضاءها...

نهضـت، وارتـدت ملابسها، ونزلـت إلى الاسفـل. لم يكن أحد في البيت قد استيقظ بعد، فخرجـت إلى الحديقة، ولكنها احست بالرهبة مما حولها من سكون وخضرة ونداوة، ومن الطيور تصدح بثقة، ومن الزهور تتفتـح ببهجة. وفكرت: "آه! لو كان ذلك صحيحاً، لكنت اسعد من كل عشـب، ولكن هل هـذا صحيح؟" وعادت إلى حجرتهـا، واخذت تغيّر ثوبهـا تزجية للوقت. ولكـن كل شيء كان يفلت وينزلـق من بين يديها، وكانـت ما تـزال جالسة أمام مـرآة الزينة دون أن تكمـل ملابسها، حين نادوها لتنزل وتشرب الشاي. نزلت. فلاحظت أمها شحوبها، ولكنها لم تقـل سوى: "أنت اليوم جذابة جـداً"، والقت نظرة إليها من رأسها حتى اخمصـ قدميها، واضافـت: "هذا الثوب لائق لك كثـيراً فالبسيه دائماً، كلمـا اردت أن تثيري اعجـاب أحد". لم ترد يلينا بشـيء، وجلست في ركن. وخـلال ذلك دقت الساعـة معلنة التاسعة، ما تـزال هناك ساعتان حتـى تحل الحادية عشرة. اخذت يلينـا كتاباً، ثم انتقلت إلى الخياطة، وبعد ذلك عادت إلى الكتاب، ثم آلت على نفسها بأن تقطع درباً معرشاً واحداً

مائة مرة، وقطعته، ثم راقبت لوقت طويل كيف تفرش آنا فاسيليفنا الورق في لعبة الصبر[٢٦]... ثم نظرت في الساعة. لم تصل إلى العاشرة بعد... دخل شوبين إلى حجرة الجلوس. حاولت أن تتحدث معه، واعتذرت له عن شيء هي نفسها لا تعرف ما هو... وكانت كل كلمة تنطقها لا تكلفها جهداً، بل تثير في نفسها حيرة. مال شوبين نحوها، فتوقعت سخرية. رفعت بصرها فرأت أمامها وجهاً حزيناً ودوداً... ابتسمت لهذا الوجه. ابتسم شوبين لها أيضاً في صمت، وخرج بهدوء. ارادت أن توقفه، ولكنها تريثت و لم تتذكر على الفور لتناديه. وأخيراً دقت الحادية عشرة. راحت تنتظر، وتنتظر، وتنتظر، وترهف سمعها، وتعذّر عليها أن تفعل أي شيء، بل وكفت عن التفكير. وسرت الحيوية في قلبها فصار يدق اقوى فأقوى. والغريب أن الوقت بدأ وكأنه يمر أسرع من ذي قبل. مر ربع ساعة، مر نصف ساعة، مرت بضع دقائق أخر، حسب تصورها، وفجأة ارتعدت يلينا. دقت الساعة لا الثانية عشرة، بل الواحدة: "لن يأتي، سيرحل دون أن يودّع..." واندفعت هذه الفكرة مع الدم إلى رأسها. واحست بأن انفاسها تنقطع، وأنها على وشك أن تبكي... ركضت إلى حجرتها، وارتمت على الفراش، ووجهها على ذراعيها المطويتين.

استقلت نصف ساعة بلا حراك، وقد انهمرت الدموع من خلال اصابعها على المخدة. وفجأة، رفعت جسمها، وجلست، فأن شيئاً غريباً قد حدث في داخلها. تغير وجهها، وجفت عيناها الدامعتان تلقائياً، فأخذتا تلمعان، وانعقد حاجباها، وانطبقت شفتاها. مر نصف ساعة آخر. وارهفت يلينا سمعها للمرة الأخيرة، لعلها تلتقط صوته الاليف. ثم نهضت، ولبست قبعتها وقفازيها؛ والقت العباءة على كتفيها، وانسلت

---

(٢٦) نوع من لعب الورق. الناشر.

مـن البيـت دون أن تلحظ، وسارت بخطى سريعـة في الطريق المؤدي إلى مسكن بيرسينيف.

١٨

سـارت يلينا مطرقة الرأس، مصوبة بصرهـا إلى الامام. لم تكن تخاف شيئـاً، و لم تكـن تعي شيئاً، كانـت تريد أن ترى اينسـاروف مرة أخرى. سـارت دون أن تفطن إلى أن الشمس قـد غابت منذ وقت طويل محجوبة بسحـب سوداء ثقيلـة، وأن عصفـات الريح تهدر في الاشجـار، وتنفخ ثوبهـا، وأن الغبار قد ارتفع فجـأة وتطاير اعمدة في الطريق... أخذ المطر ينزل بقطرات كبيرة، وحتى هذا لم تلحظه. ولكن المطر ظل يهطل متزايداً قويـاً، وومض البرق، وهدر الرعد. توقفت يلينا تنظر فيما حولها... ومن حسـن حظها انها رأت، صومعة متداعية مهجـورة فوق خرائب بئر غير بعيد عن المكان الذي داهمها الرعد فيه. ركضت إليها، ودخلت في كنفها الواطـئ. انهمر المطر جداول، وتلبـدت السماء كلها. نظرت يلينا بقنوط اخرس إلى الشبكة الكثيفـة التي تصنعها قطرات المطـر المنهمرة بسرعة. واختفـى آخـر أمـل في الالتقاء باينسـاروف. دخلـت الصومعة عجوز، ونفضـت قطرات المطر عن ثيابها، وقالت بانحناءة: "احتمي من المطر، يا عزيزتـي" وجلست على نتوء قرب البئر، وهي تتأوه وتتوجع. دست يلينا يدهـا في جيبها، ولحظت العجوز هذه الحركـة، وسرت الحياة في وجهها المتغضـن الاصفر الذي كان جميلاً في يوم مـا. وقالت: "شكراً لك أيتها المحسنة العزيزة". لم تجد يلينا محفظة النقود في جيبها، بينما كانت العجوز قد مدت يدها. قالت يلينا:

– ليس عندي نقود، يا جدة. خذي هذه لعله ينفعك في شيء.

واعطتها منديلها. فقالت المتسولة:

– اوي، يا حسناني. وما نفع منديلك لي؟ إلا إذا اهديته لحفيدتي عندما تتزوج. جازاك الله على طيبتك!

انفجر خزيم رعد. وتمتمت المتسولة:

– أيهـا السيـد، عيسـى المسيـح – ورسمـت علامة الصليـب ثلاثاً. واضافت بعد هنيهة – يبدو لي أنني رأيتك. ربما اعطيتني صدقة ذات مرة؟

تمعنت يلينا في العجوز، وعرفتها. اجابت:

– نعم، يا جدة. قد سألتني: لماذا أنا حزينة بهذا الشكل؟

– نعـم، يا عزيزتي، نعـم. ولذلك عرفتك في الحـال. الآن أيضاً يبدو عليك الغم. والمنديـل مبلل، يعني من الدموع. آه، يا بنات، كلكن في هم وغم مقيم!

– أي هم، يا جدة؟

– أي هم؟ أوه، يا ابنتي الطيبة، لا تتحايلي علي، أنا العجوز. أنا اعرف لـماذا تغتمين. ليس غمك غم اليتيم. عندما كنـت شابة، يا عزيزتي، ذقت هذه العذابات أيضاً. أجل. وسأقول لك جزاء على احسانك: إذا صادفك رجـل طيب، لا يعبث، فتمسكـي به وتشبثي تشبث المـوت. فأن حصل هـذا حصـل، وأن لم يحصل، فتلك مشيئة الله. أجـل. ولكن لماذا تنظرين اليّ مندهشـة؟ أنـا قارئة فأل. هل تريدين أن آخذ مـع منديلك كل بلواك؟ آخذهـا، وينتهي الأمر. ها أنت ترين أن المطر قد خفّ. انتظري قليلاً هنا، أمـا أنـا فذاهبة. تعودت على بلل المطر. تذكري، يـا عزيزتي: كان حزن، وولّى، وانقضى الآن. يا الهي، رحمتك!

ورفعت المتسولة جسمها من النتوء، وخرجت من الصومعة، وسارت مجرجرة قدميها. نظرت يلينا في أثرها مذهولة، ووجدت نفسها تهمس لا اراديا: "ما يعني هذا؟"

صار المطر اخف فأخف، ولاحت الشمس للحظة، وتهيأت يلينا لتخرج من ملجئها... وفجأة رأت اينساروف، على بعد عشر خطوات من الصومعة. كان يسير ملفعاً بمعطفه في نفس الطريق الذي كانت يلينا تسلكه.. كان يبدو في عجالة للوصول إلى بيته.

اسندت يدها على الدرابزين المتداعي عند مدخل الصومعة، وارادت أن تناديه، ولكن صوتها خانها... مر اينساروف بها، دون أن يرفع بصره...

وأخيراً نطقت:

– دميتري نيكانوروفيتش!

توقف اينساروف فجأة، والتفت... في الوهلة الأولى لم يتعرف على يلينا، إلا أنه تقدم منها على الفور. وهتف:

– أنت! أنت هنا!

تراجعت إلى الصومعة صامتة. وتبعها اينساروف. وعاد يقول:

– أنت هنا؟

مضت في صمتها، سوى أنها حدقت فيه تحديقة طويلة ناعمة. غض ابنساروف بصره. سألته:

– هل أنت قادم من بيتنا؟

– لا، ليس من بيتكم.

– لا؟ – كررت يلينا وحاولت أن تبتسم – بهذا الشكل تفي بوعودك؟ انتظرتك منذ الصباح.

– تذكري، يلينا نيقولايفنا، أنا لم اعد بشيء يوم أمس.

ابتسمت يلينا مرة أخرى ابتسامة باهتة، ومررت يدها على وجهها. وكان الوجه واليد بنفس الشحوب.

– اذن، كنت تريد أن ترحل، دون أن تودعنا؟

قال اينساروف بصوت صارم فاقد الرنين:

– نعم.

– وكيف؟ بعد تعارفنا، بعد تلك الاحاديث، بعد كل شيء... يعني... لو لم التق بك هنا مصادفة (اكتسى صوت يلينا رنة، فتوقفت لحظة)... لرحلت، و لم تصافحني مودعاً آخر وداع وما كنت ستأسف؟

اشاح اينساروف بوجهه.

– ارجوك، يلينا نيقولايفنا، لا تتحدثي بهذا الشكل. فأنا مغموم حتى بدون ذلك. وتأكدي أن اقراري كلفني جهوداً كثيرة. لو كنت تعرفين...

قاطعته يلينا بذعر:

– لا أريد أن اعرف السبب في رحيلك... الظاهر أنه ضروري. الظاهر أن علينا أن نفترق. وأنت ما كنت لتريد أن تكدر اصدقاءك بلا موجب. ولكن أهكذا يفترق الاصدقاء؟ ونحن صديقان. أليس كذلك؟

قال اينساروف:

– كلا.

– كيف؟

وضرَّجت حمرة خفيفة وجنتي يلينا.

– لهذا السبب بالذات رحلت، كوننا غير صديقين. ولا تجبريني على أن أقول ما لا اريد أن اقوله، ولن أقوله.

قالت يلينا بعتاب خفيف:

– من قبل كنت صريحاً معي. هل تذكر؟

– آنـذاك كان في وسعـي أن اكـون صريحـاً، آنذاك لم يكـن هناك ما اخفيه، والآن....

فسألت يلينا:

– والآن؟

– والآن... والآن يجب أن انصرف، وداعاً.

ولـو أن اينساروف، في تلك اللحظة، رفع بصره إلى يلينا لرأى وجهها يتالق أكـثر فأكثر كلما ازداد وجهـه جهامة واسـوداداً. ولكنه كان يثبت بصره في الأرض بأصرار. قالت يلينا:

– حسنـاً، وداعاً، يا دميتري نيكانوروفيتشـ، ولكن ما دمنا قد التقينا فعلى الاقل هات يدك لاصافحها.

هم اينساروف بأن يمد يده.

– لا، لا استطيع ذلك أيضاً.

قال واشاح وجهه ثانية.

– لا تستطيع؟

– لا استطيع، وداعاً.

واتجه نحو باب الصومعة. قالت يلينا:

– انتظـر قليلاً. يبدو أنـك تخشاني. ولكنني اشجـع منك – اضافت واعترتهـا رعشة مفاجئة سرت في كل جسدها – استطيع أن اقول لك... هل تريد؟ لماذا وجدتني هنا؟ اتدري إلى أين كنت ذاهبة؟

نظر اينساروف إلى يلينا بذهول.

– كنت متجهة إليك.

– اليَّ؟

غطت يلينا وجهها.

– تريـد أن تجبرني علـى أن أقول: أنا أحبك – همسـت يلينا بذلك – طيب... ها قد قلت.

هتف اينساروف:

– يلينا!

اسبلت يديها، ونظرت إليه، وارتمت على صدره.

عانقها بقوة، و لم يقل شيئاً. لم يكن بحاجة إلى أن يقول لها أنه يحبها. فقـد كان في وسع يلينا أن تفهم أنه يبادلها حباً بحب، من مجرد ندائه، من ذلـك التحول المفاجئ في كيانه كله، من لهـاث صدره الذي التصقت به مؤتمنـة، ومن لمسات اطـراف اصابعه في شعرها. لم يقـل شيئاً، و لم تكن هـي بحاجة إلى كلمات. «أنه إلى جانبي، أنه يحبني... فماذا أريد أكثر؟» وشملتها سكينة النعيم، سكينة المرفأ الآمن، والغاية المحققة، تلك السكينة السماوية التي تعطي للموت نفسه معنى وجمالاً، غمرتها بفيضها الإلهي. و لم تكـن في نفسها أية رغبة، لأنها امتلكـت كل شيء. همست شفتاها: «يـا أخي، يـا صديقي، يا حبيبي!..» و لم تكن تعـرف أي قلب كان يدق ويذوب في صدرها بعذوبة، قلبه أم قلبها.

وقف بلا حـراك، كان يحيط بذراعيه القويين هـذه الحياة الشابة التي اعطتـه قيادهـا، وكان يحس على صدره هذا العـبء الجديد العزيز إلى ما لا حـد له. وقد غشت صلابة روحه عاطفة حنان، عاطفة امتنان تعز على التعبير، وقد ترقرقت عيناه بدموع لم يكن له عهد بها من قبل.

أما هي فلم تبك، بل كانت تكرر فقط: «يا صديقي، يا أخي!».

وبعد ربع ساعة، وهو ما يزال يطوقها ويسندها بذراعيه كان يقول:

– وكيف ستجوبين[٢٧] معي كل مكان؟

– اقصى الدنيا. سأكون حيث تكون أنت.

– ربما تخادعين نفسك في ذلك، فأنت تعرفين أن والديك لن يوافقا على زواجنا؟

– أنا لا أخادع نفسي. أنا أعرف ذلك.

– وهل تعرفين أنني فقير، مدقع تقريباً.

– اعرف.

– وأنني لست روسياً، ولا مقسوماً لي أن أعيش في روسيا، وسيتعين عليك أن تقطعي علاقاتك مع وطنك، ومع أقاربك؟

– أعرف، أعرف.

– وهل تعرفين أيضاً أنني نذرت نفسي لقضية صعبة لا تَمِن على أحد، وأنني... أننا سنتعرض لا إلى المخاطر فقط، بل وإلى حرمانات، ولربما إلى اذلال؟

– اعرف، اعرف كل شيء... أحبك.

– وأن عليك أن تتخلي عن كل عاداتك، وأنك لربما ستضطرين هناك، أن تعملي وحيدة، وسط غرباء...

وضعت يدها على فمه.

– أحبك، حبيبي.

أخذ يقبل يدها الضيقة الوردية بحرارة. و لم تبعدها عن شفتيه،

(٢٧) في هذه الجملة تحول اينساروف إلى مخاطبتها لأول مرة بضمير الفرد رفعاً للكلفة كما في طريقة المخاطبة الروسية. المترجم

وراحت تنظر إليه بفرح طفولي، وبفضول ضاحك، وهو يغطي بالقبلات يدها تارة، واصابعها تارة أخرى...

واحمرت فجأة، وخبأت وجهها في صدره.

رفع رأسها برقة، وحدَّق في عينيها، وقال لها:

– أهلا بك اذن، زوجة لي أمام الناس وأمام الرب.

١٩

بعد ساعة كانت يلينا تدخل حجرة الجلوس في البيت الريفي بهدوء، وقبعتها في يد، وعباءتها في اليد الأخرى. وقد انحلَّ شعرها قليلاً، وعلت وجنتيها طرة صغيرة من التورد، والبسمة على شفتيها لا تريم، وعيناها المنطبقتان نصف انطباقة تبتسمان أيضاً. كانت تجرجر قدميها تعباً، وكانت تتلذذ بهذا التعب. كانت تتلذذ بكل شيء. كل شيء كان يبدو لها قريباً إلى القلب، وحنوناً. كان أوفار ايفانوفيتش جالساً عند النافذة، دنت منه، ووضعت يدها على كتفه، وتمطت قليلاً، وضحكت ضحكة بدت لا إرادية.

سألها مندهشاً:

– مم؟

لم تعرف ماذا تقول. أحبت أن تقبل اوفار ايفانوفيتش.

وقالت أخيراً:

– مبطوح...

ولكن أوفار ايفانوفيتش لم يحرك ساكناً، وظل ينظر إلى يلينا باندهاش. فرمت عليه العباءة والقبعة، وقالت:

– يا عزيزي أوفار ايفانوفيتش، اريد أن أنام، أنا متعبة.

وضحكت مرة أخرى، وانهدت على كرسي وثير بالقرب منه.

– حم – تمتم اوفار ايفانوفيتش، ولاعب اصابعه – هذا... يجب، نعم..

وتلفتت يلينا فيما حولها، وكانت تفكر: «يجب أن افارق كل هذا عن قريب... والغريب أنني لا أشعر بفزع ولا ريبة، ولا اسف... ولكن لا، أتأسف على أمي!» ثم تراءت لها الصومعة مرة أخرى، وتردد صوته في اذنيها مرة أخرى. وكانت تحس بذراعيه تطوقانها. وتململ قلبها في صدرها بفرح وبوهن أيضاً، كانت السعادة تسترخي عليه. وتذكرت المتسولة العجوز. وفكرت: «اخذت معها بلواي حقاً، آه، كم أنا سعيدة سعادة لا استحقها أبداً! وتهل بهذه السرعة!» وما كان سيكلفها غير شيء من الحرية لعاطفتها الحبيسة حتى تنهمر من عينيها دموع حلوة لا تجف. كانت تضغط عليها باسترسالها في الضحك الخفيف، ولا شيء آخر. وكان أي وضع تتخذه يبدو لها أفضل واروح من أي وضع آخر. وكأنما كانت تهدهد لتنام. صارت كل حركاتها بطيئة وناعمة، فأين تخلى عنها استعجالها وتثاقلها؟ دخلت زويا، فتصورت يلينا بأنها لم تر محيا افتن من محياها. ودخلت آنا فاسيليفنا، فأحست بوخزة، ولكنها عانقت أمها الطيبة برقة بالغة، وقبلت جبينها عند منبت الشعر، الشائب قليلاً! ثم ذهبت إلى حجرتها، فرأت كل شيء فيها يبتسم لها! وجلست على سريرها بشعور عميق من الانتصار الخجل والوداعة، جلست على نفس السرير الذي كانت قبل ثلاث ساعات قد قضت فيه لحظات شديدة المرارة! وفكرت: «حتى في تلك الساعة كنت أعرف أنه يحبني.. كنت أعرف من قبل أيضاً... آه، لا! لا! هذه خطيئة». وهمست وركعت على ركبتيها مغطية وجهها بيديها: «أنت زوجتي...».



ومـع حلول المسـاء صارت أكـثر سهومـاً واستغراقـاً. غشيها الحزن حـين أخذت تفكـر في أنها لن تـرى اينساروف عن قريـب. لم يكن في أمكانـه أن يبقى مقيماً مـع بيرسينيف دون أن يثـير الشكوك. ولهذا اتفق معهـا على أن يعود إلى موسكو، ويـزور آل ستاخوف مرة أو مرتين حتى فصل الخريف. ووعدته، من جانبها، بأن تراسله، وأن تعين له موعداً للقاء بجـوار كونتسوفـو، إذا سنحـت الفرصة. نزلت إلى حجـرة الجلوس في الساعـة المحددة لشرب الشاي، فرأت جميع أهـل البيت هناك، وشوبين الذي صوَّب عليها نظراً حاداً، ما إن اطلت. فارادت أن تتحدث معه بود، كما كانت في الماضـي، ولكنها خشيت حدة ذكائه، خشيت نفسها. بدا لهـا مقصوداً تغاضيه عنها أكثر من أسبوعين. وبعد قليل وصل بيرسينيف، ونقل تحيـات اينساروف لآنا فاسيليفنا، مع اعتـذاره لعودته إلى موسكو، دون أن يزورهـا ويودعها. كان اسم اينساروف يذكر لأول مرة هذا اليوم في حضـور يلينا، فاحسـت بالحمرة تصعد إلى وجههـا، كما ادركت في الوقـت ذاته أن عليهـا أن تعرب عن الاسف لهـذا الرحيل المفاجئ لرجل طيب من معارفها، ولكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على التصنع، وبقيت جالسة في صمت وبلا حـراك، بينما راحت آنا فاسيليفنا تتحسر، وتبدي حزنها. جاهدت يلينا ان تبقى قرب بيرسينيف، فهي لم تكن تخشاه، رغم أنـه كان يعـرف جزءاً من سرها، كانـت تلوذ بحماه مـن شوبين الذي ما يزال يلاحقها بنظرات نفّاذة، وأن لم تكن ساخرة. كما أن الحيرة استولت علـى بيرسينيف أيضـاً، خلال الامسية، فقد كان يتوقـع أن يرى يلينا أكثر حزناً. ومن حسن حظها أن جدالاً نشأ بينه وبين شوبين عن الفن. تنحت جانبـاً، وراحت تسمـع صوتيهما، وكأنهـا في حلم. وشيئـاً فشيئاً صار الحلـم يتخطاهمـا إلى الحجرة كلها، حيـث بدت كل الأشيـاء وكأنها في حلم: السماور على المائدة، وصدار اوفار ايفانوفيتش القصير، وساقا زويا الملسـاوان، والصورة المرسومة بالزيت للأمير الكبير قسطنطين بافلوفيتش

والمعلقة على الحائط. تغوّر كل شيء، وتغطى بغشاء دخاني، ولم يعد له وجود. سوى أنها كانت تشفق عليهم جميعاً، وتقول لنفسها: «من أجل أي شيء يعيشون؟»).

سألتها أمها:

- هل أنت نَعسى، يا لينوتشكا؟

ولم تسمع سؤال أمها.

- هل تقصد تلميحاً نصف عادل؟ - نفذت هذه الكلمات التي نطقها شوبين بحدة إلى وعي يلينا فجأة فانتبهت. ومضى شوبين يقول - في هذا بالذات تكمن النكهة. التلميح العادل يثير الجزع، وهو مناف للروح المسيحية. والإنسان لا يعبأ بالتلميح غير العادل. فهذه حماقة. ولكنه يشعر نحو التلميح نصف العادل بالانزعاج ونفاد الصبر. فمثلاً لو قلت: أن يلينا نيقولايفنا تعشق أحدنا، فأي نوع من التلميح سيكون هذا؟ ها؟

قالت يلينا:

- آه، مسيو بول. وددت لو اظهر لك انزعاجي، ولكنني متعبة جداً، فلا أقدر حقاً.

- ولماذا لا ترقدين؟ - قالت آنا فاسيليفنا التي كانت تنعس دائماً في المساء، ولهذا تحب أن تبعث الآخرين إلى مضاجعهم - قبليني قبلة المساء، واذهبي والله معك. اندريه بيتروفيتش سيعذرك.

قبلت يلينا أمها، وانحنت للجميع، وانصرفت. صاحبها شوبين إلى الباب. وهمس لها عند العتبة:

- يلينا نيقولايفنا، أنت تدوسين مسيو بول وتمشين عليه بلا شفقة. بينما مسيو بول يعبدك، ويعبد قدميك والحذاء الذي تلبسين، ونعل الحذاء.

هزت يلينا كتفيها، ومدت له يدها على مضض - ليست تلك التي

قبلها اينساروف - وعادت إلى حجرتها فطفقت تخلع ثيابها على الفور، واستلقــت، وغفت. نامت نوماً عميقاً هادئاً... لا ينامه حتى الأطفال، لا ينامه غـير الطفل الناقه، حين تجلس أمه عند مهده، تنظر إليه، وتنصت إلى انفاسه.

٢٠

قال شوبين لبيرسينيف حالما تواد ع الأخير مع آنا فاسيليفنا:

– تعال إلى حجرتي لدقيقة، عندي ما أريد أن أريك اياه.

ســار بيرسينيــف معــه إلى ملحــق البيــت. بهــره العديــد الكبــير من التخطيطــات، والتماثيــل الصغـيرة، والنصفية التي كانــت مغطاة بخرق مبللة، وموضوعة في كل اركان الحجرة.

قال له بيرسينيف:

– أرى أنك تعمل بهمة.

فأجاب هذا:

– يجــب أن اعمل شيئاً. اذا فشل الإنســان في شيء وجب أن يجرب حظــه في شيء آخر. وعلى العموم انــا كالكورسيكي، اهتم بثأر الدم أكثر من الفن الخالص[٢٨] «Trema Bisanzia !"».

قال بيرسينيف:

– أنا لا أفهمك.

– طيب، انتظر. تفضل انظر، يا صديقي الكريم والفاضل.

---

(٢٨) ارتجفي، يا بيزنطية (بالايطالية في الأصل).

هذا ثأري رقم واحد.

وازاح شوبين الغطاء عن أحد التماثيل فرأى بيرسينيف تمثالاً نصفياً لاينساروف ممتازاً ومشابهاً له بشكل رائع. وكان شوبين قد التقط ملامح وجهه بصدق، وبأدق التفاصيل، واعطى لها مسحة رائعة باستقامتها ونبلها وجرأتها.

وتهلل بيرسينيف بشراً، وهتف:

– هذه هي الروعة بعينها! تهاني. تستحق أن تعرض! ولماذا تسمي هذه التحفة ثأراً؟

– لأنني، يا صاحب السعادة، انوي أن أقدم هذه التحفة، كما سميتها، الى يلينا نيقولايفنا في عيد ميلادها. هل تفهم هذه الرموز؟ لسنا عمياناً، ونحن نرى ما يجري حولنا، ولكننا أصحاب شهامة، يا حضرة المحترم، ونثأر بشهامة.

ومضى شوبين يقول، وهو يزيح الغطاء عن تمثال صغير آخر:

– أما هذا، فما دام الفنان، حسب احدث الجماليات، يستخدم حقه الذي يحسد عليه في أن يجسد في نفسه كل الحقارات مرتفعاً بها لتكون جوهرة من الابداع، فأننا في تكويننا لهذه الجوهرة، رقم اثنين، كنا قد انتقمنا ليس كشهماء على الاطلاق، بل en canaille[٢٩].

ورفع الغطاء بحذق، ورأى بيرسينيف تمثالاً صغيراً لاينساروف أيضاً منحوتاً على طريقة دانتان تمثل فيه الضغن وحدة البديهة بأكثر ما يمكن. فقد صُوِّر البلغاري الشاب خروفاً واقفاً على قائمتيه الخلفيتين، مميلاً قرنيه للنطاح. وقد ارتسمت على وجه "زوج الشاء الناعمة الصوف" هذا

---

(٢٩) كسافل (بالفرنسية في الأصل).

العظمـة البلهاء، والتوفز، والعناد، والرعونـة، والضحالة، كما كان الشبه مذهلاً لا ريب فيه، حتى أن بيرسينيف ما كان في وسعه إلا أن يضحك.

قال شوبين:

– ماذا؟ مضحك؟ عرفت البطل؟ هل تنصحني بأن أعرضه في المعرض أيضاً؟ وهذا، يـا أخي، سأهديه لنفسي، في عيد ميلادي... فاسمح لي، يا صاحب السيادة، أن ارفض طرباً!

وقفز شوبين مرتين أو ثلاثاً، ضارباً أياه بالنعل.

رفع بيرسينيف قطعة الجيش من الأرض، وغطى بها التمثال.

قال شوبين:

– أوه، أيهـا الشهـم. فاتني من كان في التاريـخ معروفاً بشهامته على نحـو خاص؟ طيب، لا يهم! أمـا الآن – تابع وكشف بحركة استعراضية حزينـة عن القطعـة الثالثة، وهي كبيرة جداً مـن الصلصال – أمامك شيء يثبـت لك تواضـع صديقك الحكيم وحـدة ذهنه. وستقتنـع بأنه، كفنان أصيل على أية حال، يشعر بحاجة وفائدة اذلال النفس. انظر!

وارتفعت الستارة، وابصر بيوسينيف رأسين متقاربين وكأنهما خارجان من رقبة واحدة... ولم يدرك حقيقة الأمر رأساً، ولكنه، حين امعن النظر، عرف في أحد الرأسين رأس آنوشكا، وفي الآخر رأس شوبين نفسه. وعلى العمـوم كان ذلك رسماً كاريكاتورياً أكثر منـه صورة شخصية. صُوِّرت آنوشكا بهيئة فتاة جميلة ممتلئة ذات جبين ضيق، وعينين منفتحتين، وانف مرفوع بتحـد. وكانت شفتاهـا الغليظتان تنفرجان عـن ابتسامة ساخرة وقحـة. وكان وجهها كلـه يعبر عـن الحساسية وخلو البـال والاندفاع، ولا يخلـو من طيبة. وصُـوِّر شوبين نفسه متهتكاً منحـولاً منهوكاً، غائر الوجنتـين، خصلات شعره الخفيف متدلية باسترخـاء وأنفه مدبب كأنف الميت، وعيناه المنطفئتان تنطقان بالبلاهة.

اشاح بيرسينيف وجهه باشمئزاز. فقال شوبين:

– ما رأيك في هذا الزوج، يا أخ؟ الا تتكرم بوضع تسمية معتبرة لهما؟ للموضوعين الأولين اهتديت إلى تسمية. سأضع تحت التمثال النصفي عبارة: "البطل الناوي انقاذ وطنه" وتحت التمثال الصغير: "احترسوا، يا صانعي النقانق!" اريد أن اكتب تحت هذه القطعة "مستقبل الفنان بافل ياكوفليف شوبين...." ما رأيك؟ أليس لطيفاً؟

فرد بيرسينيف قائلاً:

– كف عن هذا. أيعقل أنك ضيعت وقتك على هذه... و لم يعثر فوراً على الكلمة المناسبة.

– القذارة؟ تريد أن تقول. لا، يا اخ، وارجو المعذرة، إذا كان هناك شيء يستحق أن يعرض فهي هذه المجموعة.

كرر بيرسينيف:

– قذارة بالضبط، ثم ما هذه السخافة؟ أنت لا تملك اطلاقاً ما يمتلكه فنانونا حتى يومنا هذا، وبوفرة، لسوء الحظ، من مقومات لمثل هذا النوع من التطور. مجرد أنك كنت تفتري على نفسك.

قال شوبين بعبوس:

– هذا ما تراه، اذن؟ إذا كنت لا امتلكها، وإذا لقحت بها، فالذنب في ذلك سيعود إلى إنسانة ما. هل تدري – وقطب حاجبيه بشكل مأساوي – أنني جربت أن أشرب؟

– ألا تكذب؟!

– جربت، وحق الرب – قال وافترّ عن تكشيرة فجأة، وتنوّر وجهه – ولكنه غير لذيذ، يا اخ، ولا يدخل إلى البلعوم، والرأس بعده يصير كالطبل. ولوتشيخين العظيم نفسه، خارلامبي لوتشيخين، الشرّيب الأول

في موسكـو، وفي كل روسيـا حسب آراء أخرى، قال لي: لن تبرز في هذا الميدان، فالزجاجة، حسب قوله، لا توحي الي بشيء.

رفع بيرسينيف ذراعه على قطعة ذات الرأسين، إلا أن شوبين اوقفه:

– كفى، يا اخ، لا تكسرها، فستنفع كدرس، كفزاعة.

ضحك بيرسينيف، وقال:

– في هـذه الحـال سأشفق على فزاعتك، على ما أظـن. وليعيش الفن الخالد الصافي.

فثنى شوبين:

– ليعشـ! الشـيء الحَسِـن معـه احسـن، والسيئ لا يضـر. وتصافح الصديقان بقوة، وافترقا.

٢١

كان الفـزع الفـرح أول احساس شعـرت به يلينا، حـين استيقظت. سألـت نفسها: "معقول؟" وجمد قلبها من السعادة. وتدفقت الذكريات عليها... فغرقت فيها. ثم اهلّت عليها ثانية تلك السكينة الهانئة المستبشرة. ولكـن القلق اخذ ينتابها شيئاً فشيئاً خـلال الصباح، وفي الأيام التالية بدا عليها الفتور والضجر. لقد كانت تعرف الآن، في الحقيقة، ما كانت تريد، ولكـن ذلك لم يخفـف عنها. فأن ذلك اللقاء الـذي لا ينسى قد اخرجها إلى الأبـد عن منوالها القـديم، و لم تعد فيه، بل كانت بعيدة عنه، بينما كان كل شـيء حولها يسير سيره المألـوف، كل شيء على منواله، وكأن شيئاً لم يتغير. فالحيـاة السابقة تجري كالسابق، وتعـوُل، كالسابق، على مشاركة يلينـا ومساهمتهـا. حاولت أن تبـدأ رسالـة إلى اينسـاروف، ولكنها لم توفـق حتى في هـذا، فكانت الكلمات تخرج على الورقـة أما ميتة، وأما

كاذبـة. وقد فرغت مـن يومياتها، وخطت بعد السطـر الأخير فيها خطأً كبيراً. كان ذلك في الماضي، وقد تحولت الآن إلى المستقبل بكل افكارها، بـكل كيانها. وكانت تشعر بضيـق. فقد بدا لها جرماً أن تجالس أمها التي لا ترتـاب في شيء، وتستمع إليها وتجيبهـا، وتتحدث معها. كانت تحس بالكذب يخالط نفسها. فكانت تحتنق، رغم أنها لم تفعل شيئاً تخجل منه. وانبعثت في نفسها، أكثر من مرة، رغبة قاهرة أو تكاد في أن تبوح كل شيء دون أن تخفـي خافية، وليكن بعد ذلك ما يكون. وكانت تفكر: "لماذا لم يأخذني دميتري حينذاك، من تلك الصومعة، إلى حيث يريد رأساً؟ ألم يقل لي أننـي زوجته أمام الله، فلماذا أنا هنا؟" وفجأة صارت تتحاشى الجميع، حتـى أوفار ايفانوفيتش، الذي كان أكثر حـيرة وأكثر لعباً باصابعه من أي وقـت مضى. وبدا كل ما يحيط بها فاقـداً رقته وعذوبته، وحتى مشابهته للحلـم. فـكان كالكابوس يهبط علـى صدرها كثقل ميـت لا يتزحزح، فكأنما كان يقرعها، ويسخط عليها، ولا يريد أن يعرف من أمرها شيئاً... كأنـه كان يقول أنت مـن بيئتنا، على أية حال. حتـى صغارها المساكين، طيورها وحيواناتها المشردة كانت تنظر إليها – أو هكذا ما تصورته، على أقـل تقدير بشيء من الريبة والعـداء. وصارت تخجل من مشاعرها. كان تقـول لنفسها: "هذا بيتي، على أية حال، عائلتي، ووطني..." فيرد عليها صـوت آخر مؤكداً: "لا، لم يعد وطنك، و لم تعد عائلتك". وكان الرعب يستولي عليهـا، فكات تضيق بكل خورها. فقـدت صبرها ما أن اصابها العسر... أهذا ما وعدت به؟

و لم تتمالـك يلينا نفسهـا بسرعة. ولكن اسبوعاً مضـى وتبعه آخر... وهـدأت يلينا بعض الشيء، وتعـودت وضعها الجديد. كتبـت رسالتين صغيرتين لاينساروف، أخذتهمـا بنفسها إلى البريد. لم ترد على الاطلاق أن تأتمن الخادمة خجلاً وكبرياء. وأخذت تنتظر مجيئه هو... ولكن عوضاً عنه جاء نيقولاي ارتيميفيتش ذات صباح.

٢٢

كان ضبــاط الحرس المتقاعد ستاخوف ملـولاً، وفي الوقت ذاته، واثقاً بنفسه ومتعاظماً على نحو لم يره أحد من أهل بيته على مثله قبل هذا اليوم. دخل إلى حجرة الجلوس في معطفه وقبعته. دخل ببطء، وبخطوات عريضة، ضارباً الأرض بكعبيه، واقترب من المرآة، ونظر إلى نفسه فيها وقتاً طويلاً، هازاً رأســه، عاضاً على شفتيه بصرامة هادئة. استقبلتــه آنا فاسيليفنا بمظهر قلــق، وفرح خفي (لم تستقبله قط بغــير ذلك) وقدم يده في قفازها الشموا في صمت إلى يلينا لتقبلها، حتى دون أن يخلع قبعته، ودون أن يقرأ زوجته التحيــة. اخذت آنا فاسيليفنــا تسأله عن دورة العلاج، فلــم يجبها بشيء. جاء اوفــار ايفانوفيتش، ونظر إليه، وقال "ها!". وكان ستاخوف، بشكل عام، يعامل اوفــار ايفانوفيتش ببرود وباستعلاء، رغم أنه كان يعترف فيه بـ "علائــم الدم الستاخوفي الاصيل". والمعروف أن العوامل النبيلة الروسية جميعهــا تقريباً تعتقد بأن لها ميزات استثنائية من ناحية النسب، مختصة بها وحدها. فكم سمعنا احاديث "بين الاهل" عن الانوف "البودسالاسكية" والقفــا "البيربريفية"[٣٠]. دخلــت زويا، وانحنت لنيقــولاي ارتيميفيتش احترامــاً. تنحنح، وانهد على كرسي وثير، وطلــب قهوة، وعند ذاك فقط خلع قبعته. قدمت له القهوة، فاحتسى الفنجان، ونظر إلى الجميع بالتوالي، وقال من خلال اسنانــه: [٣١]"Sortez، s'il vous plait" وأضاف مخاطباً زوجته: "Et vous، madame، restez، je vous prie"[٣٢].

---

(٣٠) اسماء عوائل. – المترجم.

(٣١) اخرجوا، ارجوكم (بالفرنسية في الأصل).

(٣٢) أما أنت، يا مدام، فابقي، ارجوك (بالفرنسية في الأصل).

خرج الجميع ما عدا آنا فاسيليفنا. كان رأسها يرتعش من الانفعال. ادهشتها نبرة الظفر في سلوكه. فكانت تتوقع شيئا غير اعتيادي.

ما أن غُلق الباب حتى هتفت:

– ما هذا!

القى نيقولاي ارتيميفيتش عليها نظرة غير مكترثة.

– لا شيء على وجه الخصوص. أية طريقة لك في أن تظهري نفسك حالاً بمظهر الضحية؟ – شرع يقول مرخياً طرفي شفتيه لدى كل كلمة دون أية حاجة – مجرد أنني اردت أن اعلمك أن ضيفاً جديداً سيتناول الغداء عندنا اليوم.

– مَنْ هو؟

– يغور اندرييفيتش كورناتوفسكي. أنت لا تعرفينه، يشغل منصب السكرتير الأول في مجلس الشيوخ.

– وسيتناول الغداء عندنا اليوم؟

– نعم.

– ولأجل أن تقول لي ذلك أمرت الجميع بأن يخرجوا؟

ومرة أخرى القى نيقولاي ارتيميفيتش على آنا فاسيليفنا نظرة، كانت تهكمية هذه المرة.

– أيدهشك هذا؟ انتظري وستندهشين أكثر.

وصمت، وصمتت آنا فاسيليفنا قليلاً، ثم قالت:

– حبذا...

وفجأة قال نيقولاي ارتيميفيتش:

– أنا أعرف أنك دائماً كنت تعتبرينني إنساناً... «بلا أخلاق».

تمتمت آنا فاسيليفنا بذهول:

- أنا؟!

- وقد تكونين على حق. ولا أريد أن انكر أنني بالفعل كنت أعطيك أحياناً حجة عادلة لعدم الرضى (وطاف في ذهن آنا فاسيليفنا «أنها الخيول الرمادية») رغم أنك لا بد أن تقري بأن عضويتك في حالتها المعروفة لك...

- ولكنني لا أتهمك أبداً، يا نيقولاي ارتيميفيتش.

- Cest possible[٣٣]. وفي كل الأحوال لا انوي تبرير نفسي. الزمن سيبررني. ولكنني أرى من واجبي أن أؤكد لك أنني أعرف التزاماتي، واستطيع أن اهتم بـ.... مصالح... العائلة المؤكل بها.

فكرت آنا فاسيليفنا مع نفسها: "ماذا يعني كل هذا؟" (ما كان في امكانها أن تعرف أن جدالاً نشأ في عشية اليوم، في ركن من حجرة الارائك في النادي الانجليزي، عن عدم قدرة الروس على تدبيج الحديث. وهتف أحد المتجادلين: "مَنْ يجيد الحديث عندنا؟ هل تسمون لي أحداً"، فرد آخر: "لنأخذ ستاخوف مثلاً" وأشار إلى نيقولاي ارتيميفيتش الذي كان بين المتحدثين. وكادت تند منه صيحة فرح).

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول:

- لنأخذ ابنتي يلينا. ألا تجدين أن الوقت قد حان أخيراً لأن تقوم بخطوة ثابتة في طريق الحياة... أريد أن أقول أن تتزوج. لا ضير في كل تلك التفلسفات وأعمال البر والاحسان، ولكن بقدر معين، وإلى

---

(٣٣) هذا محتمل (بالفرنسية في الأصل).

عمـر معين. وقد آن لها أن تترك ضبابياتها وأن تخرج من مجتمع اوزاع الفنانين والطلبة والجبليين السود[٣٤] وتصير كالآخرين.

سألت آنا فاسيليفنا:

– كيف علي أن افهم كلامك؟

رد نيقولاي ارتيميفيتش بنفس تهدل الشفتين:

– دعينـي اكمل. سأقول لك بصراحة ودون لف ودوران. لقد تعرفت وتصاحبت مع هـذا الشاب، السيد كورناتوفسكـي، على أمل أن يكون صهـري. واجروٌ على الظن بأنـك، حين ترينه، لن تتهمينـي بالمحاباة أو بالتسـرع في الـرأي. (كان نيقولاي ارتيميفيتش يتكلـم، ويعجب بذلاقة لسانـه) تعليمه ممتاز، فهو قانوني، وتربيته جيدة، وهو في الثالثة والثلاثين، وسكرتـير أول، ومستشار متخرج، وحامـل وسام ستانسلاف. وآمل في أنـك ستنصفينني، ولا تضعينني في عداد أولئك[٣٥] péres de comédie الذين تسحرهم المناصب وحدهـا. وأنت نفسك كنت تقولين لي أن يلينا نيقولايفنـا يعجبها الاكفاء الايجابيون. ويغور اندرييفيتش الأول في حلقة مـن حيث الكفاءة. وابنتي، من الناحية الأخرى، ميالة إلى افعال الشهامة، فاعلمي، اذن، أن يغـور اندرييفيتش، حالما اتيحت له امكانية، وارجو أن تفهمينـي، امكانية العيش على راتبه دون عوز، تخلى على الفور لاخوانه عن المبلغ السنوي الذي عينه له ابوه.

فسألت آنا فاسيليفنا:

– ومن أبوه؟

---

(٣٤) الجبـل الأسود ("مونتـه نيغرو") – مقاطعة في البلقان هي الآن داخلة في حدود يوغوسلافيا.

(٣٥) الاباء في التمثيليات الفكاهية (بالفرنسية في الأصل).

- أبـوه؟ ابوه أيضـاً إنسان مشهور في مضمـاره، ذو اخلاقيات عالية جـداً[٣٦] un vrai stoïcien، رائد متقاعد، على ما أظن، يدير كل ضياع الكونتات من آل ب...

قالت آنا فاسيليفنا:

- أها!

فأسرع نيقولاي ارتيميفيتش يقول:

- أهـا! ماذا أهـا؟ هل معقـول أنك أيضـاً مصابة بـداء التحاملات؟ فشرعت آنا فاسيليفنا تقول:

- ولكنني لم أقل شيئاً...

- لا، قلـت أها!.. ومهمـا يكن من شيء رأيت من الـلازم أن انبهك إلى مـا يدور في ذهني، واجرؤ علـى الاعتقاد... اجرؤ على أن آمل في أن السيد كورناتوفسكي سيستقبل[٣٧] à bras ouverts أنه ليس من الجبليين السود أو ما شاكل.

- بالطبع. ولكن يجب أن تبلغ الطباخ فانكا ليضيف أصنافاً جديدة.

- أنـت تعرفين أننـي لا اتدخل في ذلك - قال نيقـولاي ارتيميفيتش ونهض، ولبس قبعتـه، وذهب ليتنزه في الحديقة، وهـو يصفر (وكان قد سمع أن الصفير لا يجوز إلا في بيت ريفي تقطنه أو في حلبة الخيول). نظر شوبين إليه من نافذة مسكنه الملحق، واخرج له لسانه صامتاً.

في الساعـة الرابعة إلا عشر دقائق وصلـت إلى واجهة بيت ستاخوف الريفـي عربـة مستأجرة، ونـزل منها رجـل لم يتخط بعد سـن الشباب،

---

(٣٦) زينتوني حقيقي (بالفرنسية في الأصل).
(٣٧) باذرع مفتوحة (بالفرنسية في الأصل).

مهذب المظهر أنيـق اللباس، بسيطه، وأمر بأن يُعلن عن وصوله. ذلك هو يغور اندرييفيتش كورناتوفسكي.

وبالمناسبة، هذا ما كتبته يلينا لاينساروف في اليوم التالي:

"هنئنـي، يا عزيزي دميتري، فقد صـار لي خطيب. ويوم امس تناول طعام الغداء عندنا، وكان أبي قد تعرف عليه في النادي الانجليزي، على ما يبدو، ودعـاه لزيارتنا. وطبيعي أنه لم يأت يوم أمس كخطيب، إلا أن أمي الطيبة التي ابلغها أبي بأمنياته، همست في أذني من هو ضيفنا. يدعى يغور اندرييفيتش كورناتوفسكـي، ويعمل سكرتـيراً أول في مجلس الشيوخ. ولأصـف لك مظهـره الخارجي أولاً. أنه ربع القامـة، اقصر منك، حسن البنيـان، متناسق القسمات، قصير الشعر، طويـل القذال. عيناه صغيرتان (كعينيـك) بنيّتان، سريعتـان، وشفتاه مسطحتان، عريضتـان، وفي عينيه وعلـى شفتيـه بسمة دائمة، رسميـة على نحو ما، وكأنمـا لاداء الواجب. طريقة سلوكه بسيطة جـداً، وكلامه واضح، وكل شيء لديه واضح، فهو يسـير، ويضحك، ويأكل وكأنـه يؤدي عملاً. ولربمـا أنت تفكر في هذه اللحظة "درسته بدقة!" أجل، لكي اصفه لك. ثم كيف لا ادرس خطيبي! أن فيه شيئا حديدياً... وبليداً وفارغاً في الوقت ذاته، ونزيهاً. يقال أنه نزيه جداً، حقـاً. وأنت أيضاً حديدي، ولكن لست كمثلـه. جلس إلى المائدة جنبي، وجلس شوبين قبالتنا. في البداية دار الحديث عن مؤسسات تجارية يقـال أنه يفهم فيهـا، وكاد يترك وظيفته ليشرف علـى معمل كبير. ولكنه فـوّت عليه الفرصة! ثم اخذ شوبين يتحدث عن المسرح، وهنا ذكر السيد كورناتوفسكـي، وبـدون أي تواضع كاذب - ويجـب أن اقرأ بذلك - أنـه لا يفقه شيئاً في الفن. وقد ذكرني ذلـك بك... ولكنني قلت لنفسي: لا، أنـا ودميـتري لا نفهم الفـن بطريقة مغايرة، على أية حـال. بينما هذا كمـا لو أنه كان يريـد أن يقول: أنا لا افهمه، كما أنه ليس ضرورياً، ولكنه مسمـوح به في دولة حسنة التنظيم. أن هذا الرجل، على العموم، يستهين

كثـيراً ببطرسبورغ، وبــ comme il faut بل وقد سمــى نفسه بروليتارياً مــرة واحدة. ويقــول: نحن عمال بسطاء! وقد فكــرت مع نفسي: لو أن دميتري قال ذلك لما اعجبني ذلك منه، ولكن ليقل هذا عن نفسه ما يشاء، وليتبجــح! كان جــد مهذب معــي، ومع ذلك فقد كان يبــدو لي دائماً أن المتحــدث الي رئيس يتلطف مع محدثه كثيراً. وحــين يريد أن يمتدح إنساناً يقــول أنه صاحب أصول. وذلك تعبيره المفضــل. فلا بد أنه واثق بنفسه، محب للعمــل، ومقتدر على التضحيــة (ها أنت ترى أننــي منصفة) أقصد التضحيــة بمنافعه، ولكنه مستبد كثيراً. ومن المصيبة الوقوع في يده! جرى الحديث على المائدة عن الرشاوي...

قال:

– أنــا ادرك أن الــذي يأخذ الرشوة غير مذنــب في كثير من الاحوال، فهو لا يستطيع أن يفعل خلاف ذلك. ومع هذا يجب سحقه، إذا اكتشف أمره.

هتفت:

– سحق بريئاً!

– نعم، في سبيل المبدأ.

فسأل شوبين:

– أي مبدأ؟

فبدأ على كورناتوفسكي الارتباك أو الدهشة وقال:

– لا يحتاج ذلك إلى شرح.

فتدخــل أبي الــذي كان يبجّله، كما يبدو، وقــال: لا يحتاج، بالطبع، وانتهــى هذا الحديث، مع الأسف، وفي المساء جاء بيرسينيف، ودخل معه في جدال مريع. حتى ذلك الحين لم أر قط صديقنا اندريه بيتروفيتش الطيب

على مثل تلـك الدرجة من الانفعال. لم ينكر السيد كورناتوفسكي، على الاطـلاق، فائدة العلم والجامعات وغيرهـا... ومع ذلك فقد كنت أتفهم استيـاء اندريه بيتروفيتش. كان الآخر ينظر إلى كل ذلـك وكأنه نوع من التماريـن الرياضية. جاءني شوبين، بعد الفراغ من المائدة، وقال: "أن هذا وشخصـاً آخر (أنـه لا يستطيع أن يلفظ اسمـك) عمليان كلاهما، ولكن انظـري أي فارق بينهما. الآخر مثال حقيقي حـي طرحته الحياة نفسها، أمـا هذا فحتـى الشعور بالواجب غير متوفر فيه، بـل مجرد نزاهة وظيفية، وكفاءة فارغة من أي محتوى". أن شوبين ذكي، وأنا اتذكر ما قاله خصيصاً لك. ولكـن أي جامع يمكن أن يكون بينكما برأيي؟ أنت تؤمن، وهو لا، إذ لا يجوز الايمان بالنفس فقط.

غادر السيـد كورناتوفسكي في ساعة متأخـرة، ولكن ماما لحقت أن تخبرني بأنني رقت له، وأن أبي في غاية الغبطة... لعل السيد كورناتوفسكي قال أيضاً عني أنني صاحبة أصول؟ وكدت ارد على أمي بأنني آسفة جداً، ولكن لي زوجاً بالفعل. لماذا لا يحبك أبي إلى هذه الدرجة؟ مع أمي يمكن أن ندبر الأمر بطريقة أو بأخرى...

آه، يـا عزيزي. لقـد اسهبت لك في وصف هـذا السيد لا تغلب على وحشتـي. لا حياة لي بدونـك. وأنا، على الـدوام، أراك واسمعك... أنا انتظرك، ولكن ليس في بيتنا، كما كنت تريد - تصور ما سنحسه من ضيق وحراجة - بل في المكان الذي كتبت لك عنه - في ذلك الحرش... آه، يا عزيزي، كم أحبك!".

٢٣

بعد ثلاثة أسابيع مـن زيارة كورناتوفسكي الأولى انتقلت آنا فاسيليفنا إلى موسكـو، مثيرة بذلك فرحاً عظيمـاً في نفس يلينـا، ونزلت في بيتها

الخشبي الكبير قـرب شارع بريتشستينكا، وهو بيت ذو أعمدة تكلل كل نافـذة من نوافذه قيثـارات واكاليل بيض، وللبيت طابـق علوي، ومرافق للخدمـات، وحديقـة خضروات، وفنـاء أخضر واسع، فيـه بئر يجاورها وجار للكلاب. من قبل لم تكن آنا فاسيليفنا تغادر البيت الريفي إلى المدينة في مثل هذا الوقت المبكر من الخريف. ولكن موجات البرد الخريفية الأولى في هـذا العام أثارت خراجات اللثة عندها. كما أن نيقولاي ارتيميفيتش، مـن ناحيتـه، قد انهـى دورة علاجه. واشتـاق إلى زوجتـه، لا سيما وأن افغوستينا خريستيانوفنـا قد سافرت لزيارة ابنة عمها في ريفيل. ووصلت إلى موسكـو أسـرة أجنبية كانـت تعرض أوضاعـاً بلاستيكية des poses plastiques أثـار وصفهـا في صحيفـة "موسكوفسكيـه فيدوموستي" فضـول آنا فاسيليفنـا الشديد. وباختصار كان استمـرار الاقامة في البيت الريفـي غير ملائـم، بل ولا يتفـق، كما قـال نيقـولاي ارتيميفيتش، مع تنفيـذ "مخططاته". وبـدا الاسبوعان الاخيران طويلين جـدا ليلينا. وكان كورناتوفسكي يزورهـم مرتين يوم الأحد، وكان في بقية الايام مشغولاً. وكان يأتـي خصيصاً ليلينا، ولكنه كان يتحدث أكثر مع زويا التي أعجبت بـه كثيراً. وكانت تقـول لنفسها، وهي تنظر إلى وجهـه الأسمر الرجولي وتسمع كلامه الواثق المتسامح: "Das ist ein Mannl" [٣٨]. فأن أحداً، حسـب رأيها، لم يمتلـك صوتاً مدهشاً مثل صوتـه، ولا أحد يضارعه في نطقه بشكل رائع: "لي الشرف" أو "أنا مرتاح جداً". ولم يزر اينساروف آل ستاخوف، ولكن يلينا التقته ذات مرة خلسة في حرش صغير على نهر موسكـو، كانت قد حددت لـه موعداً فيه. وما كاد الوقـت يتسنى لهما ليتبادلا بعض الكلمات. وعـاد شوبين إلى موسكو مع آنا فاسيليفنا، وبعد بضعة أيام تبعه بيرسينيف.

---

(٣٨) هذا رجل حقيقي (بالالمانية في الأصل).

كان اينساروف جالساً في حجرته يقرأ للمرة الثالثة رسائل وصلته من بلغاريا مـع رسول سائح، فقد كانوا يخافـون ان يرسلوها في البريد. وقد اقلقتـه الرسائل كثيراً. الأحداث تتطور بسرعـة في الشرق. وكان احتلال القوات الروسية للامارتين يشغل بال الجميع. واشتدت العاصفة، وفاحت رائحة حرب قريبة لا مرد لها. وبدأ الحريق، و لم يكن في مستطاع أحد أن يتنبـأ إلى أين يتجه، وأين يتوقف. تحركت المظالم القديمة والأماني التي طال أمدهـا. وكان قلب اينساروف يخفق بشدة، فأخذت أماله تتحقق. وكان يفكـر عاصراً يديه: "ولكن أليس ذلـك مبكراً؟ بدون جدوى؟ فنحن غير مستعدين الآن. ولكن ما العمل! يجب أن اسافر".

حدثـت حركـة خفيفة وراء البـاب، وانفتـح بسرعة، ودخلـت يلينا الحجرة.

ارتعشـ كيان اينساروف كله، واندفـع نحوها، وركع أمامها، وطوق قامتها، وضغط رأسه عليها بقوة.

– لم تكـن تتوقعنـي؟ – قالت، وهي لا تكاد تلتقـط أنفاسها (وكانت قـد ارتقت السلـم بسرعة) – عزيـزي! عزيزي! – ووضعـت كلتا يديها علـى رأسه، وتلفتت – هنا تعيش، اذن؟ عـثرت عليك بسرعة. دلتني ابنة صاحـب البيت. انتقلنـا إلى موسكو يوم أمس الأول. واردت أن اكتب لـك، ولكنني فكرت في أن مجـيء إليك أفضل. سأظـل معك ربع ساعة. انهض، واغلق الباب.

نهضـ، وخـف لغلق الباب، وعـاد إليها، وأخذ يديهـا. لم يستطع أن يتكلم، فقد عقدت الفرحة لسانه. وكانت تحدق في عينيه مبتسمة... كان في عينيه الكثير من السعادة... وخجلت يلينا.

– على مهلك – قالت له، واسترجعت يديها منه بلطف – دعني اخلع القبعة.

وفكت شريطي القبعة، ورمتها والقت العباءة عن كتفيها، وعدلت شعرها. وجلست على اريكة صغيرة قديمة. جمد اينساروف يحدق فيها كالمسحور.

– اجلس.

قالت دون أن ترفع إليه عينيها، مشيرة له إلى مكان جنبها.

جلس اينساروف، ولكن على الأرض، عند قدميها، لا على الاريكة.

قالت بصوت مضطرب، إذ شعرت برهبة:

– خذ، اخلع القفازين من يدي.

أخذ يفك الازرار في البداية، ثم يسحب أحد القفازين، وسحبه إلى النصف، ولثم في نهم الكف الناعمة الرقيقة التي لاحت بيضاء من تحت القفاز.

ارتعشت يلينا، وارادت أن تدفعه بيدها الأخرى، ولكنه راح يقبل هذه اليد أيضاً. سحبتها يلينا نحوها، فدفع رأسه إلى الوراء، فنظرت في وجهه، وانحنت، والتقت الشفاه...

مرت لحظة... انتزعت يلينا نفسها، ونهضت، وهمست "لا، لا" واقتربت بسرعة من منضدة الكتابة.

– أنا ربة بيت هنا، ولا يجوز أن تخفي عني خافية – قالت محاولة أن تبدو خلية البال، مديرة له ظهرها – ما أكثر الاوراق! ما هذه الرسائل؟

قطّب اينساروف حاجبيه. وقال، وهو ينهض من الأرض:

– هذه الرسائل؟ تستطيعين أن تقرئيها.

قلّبتها يلينا في يدها.

– أنهــا كثيرة جــداً، ومكتوبة بخط دقيق، بينمــا يجب أن انصرف الآن... سأتركها! أليست من غريمة لي؟ ولكنها ليست بالروسية.

اضافت ذلك، وهي تتصفح الأوراق الخفيفة.

دنــا اينساروف منها، ومسَ قدَّها، فاستدارت نحوه فجأة، وابتسمت له ابتسامة مشرقة، واستندت على كتفه.

– أن هذه الرسائل من بلغاريا، يا يلينا. اصدقائي يكتبون لي، ويدعونني إلى السفر.

– الآن؟ إلى هناك؟

– نعم... الآن، ما دام الوقت لم يفت، وما دام السفر ممكناً.

وفجأة طوقت رقبته بكلتا يديها.

– ولكن ستأخذني معك؟

ضمها إلى صدره:

– آه، يــا فتاتي العزيزة، يــا بطلتي، ما الطف نطقــك لهذه الكلمات! ولكــن أليست خطيئة، أليس جنوناً مني أن اجرك معي – أنا الذي لا بيت له ولا أهل... وإلى أين!

وضعت يدها لتسد فمه قائلة:

– هسس... والا فسأزعل، ولن أعود لزيارتك أبداً. ولكن ألم يُحسَم كل شيء بيننا، ويُبت؟ أولست زوجتك؟ وهل الزوجة تفارق زوجها؟

قال بابتسامة شبه حزينة:

– الزوجات لا يخرجن للحرب.

– أجل، إذا يقدرون على البقاء. وهل في أمكاني أن ابقى هنا؟

– يلينا، أنت مــلاك!.. ولكن فكِّري، ربما اضطر إلى ترك موسكو...

بعـد أسبوعين. ولا مجـال لأن افكـر في محاضرات الجامعـة، ولا في اكمال اعمالي.

قاطعته يلينا:

– مـا هذا الذي تقوله؟ هـل يجب أن تسافر قريبـاً؟ إذا اردت، فسأبقى معـك الآن، هذه اللحظة، واظل معك إلى الأبد، ولـن أعود إلى البيت، هل تريد؟ لنسافر الآن، هل تريد؟

ضمها اينساروف بين ذراعيه بقوة مضاعفة، وهتف:

– ليعاقبني الرب، أن قمت بعمل سوء! منذ اليوم نحن مرتبطان إلى الأبد!

فسألت:

– يعني، سأبقى؟

– لا، يـا فتاتي الطاهرة، لا، يا كنـزي. ستعودين اليوم إلى البيت، ولكن كوني على أهبة. فأن هذا الأمر لا يجوز أن يؤتي دفعة واحدة. يجب التروي في كل شيء. ونحن نحتاج إلى نقود، وجواز سفر...

قاطعته يلينا:

– عندي نقود. ثمانون روبلاً.

فقال اينساروف:

– هذا ليس مبلغاً كبيراً، ولكنه ينفع على أية حال.

– واستطيـع أن احصـل علـى أكـثر، استديـن، اطلب من أمـي... لا، لا أريـد أن اطلب منها... ولكـن يمكن أن أبيع ساعتـي... وعندي اقراط، وسواران... مخرمات.

– ليست المسألة مسألة فلوس، يا يلينا. جواز السفر، جواز سفرك، كيف ندبره؟

– نعم، كيف ندبره؟ لا بد من جواز سفر؟

– لا بد.

وضحكت ضحكة مقتضبة ساخرة.

– هــذا ما خطر في بالي! اتذكــر، وأنا صغيرة... هربــت منا خادمة، فامسكــوا بها، وصفحوا عنهــا، وظلت تعيش معنا زمنــاً طويلاً... ومع ذلــك كان الجميع يلقبونها بتاتيانا الهاربــة. لم أكن أتصور في حينها، أنني ربما سأكون أيضاً هاربة، مثلها.

– عيب عليك، يا يلينا!

– ومــاذا في الأمر؟ الافضل، بالطبع، أن اسافر بجواز سفر. ولكن إذا تعذر ذلك...

قال اينساروف:

– سنســوي كل ذلك، فيمــا بعد، فيما بعد، انتظــري، اعطيني فرصة لأن اتفحصــص اموري، اتركيني افكر. سنتباحث في كل شيء سوية، وكما ينبغي. أما النقود فعندي منها أيضاً.

ازاحت يلينا بيدها الشعر الذي تساقط على جبينه.

– آه، دميتري! ما امتع أن نسافر سوية!

قال اينساروف:

– نعم، وهناك إلى أين نذهــب...

قاطعته يلينا:

– ومــاذا في ذاك؟ أليس الموت سوية ممتعاً أيضاً؟ ولكن لا، لماذا نموت، سنعيش، فنحن شابان، كم عمرك؟ ستة وعشرون؟

– ستة وعشرون.

– وأنـا في العشريـن، أمامنا العمر بطوله، ها! وكنـت تريد أن تهرب منـي؟ لم تكن بحاجـة إلى حب روسـي، أيها البلغاري! فلـنر الآن كيف ستتخلص مني! ولكن ماذا كان سيحصل لنا، لو لم اتجه إليك آنذاك!

– أنت تعرفين، يا يلينا، ما الذي كان يحملني على الابتعاد عنك.

– اعـرف، أحببـت، وارتعبت. ولكن هل مـن المعقول أنك لم تحدس أنني كنت أبادلك الحب؟

– لا، يلينا قسما بالشرف.

قبلته بغتة وبسرعة.

– ولهذا بالذات أحبك. والآن، وداعاً.

فسأل اينساروف:

– إلا تستطيعين أن تبقي أكثر؟

– لا، يـا عزيزي. هـل تتصور أنـه كان سهلاً علـي أن انسل واخرج وحيـدة؟ ربع الساعة انقضى منذ زمان – وليست عباءتها وقبعتها – تعال عندنا غدا في المساء، لا، بعد غد. سيكون الجو مصطنعاً مضجراً، ولكن لا حيلة لنا عليه. سيرى أحدنا الآخر على أقل تقدير. وداعاً. دعني اذهب – وعانقها للمرة الأخيرة – آه! انظر، قطعت سلسلتي. آه، يا فتاي الاخرق! طيـب، لا يهم. هذا احسن. سأذهـب إلى شارع "كوزنتسكي موست"، واعطيهـا للتصليـح. فإذا سألـوني أقول كنـت في كوزنتسكي موست – وامسكـت مقبض البـاب – بالمناسبة، نسيت أن أقـول لك: من المحتمل أن مسيـو كورناتوفسكي سيطلب يدي خلال أيام. ولكنني سأصنع له... هـذا – ووضعت ابهام يدها اليسرى علـى ارنبة انفها، وحركت اصابعها الأخـر في الهواء – وداعاً، وإلى اللقاء. اعـرف الطريق الآن. أما أنت فلا تضيّع الوقـت...

فتحت يلينا الباب قليلاً، وتسمّعت، واستدارت نحو اينساروف، واومأت برأسها، وانسلت من الحجرة.

وقف اينساروف أمام الباب دقيقة، وتسمع أيضاً. انصفق الباب المؤدي إلى الفناء في الاسفل. اقترب اينساروف من الاريكة، وجلس، وغطى عينيه بيده. أن مثل هذا الشيء لم يحدث له من قبل. وفكر: "لأي شيء اجازى بهذا الحب؟ ألعله حلم؟".

إلا أن رائحة البُليحاء الخفيفة التي ابقتها في حجرته البائسة المظلمة كانت تذكّر بزيارتها. كما بقيت عالقة في الهواء، على ما يبدو، رنات صوتها الفتي، وحفيف خطواتها الفتية الخفيفة، ودفء وغضارة جسدها العذري الفتي.

٢٤

قرر اينساروف أن ينتظر أخباراً أكثر إيجابية، وبدأ يتهيأ للسفر. وكان الأمر صعباً جداً. وفي الحق لم تكن هناك أية عقبات أمامه، إذ لم يكن عليه إلا أن يطالب بجواز سفر. ولكن كيف سيكون الأمر مع يلينا؟ كان من المستحيل الحصول لها على جواز سفر بطريق مشروع. أم يعقدان قرانهما خلسة، ثم يتوجهان إلى والديها... وكان يفكر: "عندئذ سيسمحان لنا بالسفر. وأن لم يسمحا؟ سنسافر، في كل الأحوال. وأن اشتكيا علينا... أن... لا، من الأفضل السعي للحصول على جواز سفر بطريقة ما".

وعزم على التشاور (دون أن يسمي أسماً، بالطبع) مع مدع عام يعرفه، متقاعد أو مقالٍ، وعجوز ضليع محنك في شتى القضايا السرية. وكان هذا الرجل المحترم يعيش بعيداً من مسكنه. وقضى اينساروف ساعة كاملة للوصول إلى بيته في عربة مستأجرة بائسة، والانكى من ذلك أنه لم يجده

في بيتـه. وفي طريق العـودة بلله حتى العظام وابـل هطل على حين غرة.
وفي الصبـاح التالي ذهــب اينساروف للمرة الثانيـة إلى بيت المدعي العام المتقاعـد، رغم الصداع الشديد. اصغى إليـه المدعي العام المتقاعد بانتباه، وهـو يستنشــق التبغ من علبة تبـغ مزينة بصورة حوريـة مكتنزة النهدين، وينظـر إلى ضيفه بحول من عينين صغيرتين ماكرتين بلون التبغ أيضاً. كان يصغـي ويطالب "دقة أكثر في طرح المعطيـات الفعلية"، ولما رأى كراهية اينســاروف للدخول في التفاصيل (وكان قد جاء إليه على مضض) اكتفى بتوجيه النصح له بأن يتزود "القروش" قبل كل شيء، وطلب إليه أن يزوره للمـرة الثانية. واضــاف، وهو يستنشــق التبغ منكباً علـى علبته المفتوحة "عندما تزداد لديك الثقة، وتقلل عدم الثقة". ومضى يقول كمن يخاطب نفســه: "أمــا جواز السفر فتحـت متناول يد الإنســان. فأنت لو سافرت مثلاً، فمن سيعـرف من أنت: ماريا بريديخينــا، أم كارولينا فوغيلميير؟" وأحس اينساروف بشعور القــرف يتململ في نفسه، إلا أنه شكر المدعي العام، ووعد بالعودة إليه خلال أيام.

في ذلــك المساء ذهب لزيارة آل ستاخوف. استقبلته آنا فاسيليفنا برقة، وعاتبتــه على نسيانه لهـم كلياً، ولما رأتـه شاحب الوجـه استفسرت عن صحته. ولم يقل نيقولاي ارتيميفيتش له أية كلمة، ولكنه نظر إليه بفضول ساهم ذاهــل، ولا شيء آخر. وعامله شوبين بــبرود، ولكن يلينا ادهشته. فقــد كانت تنتظـره، ومن أجله لبســت نفس الثوب الــذي كانت ترتديه يــوم لقائهما الأول في الصومعة، ولكنها رحبت به بهدوء شديد، وكانت لطيفــة جــداً، ومرحة في خلو بــال، فما كان في وسع أحــد ينظر إليها في تلــك الساعة أن يظن أن مصير هذه الفتاة قد حسم، وأن الاحساس الخفي بالحــب السعيد وحده كان يضفــي الحيوية على ملامحهــا، والخفة والفتنة على كل حركاتها. كانت تصب الشاي، بدلاً من زويا، وتمزح، وتكثر من الــكلام، فقد كانت تعرف أن شوبين سيراقبهــا وأن اينساروف لا يحسن

التمويـه، ولا يجيد التظاهر بعدم الاكـتراث، فسلحت نفسها مسبقاً. و لم تخطـئ في ذلك. فقد كان شوبين لا يصرف عينيه عنها. وكان اينساروف صموتاً جـداً وعبوساً خلال الامسية كلها. وكانـت يلينا تشعر بالسعادة تغمر نفسها، حتى أنها رغبت في مناكدته.

سألته فجأة:

– ماذا، اذن؟ هل مشروعك في تقدم؟

ارتبك اينساروف، وقال:

– أي مشروع؟

– هل نسيت؟ – ردت عليه ضاحكة في وجهه. وكان وحده يستطيع أن يـدرك مغزى هذا الضحك السعيد – كتـاب المطالعة البلغاري للروس الذي كنت تنوي تأليفه؟

تمتم نيقولاي ارتيميفيتش من خلال أسنانه:

– Quelle bourde ! [٣٩]

جلسـت زويـا إلى البيانو. هـزت يلينا كتفيها بشـكل لا يكاد يلحظ، واشارت لاينسـاروف بعينيها إلى الباب، وكأنما تـأذن له بالانصراف. ثم مسَّـت المائـدة باصبعها مستين، ونظـرت إليه. ففهم أنهـا قد حددت له موعداً بعد يومين، وابتسمت ابتسامة سريعة حين رأت أنه قد فهم اشارتها. نهض اينساروف، وأخـذ يستأذن بالانصراف، لأنـه يشعر بتوعك. جاء كورناتوفسكـي. فهّب نيقولاي ارتيميفيتش واقفـاً، ورفع يده اليمنى إلى أعلـى مـن رأسه، وانزلهـا بنعومة على كـف السكرتـير الأول هذا. بقي اينسـاروف بضع دقائق أُخـر، ليتفحص غريمه. هَزت يلينـا رأسها خلسة

(٣٩) أية سخافة (بالفرنسية في الاصل).

وبمكـر، فأن رب البيت لم يـر من الضروري أن يعـرف أحدهما بالآخر، وخـرج اينساروف متبادلاً النظرات مع يلينـا للمرة الأخيرة. فكر شوبين وفكـر، ثم دخـل في نقاش ضار مع كورناتوفسكي عـن مسألة قانونية لم يكن يفقه فيها شيئاً.

أرق اينسـاروف الليلـة بطولهـا، وفي الصبـاح كان يشعـر بسوء في صحته. ومع ذلك أخـذ يرتب اوراقه، ويكتب الرسائل، إلا أن رأسه كان ثقيلاً، ومضطرباً. وعند الغداء ارتفعت حرارته، فلم يستطع أن يأكل شيئاً. واشتـدت الحـرارة بسرعة عند المسـاء. واصابه انحـلال في كل اعضائه، وصداع مـؤلم في رأسه. استلقى اينساروف علـى نفس الاريكة الصغيرة التـي كانـت يلينا تجلس عليها قبل وقـت قصير. وفكر مـع نفسه: "هذا عقـاب عادل على ذهابي إلى ذلك المحتـال العجوز" وحاول أن يغفو... ولكـن المرض كان قد تمكن منه آنذاك. وراحت عروقه تنبض بقوة رهيبة، والدم يغلي بحرارة في داخلـه، والافكار تدور في ذهنه كالطيور. وغرق في غيبوبـة. انطـرح على ظهـره كالمسحـوق، وفجأة تـراءى له شخص يضحـك فوقـه بخفوت ويهمـس. فتح عينيـه بجهد. فنفـذ اليهما ضوء الشمعـة المحترقة كالسيكين. ما هـذا؟ كان المدعي العام العجوز امامه في روب بيتي حريري محزم بنطاق من الحرير الخفيف، كما رآه قبل يوم. وتمتم الفـم الادرد "كارولينا فوغيلميير". ويحدق اينساروف، والعجوز يكبر، وينتفخ، وينمو، حتى لم يعد رجـلاً، بل شجرة... وكان على اينساروف أن يتسلق أغصانها العالية. فيتشربك، ويسقط بصدره على صخرة حادة، وكارولينـا فوغيلميـير تجلس القرفصاء، في زي بائعـة، وتغمغم: "فطائر، فطائـر، فطائر". ثم يتدفق دم، والسيوف تلمع لمعاناً لا يطاق... يلينا!... واختفى كل شيء في هيولى حمراء...

٢٥

– جـاءك شخص، والله يعلم مَنْ هو... ربما هـو سمكري. ويريد أن يراك.

قـال ذاك لبيرسينيف في المساء التالي، خادمه الذي كان يتميز بالصرامة في التعامل مع سيده، وبنزعة التشكك في تفكيره.

قال بيرسينيف:

– دعه يدخل.

ودخـل "السمكري"، فعرف بيرسينيف فيـه الخياط صاحب المسكن الذي يقيم فيه اينساروف.

سأله:

– ماذا تريد؟

– اريـد أن اكلم حضرتك – قـال الخياط منقلاً قدميه ببطء، ورافعاً من حين لآخر يده اليمنى، وقد امسك بأصابعه الثلاث الأخيرة طرف كمه – نزيلنا مريض جداً والله يعلم.

– اينساروف؟

– بالضبـط، نزيلنـا. والله يعلم. حتـى صباح أمـس كان ما يزال على قدميـه، وفي المساء لم يطلب غير شيء يشربـه، فجلبت له أم بيتنا ماء، وفي الليـل راح يهـذر، وكنـا نسمعه من خـلال الحاجز. واليـوم صباحاً فقد لسانه، وهو مطروح كالخشبة، متوهج بحمى، نعوذ بالله منها! وفكرت: الله يعلم، قد يموت بين لحظة وأخرى، ويجب أخبار الشرطة. لأنه وحيد، ولكـن أم البيت قالـت لي: "اذهب إلى الساكن الـذي كان نزيلنا يستأجر حجـرة في بيته الزيفـي. فلعله يشير لـك بشيء، أو يأتـي بنفسه". ولهذا جئت إلى حضرتك، لأنه لا يجوز لنا، اقصد...

اختطف بيرسينيف قبعته، ودس في يد الخياط قطعة معدنية من فئة الروبل، واسرع معه في عربة مستأجرة إلى مسكن اينساروف على الفور.

وجده راقداً على الاريكة فاقد الوعي، في ثيابه الكاملة. وقد تغيّر وجهه تغيراً رهيباً. اسرع بيرسينيف فأمر صاحب البيت وربته بأن يخلعا عنه ثيابه، وينقلاه إلى السرير، وانطلق هو إلى الطبيب، وجاء به. وصف له الطبيب دفعة واحدة علقاً ولصقات وملح الزئبق كما أمر بفصد الدم.

– هل هو في حالة خطرة؟

أجاب الطبيب:

– نعم، جداً، التهاب شديد للغاية في الرئتين، والتهاب الغشاء البلوري في اوجه. ولربما الدماغ مصاب أيضاً، بينما الشخص ما يزال شاباً. قواه الآن انقلبت ضده. تأخرت في استدعائي ولكنني، على العموم، سنقوم بكل ما يتطلبه العلم.

كان الطبيب نفسه ما يزال شاباً، ويصدق بالعلم.

وبقي بيرسينيف لقضاء الليلة. وكان رب البيت وربته طيبين بل ومقتدرين، حالما توفر الشخص الذي أخذ يقول لهما ماذا يجب أن يفعلا. وجاء المطبب وبدأت التعذيبات الطبية.

وعند مطلع الصباح افاق اينساروف على نفسه بضع دقائق، وعرف بيرسينيف، وسأله: "يبدو أني معتل الصحة؟"، ونظر فيما حوله بالحيرة المتبلدة الفاترة التي يتسم بها المريض الدنف، ثم غاب عن الوعي ثانية. ذهب بيرسينيف إلى بيته ليستبدل ملابسه، وأخذ معه بعض الكتب، وعاد إلى مسكن اينساروف. وقد عزم أن يسكن معه في فترة المرض الأولى على الأقل. سد سريره ببرافان، وهيأ لنفسه موضعاً قرب الاريكة. ومر اليوم حزيناً متباطئاً، و لم يغب بيرسينيف إلا ليتناول لقمة. وحل المساء، واشعل بيرسينيف شمعة ذات ظليلة، وأخذ يقرأ. كان الصمت يشمل كل

شـيء. ومن خلـف الحاجز كان يسمع لاهل البيـت همس مكبوت تارة، وتثـاؤب تارة أخرى، وزفرة تارة ثالثة... وعطس احدهم، فقُرع همساً، وكانـت تصدر مـن وراء البرافان أنفاسـ ثقيلة متقطعة يتخللهـا، أحياناً، أنـين قصير، وتقلـب رأس ملول على الوسادة... وتـواردت افكار غريبة علـى ذهن بيرسينيـف. كان في حجرة رجـل كانت حياتـه معلقة بخيط رفيـع، رجل - وهو يعرف ذلك - كانت يلينـا تحبه... وتذكر تلك الليلة التي لحقــه فيها شوبين، وابلغه أنهـا تحبه هو، بيرسينيـف! والآن... سأل نفســه: "ماذا علي أن افعـل الآن؟ أخبر يلينا بمرضــه؟ أم انتظر قليلاً؟ هذا الخـبر أشـد حزناً من ذلك الذي نقلته لها يومهـا. غريب أن القدر يضعني دائما شخصاً ثالثاً بينهما!". وقرر أن ينتظر قليلاً، فذلك افضل. وقع بصره علـى المنضدة المغطـاة بتلال من الأوراق... فكـر بيرسينيف: "تُرى، هل سيحقـق مخططاته؟ معقول أن يختفي كل شيء؟" واشفق على الحياة الفتية المحتضرة، وقطع على نفسه عهداً بأن ينقذها...

كانت الليلة سيئة. ظـل المريض يهذي كثيراً. نهض بيرسينيف غير مرة من مرقده على الاريكة، ودنا من السرير على اطراف اصابعه، واصغى في حـزن إلى هذيانه غير المترابط. مرة واحـدة فقط نطق اينساروف بوضوح مباغـت: "لا اريد، لا اريد، ينبغي أن تفعلـي..." جفل بيرسينيف، ونظر إلى اينسـاروف.. كان وجهه المعذب، والميت في نفسـ الوقت، جامداً، ويـداه ترتخيان بلا حـول... وكرر المريض بصوت لا يـكاد يسمع: "لا اريد".

جـاء الطبيب في الصباح، وهـزّ رأسه، ووصف ادويـة جديدة. وقال وهو يلبس قبعته:

- ما زال هناك شوط بعيد إلى أن تحل الازمة.

فسأله بيرسينيف:

– وبعد الازمة؟

– بعد الازمة؟ أمام امرين aut Caeasr، aut nihil [٤٠].

غادر الطبيب. سار بيرسينيف في الشارع عدة مرات رواحاً ومجيئاً. كان يحتاج إلى هواء طليق. وعاد، وتناول كتاباً. وكان قد فرغ من راومر منذ زمان، وهو الآن يدرس غروت.

وفجأة صر الباب بخفوت، واطل رأس ابنة صاحب البيت على الحجرة بحذر، معصوباً بمنديل سميك، كالعادة. وقالت صاحبته بصوت خافت:

– جاءت آنسة الاكابر التي نفحتني يومها بعشرة كوبيكات... واختفى رأس ابنة صاحب البيت فجأة، وظهرت يلينا مكانه. قفز بيرسينيف كالملدوغ. ولكن يلينا لم تبد حركة ولا ندت منها صيحة... بدا وكأنها فهمت كل شيء في لحظة واحدة. غطى وجهها شحوب رهيب، وتقدمت من البرافان، ونظرت إلى ورائه، ورفعت ذراعيها، وجمدت. وكانت سترتمي على اينساروف بعد لحظة أخرى، لو لم يوقفها بيرسينيف. قال لها بهمس مرتعش:

– ما هذا الذي تفعلينه؟ يمكنك أن تسببي موته!

وترنحت. قادها إلى الاريكة. واجلسها.

نظرت في وجهه، ثم طوفت عليه ببصرها، وبعدها تبثت عينيها في الارض.

– أنه يحتضر؟

سألت ببرود شديد وهدوء أرعبا بيرسينيف. قال:

---

(٤٠) أما القيصر، وأما لا شيء (باللاتينية في الأصل).

– يلينـا نيقولايفنا، ما هذا منك، بحق الرب؟ أنه مريض حقاً، وبخطر شديد. ولكننا سننقذه، أتعهد لك بذلك.

سألت بنفس لهجتها السابقة:

– فاقد الوعي؟

– نعـم، أنـه الآن في غيبوبـة... هذا مـا يحصل دائمـاً في بداية هذه الأمراضـ، ولكـن هذا لا يعني شيئاً، لا شيء صدقينـي – اشربي قليلاً من الماء.

رفعت بصرها إليه وادرك بيرسينيف أنها لم تسمع رده.

– إن يمت – قالت بنفس الصوت لم تغيره – امت أنا أيضاً.

في تلـك اللحظة صـدرت من اينسـاروف أنة خفيفـة. فأخذت يلينا ترتجف، امسكت رأسها، ثم اخذت تفك شريطي قبعتها. سأل بيرسينيف:

– ما هذا الذي تفعلينه؟

لم تجب، فكرر بيرسينيف:

– ماذا تفعلين؟

– سأبقى هنا...

– كيف... لمدة طويلة؟

– لا اعرف، ربما النهار كله، والليل، أو إلى الابد... لا اعرف.

– بحق الـرب افيقي على نفسك، يا يلينـا نيقولايفنا. بالطبع، لم أكن اتوقـع قط أن اراك هنا. ولكنني اعتقـد، على أية حال، أنك جئت إلى هنا لوقت قصير. تذكري أن أهلك يمكن أن يفتقدوك.

– وماذا في ذاك؟

– وسيبحثون عنك... ويجدونك....

– وماذا في ذاك؟

– يلينا نيقولايفنا! ها أنت ترين... أنه الآن عاجز عن أن يحميك.

اطرقت برأسها، وكأنها تفكر، ورفعت المنديل إلى شفتيها. وانفجرت من صدرها فجأة، وبقوة مروعة، نوبات متشنجة من النحيب... انكبت على الاريكة ووجهها إلى الاسفل، وحاولت أن تخنقها، ولكن جسدها كله ظل يخفق ويرتعد كطائر اصطيد لتوه.

كرر بيرسينيف مطلاً عليها:

– يلينا نيقولايفنا... بحق الرب...

وفجأة تردد صوت اينساروف:

– ها؟ ما هذا؟

رفعت يلينا جسدها، بينما جمد بيرسينيف في مكانه... وبعد وقت قصير دنا من السرير... كان رأس اينساروف، مرتخياً على الوسادة بعجز، كالسابق. وكانت عيناه مغمضتين.

همست يلينا:

– يهذي؟

أجاب بيرسينيف:

– يبدو. ولكن هذا لا شيء. وهو أيضاً يحدث دائماً، لا سيما إذا...

قاطعته يلينا:

– متى مرض؟

– منذ أمس الأول. وأنا هنا منذ أمس. اعتمدي عليّ، يلينا نيقولايفنا. لن أبتعد عنه، وسنستخدم كل الوسائل. وإذا اقتضى الأمر استدعينا بعض الاطباء للتشاور.

صاحت وهي تلوي يديها:

– سيموت في غيابي.

– اعطيـك عهداً بـأن ابلغك كل يوم عن سير مرضـه، وإذا نشأ خطر فعلي...

– احلـف لي بأنك سترسَل عليّ في الحال، في أي وقت كان، نهاراً أو ليلاً، اكتـب مذكرة لي رأساً... كل شيء سواء لـدي الآن. هل تسمعني؟ هل تَعِد بأن تفعل ذلك؟

– أعدك، أمام الله.

– احلفْ.

– احِلفُ.

وفجأة امسكت يده، وقبل أن يلحق ليسحبها، وقعت عليها بشفتيها.

تمتم:

– يلينا نيقولايفنا... ما هذا منك.

نطق اينساروف بصوت غير واضح:

– لا... لا... لا حاجة...

وزفر زفرة ثقيلة.

اقتربـت يلينـا من البرافـان، وعضت المنديـل باسنانهـا، وحدقت في المريض فترة طويلة. وسالت دموع صامتة على خديها.

قال لها بيرسينيف:

– يلينـا نيقولايفنا، قد يعود إلى وعيه، ويعرفك، والله يعلم ماذا سيسفر عن ذلك. وبالاضافة أنا أتوقع مجيء الطبيب من ساعة إلى أخرى.

تناولت يلينا القبعة من الاريكـة، ولبستها، وتوقفت. وطوفت عيناها

في ارجاء الحجرة بأسى. والظاهر أنها تذكرت شيئاً...

وأخيراً همست:

– لا أستطيع أن اخرج.

ضغط بيرسينيف على يدها، وقال:

– استجمعي قـواك، واهدئي. أنت تتركينـه في رعايتي. واليوم مساء سأجيئ إليك.

نظـرت يلينا إليه وقالت: "أوه، يا صديقي الطيب!" واجهشت باكية، وانصرفت مسرعة.

اتكأ بيرسينيف على الباب. وعصر قلبه شعور كئيب ومرير لا يخلو من فرحة غريبة. وفكر: "صديقي الطيب"، وهز كتفيه.

تردد صوت اينساروف:

– من هنا؟

اقترب بيرسينف منه:

– أنا هنا، يا دميتري نيكانوروفيتش. ماذا تحتاج؟ كيف حالك؟

سأل المريض:

– لوحدك؟

– لوحدي.

– وهي؟

قال بيرسينيف كالمذعور:

– مَنْ هي؟

صمت اينساروف.

– البليحاء العطرية.

همس، وانغلقت عيناه من جديد.

٢٦

كان اينســاروف ثمانية أيام بلياليها بـين الموت والحياة. وكان الطبيب يتردد دائماً مهتماً كشاب بحالة متعسرة. وسمع شوبين عن حالة اينساروف الخطرة، وزاره، كما زاره أبناء وطنه، البلغار، وعرف بيرسينيف من بينهم الشخصين الغريبين اللذين أثارا استغرابـه بزيارتهما المفاجئة لاينساروف في البيـت الريفـي، وكان الجميـع يظهـرون عطفهـم الصـادق، واقترح بعضهـم علـى بيرسينيف أن يحل محله في ملازمة سريـر المريض، ولكنه لم يوافق متذكراً وعده ليلينا. وكان يراها كل يوم، وينقل لها خلسة - شفاهاً أحيانـاً، وفي مذكرة صغيرة أحياناً أخرى - كل دقائق سير المرض. كانت تنتظـره واجمـة القلـب، وتصغي إليه، وتمطـره بالاسئلـة بلهفة! وكانت طـوال الوقت تريد أن تزور اينســاروف، ولكن بيرسينيف يتوسل إليها أن لا تفعـل ذلك لأن اينســاروف نادراً ما يكون وحــده. وفي اليوم الأول، الـذي عرفت فيه بمرضه، كادت هي الأخـرى أن تقع عليلة. حالما عادت أغلقـت عليها باب حجرتهـا. ولكنها دعيت لتناول الغـداء، فجاءت إلى غرفة الطعام بوجه ارعب آنا فاسيليفنا، فأرادت هذه أن تجبرها على ملازمة السريـر. إلا أن يلينـا استطاعت أن تغلب نفسها. وكانـت تقول لنفسها: "أن يمـت فسأمت أنا أيضـاً". وهدأتها هذه الفكـرة، ومدّتها بالقوة لأن تبدو غير مكترثة. وعلى العموم لم يزعجها أحد كثيراً. كانت آنا فاسيليفنا مشغولـة بخراجاتهـا. وكان شوبـين منكباً على عملـه بحماس، وابدت زويـا سوداوية، وتهيـأت لتقرأ "آلام فرتر". وكان نيقـولاي ارتيميفيتش منزعجاً جــداً من زيارات "الطالب" المتكـررة، لا سيما وأن "مخططاته" بشأن كورناتوفسكي لم تتقدم كثيراً. فقد كان السكرتير الأول العملي هذا في حـيرة من امره، يترقب. ولم تشكر يلينا بيرسينيف، فأن هناك خدمات يخجـل المرء ويرتعب من شكر صاحبها. وفي زيارة بيرسينيف الرابعة فقد (وكان اينســاروف قـد قضى ليلة سيئـة جداً، ولّمح الطبيـب إلى وجوب

استدعـاء بعض الاطباء للتشاور) ذكرته بالقسـم الذي اقسمه. عندئذ قال لها "حسناً، لنذهـب، في هذه الحال" ونهضت، وذهبت لترتدي ملابس الخـروج، إلا أنـه قال: "لا، لننتظـر حتى الغد". وفي المسـاء حفت وطأة المرض على اينساروف.

استمر هـذا التعذيب ثمانية أيام. وبدت يلينا هادئة، ولكنها لم تستطع أن تـأكل شيئاً، و لم تنـم في الليالي، طغى على اطرافها كلها ألم ممض، وبدا وكأن دخانـاً ساخناً يملأ رأسهـا. وكانت خادمتها تقـول عنها: "سيدتنا الشابة تذوب كالشمعة".

وأخـيراً حدث التحول في اليوم التاسـع. كانت يلينا تجلس في حجرة الجلوس قرب آنا فاسيليفنا، تطالـع جريدة "موسكوفسكيه فيدوموستي" دون أن تعي شيئاً. ودخل بيرسينيف. ونظرت يلينا إليه (وكم كانت سريعة ومتخوفـة ونافذة وقلقة تلك النظـرة الأولى التي تحدجه بها في كل مرة!) ولكنهـا حدست في الحال أنه جاء بخـبر سار. كان يبتسم، ويهز رأسه لها قليلاً. فنهضت للقياه. همس لها:

– افـاق على نفسه. وزال الخطـر عنه. وبعد اسبـوع سيكون متعافياً تماماً.

مدّت يلينا ذراعيها، وكأنها تصد ضربة، و لم تقل شيئاً. سوى أن شفتيها ارتعشتـا، وشاعت الحمرة في كل وجهها. أخذ بيرسينيف يتحدث إلى آنا فاسيليفنا، بينما ذهبت يلينا إلى حجرتها، وركعت، وراحت تصلي، تحمد الله على عقباه... وسالت من عينيها دموع خفيفة وضاءة. وفجأة احست بوصب تام، فأرخت رأسها على الوسادة، وهمست "يا اندريه بيتروفيتش المسكين!" وغفت على الفور، مبللة رموشها وخديها. و لم تكن قد نامت و لم تبك منذ زمن طويل.

٢٧

لم تتحقــق كلمات بيرسينيف إلا جزئياً. زال الخطر، ولكن اينساروف كان يستعيد قواه ببــطء، وكان الطبيب يتحدث عن الهزة العميقة الشاملة التي اصابت كيانه كله. ومع كل هذا فقد غادر المريض فراشه، وصار يسير في الحجــرة. وكان بيرسينيف قد انتقــل إلى مسكنه، ولكنه كان يزور كل يــوم صديقه الــذي ما يزال واهناً، ويبلغ يلينا عــن حالته الصحية كل يوم، كمــا كان يفعل في السابــق. وكان اينساروف لا يجسر على الكتابة إليها، سوى أنه كان يلمح إليها بشكل عابر في احاديثه مع بيرسينيف، وكان هذا يحدثــه، بلا مبالاة مصطنعة، عن زياراته لآل ستاخوف، محاولاً في الوقت ذاتــه، أن يدعه يعلم بأن يلينا كانت في غم شديد، وأنها الآن قد اطمأنت. كما أن يلينا لم تكتب لاينساروف، فقد كان يشغل ذهنها شيء آخر.

ذات مــرة وكان بيرسينيــف قد ابلغها لتوه والمرح بــاد على وجهه بأن الطبيب سمح لاينساروف بأن يأكل كفتة، ومن المحتمل أنه سيخرج عما قريب، استغرقت يلينا في التفكير، واطرقت برأسها... وقالت:

– احدس ماذا اريد أن اقول لك.

ارتبك بيرسينيف. لقد فهمها. نظر في ناحية واجاب:

– لعلك تريدين أن تقولي لي أنك ترغبين في رؤيته.

احمرت يلينا، وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

– نعم.

– وليكن. اعتقد أن ذلك سهل عليك جداً.

وقال في سره: "أوف! أي شعور مقزز يجثم على قلبي!"

قالت يلينا:

– تريـد أن تقول أنني من قبل أيضاً... ولكنني أخاف. فأنت تقول أنه الآن نادراً ما يكون لوحده.

قال بيرسينيف، وهو ما يزال يتحاشى النظر إليها:

– ليس من الصعب مساعدتك في ذلك. بالطبع، لا أستطيع أن اعلمه مسبقـاً، ولكن اعطينـي مذكرة. فمن يستطيع أن يمنعك مـن الكتابة إليه، كواحـد من معارفك القريبين، تهتمـين بمصيره؟ لا شيء يلام عليه في هذه الكتابة. حددي له... اقصد اكتبي له متى ستزورينه...

همست يلينا:

– أنا خجلة.

– اعطيني المذكرة، وسأحملها إليه.

– لا حاجة إلى ذلك. ولكن اردت أن أطلب إليك... لا تغضب عليّ، اندريه بيتروفيتش... لا تذهب إليه غداً.

عض بيرسينيف على شفته.

– أها! نعم، فهمت، حسن جداً، حسن جداً.

وبعد أن اضاف كلمتين أو ثلاثاً، خرج بسرعة.

وراح يفكـر، وهـو يسـرع إلى بيته: "هـذا أفضل، افضـل. لم اعرف شيئـاً جديداً، ومـع ذلك افضل. فما حاجتـي إلى أن اتشبث بطرف عش لا يخصني؟ لقـد فعلت ما املاه ضميري، دون أن اندم على شيء. والآن كفى. همـا وشأنهما! كان أبي على حق، حين كان يقول لي: "أنا وأنت، يـا اخ، لسنـا مترفين ولا ارستقراطيـين، ولا ممّن حباهم القـدر والطبيعة، ولا حتـى شهيديـن، بل نحـن كادحـان، ولا أكثر من كادحـين. فالبس مئـزرك الجلـدي، أيها الكادح، والـزم مكانك وراء الدكـة، في مشغلك

المظلـم! واترك الشمس تضيئ للآخرين! فأن لحياتنا الكالحة فخرها أيضاً، وسعادتها!".

في صبــاح اليوم التالي تلقى اينساروف عن طريـق بريد المدينة مذكرة قصيرة كتبت يلينا فيها له: "انتظرني، واطلب أن لا يُدخَل عليك أحد. أما أ.ب. فلن ياتي".

٢٨

قرأ اينساروف مذكرة يلينـا، وأخذ على الفور يرتب حجرته، وطلب من ربة البيت أن تخرج قارورات الدواء، وخلع روبه البيتي، ولبس سترته. كان رأسه يدور وقلبه يخفق ضعفاً وفرحاً. وتراخت رجلاه، فجلس على الاريكـة، وأخذ ينظر في الساعة. قال لنفسـه: "الساعة الآن الثانية عشرة إلا ربعـاً. ولا يمكنها أبداً أن تأتي قبل الثانيـة عشرة، فلأفكر في شيء آخر خـلال ربع الساعة هذا. وإلا فلن أتحمل. لا يمكنها أبداً أن تأتي قبل الثانية عشرة...".

وانفتح البـاب، ودخلت يلينا مع الحفيف الخفيف من ثوبها الحريري، شاحبـة تماماً، نضرة كلياً، فتية، سعيـدة، وارتمت على صدره بصيحة فرح ضعيفة. وقالت، وهي تعانقه، وتداعب رأسه:

- أنت حي، أنت لي.

وجمـد كلية، واحتبست انفاسـه من قربها منه، ومـن ملامساتها له، ومن هذه السعادة.

جلست بالقرب منه، وانكمشت عليه، وراحت تحدق فيه بتلك النظرة الضاحكة الناعمة الحنون، التي لا تتألق إلا في عيون العاشقات.

وعلا وجهها مفاجئ، وقالت وهي تمرر يدها على خده:

– كم نحلت، يا مسكيني دميتري! واية لحية لك!

اجابها وهو يمس اصابعها بشفتيه:

– وأنت أيضاً، نحفت، يا مسكينتي يلينا.

هزت خصلاتها بمرح.

– لا بأس. سترى كيف سنمتلئ صحة! هبت عاصفة، كما في ذلك اليوم الذي التقينا فيه في الصومعة. هبت وانقشعت. والآن سنعيش!

لم يجبها إلا بابتسامة.

– آه، يا دميتري، أية أيام، أية أيام قاسية! كيف يستطيع الناس أن يعيشوا أطول من الذين يحبونهم؟ والحق أنني كنت اعرف مسبقاً ما سيقوله اندريه بيتروفيتش كل مرة. فقد كانت حياتي تهبط وترتفع مع حياتك. حُيِّيت، يا عزيزي دميتري!

و لم يعرف ماذا يقول لها. كان يود لو يركع على قدميها. استطردت، وهي تدفع شعره إلى الوراء:

– ولاحظت أيضاً (خرجت بالكثير من الملاحظات، طوال هذه المدة، أثناء فراغي) عندما يكون الإنسان تعيساً جداً، جداً، ينتبه بعمق إلى كل ما يجري حوله! أحياناً، إذا أردت الحقيقة، كنت أمعن في ذبابة، بينما تسري في روحي برودة ورعب! ولكن كل ذلك ولى وانقضى. أليس كذلك؟ وكل شيء نيّر مستقبلاً. أليس كذلك؟

أجاب اينساروف:

– أنت لي مستقبلاً، فكل شيء نيّر في وجهي.

– وأنت لي أيضاً! أتذكر عندما كنت عندك، ليس في المرة الأخيرة، لا، ليس في المرة الأخيرة – كررت في ارتعاشة لا ارادية – عندما كنا نتحدث سوية، لا ادري لماذا خطر الموت على بالي، و لم أكن اتوجس بأنه كان

يترصد خطانا. ولكنك الآن معافى، أليس كذلك؟

– أحس بتحسن شديد، معافى تقريباً.

– أنت معافى، و لم تمت. آه، ما اسعدني!

وساد صمت قصير. ناداها اينساروف متسائلاً:

– يلينا؟

– ماذا، يا عزيزي؟

– قولي لي، ألم يخطر في ذهنك أن هذا المرض جاء عقاباً لنا؟

نظرت يلينا إليه نظرة جادة:

– خطرت لي هذه الفكرة، يا دميتري. غير أنني فكرت على أي شيء أعاقب؟ وبأي واجب فرّطت، وبحق أي شيء اجرمت؟ ربما لم يكن ضميري كضمائر الآخرين، ولكنه لم يحاسبني، أو ربما كنت مذنبة أزاءك؟ فأنا ساعيقك، اوقفك...

– أنت لن توقفيني، يلينا، سنسير سوية.

– نعم، دميتري، سنسير سوية، سأسير وراءك... ذلك واجبي. أنا أحبك، ولا اعرف واجباً آخر.

قال اينساروف:

– آه، يلينا! بأية سلاسل لا تقهر تطوقني كل كلمة تقولينها!

فانبرت تقول:

– و لَمَ تقول سلاسل؟ نحن أحرار، أنت وأنا. أجل – مضت تقول، ناظرة، في سهوم إلى الأرض، وهي تسوي شعره بيد واحدة، كالسابق – ذقت في المدة الأخيرة، الكثير مما لم تكن لي أية فكرة عنه من قبل. لو أن أحداً تكهن لي في الماضي بأنني، أنا المهذبة الحسنة التربية من عائلة الاسياد

سأخـرج لوحدي من البيت بذرائـع مختلفة مختلقة، وإلى أين؟ إلى شاب في مسكنه، لاحسست بحنق شديد! وكل هذا قد تحقق، و لم اشعر بأي حنق، وحق الرب!

قالت هذا والتفتت إلى اينساروف.

كان ينظر إليها بهناءة عظيمة، حتى أنهـا ارخت يدها بهدوء وانزلتها من شعره إلى عينيه. وانشأت تقول:

– دميـتري، أنت لا تعـرف أنني رأيتـك مطروحاً علـى ذلك السرير المريع، – رأيتك بين براثن الموت، فاقد الوعي...

– رأيتني؟

– نعم.

صمت لحظة.

– وبيرسينيف كان هنا؟

هزّت رأسها. انحنى اينساروف نحوها، وهمس:

– آه، يلينا! أنا لا اجسر على النظر إليك.

– ولماذا؟ اندريه بيتروفيتش طيب جداً، و لم اخجل منه. ولماذا اخجل؟ أنا مستعدة لأن اعلن للدنيا كلها بأنني لك... وأنا اثق باندريه بيتروفيتش، كأخ.

هتف اينساروف:

– هو الذي انقذني. أنه انبل الناس خلقاً، واكثرهم طيبة!

– نعـم... وهل تعـرف أنني مدينة إليه بكل شـيء؟ هل تعرف أنه هو أول من قال لي بأنك تحبني؟ ليتني أستطيع أن اكشف كل شيء... نعم، أنه انبل الناس خلقاً.

حدق اينساروف في يلينا بتفرس.

– أنه مغرم بك، أليس كذلك؟

قالت منكسة الرأس، خافتة الصوت:

– نعم، كان يحبني.

ضغط اينساروف على يدها بقوة وقال:

– أوه، أيها الروس، أن لكم قلوباً من ذهب! وكان يرعاني، ولم ينم الليالي... وأنت، وأنت، يا ملاكي... لا تأنيب، ولا تردد، وكل ذلك لي، لي...

– نعم، نعم، كل شيء لك، لأنني أحبك. آه، دميتري! ما اغرب ذلك! يبدو لي أنني حدثتك بذلك من قبل، ومع هذا يطيب لي أن اكرره، وسيطيب لك أيضاً سماعه. عندما رأيتك لأول مرة...

قاطعها اينساروف قائلاً:

– ولماذا الدموع في عينيك؟

– الدموع؟ في عيني؟ – ومسحت عينيها بالمنديل – أوه، ما احمقك! أنت لا تعرف حتى الآن أن الناس تبكي من فرط السعادة. كنت أريد أن اقول لك: عندما رأيتك لأول مرة، لم أجد فيك شيئاً يلفت النظر، حقاً. أتذكر أن شوبين، في البداية، كان يروق لي أكثر منك بكثير، ولكنني لم أحبه قط، أما اندريه بيتروفيتش، أوه! مرّت برهة فكرت فيها: ربما هو سيكون من نصيبي؟ أما عنك فلم أفكر في شيء. ولكن، فيما بعد، فيما بعد... أخذت قلبي بكلتا يديك.

قال اينساروف:

– اشفقي عليّ...

وأراد أن ينهض، ولكنه انهدّ على الاريكة في اللحظة التالية. سألته مهتمة:

– ماذا بك؟

– لا شيء... ما زلت ضعيفاً... وهذه السعادة ليست في حدود طاقتي الآن.

– اذن، اجلس بهدوء. لا تتحرك، ولا تنفعل – اضافت متوعدة أياه باصبعها: – ولماذا خلعت روبك البيتي؟ ما زال الوقت مبكراً لتتغندر! أجلس. وساروي لك الحكايات. فاسمع، ولا تقل شيئاً. الكلام الكثير مضر لك بعد المرض...

وأخذت تحدثه عن شوبين، وعن كورناتافسكي، وعما فعلته في الاسبوعين الاخيرين، وعن حتمية الحرب، حسب أقوال الصحف، وبالتالي سيتعين، حالما يسترد صحته تماماً، ايجاد السبل للسفر، دون تضييع الوقت... وكانت تقول كل ذلك، وهي جالسة إلى جانبه، مستندة إلى كتفه.

كان يسمعها ووجهه يشحب تارة ويحمر أخرى... وحاول أن يوقفها أكثر من مرة، ثم رفع جذعه فجأة. قال لها بصوت غريب حاد:

– اتركيني، يلينا، واذهبي.

فردت باندهاش:

– كيف؟ – ثم اضافت بسرعة – هل تحس بتوعك؟

– لا... أنا في حالة جيدة... ولكن ارتكيني، ارجوك.

– أنا لا افهمك... هل تطردني؟.. ما هذا الذي تفعله؟ – قالت فجأة، وقد رأته ينزلق من الاريكة إلى الأرض تقريباً، ويمس قدميها بشفتيه: – لا تفعل ذلك، دميتري... دميتري...

رفع جسمه عن الأرض.

– اتركيني، اذن! عندما وقعت مريضاً، لم افقد الوعي رأساً، وكنت أحس بأنني على شفا الموت، حتى وأنا في وهج الحمى، في حالة الهذيان، كنت ادرك، أشعر بشكل مبهم بأن الموت مقبل عليّ، فأخذت أودع الحياة، اودعك، اودع كل شيء، وتخليت عن الأمل... وفجأة يأتيني هذا البعث، هذا النور بعد الظلمة، أنت... أنت بالقرب مني في حجرتي... صوتك، انفاسك... هذا أكثر مما تتحمله قواي! أشعر بأنني أحبك بدنف، واسمعك تقولين أنك لي، أنا لا اتحمل هذا... اخرجي!

– دميتري...

همست يلينا، وخبأت رأسها في كتفه. الآن فقط فهمته. ومضى اينساروف يقول:

– يلينا، أحبك، وأنت تعرفين ذلك، وأنا مستعد إلى التخلي عن حياتي فداء لك... لَم جئت اليّ اليوم، وأنا واهن القوى، ولا أستطيع السيطرة على نفسي، ودمي كله يحترق... تقولين أنت لي... أنت تحبينني...

– دميتري.

عادت تناديه، واحمرت كلية، وانكمشت عليه أكثر.

– يجب أن تشفقي عليّ، وتخرجي، يلينا... أنا أشعر، بأن من الممكن أن اموت... لا أتحمل هذه السورات... روحي كلها تصبو إليك... فكري في أن الموت كاد يفرق بيننا... والآن، أنت هنا، في أحضاني... يلينا...

وأخذت تهتز بكل جسدها. وهمست بصوت لا تكاد يسمع:

– خذني، اذن...

٢٩

كان نيقــولاي ارتيميفيتشــ مقطب الحاجبين يتمشــى في مكتبه جيئة وذهوباً. وكان شوبين يجلس عند النافذة، ويدخن سيغاراً بهدوء، واضعاً رجلاً على رجل. وقال وهو ينفض رماد السيغار:

– ارجــوك، كفّ عن الرواح والمجــيء. طول الوقت اتوقع أن تتكلم، واراقب حركاتك، حتى أن رقبتي اخذت تؤلمني، فضلاً عن أن في مشيتك شيئاً متوتراً ميلودرامياً.

أجابه نيقولاي ارتيميفيتش:

– لا شــيء لك غــير المزاح. أنت لا تريد أن تفهــم وضعي، لا تريد أن تفهم أنني تعودت على تلك المرأة، وارتبطت بها وأن غيابها أخيراً يعذبني لا محالة. ها هو تشرين الأول والشتاء على الابواب... فماذا يمكن أن تفعل في بقائها هذه المدة في ريفيل؟

– ربما تحوك جورباً لها، لنفسها، لا لك.

– اهــزل، اهزل، ولكنني أقول لك أنني لا أعــرف امرأة مثلها قط في النقاء والنزاهة...

فسأله شوبين:

– هل أعطت سنداً يكفل دفع ما يترتب على ذلك؟

كرر نيقولاي ارتيميفيتش رافعاً صوته:

– هذه النزاهة شيء مذهل. يقولون لي أن في العالم مليون امرأة أخرى، فأقــول لهم: دلــوني أين هذا المليون. ودلوني أين هــذا المليون، ودلوني أين

هذا المليون أقول [41] Ces femmes – qu'on me les montre! والذي يقتل أنها لا تكتب!

قال شوبين:

– أنت بليغ اللسان، مثل فيثاغورس. ولكن هل تدري بماذا انصحك؟

– بماذا؟

– حين تعود افغوستينا خريستيانوفنا... اتفهمني؟

– أي نعم، وبعد؟

– حين تراها... هل تلاحظ تطور افكاري؟

– أي، نعم، نعم.

– حاول أن تضربها، لتعرف ماذا يحصل من ذلك؟

استدار نيقولاي ارتيميفيتش بسخط.

– ظننــت أن سيقدم لي، بالفعل، نصيحة مجدية. ولكن ماذا تتوقع منه! فنان، إنسان بلا اصول...

– بلا أصول! ويقال أن محبوبك السيد كورناتوفسكي إنسان صاحب أصول، ربح منك يوم امس مائة روبل فضي. وهذا عمل غير لائق، ارجو أن توافقني على ذلك.

– ومــاذا في ذلــك؟ كنا نلعــب للربح. بالطبــع، كان مــن الممكن أن اتوقع... ولكنه لا يُقدَّر في هذا البيت كثيراً...

سارع شوبين ليقول:

---

(٤١) دعهم يدلونني على هؤلاء النساء! (بالفرنسية في الأصل).

– حيث راح يفكر: "مَنْ يدري! هل سيكون نسيبي أم لا، فذلك رهن بالاقدار، ولكن المائة روبل تنفع لرجل لا يأخذ رشوة".

– نسيب! أي نسيب أنا؟ Vous rêvez، mon oher[٤٢] بالطبع، مثل هـذا الخطيب كان من الممكـن أن يكون مسيرة لكل فتـاة أخرى. حكِّمْ نفسـك: أنه إنسان نشيط، ذكـي، عصامي أرتقى بنفسـه، كان يعمل في وظيفة في ولايتين...

قال شوبين:

– في ولاية... كان يضلل الحاكم.

– مـن المحتمل جداً. وهـذا، في الظاهر، ما كان ينبغـي أن يفعل. أنه واقعي، رجل عمل...

فعاد شوبين يقول:

– ويجيد لعب الورق.

– اي نعـم، ويجيـد لعب الورق. ولكن يلينـا نيقولايفنا... هل ممكن فهمهـا حقـاً؟ أود أن اعرف أين ذلـك الرجل الذي يستطيـع أن يفهم ما تريـد؟ مرحة تارة، وضجـرة أخرى، تنحف فجـأة بحيث لا تقوى على النظر إليها، ثم وإذا بها تصح، وكل ذلك بدون أي سبب ظاهر...

دخـل خادم دميم يحمل على صينية فنجان قهـوة وطاسة من الحليب وبقسماطاً.

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول ملوحاً ببقسماطة:

– الاب معجـب بالخطيـب، والابنة لا تعير التفاتـاً لذلك! كان الأمر

---

(٤٢) أنت تهدي، يا عزيزي (بالفرنسية في الأصل).

مضبوطاً في الازمنة البطريقية السالفة، أما الآن فقد غيرنا كل شيء Nous avons change tout ça[٤٣]. الآنسة الآن تتحدث إلى كل من يطيب لها، وتقرأ كل ما يطيب لها، تطوف وحدها في موسكو، بدون خادم، ولا وصيفة، كما في باريس. وكل ذلك مقبول. قبل أيام سألت: أين يلينا نيقولايفنا؟ فقيل لي: أنها خرجت. إلى أين؟ لا أحد يعرف. هل هذا هو النظام؟

قال شوبين:

– خذ الفنجان. واترك الخادم يذهب – ثم اضاف بصوت خافض – أنت نفسك تقول لا يجوز [٤٤]devant les domestiques.

نظر الخادم إلى شوبين من طرف عينه، وتناول نيقولاي ارتيميفيتش الفنجان، واضاف شيئاً من الحليب، وغرف زهاء عشر بقسماطات. وحالما خرج الخادم أخذ يقول:

– أردت أن أقول أن لا أهمية لي في هذا البيت. وهذا كل ما في الأمر. لأن الناس في عهدنا لا يحكمون إلا بالمظاهر. فإذا رأوا شخصاً يشمخ بنفسه احترموه، وأن كان فارغاً احمق. أما صاحب المواهب، الذي ربما يجلب النفع العميم، فأنهم لتواضعه...

سأله شوبين بصوت نحيل:

– هل أنت رجل دولة، يا صغيري نيقولاي؟

هتف نيقولاي ارتيميفيتش مهتاجاً:

---

(٤٣) فقد غيرنا كل شيء. (بالفرنسية في الأصل).

(٤٤) أمام الخدم (بالفرنسية في الأصل).

– كفاك مسخرة! أنت تتجاوز حدك! هذا شاهد آخر على أنني لا أعني شيئاً في هذا البيت، لا شيء على الاطلاق!

قال شوبين متمطياً جذعه:

– آنا فاسيليفنا تضيق عليك!.. يا للمسكين! آه، يا نيقولاي ارتيميفيتش، عيب علينا أنا وأنت! كان من الافضل أن تهيئ هدية ما لآنا فاسيليفنا. فسيحل عيد ميلادها بعد أيام، وأنت تعرف أنها تعتز بأي اهتمام صغير يبدى من جانبك.

اسرع نيقولاي ارتيميفيتش ليقول:

– نعم. نعم. شكراً جزيلاً على تذكيرك لي. بالطبع، بالطبع، من كل بد. عندي شيء لا بأس به، قلادة اشتريتها من محل روزينشتراوخ قبل أيام، ولكن لست ادري، هل ستناسبها؟

– لكنك اشتريتها لتلك التي تعيش في ريفيل؟

– أقصد.. أنا... نعم... كنت اتصور...

– في هذه الحال ستصلح بالتأكيد.

نهض شوبين من مقعده، فسأله نيقولاي ارتيميفيتش محدقاً في عينيه بلطف:

– أين سنقضي المساء، يا بافل ياكوفليفيتش؟ ها؟

– ولكنك ستذهب إلى النادي.

– بعد النادي... بعد النادي.

تمطي شوبين مرة أخرى.

– لا، يا نيقولاي ارتيميفيتش، عليّ أن اعمل في الغد. في مرة أخرى.

وخرج.

تعبس نيقولاي ارتيميفيتش، وذرع الحجرة مرة أو مرتين، واخرج من مكتبه علبة مخملية فيها "القلادة"، وتمعن فيها طويلاً، ومسحها بمنديل حريري. ثم جلس إلى المرآة، وراح يمشط شعره الاسود الكثيف بعناية، مميلا رأسه بعظمة تارة إلى اليمين، وتارة إلى الشمال، ممطياً خده بطرف لسانه، دون أن يصرف بصره عن مفرق الشعر. سعل احد وراء ظهره. التفت فرأى الخادم الذي جاءه بالقهوة. سأله:

– لم أنت هنا؟

قال الخادم بنبرة فيها شيء من المهابة:

– نيقولاي ارتيميفيتش! أنت سيدنا!

– اعرف، وماذا بعد؟

– نيقولاي ارتيميفيتش، ارجو إلا تغضب عليّ. أنا الذي اخدم سيادتك، منذ الصغر، اقصد من واجبي كعبد لك أن اخبر سيادتك...

– ولكن ماذا في الأمر؟

راوح الخادم في مكانه، وقال:

– سمعت سيادتك تقول أنك لا تعرف إلى أين تذهب يلينا نيقولايفنا. ولكنني صرت أعرف إلى أين.

– ألعلك تكذب، أيها الأحمق؟!

– أنا رهن ارادتك، ولكنني منذ أربعة أيام وأنا أراها تدخل في بيت غريب.

– أين؟ كيف؟ في أي بيت؟

– في زقاق... قرب شارع بوفارسيكا. غير بعيد عن هنا. وقد سألت البواب عن الذين يسكنون البيت.

ضرب نيقولاي ارتيميفيتش الأرض بقدميه:

– اسكت، أيها الارعن! كيف تجسر على ذلك؟ يلينا نيقولايفنا تزور المساكن لأن قلبها طيب. وها أنت... اخرج، أيها الأحمق!

اندفع الخادم نحو الباب مرعوباً. وهتف نيقولاي ارتيميفيتش:

– توقف! ماذا قال لك البواب؟

– لا... لم يقل شيئاً... يقول أنه... طا... لب...

– اسكت، أيها الارعن! اسمع، يا وغد، حذار أن تقول شيئاً عن ذلك، حتى في منامك...

– ارجو المعذرة...

– اسكت! حتى لو أنك المحت... لو أن أحداً... لو أعرف... لن تختفي عني ولو تحت الأرض! هل أنت سامع؟ اغرب عن وجهي!

واختفى الخادم.

وفكر نيقولاي ارتيميفيتش حين بقي وحيداً:

"يا رب، يا إلهي! ما يعني هذا؟ ماذا قال لي هذا الأحمق؟ ها؟ على كل حال، يجب أن اعرف أين هذا البيت، ومن يعيش فيه. اذهب بنفسي. إلى هذه الحال وصل الأمر، أخيراً.. (٤٥)"... Un laquais! Quelle humiliation !".

وكرر "Un laquais!" بصوت عال، واغلق المكتب على القلادة، وذهب إلى آنا فاسيليفنا. فوجدها في السرير، معصوبة الخد. ولكن مظهرها المعذب لم يزده إلا حنقاً، وبعد وقت قصير جداً جعلها تبكي.

---

(٤٥) خادم! أي احتقار! (بالفرنسية في الأصل).



٣٠

وفي غضـون ذلك انفجـرت الزوبعة التي كانت تتجمـع في الشرق، واعلنت تركيا الحـرب على روسيا. وانتهى الموعد الذي حدد للجلاء عن الامارتين، و لم يكن يوم الهزيمة في سينوب بعيداً. وكانت الرسائل الأخيرة التـي تسلمها اينسـاروف تدعوه إلى المجيء إلى الوطـن بالحاح. وصحته مـا تزال معتلـة. كان يسعل، ويشعر بوهن، وبنوبـات خفيفة من الحمى. ولكـن لم يكن يستقـر في بيته تقريباً. كانت نفســه تلتهب، فلم يعد يفكر في المرضى. وكان يتنقل في موسكو باستمرار، ويجتمع خلسة باشخاص مختلفين، ويكتـب في ليال بطولها، ويغيب نهارات كاملة، وابلغ صاحب البيت بأنـه سيترك البيت قريباً، واهدى له مسبقاً أثاثه البسيط. كما كانت يلينا تتهيأ للسفر من جانبها. وفي أحدى الامسيات الممطرة كانت جالسة في حجرتها، تخيـط الحواشي لمناديلها، وتستمـع إلى عويل الريح بجزع لا ارادي. دخلـت خادمتهـا، وابلغتها بأن اباها يدعوهـا إلى مخدع أمها. وهمست لها، وهي تغادر حجرتها: "ماما تبكي، وبابا حانق...".

هزت يلينا كتفيها هـزا خفيفاً، ودخلت إلى مخدع آنا فاسيليفنا. كانت عقيلة نيقولاي ارتيميفيتش الطيبة هذه تستلقي نصف استلقاءة على مقعد مسـرح، وتتشمم منديلاً فيه رائحـة كولونيا، بينمـا كان أبوها يقف عند موقـد الحائط مزرراً سترتـه بكاملها في ياقة منشاة جيـداً، وبرباط صلب عـالٍ، في هيئة تذكـر بعض الشيء بخطيـب برلماني. أشـار لابنته بحركة خطابيـة من يده إلى مقعد، وحينما نظرت ابنته إليه نظرة متسائلة، وهي لم تفهـم اشارته، قال بمهابة، ولكن دون أن يديـر رأسه: "تفضلن، اجلسن" (ونيقولاي ارتيميفيتش يخاطب زوجته دائما بضمير الجماعة، وابنته بهذا الضمير في الحالات الاستثنائية).

جلست يلينا.

تمخطت آنــا فاسيليفنا بعبرة في الصوت. ووضع نيقولاي ارتيميفيتش يده اليمنى وراء طية سترته الفراك. وبعد صمت مطول قال:

– استدعيتــك[٤٦]، يلينــا نيقولايفنا لكي استفسر منــك، أو بالأحرى، لكي اطالبك باستيضاح. أنا غيرّ راض عنك، أو، لا، هذا خفيف جداً، أن سلوكك يغمني كثيراً، يسيء الي وإلىّ أمك أيضاً... أمك التي ترينها هنا.

وأطلق نيقولاي ارتيميفيتش نبرات صوته الجهيرة وحدها. نظرت يلينا إليه صامتة، ثم إلى آنا فاسيليفنا، وشحبت.

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول:

– كان هنــاك حــين من الدهــر لم تكن فيه البنات ينظــرن إلى والديهن باستعــلاء، وكانت سلطة الوالدين تجعل العاصيات يرتجفن. وقد ولى ذلك العهد، مــع الاسف، أو هذا، على أقل تقدير، ما يظنه الكثيرون، ولكن ما تزال هناك قوانين، وارجــو أن تصدقيني، لا تبيح... لا تبيح... باختصار ما تزال توجد قوانين. وارجو أن تنتهبي إلى ذلك، توجد قوانين.

قالت يلينا:

– ولكن، يا بابا...

– ارجــو ألا تقاطعيني. لنعد باذهاننــا إلى الماضي... لقد قمنا، أنا وآنا فاسيليفنــا، بواجبنــا. لم نبخل، أنا وآنــا فاسيليفنا بشــيء لتعليمك، لا من ناحيــة المصروفات ولا من ناحية الاهتمام. مسألة أخرى ماذا حصلت من كل هذه المصروفات وهذه الاهتمامات. ولكن كان لي الحق أن اتصور... كان لي ولآنــا فاسيليفنــا الحق في أن نتصور أنــك ستحافظين بقدسية على

---

(٤٦) الضمائر في النص للجماعة، ولكنها حذفت لتخفيف النطق. المترجم.

تلـك القواعد الأخلاقية [٤٧] que nous vous avous inculqués كأبنة وحيـدة لنا... كان لنا الحـق في التصور بأن اية "افـكار" جديدة لن تمسّ هـذا الحرم المقدّس. فمـاذا حصل؟ لم أعد اتحدث عـن الطيش المتميز بها جنسـك، وعمرك... ولكن مـن كان يتوقع أنك تفقدين صوابك إلى هذا الحد...

قالت يلينا:

- بابا، أنا اعرف ماذا تريد أن تقول...

- كلا، أنت لا تعرفين ماذا اريد أن اقول! - هتف نيقولاي ارتيميفيتش بصوت رفيـع، وتحول فجأة عن عظمـة القيافة البرلمانيـة، ومهابة الكلام المسترسل، والنبرات الجهيرة الرنين - أنت لا تعرفين، أيتها الفتاة الجسور!

غمغمت آنا فاسيليفنا:

- Nicolas بحق الرب، Vous me faites mourir [٤٨].

- لا تقـولي لي[٤٩] que je vous fais mourir آنـا فاسيليفنا. أنت لن تتصوري ماذا ستسمعـين الآن. هيئي نفسك لأن تسمعي أسوأ من ذلك، دعيني أحذرك!

فتهافتت آنا فاسيليفنا مسترخية. وخاطب نيقولاي ارتيميفيتش ابنته:

- لا، أنت لا تعرفين ماذا اريد أن اقول.

قالت:

---

(٤٧) التي دخلناها في ذهنك (بالفرنسية في الأصل).

(٤٨) أنت تقتلني (بالفرنسية في الأصل).

(٤٩) أنتي اقتلك (بالفرنسية في الأصل).

– أنا مقصرة ازاءكما...

– أخيراً، اذن!

مضت يلينا تقول:

– أنا مقصرة ازاءكما. لأنني لم اعترف منذ زمان...

قاطعها نيقولاي ارتيميفيتش:

– ولكن هل تعرفين أنني استطيع أن اقضي عليك بكلمة واحدة؟

رفعت يلينا بصرها إليه.

– نعم، يا سيدتي، بكلمة واحدة! فلا توجهي الي هذه النظرة! (وصالب يديه على صدره) اسمحي لي بأن اسألك هل تعرفين البيت في زقاق... قرب شارع بوفارسكيا؟ وهل كنت ترددين على هذا البيت؟ (ضرب الأرض بقدمه) اجيبي، أيتها السائبة، ولا تحاولي التملص! الخدم، الخدم يا سيدتي des vils laquais[٥٠] رأوك تدخلين هناك إلى صاحبك...

احمرت يلينا، والتمعت عيناها. قالت:

– لا شيء أحاول التملص منه. نعم، كنت أتردد على هذا البيت.

– رائع، هل تسمعين يا آنا فاسيليفنا؟ ومن المحتمل أنك تعرفين من يسكن هذا البيت؟

– نعم، اعرف، أنه زوجي...

بحلق نيقولاي ارتيميفيتش عينيه.

– زوجك...

---

(٥٠) الخدم الحقراء (بالفرنسية في الأصل).

كررت يلينا:

– زوجي. لقد تزوجت ديمتري نيكانوروفيتش اينساروف.

قالت آنا فاسيليفنا بجهد وبصوت لا يكاد يسمع:

– أنت؟ تزوجت؟

– نعم، ماما... اعذريني... تزوجنا قبل اسبوعين، سراً.

استلقت آنا فاسيليفنا على ظهر الكرسي، وتراجع نيقولاي ارتيميفتيش خطوتين.

– تزوجتِ! تزوجتِ ذلك الجبلي الأسود الفقير! ابنة النبيل العريق نيقولاي ستاخوف تزوجت صعلوكاً، لا أصل له ولا فصل! دون مباركة الابوين! وتظنين أنني سأتركك وحالك؟ ولا أرفع شكوى؟ واسمح لك... وأنك... أن... سادخلك إلى الدير، وارسله هو إلى الأعمال الشاقة، إلى فرق السجناء! آنا فاسيليفنا قولي لها الآن من فضلك أنك ستحرمينها من الميراث.

قالت آنا فاسيليفنا والانين في نبرة صوتها:

– نيقولاي ارتيميفيتش، بحق الرب.

– متى وبأية صورة تمّ ذلك؟ مَنْ عقد قرانك؟ أين؟ كيف؟ يا الَهي! ماذا سيقول الآن معارفي كلهم، الدنيا كلها. وأنت، أيتها المتصنعة العديمة الحياء استطعت أن تعيشي في كنف والديك بعد هذه الفعلة! و لم تخافي غضب السماء؟

– بابا – قالت يلينا (وكانت ترتعش من رأسها إلى قدميها، ولكن صوتها كان متماسكاً) افعل بي ما تشاء، ولكن لا مبرر لك في اتهامي بعدم الحياء والتصنع. لم أرد أن اكدركما قبل الاوان، ولكنني كنت سأضطر إلى ابلاغكما عن كل شيء خلال أيام، لأننا عزمنا على الرحيل أنا

وزوجي في الاسبوع القادم.

– ترحلون؟ إلى أين؟

– إلى وطنه، إلى بلغاريا.

– إلى الاتراك!

هتفت آنا فاسيليفنا، وفقدت الوعي.

اندفعت يلينا إلى أمها.

– ابتعدي! – صرخ نيقولاي ارتيميفيتش، وامسك ابنته من يدها – ابتعدي، أيتها العاقة!

ولكن باب المخدع فتح في تلك اللحظة، واطل رأس شاحب الوجه ذو عينين لامعتين. كان ذلك رأس شوبين. صرخ بأعلى صوته:

– نيقولاي ارتيميفيتش! افغوستينا خريستيانوفنا وصلت وهي تدعوك إليها!

التفت نيقولاي ارتيميفيتش بجنون، وتوعد شوبين بقبضته، وتوقف لحظة، وخرج من الحجرة بسرعة.

سقطت يلينا على قدمي أمها، وطوقت ركبتيها.

كان اوفار ايفانوفيتش مستلقياً في سريره وقد طوّق رقبته الممتلئة قميص بلا ياقة له زر علوي كبير، واسترخى على صدره الشبيه بصدور النسوة بطيات عريضة سارحة، كاشفاً عن صليب كبير من خشب السرو، وحجاب. وكان لحاف خفيف يغطي اطرافه الرحبة. والشمعة تشتعل باهتة على المنضدة الليلية الصغيرة، قرب قدح كبير من الكفاس. وكان شوبين يجلس على السرير عند قدمي اوفار ايفانوفيتش مكسور الخاطر. كان يقول في تفكير:

– أجل، تزوجت، وتنـوي السفر. وابن اخيك هدر، وملأ البيت كله بالصياح، واغلق عليه مخدعه، للسرّية، ولكن صوته كان يصل لا إلى الخدم والوصيفات فقط، بل وإلى السواقين جميعاً! وهو حتى الآن يزأر ويصهل، وكاد يتعارك معي. يهدر بلعنة الابوة كما يهدر دب بقطعة خشب. ولكن ليسـت لديه القوة. وآنا فاسيليفنا منهارة، ولكن سفر ابنتها يفتك بها أكثر بكثير من الزواج.

لاعب اوفار ايفانوفيتش اصابعه. وقال:

– أم... هذا... معلوم.

قال شوبين:

– ابن أخيك يهدد برفع القضية إلى المطران، إلى المحافظ، وإلى الوزير، ولكنهـا ستسافر على أية حـال. لا أحد يطاوعه قلبه ليقتـل ابنته! سيزعق ويصيح، ثم يسبل ذيله.

– ليس لهم... الحق.

قال أوفار ايفانوفيتش، وشرب شيئاً من القدح.

– نعم، نعم. ثم أية موجة من الادانات والاقاويل والشائعات ستسري في موسكـو كلهـا. أنهـا لا تخشاهـا... أنها ارفـع منها، علـى العموم، ستسافـر، ولكـن إلى أين؟ حتى التفكير في ذلك يرعـب القلب. أي بقعة نائيـة، مغمورة! وماذا ينتظرها هناك؟ اراهـا بعينَيْ خيالي طالعة من خان، في الليـل، والعاصفة الثلجية، ودرجة البرودة ثلاثون تحت الصفر. تفارق وطنهـا، وعائلتها، ولكنني افهمها. فمن ستـترك هنا؟ مَنْ كانت ترى من النـاس؟ كورناتوفسكي وامثالـه، وبيرسينيف وأمثاله، وأنـا وامثالي أيضاً وهؤلاء، على أية حال، خيرة الناس. فعلى أي شيء تأسف هنا؟ شيء واحد سيـئ. يقال أن زوجها – اوه، اللعنـة، اللسان غير متعود على النطق بهذه الكلمـة – يقـال أن اينساروف يسعل ويبصق دماً. وهـذا سيئ. رأيته قبل

أيام، وجهه يصلح لأن يصاغ منه بروتوس في الحال... هل تعرف من هو بروتوس، أوفار ايفانوفيتش؟

– وماذا لا يعرف هنا؟ إنسان.

– بالضبـط «كان إنساناً». أجـل. الوجه رائع، سوى أنه عليل، وعليل جداً.

قال اوفار ايفانوفيتش:

– لا يهم... سيقاتل...

– بالضبـط، لا يهم، سيقاتل. أنت اليوم منصف تماماً. ولكن سيهم إذا كان الأمر متعلقاً بحياته. بينما هي تريد أن تعيش معه.

رد اوفار ايفانوفيتش:

– أنهما شابان.

– نعم. أنهما شابـان وقضيتهما رائعة جريئة. الموت، الحياة، النضال، السقوط، الانتصار، الحب، الحرية، الوطن، كل ذلك جيد، جيد، وليهب الله ذلـك لـكل واحد منـا! وليس مثل الـبروك في مستنقـع إلى الاذقان، والتظاهر بأن الأمر لا يهمك، وهو في الواقع لا يهمك، من حيث الجوهر. بينما هناك الاوتار مشدودة، فأما أن ترن للعالم كله، أو تنقطع!

والقى شوبين رأسه على صدره. وبعد صمت طويل مضى يقول:

– أجـل، اينسـاروف يستحقهـا. ولكـن اي سخـف هـذا! لا أحد يستحقهـا. اينساروف... لمَ هـذا الخنوع الكاذب؟ طيـب، لنفرض أنه شاطـر، يستطيـع أن ينافـح عن نفسه، رغـم أنه حتى الآن فعـل ما فعلناه نحـن، الآثمين، ولكن المسألـة هل نحن تفاهة ميئوس منها؟ طيب، هل أنا تفاهـة، يا اوفار ايفانوفيتش؟ هل الرب جردني من كل شيء؟ لم يعطني أية قابليات، أية مواهب؟ ومـن يدري، ربما سيكون اسم بافل شوبين، مع

مـرور الزمن، علمـاً من الاعلام؟ ومن يدري، ربما تلـك القطعة النحاسية الزهيدة الموضوعة على منضدتك الآن قد تُعطى، في يوم ما، بعد مائة عام لنصب تمثال لبافل شوبين يقيمه أبناء ذريته تكريماً له؟

اتـكأ أوفار ايفانوفيتش على كوعه، وتفرس في الفنان المتأجج. وأخيراً قال وهو يلاعب اصابعه كعادته:

– ظـنّ بعيد. كنا نحكي عن الآخريـن... وإذا بك تنتقل إلى الحديث عن نفسك.

هتف شوبين:

– أيها الفيلسوف العظيم للأرض الروسية. كل كلمة من كلماتك أبريز خالص. والتمثـال لا يجدر أن يقام، لي، بل لك، وأنـا أتعهد لك بذلك. هـا أنت مستلق في وضع لا أحد يعرف بأي شـيء مشبع أكثر: بالكسل، بالقوة؟ سألتُ: لك تمثالاً بهذا الوضع. كنت محقاً جداً في تقريعك لانانيتي وغـروري! نعم! نعم! لا يجوز أن اتحدث عن نفسي، لا ينبغي أن اتباهى. مـا زلنا نفتقر إلى الرجال، مهما اطلت النظر ودققت. الجميع أما تافهون، مـن القوارض، وهاملتون صغار، ومتوحشـون، وأما جهلة في الحضيض الاسفل، وأمـا نافخو ابواق، مهتمون بالصغائـر، وعصوات طبول! كما أن هنـاك أناساً درسوا أنفسهم بدقة مخزية، يسبرون نبض كل أحساس لهم دون انقطـاع، ويعلنون لانفسهم: هذا ما احسه، هذا ما افكر فيه... يا له مـن شغل نافع عملي! لا، لو كان بيننا أناس حقيقيون لما انصرفت عنا تلك الفتـاة، تلك النفـس المرهفة، ولما انزلقت كما تنزلـق سمكة في الماء! ماذا يعني هـذا كله، يا اوفار ايفانوفيتش؟ متى سيأتي زماننا؟ متى سيولد عندنا أناس حقيقيون؟

أجاب اوفار ايفانوفيتش:

– تمهل وسيكونون.

– سيكونـون؟ يا تربـة! يا قوة الأرض السوداء! قلـت! سيكونون؟ احذر، فسأسجل كلمتك هذه. ولكن لماذا تطفئ الشمعة؟

– أنا نعسان، مع السلامة!

٣١

كان شوبـين صادقاً في قوله. كاد نبـأ زواج يلينا المفاجئ يودي بحياة آنا فاسيليفنا. صـارت طريحة الفراش. طالبها نيقولاي ارتيمفيتش بأن لا تسمـح لابنتها بأن تراها. وكان يـبدو كالمبتهج بسنوح الفرصة لأن يظهر نفسه ربـاً لبيته بالمعنى الكامـل، رأس عائلة متمتعاً بكامـل السلطة. كان يهدر ويصيح بالخـدم دون انقطاع، ويقول من حين لآخر: «سأريكم من أنـا. سأجعلكم تعرفـون، فانتظروا!» وطوال ما هـو موجود في البيت لم تكن آنـا فاسيليفنا ترى يلينـا، وتكتفي بوجود زويا التـي كانت تخدمها بعنايـة شديدة، بينما هي تقول لنفسها : «Diesen Insaroff vorziehen – und wem –!» [٥١] ولكـن حالما كان نيقـولاي ارتيميفيتش يترك البيت (وكان هذا كثيراً ما يحـدث فقد عادت افغوستينا خريستيانوفنا، بالفعل) حتى تذهب يلينا إلى أمها، فتظل هذه تحدق فيها طويلاً وبصمت، وعيناها مغرورقتان بالدموع. وكان هذا التأنيب الصامت ينفذ إلى قلب يلينا اعمق مـن غيره. عندئذ لم تكن يلينا تشعر بالندم، بل بشفقة عميقة لا حدود لها شبيهة بالندم.

وكانـت تقول مقبّلة يديها:

– يـا عزيزتي، يا ماما. مـاذا كان عليّ أن افعل؟ أنـا لست مذنبة، لقد

---

(٥١) تفضيل اينساروف هذا – وعلى من! (بالألمانية في الأصل).

احببتــه، وما كان في أمكاني أن اتصرف بغير هذا الشكل. اتهمي القدر، فهو الذي ساقني إلى رجل لا يروق لبابا، رجل سيأخذني منك.

فكانت آنا فاسيليفنا تقاطعها قائلة:

– آه! لا تذكريني بذلك. ما أن اتذكر إلى أين ستسافرين حتى يغوص قلبي في صدري!

فتجيب يلينا:

– يـا عزيزتي ماما. لتلهمك السلوان هـذه الحقيقة على الأقل، وهي ربما كان من الممكن أن يكون الأمر اسوأ، كأنْ اموت..

– ولكنني بهـذا الشكل أيضاً لا آمل في أن اراك بعد الآن. لأنك ستنهين حياتـك هنـاك، في خُص في مـكان ما (كانت آنـا فاسيليفنا تتصـور بلغاريا كالتوندرا السيبيرية) أو سيقتلني فراقك...

– لا تقولي هذا، يا أمي الطيبة، سنلتقي، بمشيئة الله. ثم أن في بلغاريا مدنا مثلما عندنا هنا.

– أي مدن عندهم! الحرب قائمة الآن هناك، واتصور أن المدافع تطلق في كل مكان، أينما ذهبت... هل تنوين السفر قريباً؟

– قريباً... ولكن أبي... أنه يريد أن يرفع شكوى. ويهدد بطلاقنا.

رفعت آنا فاسيليفنا بصرها إلى السماء.

– لا، يـا عزيزتـي يلينا، لن يرفع شكوى. وما كنـت أنا سأوافق على هذا الـزواج أبداً، وأفضل الموت عليه، ولكن لا مـرد لما حصل، ولن أتركه يشين ابنتي.

وبهذا الشكل انقضت عدة أيام. وفي آخر الأمر تشجعت واختلت بزوجها في احدى الاماسي في مخدعها. وكان كل شيء في البيت قد هدأ واستقر. في البدايـة لم يُسمع شيء من هناك. ثم أخذ صـوت نيقولاي ارتيميفيتش يطن،

وبعـد ذلك نشأ جدال، وارتفعت صيحات، بل وتوهمت تأوهات... وتهيأ شوبـين مع الوصيفات وزوبـا أن يهب مرة أخرى للنجدة. ولكن الضجة في المخـدع أخذت تضعف شيئاً فشيئـاً، وتتحول إلى كلام، وسكتت. من حين لآخر فقط كانت تتردد نشجات واهنة، وحتى هذه تلاشت. ورنت مفاتيح، ومـدر صريف مكتب يفتح... وانفتح الباب، وظهر نيقولاي ارتيميفيتش. نظـر بصرامـة إلى جميع الذيـن التقاهم، وتوجـه إلى النـادي. واستدعت آنا فاسيليفنا ابنتها إليها، وعانقتها بقوة، وقالت ذارفة دموعاً مرة:

– كل شـيء سُوّي. ولن يثير ضجـة. ولا شيء الآن يعيقك عن السفر... وتركنا.

وسألت يلينا حالما هدأت الام قليلا:

– هل تسمحين بأن يأتي دميتري لتقديم الشكر لك؟

– انتظـري قليلاً، يا روحي، لا استطيـع الآن أن ارى هذا المفرق بيننا... سيتسنى لنا الوقت قبل السفر.

كررت يلينا باكتئاب:

– قبل السفر.

وافـق نيقولاي ارتيميفيتش علـى أن لا "يثير ضجة"، ولكن آنا فاسيليفنا لم تقـل لابنتها بـأي ثمن اعطى موافقته. لم تقل لها أنهـا وعدته أن تدفع كل ديونـه، كلمـا سلمته ألـف روبل فضي نقداً. وفـوق ذلك ابلغ آنـا فاسيليفنا بشـكل حاسم أنه لا يريـد أن يقابل اينساروف الـذي مضى في نعته بالجبلي الأسود. وحين وصل إلى النادي، صار، بدون أية ضرورة، يتحدث عن زواج ابنتـه، مع ملاعبه، وهو مهندس متقاعد برتبة جنرال. قال بلا مبالاة متكلفة: "هـل سمعت بأن ابنتي قد تزوجت طالبـاً بسبب ولوعها الشديد بالعلم". نظر الجنرال إليه من خلال نظارته، وهمهم "حم!" وسأله أي لعبة يلعب؟

٣٢

كان يـوم الرحيل يقترب. وتشريـن الثاني في أيامه الأخـيرة والمواعيد الأخيرة تمضــي. وكان اينساروف قد فرغ من استعداداته منذ زمان، وهو يتحـرق شوقاً إلى مغادرة موسكو بأسرع وقـت. وكان الطبيب يستعجله أيضـاً، ويقول له: "أنت بحاجة إلى طقس دافئ، لن تسترد صحتك هنا". وكانـت اللهفـة إلى السفـر تضني يلينـا أيضاً، فقـد كان يفزعها شحوب اينســاروف، ونحوله. كانت غالباً مـا تنظر إلى ملامح وجهه المتغير بفزع لا ارادي. أن وضعهـا في بيـت والديها صار لا يطـاق. كانت امها تنوح عليها، وكأنما تنوح على ميتة، وأبوها يعاملها ببرود وازدراء. فقد كان هو الآخر يتعذب سراً من دنو الفراق. ولكن كان يرى من واجبه، واجب اب مهـان، أن يخفي مشاعره، ضعفه. واخيراً رغبت آنا فاسيليفنا في أن ترى اينســاروف. اتوا بـه إليها خلسة، ومن باب خلفـي. وعندما دخل عليها غرفتهـا، استعصى عليها الكلام معه وقتاً طويـلاً، بل و لم تستطع حتى أن تستجمع قواهـا وتنظر إليه. جلس بالقرب مـن كرسيها، وانتظر باحترام هادئ حين بدأت تتحـدث معه. وكانت يلينا تجلس هناك واضعة يد امها في يدهـا. وأخـيراً، رفعت آنا فاسيليفنا بصرهـا، وقالت: "الله يحاكمك، يا دميـتري نيكانوروفيتش..." وتوقفت، وجمدت كلمات التأنيب على شفتيها.

وهتفت:

– ولكنك مريض. يلينا، صاحبك مريض!

أجاب اينساروف:

– كنت مريضاً، يا آنا فاسيليفنا. و لم أسترد كل صحتي بعد. ولكن آمل أن هواء وطني سيشفيني تماماً.

غمغمت آنا فاسيليفنا:

– نعم... بلغاريا!

وفكرت مع نفسها: "الَهي، أنه بلغاري، يحتضر، وصوته فاقد الرنين، وعيناه خاويتان، وجسده هيكل عظمي، وسترته مترهلة على كتفيه، وكأنها ليست سترته، ولونه أصفر كالكريم... بينما هي زوجته، تحبه... هذا مجرد حلم..." إلا أنها تداركت الأمر حالاً، وقالت:

– دميتري نيكانوروفيتش... هل حتم، حتم عليك أن تسافر؟

– حتم، آنا فاسيليفنا.

نظرت آنا فاسيليفنا إليه.

– آه، دميتري نيكانوروفيتش، أرجو من الله إلا يجعلك تعاني ما اعانيه الآن... ولكنك تعدني بأن تصونها، تحبها... ولن تشكوا عوزاً ما دمت أنا في الحياة!

وخنقت العبرات صوتها، وبسطت ذراعيها، وارتمت يلينا واينساروف عليها.

وأخيراً جاء اليوم المحتوم. وجرى الاتفاق على أن تودع يلينا والديها في البيت، وتبدأ سفرها من مسكن اينساروف. وعينت الساعة الثانية عشرة موعداً للانطلاق. وجاء بيرسينيف قبل الموعد برع بساعة. فقد كان يظن أنه سيجد أبناء وطن اينساروف الذين يرغبون في توديعه، ولكنهم انصرفوا جميعاً قبل الموعد، وانصرف كذلك الشخصان الغامضان اللذان يعرفهما القارئ (كانا شاهدي الزواج لاينساروف). استقبل الخياط "السيد الطيب" بانحناءة احترام، وكان سكران كثيراً ربما حزناً، أو ربما فرحاً لحصوله على الاثاث، إلا أن زوجته سرعان ما ابعدته. كان كل شيء في الحجرة قد رتب. وعلى الارض حقيبة مربوطة بحبل. وغرق بيرسينيف في افكاره. فلقد مرت في خاطره ذكريات عديدة.

دقـت الساعـة الثانية عشرة منـذ وقت طويل، والحـوذي جاء بزلاجة السفـر، و"العروسـان" لم يأتيـا بعـد. وأخيراً ترددت خطـوات عجول علـى الدرج، ودخلت يلينا بصحبة اينسـاروف وشوبين. كانت عينا يلينا حمراويـن، فقـد تركت أمها فاقـدة الوعي. فقد كان الـوداع شاقاً جداً. ولم تكن يلينا قـد رأت بيرسينيف أكثر من أسبوع، فقد صارت زيارته إلى بيـت ستاخوف نادرة في المدة الأخيـرة. ولم تكن تتوقع أن تجده فهتفت: "أنت هنا! شكراً!" وارتمت عليه. وعانقه اينساروف أيضاً. وهبط صمت مرهـق. فماذا كان مـن الممكن أن يقول هؤلاء الثلاثـة، ماذا كانت تشعر هذه القلـوب الثلاثة؟ وادرك شوبين ضرورة الصـوت الحي، الكلمة التي تقطع هذا الارهاق. وانشأ يقول:

– واجتمع ثلاثتنا من جديد، للمرة الأخيرة! فلنخضع لمشيئة الاقدار، لنذكر الماضي بالخير، وليبارك الرب الحياة الجديدة وانشد – "وعلى بركة الله في الطريـق الطويـل". وتوقف. أحس فجأة بالخجـل والحرج. فمن الاثـم الغناء حيـث يرقد المحتضر. وفي هذه الحجـرة، وفي هذه اللحظة، كان يحتضـر الماضي الـذي ذكره، ماضـي الناس المجتمعـين فيها. كان يحتضـر لبعث حياة جديـدة، ولنقل ذلك.. ولكنـه كان يحتضر على أية حال.

قال اينساروف مخاطباً زوجته:

– حسنـاً، يلينا. هـذا كل شيء، كما يبدو؟ دفـع كل شيء، وحزمت جميع الامتعة. بقي انزال هذه الحقيبة فقط. يا صاحب البيت!

دخل صاحب البيـت إلى الحجرة مع زوجته وابنته. واستمع إلى ايعاز اينسـاروف متمايلاً قليلاً، وطـرح الحقيبة على كتفـه، وهبط الدرج إلى الاسفل بسرعة، طارقاً الارض بحذائه.

قال اينساروف:

– والآن لتجلس لحظة، حسب العادة الروسية.

جلس الجميع. وقعد بيرسينيف على الاريكة القديمة، وجلست يلينا بالقرب منه، وانكمشت ربة البيت وابنتها على العتبة. والجميع صامتون، والجميع يتسمون بجهد، ولا أحد كان يعرف لم يتسم. كان كل واحد يود أن يقول شيئاً في الوداع، وكان كل واحد (باستثناء صاحبة البيت وابنتها، بالطبع، حيث كانتا تحملقان لا غير) يشعر بأن في مثل هذه اللحظات، لا يباح إلا المبتذل من القول، فأن كل كلمة مهمة، أو ذكية، أو نابعة من القلب، لا غير، ستبدو في غير مكانها، وكاذبحة تقريباً. كان اينساروف أول من نهض، وراح يرسم علامة الصليب، وهتف: "وداعاً، يا حجرتنا!".

وترددت قبلات رنانة، ولكنها باردة، قبلات فراق، وتمنيات في سفر ميمون، لم تقل كاملة، وفي الوعد بالمراسلة، وكلمات وداع أخيرة نصف مكتومة...

جلست يلينا في الزلاجة، والدموع تغمر وجهها، وغطى اينساروف قدميها بالسجادة بعناية. وكان الجميع واقفين على مدخل البيت: شوبين، وبيرسينيف، وصاحب البيت، وصاحبته وابنتهما في المنديل الذي لا يفارق رأسها، والبواب، وحرفي عابر يرتدي روب عمل مخططاً. وإذا بزلاجة مترفة تدخل الفناء فجأة يجرها حصان جيد سريع العدو، ويقفز منها نيقولاي ارتيميفيتش مزيحاً الثلج من ياقة معطفه. ويهتف وهو يدنو من زلاجة السفر راكضاً:

– حمداً لله على أنني وجدتك لم ترحلي بعد. يلينا، هذا لك، بركتنا الابوية الاخيرة.

وادخل رأسه تحت سقف الزلاجة واخرج من جيب سترته ايقونة صغيرة، مخاطة بحافظة مخملية صغيرة، ووضعها في رقبتها. انفجرت يلينا

باكية، وراحت تقبل يديه، وخلال ذاك اخرج الحوذي من مقدمة الزلاجة زجاجة من الشمبانيا، وثلاثة اقداح.

– طيب! – قال نيقولاي ارتيميفيتش، والدموع تقطر غزيرة على ياقة معطفه من فراء القندس – يجب توديعكما... والتعبير عن التمنيات – وأخذ يصب الشمبانيا، ويداه ترتعشان، وطفح الحَبب على الحوافي، وسقط على الثلج. تناول قدحاً واعطى القدحين الاخرين ليلينا ولاينساروف الذي كان قد لحق ليجلس جنبها. وشرع نيقولاي ارتيميفيتش يقول:

– يعطيكما الله... – ولم يستطع أن يكمل. فشرب قدحه، وشرب الآخرن أيضاً – والآن ينبغي عليكما، أيها السيدان – اضاف مخاطباً بيرسينيف وشوبين، ولكن الحوذي ساق الحصان في تلك اللحظة. ركض نيقولاي ارتيميفيتش قرب العربة. وراح يقول بصوت متقطع – لا تنسي، اكتبي لنا. – اخرجت يلينا رأسها، وقالت: "وداعاً، بابا، اندريه بيتروفيتش، بافل ياكوفليفيتش، وداعاً، الجميع، وداعاً، يا روسيا!" وارتدت إلى الخلف. لوح الحوذي بسوطه، وصفر، وصرفت زلاجة السفر بمزلجتيها، واستدارت من بوابة الفناء إلى اليمين، واختفت.

٣٣

كان يوماً مشرقاً من أيام نيسان. وكان جندول حاد المقدمة يتمايل باتزان كلما دفع الجندولي بمجذافه الطويل، لينزلق في المنبسط المائي العريض الذي يفصل فينيسيا عن ليدو، وهو الاسم الذي يطلق على شريط ضيق من رمل البحر المجروف. كانت يلينا واينساروف جالسين تحت سقفه الواطئ على نضد جلدية ناعمة.

لم تتغير قسمات وجه يلينا كثيراً منذ مغادرتها موسكو، إلا أنها اكتست مسحة أخرى، فكانت أكثر استغراقاً وصرامة، وكانت عيناها

اجسر. تفتَّح كل جسدها، وبدا شعرها أكثر نعومة وأكثر مؤطراً جبينها الابيض وخديها النضين. وشفتاها وحدهما، حين لا تَبتسمان، تكشفان عن انشغال مستديم خفي يلوح كغضن لا يكاد يبين. أما اينساروف، فبالعكس، ظل تعبير وجهه كما كان، إلا أن ملامحه تغيرت بشدة. نحف ولاح عليه الكبر، وشحب، وتقوس ظهره بعض الشيء. وكان يسعل، باستمرار تقريباً، سعالاً قصيراً جافاً، وكانت عيناه الغائرتان تلمعان لمعاناً غريباً. وكان في طريق سفره من روسيا، قد اقعده المرض في الفراش ما يقارب الشهرين قضاهما في فينا. وفي نهاية آذار فقط وصل إلى فينيسيا مع زوجته. وكان يأمل أن يسافر منها، عبر زارا، إلى الصرب، وبلغاريا. فكانت جميع الطرق الأخرى مغلقة عليه. وكانت الحرب ما تزال تهدر في الدانوب، وقد اعلنت فرنسا وانجلترا الحرب على روسيا، وجميع الامصار السلافية مضطربة تتهيأ للانتفاضة.

رسا الجندول على الحافة الداخلية لليدو. وتوجهت يلينا واينساروف منها إلى البحر، خلال درب رملي ضيق، غرست فيه اشجار عجفاء (تغرس كل عام، وتموت كل عام).

سارا بمحاذاة الساحل. وكان بحر الادرياتيك يسوق امامهما امواجه الزرقاء الكدرة مزبدة مرغية، صاعدة هابطة مخلفة على الرمل، في تراجعها، اصدافاً صغيرة، ومِزقاً من الاعشاب البحرية.

قالت يلينا:

– يا له من مكان مقبض! اخشى أن يكون البرد هنا أكثر مما تتحمله. ولكنني حزرت لِمَ اردت أن تأتي إلى هنا.

قال اينساروف بتكشيرة سريعة مريرة:

– بردا! ولكن أي جندي سأكون إذا اخاف من البرد. سأقول لك، لماذا جئت إلى هنا. انظر إلى البحر، واشعر وأنا في هذه البقعة، بأنني اقرب إلى

بـلادي – واضاف ماداً ذراعه إلى الشرق – فهي هناك. وهذه الريح قادمة من هناك.

قالت يلينا:

– إلا تسـوق هذه الريح تلك السفينة التي تنتظرها؟ هناك شراع ابيض في الافق، لعله شراعها؟

نظر اينساروف في المدى البحري، إلى حيث اشارت يلينا وقال:

– وعـد رينديتش أن يرتـب كل شيء لنا، خـلال اسبـوع. يبدو أن الاعتماد عليه ممكـن. هل سمعت، يلينا – اضاف بحيوية مفاجئة – يقال أن الصيادين الفقـراء في دالماسيا كانوا يتخلون عن تلك القطع الرصاصية الصغـيرة التي تثقل الشباك وتنزلهـا إلى القاع – ليصنعوا منها طلقات! لم تكـن لديهم نقـود. كانوا يعيشـون على صيد الاسمـاك وحده، ولكنهم اعطوا آخر ما يملكون بفرح، وهم يتضورون جوعاً الآن. أي أناس هؤلاء!

– Aufgepasst ! [٥٢] صدر هذا الصوت بعجرفة من الخلف. وترددت كركبـة حوافر حصان خافتة الرنين، ومرَ علـى فرسه ضابط نسماوي في سترة رمادية قصيرة، وقبعة خضراء ذات ظليلة... وما كادا يلحقان ليتنحيا عن طريقه.

شيّعه اينساروف بنظره جهماً، قالت يلينا:

– ليـس ملوماً، ليس لهم مكان آخر للتدريب على ركوب الخيل، كما تعرف:

قال اينساروف:

– ليـس ملوماً، ولكنه اثار دمي بصيحته، وشاربيه، وقبعته العسكرية، وبكل مظهره. لنعد.

---

(٥٢) احترس! (بالالمانية في الأصل).

– لنعـد، دميتري. هنـاك تيار من الريح، بالفعـل. لم تحرص أنت على نفسـك، بعد مرضـك في موسكو، فدفعت ثمن ذلـك في فينا. يجب أن تكون أكثر حذراً، الآن.

صمت اينساروف، إلا أن التكشيرة المريرة السابقة، رفت على شفتيه. وتابعت يلينا تقول:

– هـل تريد أن نركب جندولاً في القناة الكبيرة؟ نحن حتى الآن لم نر فينيسيـا، بشكل طيب. وفي المساء نذهب إلى المسرح. عندي تذكرتان في المقصـورة. يقال أن اوبرا جديـدة تعرض هناك. اتريد أن نُوَّقف هذا اليوم علـى أنفسنا، وننسى السياسة، والحـرب، وكل شيء، ولا نعرف إلا شيئاً واحـداً وهو أننا نعيش، ونستنشـق الهواء سوية، ونفكـر سوية، وأننا قد ارتبطنا إلى الابد... هل تريد؟

أجاب اينساروف:

– أنتِ تريدين ذلك، يا يلينا، ومعنى ذلك أنني اريده أيضاً.

قالت يلينا مبتسمة:

– كنت أعرف ذلك. لنذهب، لنذهب.

وعادا إلى الجندول، وجلسا فيه، وامرا الجندولي أن يسير بهما في القناة الكبيرة على مهل.

ومَنْ لم يـر فينيسيا في نيسان لا يكاد يعرف فتنة هذه المدينة السحرية، الفتنـة التي تعز على الوصف. وداعة الربيع ونعومته تناسبان فينيسيا مثلما تناسـب شمس الصيـف الساطعة مدينة جنوى الرائعـة ويناسب الخريف الذهبي القرمزي مدينة روما العظيمة، العريقة. وجمال فينيسيا، كالربيع، يمس رغائب النفس ويوقظها، ويداعب القلب الغرير ويناكده، وكأنه وعد بسعادة دانيـة القطوف ليست لغزاً، وأن كانـت مبهمة. كل ما في المدينة

وضيء، قريــب إلى الفهم، كل ما فيها مغشَى بنقــاب ناعس من السكون العاشــق. كل ما فيها صامت، خَفِيّ، انثوي ابتداء من اسمها. فليس محض مصادفة أن يطلق عليها وحدها لقب "الحسناء". عمائر قصورها وكنائسها تنتصــب بخفة وروعة، مثل حلم رهيف لآلهــة شابة. هناك شي سحري، شــيء غريب فتان في الالق الرمادي المخضوضــر، في الالتماعات الناعمة لمــوج قنواتها الاخرس، في سرحــان جندولاتها الصموت، في خلوها من اصوات المدن الخشنة، ومن الطرق الفظ، والقرقعة، والدندنة. ويقول لك أهــل فينيسيا: "فينيسيا تحتضر، فينيسيا تقفر". ولكنها ربما كانت تفتقر إلى هــذه الفتنة الأخيرة، فتنة ذبول جمــال في ذروة تفتحه وانتصاره. والذي لم يرهــا لا يعرفهــا. فــلا كاناليتي، ولا غــواردي (ودع عنــك الرسامين المحدثين) استطاع أن ينقل رقة الهواء الفضية هذه، ولا ذلك المرمى المتنائي والقريب، ولا ذلك التناسق العجيب لأرشق الملامح والالوان الذائبة. ومن ولى زمانــه، وحطمته الحياة لا داعي له أن يــزور فينيسيا، فستكون مريرة المذاق في ذهنه، كذكرى أحلام لم تتحقق في مطلع حياته. ولكنها ستكون حلوة المذاق لمن ما يزال العنفوان في اعطافه، ولمن يشعر بالسعادة في ذات نفسه. فليأت بسعادته إلى كنف سمائها الساحرة، وليغمرها ألقها الذهبي الآبد، مهما يكن لسعادته من لألاء.

مرّ جنــدول اينساروف ويلينا رخياً بــ Riva dei Shciavoni[٥٣] وبقصر الدوجــي[٥٤]، وبيادزيتــا، وخــرج إلى القنــاة الكبــيرة. كانــت القصور الرخامية تمتد على الجانبين، فكانت تبدو وكأنها تمر عائمة بهدوء، لا تكاد تتيح للمرء أن يشملها ببصره ويفهم كل محاسنها. كانت يلينا تشعر بسعادة

---

(٥٣)كورنيش شيافوني (بالايطالية في الأصل).

(٥٤) رئيس جمهورية فينيسيا التجارية المنتخب مدى الحياة.

غامرة. لم تكن في سماء قلبها اللازوردية غير سحابة داكنة واحدة، وحتى هـذه راحت تبتعـد. لأن اينسـاروف في هـذا اليوم كان يشعـر بتحسن أكـثر. مضى بهما الجندول حتـى طاق ريالتو العالي، وعـاد بهما. كانت يلينـا تخشى بـرودة الكنائس على اينساروف، ولكنهـا تذكرت اكاديمية delle Belle Arti[٥٥]، وطلبـت من الجندولي أن يأخذهما إليها. طافا في قاعـات هذا المتحف الصغير بسرعة. و لم يتوقفا امام كل لوحة، و لم يزحما نفسيهمـا، وهما ليس خبيريـن في ذلك، ولا متفيهقـين. وغمرهما فرح نَضِر مفاجئ. فقد بدا لهما فجأة أن كل شيء مسلٍ جداً (الأطفال يعرفون هـذا الشعور جيداً). اثارت يلينا الغيـظ الشديد لثلاثة من الزوار الانجليز، حـين ضحكت، حتـى سالت دموعها، مـن القديس ماركـو لتينتوريتو، وقـد قفز من السماء كما تقفز الضفدعـة إلى الماء لينقذ عبداً من التعذيب. كمـا تهلل اينساروف بشـراً، من ناحيته، حين رأى ظهـر وربلتي الرجل النشيـط في ازار أخضر، وهو يقف في صـدر لوحة تيتسان "الرفع"، ماداً يديـه في إثر العذراء. بينما العذراء نفسها، وهي امرأة جميلة قوية، مندفعة بسكينـة وعظمة إلى احضان الاله الأب ابهرت اينساروف ويلينا كليهما. كما اعجبتهمـا أيضاً لوحة الشيخ تشيما دا كونيليانـو الصارمة القدسية. وعندمـا خرجـا من الاكاديمية نظرا مـرة أخرى إلى الانجليـز الثلاثة الذين خرجوا وراءهما باسنانهم الطويلة كأسنان الارانب، وقذالاتهم المرتخية، وضحكا. ورأيا صاحب الجندول الذي جاء بهما بسترته القصيرة وبنطلونه القصـير أيضاً، وضحكا. ورأيا بائعة قد لفّـت شعرها الاشيب على شكل صرة صغيرة فوق يافوخها تماماً، فضحكا اصدح من ذي قبل، وأخيراً نظر احدهما في وجه الآخر، وانفجـرا ضاحكين. وحالما استقرا في الجندول ضـم احدهما يد الآخر بقوة. ذهبـا إلى الفندق، وهرعـا إلى حجرتهما،

---

(٥٥) الفنون الجميلة (بالايطالية في الاصل).

وطلبا أن يجلب لهما الغداء فيها. و لم يزايلهما المرح، وهما على مائدة الطعام. اطعم احدهما الآخر، وشربا في صحة اصدقائهما في موسكو وصفّقا للحاجب ثناء على طبق السمك اللذيذ، وراحا يلحان عليه لتقديم frutti di mare [٥٦] حية، هز الحاجب كتفيه، وشحط بقدميه، وهزَ رأسه لدى خروجه، بل وهمس مرة في زفرة! poveretti (مساكين!). وبعد الغداء توجها إلى المسرح.

في المسرح عرضت اوبرا الفيردي مبتذلة جداً، إذا اردنا الصدق، ولكنها استطاعت أن تطوف في مسارح اوربا كلها، اوبرا مشهورة جداً عندنا، نحن الروس، وهي "ترافياتا". كان الموسم قد انتهى في فينيسيا، وجميع المغنين لم يرتفعوا عن المستوى الوسط، وكان كل مغن يصرخ بأعلى ما تستطيع حنجرته. وقد مثلت دور فيوليتا ممثلة مغمورة، لا يحبها الجمهور كثيراً، إذا حكمنا بالبرود الذي جوبهت به، ولكنها لم تكن تخلو من موهبة. وكانت هذه فتاة شابة سوداء العينين وليست على حظ كبير من الجمال لها صوت غير متسق تماماً، وتالف. وكانت في ملابس مزركشة إلى حد السذاجة، وبلا ذوق. كان شعرها مغطى بشبكة حمراء، وفستانها من الاطلس الازرق الناصل يضغط على نهديها، وقفازاها السويديان السميكان يصلان إلى كوعيها المدببين، ثم من أين لها أن تعرف، وهي ابنة راع من رعاة برغامو، كيف تلبس غادات الكاميليا الباريسيات! كما انها لم تحسن الوقوف والحركة على المسرح. ولكن تمثيلها كان يحفل بالكثير من الصدق، ومن البساطة الخالية من التحايل، وكانت تغني بتلك العاطفية في التعبير والايقاع، تلك التي يتميز بها الايطاليون وحدهم. كانت يلينا واينساروف جالسين لوحدهما في مقصورة مظلمة عند خشبة المسرح

---

(٥٦) ثمار البحر، أي المحار المأكول، (بالايطالية في الأصل).

تماماً، وهما ما يزالان تحت سيطرة ذلك المرح اللعوب الذي غمرهما في اكاديمية delle Belle Arti. وحين ظهر على المسرح والد الشاب التعيس الذي وقع في شراك الغاوية، مرتدياً سترة فراك بلون الحمص، وباروكة بيضاء منفوشة الشعر، وفتح فمه باعوجاج، وأطلق "ترميلو"[٥٧] خفيضة النبرة كئيبة، مرتبكاً هو نفسه: قبل الاوان، كادت أن تند منهما ضحكة... ولكن تمثيل فيوليتا أثر فيهما. قالت يلينا:

– لا يكاد أحد يصفق لهذه الفتاة المسكينة بينما أنا أفضلها الف مرة على أية شهيرة من الدرجة الثانية معتدة بنفسها كانت ستتلوى، وتثنى، وتسعى طوال الوقت إلى انارة الاعجاب. أما هذه فتبدو وكأنها تشعر بحالها جدية. انظر إليها، أنها لا تلتفت إلى الجمهور.

مال اينساروف إلى حافة المقصورة، وتفرّس في فيوليتا وقال:

– نعم، أنها لا تمزح، تتوجس الموت.

سكتت يلينا.

وبدأ الفصل الثالث. وارتفعت الستارة... وجفلت يلينا من مرأى السرير، والستائر المسدلة، وقارورات الدواء، والمصباح المحجوب... تذكرت الماضي غير البعيد... وطاف في ذهنها: "والمستقبل؟ والحاضر؟"، ومن نكد الطالع أن الممثلة سعلت سعالاً تمثيلياً فرد عليه من المقصورة سعال جاف حقيقي من جانب اينساروف... اختلست يلينا النظر إليه، ولكنها اسرعت فطبعت الرصانة والهدوء على قسمات وجهها. فهمها اينساروف، وأخذ يبتسم، مترنماً بلحن الأغنية قليلاً.

ولكنه سرعان ما سكت. وصار تمثيل فيوليتا أحسن فأحسن وأكثر

(٥٧) ارتعاشة في الاوتار الصوتية. المترجم.

طلاقة. تخلت عن كل ما هو دخيل، عن كل ما هو زائد، ووجدت نفسها، وتلك سعادة نادرة عالية جداً للفنان! تجاوزت فجأة الحد الذي يستحيل تحديده، ولكن الجمال يكمن وراءه. سرت حركة بين الجمهور، واخذته الدهشة. لقد بدأت الفتاة القبيحة ذات الصوت التالف تأخذ بزمامه، وتسيطر عليه. و لم يعد صوتها تالفاً، فقد اشاع الدفء فيه واشتد. وظهر "الفريدو" وكادت صيحة فيوليتا الفرحة تثير تلك العاصفة التي تسمى fanatismo [٥٨] والتي لا تهزم امامها كل صياحاتنا الشمالية الكئيبة... وما هي إلا لحظة، وإذا بالجمهور قد جمد مرة أخرى. وبدأ اللحن الثنائي، اروع قطعة في الاوبرا، والذي استطاع فيه الموسيقار أن يعرب عن كل الاسف على تبذير الشباب بطيش، والصراع الاخير لحب يائس عاجز. واستسلمت المغنية للموجة التي ارتفعت بها مأخوذة ومغمورة بدفق التجاوب الشامل، وفي عينيها دموع الفرح الفني والعذاب الحقيقي، وتغير وجهها، وأمام شبح الموت الرهيب المقترب فجأة اندفعت من شفتيها كلمات الرجاء التي تصل إلى عنان السماء "...Lascia mi vivere morirsi giovane!" (دعني اعيش... اموت وأنا شابة!) وإذا بالمسرح كله يهتز بالتصفيق العارم، وهتافات الحماس والاعجاب.

واحست يلينا بالبرودة تجتاح جسدها كله. اخذت تبحث بيدها، خلسة، عن يد اينساروف، ووجدتها وضغطت عليها بقوة. استجاب هو لحركة يدها، ولكنه لم ينظر إليها، و لم تنظر هي إليه. أن ضم اليدين هذا لم يكن يشبه ذلك الذي حدث بينهما في الجندول قبل بضع ساعات، واحدهما يحتفي بالآخر.

في طريق العودة إلى الفندق سار بهما الجندول في القناة الكبيرة ثانية.

---

(٥٨) تحمس (بالايطالية في الأصل).

كان الليـل قد هبط وضيئاً ناعمـاً. واستقبلتهما نفس القصور على امتداد القنـاة، إلا أنها بدت مختلفة، كان القمر يضـيء بعضها فيبدو أبيض مذهباً، وكأنما قد ابتلع ببياضه تفاصيل الزخـارف ومعالم النوافذ والشرفات، بينما برزت هذه بوضوح أكثر في المباني المسربلة بنقاب خفيف من الظل السبط. وبـدت الجندولات باضوائها الحمراء الصغيرة اخفت صوتاً واسرع حركة، وكانـت قيادمها الفولاذيـة تلمع غامضة غموض مجاذفهـا التي كانت تعلو وتهبط فوق الالتماعات الفضية للماء المستثار. وهنا وهناك كان الجندوليون يتبادلـون نداءات قصيرة خافتة (أنهـم الآن لا يغنون أبداً)؛ وما من أصوات أخـرى تقريبـا. كان الفندق الذي نزل فيه اينسـاروف ويلينا في Riva dei Schiavoni، وقـد نـزلا من الجندول قبل الوصول إليـه، وطافا عدة مرات حـول ساحة القديس ماركو تحت الاطواق التي كان عدد كبير من المتبطلين يزدحمون امام مقاهيها الصغيرة. لطيف جداً أن يسير الإنسان مع محبوبه في مدينة غريبة، وسط أناس غرباء. فقد كان كل شيء يبدو جميلاً مهماً فتتمنى للجميع الخير والسلام والسعادة التي تملأ جوانحك. ولكن يلينا لم تعد الآن قـادرة على الاستسلام للشعور بسعادتها بخلو بال. وما كان في وسع قلبها أن يهـدأ، وقد روّعته الايحاءات قبـل وقت قصير. أما اينساروف فقد اشار بصمـت، حين مرّا بقصر الدوجي، إلى مواسـير المدافع النمساوية المطلة من تحـت عقود السقوف الواطئة، ودفع قبعته إلى حاجبيه. وكان يشعر بالتعب فضـلاً عن ذلك. نظراً للمـرة الاخيرة إلى كاتدرائية القديس ماركو، وإلى قبابها، وقد اشعلت أشعة القمر نقاطاً من الضوء الفوسفوري على قصديرها المزرورق، وعادا إلى الفندق على مهل.

كانت حجرتهـا تطل بنوافذها على المنبسط البحري العريض الممتد من Riva dei Schiavoni إلى جيوديـكا. ومقابـل فندقهـم تقريبـاً كان يرتفع بـرج القديس جيورجي المدبـب الطرف، وإلى اليمين تلتمتـع كرة دوغانا الذهبيـة المرتفعة في الهـواء وتنتصب كنيسـة Redentore، لبالاديو، وهي

واحدة من أجمل الكنائس، مزدانة كعروس، وإلى اليسار تلوح صواري السفن وحبالها، ومداخن البواخر سوداء اللون. وهنا وهناك كان أحد الاشرعة المنشورة إلى النصف يتدلى كجناح كسير، واعلام السفينة المثلثة لا تكاد ترفرف. جلس اينساروف أمام نافذة، ولكن يلينا لم تتركه يستمتع بالمنظر طويلاً. إذ احس بحمى مفاجئة، وتملكه ضعف موهن. فأرقدته في الفراش، وانتظرت حتى غفا، وعادت إلى النافذة بهدوء. آه، كم كان الليل ساجياً حنوناً، والهواء اللازوردي مشبعاً بوداعة الحمام، وكل عذاب، كل بلية لا يمكن لها إلا أن تهج وتغفو تحت هذه السماء الصافية، وتحت تلك الاشعة القدسية الطاهرة! وفكرت يلينا مع نفسها: "يا الهي! لم الموت، لمّ الفراق، والمرض والدموع؟ أو لمّ هذا الجمال، هذا الشعور اللذيذ بالأمل، ولمّ الاحساس المهدي بالملجأ الآمن، بالحماية الوثقى، والرعاية الخالدة؟ ما تعني هذه السماء الباسمة المباركة، هذه الارض السعيدة المستريحة؟ ايمكن أن يكون هذا كله فينا فقط، وفي خارجنا البرودة الأبدية والسكون؟ أيمكن أن نكون نحن هنا... وحدنا... وكل شيء هناك، في كل مكان من هذه الاعماق السحيقة التي لا تُسبر، غريباً علينا؟ اذن، فما نفع هذا الظمأ وفرحة الصلاة؟ (تردد في داخل نفسها "Morir si giovane") إلا يجوز للمرء أن يتضرع ويتحاشى وينجو... أوه، يا الَهي، إلا يجوز الايمان بمعجزة، حقاً؟" – ووضعت رأسها على ذراعيها المطويتين، وهمست – "أهذا كل شيء؟ معقول أنه كل شيء؟ كنت سعيدة، لا لدقائق، ولا لساعات، ولا لأيام بطولها، بل لاسابيع متتالية. ولكن بأي حق؟" واحست بالرهبة من سعادتها ذاتها. وفكرت: "ماذا لو أن ذلك غير مباح؟ ماذا لو كان لا يُعطى بلا مقابل؟ أنه السماء... بينما نحن بشر، مساكين، خاطئون... Morir si giovane أوه، أيها الشبح الاسود المشؤوم، انصرف! حياته ضرورية ليست لي وحدي!".

وفكرت ثانية: "ولكن ماذا لو كان هذا عقاباً، ماذا لو كان علينا الآن

أن ندفــع الثمــن كاملاً على ذنبنــا؟ كان ضميري هادئاً، وهــو الآن هادئ. ولكن أهذا برهان على البراءة؟ أه، يا ألّهي، ايعقل أننا مجرمون بهذا الشكل؟ أيعقــل أنك، خالق هذا الليل، وهذه السماء تريد أن تعاقبنا لأن احدنا أحب الآخــر؟" واضافت بصــورة لا ارادية: "وإذا كان كذلــك، إذا هو مذنــب، وأنا مذنبة، فاجعله يموت، يا الّهي، اجعل كلينا يموت على الاقل ميتة شريفة ماجدة، في رحاب وطنه، هناك، وليس هنا، ليس في هذه الحجرة المعزولة".

"وفاجعــة المسكينة، الام الوحيدة؟" – سألــت نفسها، واضطربت من سؤالهــا هذا، و لم تجد اعتراضاً عليه. و لم تكن تعرف أنه سعادة إنسان قائمة علــى تعاسة إنسان آخر، بل وأن تقعه وراحته، كالتمثال، تتطلبان قاعدة من خسارة الآخرين ومضايقتهم.

غمغم اينساروف أثناء نومه: "رينديتش!".

سارت يلينا إليه على اطراف اصابعها، وانحنت عليه، ومسحت العرق من وجهه. تقلب على المخدة قليلاً، وسكن.

عادت إلى النافذة، وعادت افكارها تتوارد. اخذت تقنع نفسها وتؤكد لهــا أن ليــس هناك سبب للخــوف. بل وخجلت مــن ضعفها. وهمست: "وهل هناك خطر حقاً؟ أو ليست صحته قد تحسنت؟ ولو لم تكن اليوم في المســرح، لما طافت في ذهني هــذه الخواطر". وفي تلك اللحظة رأت نورساً أبيض يحلق عالياً فوق الماء، ربما روّعه صياد، فطار بصمت، صاعداً هابطاً، وكأنما يبحث عن مكان يحط فيه. وفكرت يلينا: "أن طار إلى هنا، كان فألا حسناً..." حام النورس دائراً في مكان واحد، واطبق جناحيه، وسقط بعيداً وراء سفينــة مسودة، مطلقاً صيحــة شاكية، وكأنما اصيــب بطلقة. جفلت يلينــا، ثم خجلت مــن جفولها هذا، فاستلقت علــى السرير، دون أن تخلع ثيابها، جنب اينساروف الذي كانت أنفاسه تتلاحق ثقيلة سريعة.

٣٤

استيقظ اينساروف في ساعة متأخرة يطوق رأسه صداع اصم، ويغمره احساس بضعف لئيم، على حد تعبيره، يسري في جسده كله. ولكنه نهض وكان سؤاله الأول:

– ألم يأت ريندتيش؟

– لم يأت بعد.

ردت يلينا عليه، وقدمت له العدد الأخير من (٥٩)"Osservatore Triestino". وكان فيه حديث كثير عن الحرب، وعن البلدان السلافية، وعن الامارات. شرع اينساروف يقرأ، وانشغلت هي بتحضير القوة له... وإذا بطرق على الباب.

وفكر كلاهما مع نفسه: "ريندتيش"، ولكن الطارق تكلم بالروسية: "هل ممكن أن ادخل؟" تبادلت يلينا واينساروف النظرات في استغراب، وقبل أن يردا دخل الحجرة رجل انيق الملبس ذو وجه صغير مدبب، وعينين حركتين. كان يتألق بكليته، وكأنما قد ربح لتوه مبلغاً ضخماً من المال، أو سمع نبأ ساراً.

رفع اينساروف جسمه عن الكرسي.

قال الغريب متقدماً نحوه بمشية متخلخلة، منحنياً ليلينا بأدب:

– لا تعرفني. أنا لوبوياروف، هل تذكرني؟ التقينا في موسكو عند آل يـ....

قال اينساروف:

---

(٥٩) «مراقب تريست" (بالايطالية في الأصل).

– نعم، عند آل يـ....

– بالتأكيد، بالتأكيد! ارجو أن تقدمني لعقيلتك. كنت دائماً، يا سيدتي، احترم دميتري فاسيليفتش (وصحح نفسه) نيكانور فاسيليفيتش احتراماً عميقاً... وأنا سعيد جداً في أن يكون لي الشرف، آخر الأمر، أن اتعرف عليك – ومضى يقول مخاطباً اينساروف – تصور أنني مساء أمس فقط، عرفت أنكما هنا. أنا أيضاً اقيم في هذا الفندق. أية مدينة، فينيسيا هذه! أنها الشعر بعينه! شيء واحد فظيع هو أن النمساويين الملعونين في كل خطوة! ضقت من هؤلاء النمساويين! بالمناسبة، لعلك سمعت بأ معركة حاسمة جرت في الدانوب قتل فيها ثلاثمائة ضابط تركي. واحتلت سيليستريا، وأعلنت بلاد الصرب استقلالها. إلا يبهجك هذا وأنت المناضل؟ أنا، السلافي، يجعل الدم يفور في عروقي! ومع ذلك انصحك بأن تكون أكثر حذراً، وأنا واثق من أنك مراقب. الجاسوسية هنا مريعة! بالامس دنا مني شخص مريب، وسألني "هل أنت روسي؟" قلت له أنني دنماركي... لا بد أنك عليل، يا نيكانور فاسيليفيتش الفاضل، وعليك أن تعالج نفسك. سيدتي، عليك أن تعالجي زوجك. بالامس كنت أطوف كالمجنون في القصور والكنائس. لا بد أنكما كنتما في قصر الدوجي؟ يا له من ثراء في كل مكان! لا سيما تلك القاعة الكبيرة وموضع مارينو فالياري، كتب فيه [٦٠] decapitate pro criminibus . وقد زرت السجون الشهيرة، حيث انفعلت شديد الانفعال. لا بد أنك تذكر. كنت دائماً أحب الاهتمام بالمسائل الاجتماعية، ووددت لو أرسل المدافعين عن الارستقراطية إلى هذه السجون. كان بايرون محقاً في قوله [٦١] "I stood

(٦٠) "قطع رأسه لجرائمه" (باللاتينية في الأصل).

(٦١) «وقفت في فينيسيا على جسر التنهدات» (بالانجليزية في الأصل).

in Venice on the bridge of sighs" وكان، بالمناسبة، ارستقراطياً. كنت دائماً في صف التقدم. الجيل الفتي كله في صف التقدم. والانجليز والفرنسيون؟ سنرى هل سيفعل بوسترابا وبالمرستون الشيء الكثير. أنت تعرف أن بالمرستون أصبح الوزير الأول. على كل حال، القبضة الروسية ليست مزحة. أن بوسترابا هذا محتال فظيع. هل تريد أن اعطيك "Les Châtiments" de Victor Hugo [٦٢] شيء مدهش! "L'avenir le gendarme de Dieu"[٦٣] وهو قول جريء بعض الشيء، ولكنه القوة، القوة. وما قاله الأمير فيازيمسكي جيداً أيضاً: "اوربا لا تفتأ تردد: باش - كاديك - لار، وابصارها مثبتة في سينوب". أنا اعشق الشعر. وعندي أيضاً آخر كتاب برودون. عندي كل شيء. لا اعرف كيف أنت، ولكن الحرب تسرني، فقط أن لا تلجأني إلى السفر إلى الوطن، بينما أنا انوي السفر من هنا إلى فلورنسا، وإلى روما، وأظن أن السفر إلى فرنسا متعذر، فسأسافر إلى اسبانيا، يقال أن النساء هناك مذهلات، سوى كثرة الفقر والحشرات، وكنت سأسافر إلى كاليفورنيا، نحن الروس مباح لنا كل شيء، ولكنني عاهدت أحد المحررين على دراسة مسألة التجارة في البحر الابيض المتوسط بكل تفاصيلها. قد تقول أن هذا الموضوع غير ممتع ويهم المتخصصين، ولكننا بحاجة إلى المتخصصين، كفانا تفلسفاً، الممارسة ضرورية الآن، الممارسة... اظنك مريضاً جداً، يا نيكانور فاسيليفيتش، ربما اتعبك، ولكنني سأبقى جالساً بعض الوقت، على أية حال، اجلس قليلاً...

وظل لوبوياروف يثرثر بهذا الشكل وقتاً طويلاً، ووعد، لدى خروجه، بزيارة ثانية.

---

(٦٢) «العقوبات» لفيكتور هوغو (بالفرنسية في الأصل).

(٦٣) "للمستقبل منفذ حكم الرب" (بالفرنسية في الأصل).

استلقى اينساروف على الاريكة وقد اتعبته هذه الزيارة غير المنتظرة.

نظر إلى يلينا وقال بمرارة:

– هـذا هو جيل الشباب في روسيا: بعضه يتعاظم ويتباهى، ولكنه في قرارته فارغ كهذا السيد.

و لم ترد يلينا على زوجها، فقد كان ضعف اينساروف في تلك اللحظة يقلقهـا أكـثر بكثير من وضع كل الجيـل الفتي في روسيـا... جلست إلى جانبه، وتناولت التطريز. اغمض اينساروف عينيه، وتمدد بلا حراك، وبدا شديد الشحـوب نحيلاً. نظرت يلينا إلى صفحـة وجهه الحادة الخطوط، وإلى ذراعيه المسبلتين، واعتصر قلبها بخوف مفاجئ. قالت:

– دميتري...

جفل اينساروف.

– ماذا؟ جاء ريندتيش؟

– لا، لم يـأت بعـد... ولكن ما رأيك، هل نستدعـي طبيباً؟ صحتك ليست على ما يرام، وحرارتك مرتفعة، حقاً.

– اخافـك ذلك الثرثار. لا حاجـة. سأستريح قليلاً، ويزول كل شيء. وسنخرج مرة أخرى بعد الغداء... إلى مكان ما.

انقضـت ساعتان، واينساروف ما يزال متمـدداً على الاريكة، ولكنه لم ينم، رغم أن عينيـه مغمضتان. و لم تبتعد يلينا عنه. جعلت التطريز على ركبتها، و لم تتحرك. وأخيراً سألته:

– ولماذا لا تنام؟

– علـى مهلـك – وتنـاول يدها، وتوسّدهـا – هكـذا... لطيف... ايقظينـي، حالمـا يأتـي ريندتيش... وإذا قـال المركب جاهـز سافرنا في الحال... يجب أن نصف كل امتعتنا.

اجابت يلينا:

– لا يحتاج ذلك إلى وقت طويل.

وبعد قليل قال اينساروف:

– ما قاله ذلك الرجل عن المعركة وعن بلاد الصرب لا بد أن قد اختلقه كله. ولكن يجب أن نسافر. ولا يجوز تضييع الوقت... كوني متهيئة.

وغفا. وهدأ كل شيء في الحجرة.

القت يلينا رأسها على ظهر الكرسي، واستغرقت تنظر من النافذة وقتاً طويلاً. ساء الطقس، هبت ريح، وراحت تجوب اقطار السماء بسرعة غيوم بيضاء كبيرة. تمايلت صارية نحيلة في الافق البعيد، وراح العلم المثلث الطويل بصليبه الأحمر يرفرف بلا انقطاع، يسترخي ويرتفع من جديد. وكان رقاص الساعة القديمة يدق ثقيلاً، وبهسيس حزين. اغمضت يلينا عينيها. وكانت قد نامت نوماً سيئاً في الليل. فغفت، هي الأخرى، شيئاً فشيئاً.

حلمت حلماً غريباً. تراءى لها في النوم أنها في قارب على بركة تساريتسينو بصبحة أناس غرباء يجلسون صامتين بلا حراك، ولا أحد يجذف، والقارب يسير من تلقاء نفسه. ولم تكن يلينا مرتعبة، ولكنها ضجرة، فقد كانت تريد أن تعرف من هؤلاء الناس، ولم هي معهم، وتحدق، فإذا بالبركة تتسع، والضفاف تختفي، ولم تعد البركة بركة، بل صارت بحراً مضطرباً. والامواج اللازوردية الصامتة الهائلة تؤرجح القارب ببطء، ويطلع من القاع شيء هادر مرعب وإذا بالغرباء يقفزون على ارجلهم، ويصيحون ويلوحون باذرعهم... وتتعرف يلينا على وجوههم، وأبوها بينهم ولكن الاعصار الابيض يدوّم في الامواج وراح كل شيء يدور، ويختلط...

وتنظر يلينا فيما حولها. كل شيء أبيض كالسابق، ولكن الثلج يتساقط

إلى ما لا نهاية، ولم تعد جالسة في القارب، بل في الزلاجة التي نقلتها من موسكو، وليست وحيدة، بل مع مخلوق صغير ملتف بمعطف نسائي قديم. وتتمعن يلينـا فتعرف فيه كاتيـا، صاحبتها المتسولـة المسكينة. وترتعب. ويجوف في ذهنها: "الم تمت بعد؟".

– كاتيا، إلى أين نحن ذاهبتان؟

ولا تجيـب كاتيـا، وتلتـف بمعطفها. كانـت ترتعد بـرداً. وتحس يلينا بالـبرودة أيضاً. وترسل بصرها عبر الطريق، فـترى مدينة تلوح في البعيد، خـلال رذاذ الثلج. ابراج بيضاء عالية برؤوس فضية... كاتيا، كاتيا، أهذه موسكو؟ تفكر يلينا مع نفسهـا: لا، هذا دير سولوفيتسكي، وفيه الكثير، الكثـير من الصوامع الصغيرة الضيقة، والجو هناك خانق، ودميتري محتجز هناك، ويجب أن اطلق سراحه... وفجأة تنشق أمامها هاوية بيضاء فاغرة. وتسقط الزلاجة، وتضحك كاتيا، ويتردد صوت من الهاوية: يلينا، يلينا!

ويصـدر صوت واضح في اذنيهـا – "يلينا!" رفعـت رأسها بسرعة، والتفتـت، وجمدت على حالها، فقـد رأت اينسـاروف مبيضاً كالثلج، كالثلـج الذي رأتـه في حلمها، يرفـع جسمه على الاريكـة إلى النصف، ويحـدق فيها بعينين واسعتين وضاءتين مرعبتين. وشعره متناثر على جبينه وشفتـاه منفرجتان بشكل غريب ويرتسم علـى وجهه المتغير فجأة رعب ممزوج بحنان وكآبة وقال:

– يلينا! أنا احتضر.

ركعـت علـى ركبتيهـا صارخـة، وانضغطـت علـى صـدره. كرر اينساروف:

– كل شـيء انتهى. أنا احتضـر. وداعاً، يا زوجتي المسكينة، وداعاً، يا وطني!..

وانطرح بظهره على الاريكة.

خرجت يلينا من الحجرة راكضة، وراحت تنادي طالبة النجدة، وانطلق خادم الاستدعاء طبيب. وارتمت يلينا على اينساروف.

وفي تلك اللحظة ظهر على عتبة الباب رجل عريض المنكبين، ملوّح البشرة في معطف سميك من الفانيله، وقبعة واطئة من المشمع. وتوقف في حيرة. هتفت يلينا:

– ريندتيتش! أنت هذا! انظر، بحق الرب، أنه في غيبوبة! ماذا به؟ يا الهي، يا الهي! بالامس خرج، وقبل لحظات كان يتكلم معي...

لم يقل ريندتيتش شيئاً، سوى أنه تنحى. وتجاوزه خطفاً شخص صغير يضع على رأسه شعراً مستعاراً، ويلبس نظارة. أنه طبيب كان يقيم في نفس الفندق. وتقدم من اينساروف.

وبعد لحظات قال:

– سينيورا. السيد الاجنبي مات – il signore forestiere emorto

– من تمدد الاوعية الدموية مع اختلال الرئتين.

٣٥

في اليوم التالي كان يرندتيتش واقفاً عند النافذة، في نفس الحجرة وقد جلست يلينا امامه ملتفة بشال. وكان اينساروف ممدداً في تابوت في الحجرة المجاورة. كان وجه يلينا مذعوراً وبلا حياة، وقد ظهر غضنان على جبينها بين الحاجبين كانا يضيفان على عينيها الجامدتين مسحة الاجهاد. وعلى النافذة رسالة من آنا فاسيليفنا مبسوطة تستدعي فيها آنا فاسيليفنا ابنتها إلى موسكو، ولو لشهر، وتشكو من وحدتها، ومن نيقولاي ارتيميفيتش، وتسلم على اينساروف، وتستفسر عن صحته، وترجوه أن يسمح لزوجته بالسفر.

كان ريندتيش بحار من دالماسيا تعرف اينساروف عليه أثناء سفره إلى وطنه، ووجده في فينيسيا. وكان رجلاً صارماً خشناً جسوراً مخلصاً للقضية السلافية. وكان يحتقر الاتراك، ويبغض النمساويين.

سألت يلينا بالايطالية:

– كم ينبغي أن نمكث في فينيسيا؟

وكان صوتها بلا حياة كوجهها.

– يوماً لشحن الحمولة، ولعدم اثارة الريبة ثم نتجه إلى زارا رأساً. لن افرح أبناء وطني. كانوا ينتظرونه منذ زمان، ويعولون عليه.

ردت يلينا بآلية:

– يعولون عليه.

سأل ريندتيش:

– متى ستدفنينه؟

تلكأت يلينا في الجواب.

– غداً.

– غداً؟ سأبقى. اريد أن القي حفنة تراب على قبره. ويجب أن اساعدك أيضاً. كان الأفضل أن يرقد في تربة سلافية.

نظرت يلينا إلى ريندتيش، وقالت:

– يا قبطان، خذني واياه، وانقلنا إلى ذلك الجانب من البحر بعيداً عن هنا. اهذا ممكن؟

غرق ريندتيش يفكر.

– ممكن، ولكنه شاق. لا بد من تدبير الامور مع الرؤساء الملاعين هنا، لنفرض أننا تجاوزنا كل ذلك، ودفناه هناك، لكن كيف سأعود بك؟

– لا حاجة عند ذاك أن تعود بي.

– كيف؟ وأين ستبقين؟

– سأجد لنفسي مكاناً ألجأ إليه، فقط أن تأخذنا، تأخذني...

حك ريندتيش علباءه.

– كما تشائين ولكن كل ذلك يقتضي جهداً كبيراً، أنا ذاهب وسأحاول. انتظريني هنا بعد حوالي ساعتين.

وانصرف. ذهبت يلينا إلى الحجرة المجاورة، واتكأت على الحائط، وبقيت واقفة لفترة طويلة كالمتحجرة. ثم ركعت على ركبتيها، ولكنها لم تستطع أن تصلي. لم تحس في روحها بتأنيب ولوم، و لم تتجاسر على أن تسأل الله لم لم يرحمهما، و لم يشفق عليهما، و لم يصنهما، و لم عاقبهما أكثر من ذنبهما، لو كانا مذنبين؟ أن كل واحد منا مذنب أصلاً لكونه يعيش، وما من مفكر عظيم، ولا أي محسن للإنسانية، يمكن أن يأمل، بحكم ما فعل من خير ونفع، بأن يكون له الحق في أن يعيش... ولكن يلينا لم تستطع أن تصلي، فكانت متحجرة.

في تلك الليلة غادر قارب عريض مرسى الفندق الذي كان اينساروف وزوجته يقيمان فيه. وفي القارب يلينا وريندتيش، وصندوق طويل مغطى بقماشة سوداء. وساروا زهاء ساعة، حتى وصلوا، أخيراً إلى سفينة صغيرة ذات صاريتين كانت تلقي مرساتها عند المخرج من المرفأ تماماً. وصعدت يلينا وريندتيش إلى السفينة، وحمل البحارة الصندوق. وعند منتصف الليل هبت زوبعة، ولكن السفينة كانت، في باكر الصباح، تمر بالليدو. وخلال النهار كانت الزوبعة تعربد بقوة رهيبة، وكان البحارة المحنكون في مكاتب شركة "لويد" يهزون رؤوسهم، ولا يتوقعون أي خير. والبحر الادرياتيكي بين فينيسيا وتريست والساحل الدالماسي خطر للغاية.

وبعـد ثلاثة أسابيع من خروج يلينـا من فينيسيا تلقت آنا فاسيليفنا في موسكو الرسالة التالية:

"والـديّ العزيزين. اودعكما إلى الأبد. لن ترياني بعد الآن. يوم أمس قضى ديمتري نحبه، وانتهى كل شيء بالنسبة لي. اليوم سأسافر مع جثمانه إلى زارا. سأدفنـه هنـاك، ولا اعرف ماذا سيكون معـي! ولكن لم يعد لي وطن، غـير وطن د. يجري الاعـداد لانتفاضة هنـاك، والناس يتهيؤون، للحـرب، وسأكون ممرضة فيها، واعتني بالمرضى والجرحى. أنا لا اعرف مـاذا سيحـدث لي، ولكنني سأظل، بعـد وفاته، مخلصة لذكـراه ولقضية حياتـه. اعرف الآن اللغتين البلغارية والصربية. ولعلني لا اتحمل كل ذلك، وهـذا افضل. لقد وصلت إلى حافة الهاويـة، ويجب أن اسقط. أن القدر لم يجمـع بيننا جزافاً. من يـدري فقد اكون أنا التي قتلته، والآن جاء دوره ليجـرني وراءه. كنـت ابحث عن السعـادة، ولكنني ربمـا سأجد الموت. والظاهر أن هذا ما كان يجب أن يكون. الظاهر أن خطيئة قد ارتكبت... ولكـن الموت يغطي كل شيء، ويسوي كل شـيء. أليس كذلك؟ سامحاني عـن كل الاحزان التي سببتها لكمـا. أن ذلك لم يكن بارادتي. ثم لَم اعود إلى روسيا؟ ماذا افعل في روسيا؟

تقبلا قبلاتي الأخيرة وتبريكاتي، ولا تدينانى.

ى."

انقضـى على ذلك زهاء خمسة أعوام، و لم يأت أي خبر آخر عن يلينا. و لم تجـد نفعاً كل الرسائل والاستفسـارات ما لم يأت بشيء سفر نيقولاي ارتيميفتيش نفسه إلى فينيسيا وزارا، بعد انعقاد الصلح. في فنيسيا لم يعرف إلا ما يعرفه القارئ حتى الآن، وفي زارا لم يستطع أحد أن يمده بمعلومات ايجابية عـن رينديتش، ولا عن السفينة التـي استأجرها. وسرت شائعات غامضة تزعم أن تابوتاً قد قذف إلى الساحل، بعد زوبعة شديدة، منذ عدة

سنــوات، وقد وجدت في هــذا التابوت جثة رجــل... وتقول معلومات أكــثر وثوقاً أن هــذا التابوت لم يقذفــه البحر اطلاقاً، بل جــاءت به سيدة اجنبية قادمة من فينيتسيــا ودفنته قرب الساحل، واضاف آخرون أن هذه السيدة قد شوهت بعد ذلك في الهرسك مع قوات كانت تؤلف آنذاك، بل ووصفت ملابسها السوداء من الرأس حتى القدمين. ومهما يكن من شيء فأن اثر يلينا قد اختفى، وإلى الأبد، ولا احد يعرف هل ما تزال حية مختفية في مكان ما أم أن لعبة الحياة الصغيرة قد انتهت، وانتهى فورانها الخفيف، وحــلّ الاجل. يحــدث أن يستيقــظ إنسان في نومه، ويســأل نفسه بذعر مباغــث: اصحيح أنني بلغت الثلاثــين... الاربعين... الخمسين؟ وكيف مرت الحياة بهذه السرعة؟ ودنا الموت هذا الدنو؟ أن الموت كالصياد الذي اصطــاد سمكة، وابقاهــا في شبكته في الماء لبعض الوقــت، والسمكة ما تزال تسبح، ولكن الشبكة تطوقها، والصياد يخرجها متى شاء.

ماذا جرى لاشخاص قصتنا الآخرين؟

ما تزال آنا فاسيليفنا حية ترزق، وقد ظهر عليها الكبر كثيراً بعد الضربة التــي صعقتهــا، وقلت شكاواهــا، ولكنها صارت اشد حزنــاً. كما ظهر الكــبر على نيقولاي ارتيميفيتش أيضــاً، وغشاه الشيب، وانقطت علاقته بافغوستينــا خريستيانوفنــا... وهو الآن يشتم كل ما هــو أجنبي. ومدبرة بيته، وهــي امرأة روسية جميلة في نحو الثلاثين مــن العمر ترفل بالحرير، وتتحلى بخواتم واقراط ذهبية. وكورناتوفسكي، ذو المزاج الحاد، والولوع بالشقروات الوسيمات، لكونه أسود الشعر حيوياً، تزوج زويا التي طاعته كثيراً، بل وكفت عن التفكير بالالمانية. وبيرسينيف في هايدلبورغ؛ ارسل إلى الخارج على نفقة الحكومة، وزار برلين وباريس، وهو لا يضيع الوقت سدى. وسيطلع منه معلم صاحب كفاءة. وقد لفتت انظار الجمهور المتعلم مقالتــان لــه هما: "عن بعضــ خصائص القانون الالماني القــديم في مسألة العقوبات القضائية"، و"عن اهمية نشوء المدن في مسألة الحضارة".

والمؤسف فقط أن كلتا المقالتين قد كتبتا بلغة ثقيلة قليلاً تتخللها الكلمات الاجنبية. وشوبين في روما، وقد انقطع بكليته إلى فنه، ويعتبر واحداً من اروع النحاتين الشبان الواعدين كثيراً. ويرى الصفائيون المتشددون أنه لم يدرس القدامى دراسة كافية، وأنه يفتقر إلى "أسلوب" ويعدونه من المدرسة الفرنسية، وله طلبيات كثيرة جداً من الانجليز والامريكين. وفي الفترة الاخيرة اثارت نحتة "الباخوسية" ضجة كبيرة. وكان الكونت الروسي بوبشكين، وهو ثري شهير، ينوي شراءه بالف سكودي، ولكنه فضل أن يعطي ثلاثةآلاف سكودي لنحات آخر، فرنسي(٦٤) Pur sang ليقتني نحت "ريفية شابة تموت من الحب على صدر ملاك الربيع". وكان شوبين يراسل، من حين لآخر، اوفار ايفانوفيتش الذي هو وحده لم يتغير قط في أي شيء. وقد كتب شوبين له منذ حين: "هل تذكر ما قلته لي في الليلة التي عرفنا فيها بزواج يلينا المسكينة، حين كنت جالساً على سريرك، واتحدث إليك؟ هل تذكر حين سألتك: هل سيكون عندنا بشر؟ واجبتني: "سيكونون". آه، يا قوة التربة السوداء! والآن أيضاً اسألك مرة أخرى من هنا، من "بعدي المريح": "حسناً، يا اوفار ايفانوفيتش، هل سيكونون؟".

لاعب اوفار ايفانوفيتش اصابعه، وثبت نظرته اللغزية في البعيد.

---

(٦٤)نقي الدم (بالفرنسية في الأصل).

الآباء والبنون

ترجمة خيري الضامن

تكريماً لذكرى
فيساريون بيلينكسي

١

– هـل تـرى شيئاً يا بيوتر؟ – سأل السيد خادمـه الشاب ذا الوجنتين الممتلئتـين والذقـن المكسـو بزغب يميـل إلى البياض والعينـين الصغيرتين الذاويتين. كل شـيء في هذا الخادم: حركاته اللبقة وشعره المدهون وقرط الفيروز المتدلي من احدى اذنيه، ينم عن انتمائه إلى الجيل العصري المتقدم. القـى الخادم بنظرة متعالية علـى طول الطريق وأجـاب: «لا أرى شيئاً، يا سيدي، لا شيء».

كان ذلـك في العشريـن من مايـو ١٨٥٩. وكان السيـد الذي تجاوز الاربعـين قـد خـرج، حاسـر الرأس بمعطف مغـبر وسـروال مخطط ذى مربعـات، من خان يقع على أحد الطرق الكبيرة. توقف على دكة مدخل الخان الواطئة وكرر السؤال:

– لا شيء؟

– لا شيء، – اجابه الخادم ثانية.

تنهد السيد وجلس على المصطبة فلوى ساقيه تحتها وأخذ ينظر حواليه وهو غـارق في خضم أفـكاره. وما دام على حاله هـذه فلنعرف القارئ عليه.

اسمـه نيكولاي بتروفيتش كيرسانوف. ولديه، على بعد ١٥ كيلومتراً عن الخان، ضيعة جيدة قيمتها مئتا نسمة كما يقال عادة، أو مساحتها الفا

هكتار، كما يقول هو منذ أن انفصل عن الفلاحين وانشأ «مزرعة» له. كان أبوه جنرالاً روسياً فظاً غليظاً، ولكنه لا يحقد على أحد. قاتل في حرب ١٨١٢، وأدى خدمته الروتينية طوال حياته. قاد في بادئ الأمر لواء ثم فرقة، وقضى حياته في الأطراف حيث لعب دوراً كبيراً بحكم رتبته. ولد نيكولاي بتروفيتش في جنوب روسيا، شأن أخيه الأكبر بافل الذي سنتحدث عنه فيما بعد. وترعرع حتى الرابعة عشرة من العمر في داره وسط جمع من المربين الرخيصين والياورية الوقحين المتزلفين وغيرهم من العسكريين. وكانت أمه، وهي من آل كوليازين، واسمها قبل الزواج (اغاثا)[1] وبعده اغافو كليا كوزمينيشينا كيرسونوفا، تعتبر في عداد «أمهات الجنود»، وقد اعتادت على ارتداء قلنسوات فاخرة وفساتين حريرية ذات حفيف صاخب. كانت أول من يقترب من الصليب في الكنيسة. وهي كثيرة الكلام ذات صوت جهوري عال. في كل صباح تسمح لأطفالها بأن يقبلوا يدها، وتباركهم عندما يرقدون في الليل. وباختصار فقد كانت تعيش كما يحلو لها. كان على نيكولاي بتروفيتش الذي لم يتميز بالشجاعة أبداً، بل استحق نعت الجبان، أن ينخرط في الخدمة العسكرية مثل أخيه بافل: فهو ابن جنرال. ولكن رجله انكسرت في اليوم الذي ورد فيه الاشعار باستدعائه للخدمة. لازم الفراش شهرين ثم ظل طوال حياته «أعرج» يئس منه أبوه فتركه وشأنه للحياة المدنية أصطحبه إلى بطرسبورغ حالما بلغ الثامنة عشرة وادخله الجامعة. وفي تلك الاثناء تخرج اخوه وعين ضابطا في فوج الحرس. عاش الشقيقان معاً في منزل واحد تحت رعاية غير ثقيلة من جانب ابن عم امهما ايليا كوليازين الذي كان يشغل منصباً هاماً. عاد أبوهما إلى فرقته وإلى عقيلته. وصار من حين لآخر يبعث إلى ولديه

---

(١) في الأصل بالفرنسية Agathe، أثرنا أن نترجم بين هلالين ما ورد في النص الروسي بلغات أخرى – المترجم.

رسائل مكتوبة بحروف عريضة وبخط متقن على ورق رمادي اللون ومذيلة بالكلمات التالية المرسومة «بالتواءات» ورتوش زاهية: «الميجر جنرال بيوتر كيرسانوف». في عام ١٨٣٥ تخرج نيكولاي برتوفيتش من الجامعة بدرجة ماجستير. وفي العام نفسه وصل الجنرال كيرسانوف مع زوجته بطرسبورغ ليقيما فيها بعد أن أحيل على التقاعد بسبب اخفاق أحد الاستعراضات. كان يستأجر دارا قرب متنزه تافريتشيسكي وينتسب إلى نادي النبلاء الانجليزي، ولكنه توفي فجأة بالسكتة الدماغية. وسرعان ما لحقت به اغافوكليا كوزمينيتشنا التي لم تستطع التعود على الحياة المبهمة في العاصمة حيث نهشتها كآبة عيشة التقاعد. وفي اثناء ذلك وقع نيكولاي بتروفيتش، منذ أن كان والداه على قيد الحياة، الأمر الذي كدرهما كثيرا، في هوى ابنة الموظف بريبولوفينسكي صاحب المنزل الذي سكنه سابقا. وهي فتاة مليحة، ومتطورة كما يقال: فقد كانت تطالع مقالات جادة في ركن «العلوم» في المجلات. تزوج نيكولاي بتروفيتش منها حالما انقضت فترة الحداد. فترك وزارة المقاطعات، حيث كان قد عين بتوصية من ابيه، وصار يتمتع بالنعيم مع زوجته ماشا في دار ريفية قرب معهد الغابات أولا، ثم في المدينة بشقة صغيرة جيدة ذات سلم نظيف وغرفة استقبال باردة بعض الشيء، وأخيراً في الضيعة حيث استقر نهائيا ورزق بعد حين بولده اركادي. عاش الزوجان حياة هانئة هادئة دون أن يفترقا ولا مرة تقريبا، وكانا يطالعان معا، ويعزفان على البيانو باربع ايد وينشدان الاغاني بصوتين. كانت هي تغرس الازهار وتتفقد حقل الدواجن. وكان هو يدير شؤون المزرعة ويتوجه إلى الصيد في احيان نادرة، بينما يترعرع اركادي وينمو هو الآخر بهناء وهدوء. مرت عشر سنوات كالحلم. وفي عام الف وثمانمائة وسبعة وأربعين توفيت زوجة كيرسانوف. فكادت هذه الضربة تقصم ظهره. وخط الشيب شعره في بضعة أسابيع. فشد العزم على السفر إلى الخارج بغية الترويح عن النفس ولو قليلا... ولكن عام ثمانين وأربعين

داهمه. فعاد إلى القرية مكرها. وبعد ركود طويل نسبيا شرع بممارسة شؤون الضيعة. وفي عام خمسة وخمسين اصطحب ابنه اركادي إلى الجامعة وقضى معه ثلاثة شتاءات في بطرسبورغ دون أن يغادر البيت تقريبا، وكان يسعى إلى معاشرة رفاق ابنه الشبان. وفي الشتاء الرابع لم يستطع أن يزور ابنه، وها نحن نراه في شهر مايو عام ١٨٥٩ مترهلا، اشيب الشعر تماما، وعلى شيء من الاحد يداب. أنه ينتظر ابنه الحائز على درجة الماجستير، شأنه شأن ابيه الذي حاز على هذه الدرجة في سالف الزمان.

انزوى الخادم وراء البوابة بدافع من اللياقة، أو ربما بسبب عدم رغبته في أن يظل عرضة لانظار سيده، وراح يدخن غليونه. طأطأ نيكولاي بتروفيتش رأسه وأخذ يتفحص درجات دكة المدخل البالية: كان فرخ دجاج كبير زاهي اللون يتمشى عليها برزانة ويصفعها صفعات شديدة برجليه الصفراوين الكبيرتين، والقت قطة ملوثة نظرة غير ودية عليه، وهي تتناعس على الدرابزون. كانت حرارة الشمس لافحة. ورائحة خبز الجودار الساخن تفوح من ممر الخان الداخلي شبه المعتم. غرق بطلنا نيكولاي بتروفيتش في لجة الاحلام، حيث كانت تدور في ذهنه بلا كلل كلمات: «ولدي... اركاشا[٢]... ماجستير...». حاول أن يفكر في شيء ما آخر، ولكن تلك الكلمات كانت تعود إليه كل مرة. تذكر المرحومة زوجته... وهمس مغتما: «لم يطل بها العمر!»... هبطت حمامة رمادية بدينة على الطريق واسرعت ترتشف الماء من بركة قرب البئر. صوب نيكولاي بتروفيتش نظراته إليها، بينما التقطت أذناه طقطقة عجلات تقترب. اندفع الخادم من وراء البوابة وهتف:

---

(٢) صيغة التحبيب من اسم اركادي – المترجم.

- أعتقد أنهم وصلوا.

نهض نيكـولاي بتروفيتش بلمـح البصر وسلـط نظراته على طول الطريـق. بانت عربة تجرها ثلاثة من جياد البريد، ولاح من العربة شريط القبعة الطلابية وبدت ملامح الوجه الحبيب...

- أركاشا! اركاشا! - صاح كيرسانوف وهرع ملوحا بيديه... بعد لحظات لامسـت شفتاه خد ابنه الأسمر المغبر الذي لم ينبت الشعر عليه بعد.

٢

- دعن

ي انفض الغبار يـا ابتي، كيلا الوثك، - قـال اركادي بصوت فتي جهوري مبحوح بعض الشي بسبب السفر، وهو يرد بمرح على ملاطفة أبيه.

- لا بأس، لا تهتم، - اصر نيكـولاي بتروفيتش في ابتسامة متيمة وطبطـب مرتين على ياقة معطـف ابنه وعلى معطفه هـو. - أرنا كيف أنـت، - اضـاف مبتعداً بعض الشـيء، ثم اتجه على الفـور نحو الخان بخطـوات متسارعة، وهو يتمتـم: «إلى هنا، إلى هنـا. عجلوا باخراج الجياد».

كان نيكولاي بتروفيتش أكثر اضطراباً من ابنه. فقد بدا في شيء من الحيرة والتهيب. اوقفه اركادي قائلا:

- اسمـح لي، يا ابتي، أن أقدم إليك صديقي الطيب بازاروف الذي كتبت لك عنه الكثير. لقد تفضل ووافق على أن يحل ضيفا علينا.

استـدار نيكـولاي بتروفيتش على عجل واقترب مـن الشاب الفارع القامـة الـذي هبط توا مـن العربة الكبـيرة في رداء طويـل ذي شراريب،

واطبق بشدة على يـده الوردية العارية التي مدها له الشاب بتلكؤ، فبادره نيكولاي بتروفيتش:

– أنـا مسرور مـن صميم القلب، وممتن لرغبتـك[٣] في ضيافتنا، آمل يا... اسمح لي بمعرفة اسمك الكريم.

– يفغينـي فاسيليفيتش. – اجاب بـازاروف بصوت رجولي متراخ، وازاح ياقـة ردائه فبان وجهه كله أمام نيكـولاي بتروفيتش. وجه نحيل مستطيل بجبهة عريضة وانف مسطح في أعلاه ومدبب في أسفله وعينين واسعتين خضراوين بعضـ الشيء وفودين متدليين بلون الرمل وانطبعت ابتسامة هادئة لتزين هذا الوجه الذي ينم عن ذكاء وثقة بالنفس.

– آمـل يا عزيزي يفغيني فاسيليفيتشـ أن لا ينتابك الضجر عندنا، – واصل نيكولاي بتروفيتش كلامه.

كادت شفتـا بـازاروف الرقيقتـان تنفرجان عن ابتسامـة، ولكنه لم يـرد بشيء، بل اكتفى برفع قبعتـه. و لم يكن شعره الكث الطويل الاشقر ليحجب النتوءات العريضة على جمجمته الضخمة.

– ما رأيك يـا اركادي؟ – قال نيكولاي بتروفيتش من جديد ملتفتا إلى ابنـه.– هـل نعد الجيـاد الآن، ام انكما تريـدان أن تأخذا قسطا من الراحة؟

– سنستريح في المنزل، يا ابتي. فليعدوا الجياد.

فقال الأب مؤيدا:

– في الحال، هل انت سامع يا بيوتر؟ رتب الأمر، وبأسرع ما يمكن.

---

(٣) الروسـ يخاطبون الغرباء بصيغة الجمع احتراما لهم، ولكننا آثرنا أن نترجم ذلك بصيغة المفرد، عدا الحالات التي يخاطب فيها الخدم أسيادهم – المترجم.

اختفــى بيوتر وراء البوابة من جديــد. وكان هذا الخادم العصري قد اكتفى بانحناءة من بعيد لسيده الابن دون أن يقترب منه ليقبل يده.

– عنــدي عربة مكشوفة، ولكــن ثلاثة جياد جاهــزة لعربتك أيضاً – قــال نيكولاي بتروفيتش مشغول البال، في حين راح اركادي يشرب الماء مــن أبريق معدني احضرتــه صاحبة الخان، وشرع بــازاروف يدخن غليونه واقترب من الحوذي الــذي فك اربطة الجياد. وأضاف نيكولاي بتروفيتشــ: – غــير أن عربتــي بمقعديــن فقــط، ولا أدري بخصوصــ صديقك...

– سيرتحــل في عربتي– قاطعــه اركادي بصوت خافت.– لا داعي للرسميات معه. فهو شاب رائع ومتواضع للغاية، سترى ذلك بنفسك.

اقتاد حوذى نيكولاي بتروفيتش جياده. فقال بازاروف لحوذيه:

– عجّل، يا ذا اللحية الكثة!

– هــل سمعت، يا ميتيوخا، كيف نعتــك السيد؟ – انتعش الحوذى الآخر ويداه مدسوستان في الشقين الخلفيين لفروته، – لحية كثة بالضبط.

اكتفــى ميتيوخــا بهزة من رأســه، وسحب عنان فرس المقدمة التي تصببت عرقا.

– هيــا، هيا، يا شباب، ساعدونا وستحصلون على اكرامية، – هتف نيكولاي بتروفيتش.

أعدت الجياد في بضع دقائق. فاستقل الاب والابن العربة المكشوفة. وقعد بيوتر بجانب الحوذى، بينما قفز بازاروف إلى العربة الكبيرة ومال برأسه على الوسادة الجلدية، وتحركت المركبتان.

٣

– حصلـت على الماجستير وعدت إلى الأهـل اخيرا – قال نيكولاي بتروفيتش وهو يلامس كتف اركادي تارة وركبته تارة أخرى.

– كيـف حـال عمي؟ هل هو بصحة جيـدة؟ – سأل اركادي معجلا في تحويـل الكلام من حالة الانفعال إلى الامور العادية، بالرغم من الفرحة الصادقة، والطفولية تقريبا، التي تملأ فؤاده.

– بصحة جيدة. كان عازما على الخروج معي لاستقبالك، ولكنه غير رأيه لسبب ما.

– وهل انتظرتني طويلا؟

– خمس ساعات تقريبا.

– ما أطيبك يا ابتى!

استـدار اركادي بسرعة نحو أبيه وطبع على خده قبلة رنانة. فضحك نيكولاي بتروفيتش بهدوء. ثم قال:

– جهزت لك حصانا رائعا. وستتأكد من ذلك بنفسك. ثم أن جدران غرفتك مزينة بالورق.

– وهل هناك غرفة لبازاروف؟

– سنعد غرفة له هو الآخر.

– ارجـوك يا ابتى، اعتن به. فأنـا عاجز عن التعبير عن مدى اعتزازي بصداقته.

– يبدو أنك تعرفت عليه من مدة قريبة، أليس كذلك؟

– بلى.

– ولذا لم اره في الشتاء الماضي. ماذا يدرس؟

– شغلـه الشاغل هـو العلوم الطبيعية. ولكنه ملـم بكل شيء ويستعد لاجتياز امتحانات الطب.

– اها، أنه في الكليـة الطبية – قال نيكولاي بتروفيتش ولزم الصمت برهـة، ثم سأل مـن بيوتر مشيرا بيده: – هؤلاء الراكبـون فلاحونا، أليس كذلك؟

التفـت بيوتر نحو الجهة التـي أشار إليها سيـده. كانت عدة عربات تجرها خيول مفكوكة الالجمة تنهب الدرب الريفي الضيق. وفي كل عربة فلاح أو فلاحان بفروات مفتوحة الازرار.

– بالضبط، يا سيدي، – اجاب بيوتر.

– إلى أين يقصدون؟

– إلى المدينة في أغلب الظن. إلى الحانة – اضاف بيوتر بازدراء، ومال قليلا نحو الحوذي وكأنما يأمل أن يجد فيه مؤيدا لرأيه. إلا أن ذاك لم ينبس ببنت شفة. فهو شخص محافظ لا يؤمن بالآراء العصرية. فواصل نيكولاي بتروفيتش كلامه مخاطبا ابنه:

– ازدادت مشاغلي في العام الحالي بسبب الفلاحين. أنهم لا يدفعون الجزية. فماذا افعل لهم؟

– وهل أنت مرتاح من عمالك الاجراء؟

فأجاب نيكولاي بتروفيتش مكرها:

– أجـل. ولكن المصيبة انهم يندفعـون بالتحريض. ثم أنه ليس لديهم حماس حقيقي في العمل. وهـم يتلفون عدة الخيل. غير أنهم حرثوا على نحـو لا بأس به. كل شيء سيكون على ما يـرام. ولكن هل تشغل شؤون الضيعة بالك الآن؟

– المصيبـة أن الظـل معدوم لديكم – لاحـظ اركادي دون أن يجيب

على السؤال الأخير. فقال نيكولاي بتروفيتش:

– علقتُ ستارة كبيرة على الشرفة من جهة الشمال، واصبح بالامكان تناول الغداء في الهواء الطلق.

– سيكــون ذلك اشبه بالفلاّت الصيفيــة... ولكن لا يهم، تلك امور تافهــة. فمــا اروع الهــواء المنعش هنا! ومــا ازكى الروائــح! يخيل الي أن الروائــح الفواحة في هــذه البقاع ليس لها مثيل في أي مكان في العالم. ثم ما اجمل السماء...

سكت اركادي فجأة. القى بنظرة منحرفة إلى الوراء، ثم لزم الصمت. فقال نيكولاي بتروفيتش:

– بالطبع. ولدت في هذه الانحاء ولا بد أن يبدو لك كل شيء هنا في صبغة خاصة...

– كلا، يا ابتي، لا فارق في ذلك مهما كان المكان الذي يولد فيه المرء.

– ولكن...

– كلا، لا فارق بتاتا.

القى نيكولاي بتروفيتش نظرة جانبية على ابنه. و لم يستأنف الحديث بينهما إلا بعــد أن قطعت العربة زهاء نصف كيلومتر، حيث بدأ نيكولاي بتروفيتش كلامه:

لا اتذكر كتبت لك ام لا؟ توفيت مربيتك القديمة يغورروف.

حقاً؟ لا للعجوز المسكينة! وهل بروكوفيتش على قيد الحياة؟

– أجــل، فهو على عادته في الدمدمة. وعلــى العموم لن تجد تغيرات كبيرة في مارينو.

– وهل الوكيل باق هو نفسه؟

– وكيـل المزرعة هـو الشخص الوحيد الـذي استبدلته. قررت أن لا احتفـظ بعد الآن بالاقنان السابقين المعتوقين أو، على الأقل، أن لا أكلفهم بأيـة مهمـات ذات مسؤوليـة – وعند ذاك اشـار اركادي بغمزة من عينه إلى بيوتر، فقـال نيكولاي بتروفيتش بصوت يـكاد يشبه الهمس: – (أنه معتـوق فعلا) [٤] ولكنه وصيفـي المقرب. ولدي الآن وكيـل من المدينة. شخصـ فطين على ما يبدو. وقـد خصصت له مائتين وخمسين روبلا في العام. – ثم أضاف نيكولاي بتروفيتش قائلا، وهو يمسح جبهته وحاجبيه بيده، الأمر الذي يدل دوما على استحيائه الداخلي – أخبرتك الآن بأنك لن تجد تغيرات في مارينو... والحال فليس الأمر كذلك تماما... وأرى من واجبي تنبيهك مسبقا، مع أن...

تلعثم في الحديث لحظة ثم واصل كلامه بالفرنسية:

– مع أن الأخلاقي الصارم قد يعتبر صراحتي هذه في غير محلها. ولكن لا يمكـن اخفاء ذلـك، هذا أولا، وثانيا أنت عارف بـأن لدي على الدوام مبـادئ خاصة بشأن موقف الاب من ابنه. وعلى كل حال لك الحق طبعا في أن تلومنـي. ففي مثل سني هذه... وباختصـار، اقصد... أقصد تلك الفتاة التي ربما سمعت عنها...

– فينيتشكا؟ – سأل اركادي بلا تكلف.

أحمر وجه نيكولاي بتروفيتش خجلا.

– أرجوك، لا تذكـر اسمها بصوت عال... أجل، هي... أنها تعيش الآن عندنـا. افردت لها مكانا في الدار... كانت هناك غرفتان صغيرتان. وبالمناسبة فذلك أمر يمكن تغييره.

---

(٤) في الأصل بالفرنسية Il est libre، en effet.

– ما الداعي لتغييره، يا ابتي؟

– صديقك سيحل ضيفا علينا... ومن المخجل...

– لا تقلق، رجاء، بخصوص بازاروف، فهو إنسان لا يهتم بهذه الاعتبارات.

– أنا قلق بخصوصك، أنت، اذن، – قال نيكولاي بتروفيتش ثم أضاف: – بناية الجناح رديئة، يا للمصيبة.

فعاجله اركادي قائلا:

– عفوا، يبدو وكأنك تعتذر، اتق الله يا ابتي.

– بالطبع، علي أن اتقي الله – اجاب نيكولاي بتروفيتش وهو يزداد احمرارا.

– كفاك، يا ابتي، كفاك، ارجوك! – ابتسم له اركادي برقة وحنان. «مَ يعتذر؟» – فكر في دخيلة نفسه وامتلأت جوانحه بشعور من الرقة المتسامحة ازاء والده الوديع الطيب، بشعور يشوبه احساس خفي بالتفوق.
– دعك من هذا. ارجوك – كرر من جديد وهو يستمتع عفويا بادراكه اهمية تطوره وحريته.

تطلع إليه نيكولاي بتروفيتش من بين أصابع يده التي ظل يمسح بها جبهته، واحس بوخزة في القلب... ولكنه أناح باللائمة على نفسه في الحال. ثم قال بعد صمت طويل:

– ها هي حقولنا.

فقال اركادي:

– يبدو لي أن تلك الغابة، في الامام، غابتنا، اليس كذلك؟

– بلى، غابتنا. ولكنني بعتها. وسوف تقتلع اشجارها في العام الحالي.

– لماذا بعتها؟

– كنت بحاجة إلى نقود، ثم أن هذه الاراضي ستحال إلى الفلاحين.

– أولئك الذين لا يدفعون لك الجزية؟

– هذا أمر يعود لهم. اعتقد أنهم سيدفعونها في وقت ما.

– اسفي على الغابة – قال اركادي وأخذ يتطلع إلى ما حواليه.

الأماكن التي اجتازوها لا تستحق نعت المناظر الخلابة. فالحقول تمتد بعيدا حتى الافق، وهي ترتفع قليلا تارة وتنخفض تارة أخرى، وفي بعض الجهات لاحت غابات غير كبيرة، وكانت المنخفضات المطرزة بشجيرات واطئة متباعدة، تتلوى فتعيد إلى الاذهان صورها المرسومة على الخرائط القديمة المتبقية من عهد يكاتيرينا(٥٣). وصادفتهم نهيرات ذات ضفاف متآكلة، وبرك صغيرة عليها سدود متداعية، وقرى فيها اكواخ واطئة تحت سقوف قائمة مهدمة حتى منتصفها في الغالب، ومستودعات للدراس مالت اركانها بجدرانها المجدولة من العيدان والاغصان وبواباتها المخلوعة المتثائبة قرب الاجران الخاوية، وكنائس قرميدية تساقط طلاء جدرانها في بعض الاماكن، وأخرى خشبية ذات صلبان مائلة ومقابر مدمرة. أخذ الالم يحز في فؤاد اركادي، حتى لكأن ما رآه قد لاح أمامه عمدا. فكل الفلاحين الذين صادفهم كانو مشعثين على خيول هزيلة. وكانت اشجار الصفصاف تنتصب على جانبي الطريق بلحانها الممزق وأغصانها المكسرة، كالمتسولين في الاسمال. وكانت بقرات معروقة متحشفة، كأنها منهوشة حتى العظام، تقضم العشب بنهم في المنخفضات. وبدت هذه البقرات العجاف وكأنما تخلصت توا من براثن رهيبة فتاكة. فأثار منظرها المزرى في وضح النهار الربيعي شبحا أبيض ملفعا بالزوابع الجليدية والصقيع والثلوج، شبح الشتاء اللانهائي الخالي من المسرات. وفكر اركادي: «كلا، ليست غنية هذه البقاع. فهي لا تدهش

المرء بثروتها ولا بالمواظبة على العمل. كلا، لا يجوز أن تبقى على هذه الحال. ينبغي اجراء تحويلات... ولكن كيف يمكن تحقيقها؟ ومن أين نبدأ؟..».

هكذا فكر اركادي... في حين كان الربيع في اوجه. كل شيء حواليه، من أشجار وشجيرات وأعشاب، في خضرة ذهبية يانعة، وكل شيء يتموج ويلمع فسيحاً رقيقاً في انفاس النسيم الدافئ الهادئة. وفي كل مكان تنساب أصوات القبرات الرنانة بلا انقطاع. والزقازيق تارة تنعق محومة فوق المروج المنخفضة وتارة تتراكض صامتة من كومة ترابية إلى أخرى، وغربان القيظ تتمشى سوداء جميلة في خضرة سنابل الربيع الغضة الواطئة. كانت هذه الغربان تختفي في الجوادر الذي ابيضت سنابله قليلا، ثم تلوح رؤوسها في أمواج السنابل الدخانية اللون بين الفينة والفينة، أطال اركادي التطلع حتى تراخت تأملاته بالتدريج وأخذت تختفي... خلع معطفه والقى على ابيه نظرة مرحة من محيا فتى يافع جعلت الاب يعانقه من جديد، ويقول:

– لم يبق إلا القليل. فما أن نتسلق هذه الهضبة حتى يلوح المنزل للانظار. وسنعيش معك، يا اركاشا، برغد وهناء. سوف تساعدني في أمور الضيعة إذا كان ذلك لا يسبب لك ضجرا. ينبغي لنا الآن أن نتقارب على نحو اوثق وأن نتعرف على بعضنا البعض بصورة أفضل، أليس كذلك؟

فأجاب اركادي:

– بالطبع. ولكن ما اروع النهار اليوم!

– خصيصا لمجيئك يا حبيبي. فالربيع يختال ضاحكا. ولكنني أقول مع بوشكين في ملحمة «يفغيني أونيغين»:

أيها الربيع، يا فصل الغرام!

ما أشد حزني لمجيئك.

فاي...

– اركادي! – تعالى من العربة الثانية صوت بازاروف – ابعث لي ثقابا، فليس لدي ما اشعل به الغليون.

لاذ نيكولاي بتروفيتش باذيال الصمت، بينما كان اركادي قد استعد ليستمع إليه بشيء من الاعجاب وبشيء من المشاطرة ولكنه اخرج من جيبه على عجل علبة ثقاب فضية وبعثها مع بيوتر إلى بازاروف فصاح هذا من جديد:

– هل تريد سيجارا؟

– أجل – اجاب اركادي.

عاد بيوتر إلى العربة وسلمه مع علبة الثقاب سيجارا قاتما غليظاً دخنه اركادي في الحال وصار ينفث حواليه دخان التبغ العتيق، ففاحت رائحة حادة لاذعة جعلت نيكولاي بتروفيتش الذي لم يجرب التدخين ولا مرة في حياته يشيح بوجهه عفويا، ولكن بصورة غير ملحوظة كيلا يغيظ ابنه.

بعد ربع ساعة توقفت العربتان أمام مدخل دار خشبية جديدة مطلية بدهان رمادي وذات سطح حديدي أحمر اللون. كانت تلك هي ضيعة مارينو، أو دارة الاعزب، كما يسميها الفلاحون.

٤

لم يهرع حشد كبير من الخدم إلى المدخل لاستقبال الاسياد. فقد ظهرت بنت في الثانية عشرة من العمر تقريباً، وخرج على أثرها من الدار فتى شبيه كل الشبه ببيوتر في سترة خدم رمادية ذات ازرار معدنية كبيرة بيضاء. أنه وصيف بافل بتروفيتش كيرسانوف. فتح باب العربة المكشوفة

صامتاً، ثم حل ازرار ستارة العربة الأخرى. اجتاز نيكولاي بتروفيتش وابنه وبازاروف قاعة معتمة تكاد تكون خالية إلا من وجه امرأة شابة لاح للحظة من خلال بابها، ودخلوا غرفة الاستقبال المؤثثة على احدث طراز.

– ها نحن في الدار، – قال نيكولاي بتروفيتش وخلع قبعته وراح ينفض شعره – أهم شيء الآن هو تناول طعام العشاء ثم الاستجمام.

– حقاً، حبذا لو تناولنا الطعام – عقب بازاروف وهو يعدل من قامته، ثم جلس على الاريكة.

– أجل، أجل، قدموا طعام العشاء، وباسرع ما يمكن. – طقطق نيكولاي بتروفيتش بقدميه بدون أي سبب ظاهر – ها هو بروكوفيتش بالمناسبة.

دخل رجل نحيف اسمر في حوالي الستين، اشيب الشعر في بزة وصيف بنية اللون ذات ازرار معدنية وعلى عنقه منديل وردي. ابتسم ابتسامة عريضة وقبل يد اركادي ثم انحنى للضيف وتراجع نحو الباب حيث اشبك يديه وراء ظهره.

فقال نيكولاي بتروفيتش:

– ها هو ولدي قد وصل أخيراً... فكيف يبدو في نظرك يا بروكوفيتش؟

– في أحسن حال يا سيدي – اجاب العجوز وكشر من جديد مبتسماً، لكنه قطب حاجبيه الكثيفين في الحال وقال بمهابة: – هل تأمرون باعداد المائدة؟

– أجل، أجل من فضلك. ولكن هلا توجهت، يا يفغيني فاسيليفيتش، إلى غرفتك في بادئ الأمر؟

– كلا، متشكر، لا داعي لذلك. – قال بازاروف ثم اضاف وهو

يخلع رداءه: يكفي أن تأمر بنقل حقيبتي إليها مع هذا اللباس.

– طيب. يا بروكوفيتش خذ معك السيد. (التقط بروكوفيتش معطف بـازاروف بكلتا يديه، في شيء مـن الاستغراب، ورفعه فـوق رأسه عاليا وانصـرف على أطـراف اصابعـه). وأنت، يا اركادي، هـل ستذهب إلى غرفتك للحظة؟

– أجـل، ينبغـي ان اتنظف – اجـاب اركادي وكاد يتجـه إلى الباب لـو لا أن دخل غرفـة الاستقبال في تلك اللحظة رجـل متوسط القامة في بدلة انجليزية قاتمة وربطة عنـق قصيرة حسب الموضة وجزمة واطئة لماعة. أنه بافـل بتروفيتش كيرسانوف. مظهره يدل علـى أنه في حوالي الخامسة والاربعين: شعره الاشيب القصير يبعث لمعا قاتما كالفضة الجديدة، ووجهه المتجهم الخالي من الغضون والمعتدل التقاسيم والصافي كل الصفاء، كما لو نحت بازميل خفيف دقيق، يحتفظ بآثار وسامة رائعة. وعيناه السوداوان الوضاءتـان المستطيلتـان بعض الشـيء جميلتان علـى الخصوص. كانت ملامـح عم اركادي الرشيـق الاصيل الارومة تم احتفظـت باعتدال قوام الفتـوة والتطلـع إلى الاعالي بعيداً عن الارض، ذلـك التطلع الذي يختفي بأغلبه في سن الثلاثين.

اخـرج بافـل بتروفيتش من جيـب سرواله يده الجميلـة ذات الاظافر الوردية الطويلة، وقد بدت أكثر جمالا بتأثير الردن الابيض الناصع كالثلج والمشـدود بازيم عليه فص كبير واحد مـن حجر عين الشمس، فمدها إلى ابـن أخيه. وبعد أن (صافحه)[٥] على الطريقة الاوروبية قبله ثلاث قبلات على الطريقة الروسية، أي أنه لامس خديه ثلاث مرات بشاربيه الفواحين، وقال: «اهلاً وسهلاً».

---

(٥) في الأصل بالانجليزية «shake hands».

عـرّف نيكولاي بتروفيتش بازاروف عليه، فحنى بافل بتروفيتش قده اللدن قليلا وانفرجـت شفتاه عن ابتسامة خفيفة، ولكنه لم يمد له يده، بل دسها في جيبه مجددا.

– طال الانتظار حتى ظننت انكم لن تصلوا اليوم – قال بصوت وديع وهو يتمايل بلطف ويهز كتفيه قليلاً ويكشف عن أسنانه الرائعة البيضاء – فهل حدث شيء في الطريق؟

– لم يحدث شيء – اجاب اركادي – سوى أننا تباطأنا قليلاً. ولذلك فنحـن جياع كالذئاب. استعجل بروكوفيتش، يا ابتى، أما أنا فسأعود في الحال.

– تمهـل، أنا ذاهب معك – هتف بـازاروف وقفز من الاريكة فجأة. وخرج مع اركادي. فسأل بافل بتروفيتش:

– من هذا؟

– صديق اركاشا، وهو شخص ذكي جداً، كما يقول.

– سيبقى في ضيافتنا؟

– أجل.

– الطويل الشعر هذا؟

– نعم، اجل.

نقر بافل بتروفيتش باظافره على الطاولة ثم قال:

– يخيل الي أن اركادي (أصبح أقل تكلفاً)[٦] – ثم اردف قائلاً: – أنا مسرور لعودته.

---

(٦) في الأصل بالفرنسية «est dégourdi's».

لم يسهبوا في الكلام أثناء العشاء. وخصوصاً بازاروف الذي لم يقل شيئاً في الواقع، ولكنه أكل كثيراً. تحدث نيكولاي بتروفيتش عن حوادث مختلفة من حياته المزرعية، على حد تعبيره، وتناول الاجراءات الحكومية المرتقبة، وتكلم عن اللجان وعن النواب وعن ضرورة اقتناء المكائن وهلمجراً. وكان بافل بتروفيتش يجوب غرفة الطعام متوانيا جيئة وذهاباً (فهو لا يتناول طعام العشاء ابداً)، ونادراً ما يرتشف جرعة من قدحه المملوء بنبيذ قاتم، وكان يبدي، على نحو اندر، ملاحظة ما، أو على الاصح تند عنه اصوات التعجب من طراز «أها! هيه!». ذكر اركادي بعض أنباء بطرسبورغ، ولكنه احس بشيء من عدم الارتياح الذي ينتاب الشاب عادة حينما يكف عن أن يكون طفلا فيعود إلى المكان الذي اعتاد الآخرون أن يروه فيه ويعتبروه طفلاً. كان يمطط كلامه دونما داع ويتحاشى ذكر كلمة «ابتى» حتى أنه استبدلها مرة بكلمة «الوالد» ونطقها في الواقع بصوت خافت، وصب في قدحه، بمزيد من عدم التكلف، قدراً أكبر مما كان يريد، ثم تجرع النبيذ حتى الثمالة. وما كان لتحيد عنه عينا بروكوفيتش الذي لم يفعل غير أن راح يعلك شفتيه طوال الوقت. وبعد العشاء تفرقوا في الحال.

– عمك غريب الاطوار بعض الشيء – قال بازاروف لاركادي وهو جالس بردائه البيتي قرب سريره يمتص أنفاساً من غليونه القصير. – منتهى التأنق في الريف، يا للغرابة! ثم أن اظافره، اظافره تستحق أن ترسل إلى المعرض!

فأجاب اركادي:

– أنت لا تدري. كان في زمانه ليثاً. سأقص عليك قصته في وقت آخر. كان في منتهى الجمال، وكان محبوب النساء.

– هكذا اذن! يعني أنه لا يزال على عاداته القديمة. ولكن لا أحد هنا

يمكن اغواؤه مع الأسف. لاحظت أن ياقته منشاة على نحو مدهش، كما لو كانت من حجر، وذقنه حليق بكل عناية. أليس ذلك، يا اركادي، مثاراً للضحك؟

– ربما. ولكنه رجل طيب حقاً.

– أنه ظاهرة أكل الدهر عليها وشرب. أما أبوك فهو إنسان رائع بالفعل. عبثاً يتلو الاشعار، ومن المستبعد أنه يفهم شيئاً في أمور المزرعة، ولكنه طيب القلب.

– والدي إنسان من التبر الخالص.

– هل لاحظت أنه خجل؟

هز اركادي رأسه بالايجاب وكأنما لم يعتوره هو نفسه الخجل. فواصل بازاروف كلامه:

– عجيب أمرهم هؤلاء الرومانسيين الكهول! انهم يرهقون جهازهم العصبي إلى حد الانفعال... وعند ذاك يختل توازنهم. ولكن إلى اللقاء! باب غرفتي دون قفل. وفيها غسال انجليزي. هذا أمر يستحق الثناء. فالغسالات الانجليزية تعني التقدم!

انصرف بازاروف. واجتاح اركادي شعور بالفرحة. فالنوم لذيذ في المنزل الحبيب، في السرير المعتاد، تحت غطاء خاطته يدان حبيبتان، ربما هما يدا المربية، يدان طيبتان حنونان لا تعرفان الكلل. تذكر اركادي مربيته يغوروفنا فتنهد وتمنى لها النعيم في الآخرة... ولكنه لم يبتهل من أجل نفسه.

سرعان ما اكتنفه الكرى هو وبازاروف. بيد أن الآخرين في الدار لم يراودهم النعاس امداً طويلاً. كانت عودة الابن قد هيجت مشاعر نيكولاي بتروفيتش فاضطجع على سريره دون أن يطفي الشموع واطال



التفكير مسندا رأسه بيده. أما أخوه فقد تجاوز منتصف الليل بوقت طويل وهو جالس على مقعد وثير واسع في مكتبه امام المدفأة الحائطية التي كان الفحم الحجري يستعر فيها بخفوت. لم يخلع بافل بتروفيتش ملابسه، سوى أنه استبدل جزمته الواطئة اللماعة بصندل صيني أحمر مكشوف المؤخرة. امسك بآخر عدد من (غالينياني)[٧]، ولكنه لم يقرأه كان يحدق في المدفأة حيث يرتعش اللهب الازرق مندلعاً تارة وخافتاً تارة أخرى...

الله يعلم أين تحوم افكاره المركزة، ولكنها لم تكن تجوب الماضي وحده: فقد كانت تقاطيع وجهه عابسة مكفهرة، الأمر الذي لا يحدث عندما ينشغل بال المرء بالذكريات وحدها. أما في الغرفة الخلفية الصغيرة فقد جلست على صندوق كبير أمرأة شابة، هي فينيتشكا، في بلوزة زرقاء ومنديل أبيض يغطي شعرها الفاحم. كانت تارة تتسمع، وتارة تغفو، وتارة تنظر إلى الباب المنفرج عن سرير صغير فيه طفل نائم تتهادى أنفاسه خفيفة رتيبة.

٥

في صباح اليوم التالي استيقظ بازاروف قبل الآخرين وخرج من الدار. تطلع حواليه وفكر في نفسه: «أها! هذه الأماكن يعوزها الجمال». عندما فصل نيكولاي بتروفيتش ارضه من أراضي فلاحيه اضطر إلى انشاء الضيعة الجديدة على بقعة مستوية عارية تماماً مساحتها زهاء أربعة هكتارات، فبنى داراً ومنشآت للخدمة ومزرعة، وغرس بستانا وحفر بركة وبئرين، إلا أن الشجيرات الغضة لم تزدهر بالشكل اللازم، وتجمعت في البركة

---

(٧) في الأصل Galignani. وهي جريدة يومية لبرالية أسسها جوفاني غالينياني وصدرت بالانجليزية في باريس اعتباراً من عام ١٨١٤ – المترجم.

ميـاه قليلة جداً، وكان طعـم ماء البئرين مالحاً بعضـ الشيء. و لم تنم كما يجـب إلا تعريشة الاستراحة المكونة من الليـلاك والاقاصيا، حيث كانوا يحتسون الشاي ويتناولون طعـام الغداء أحياناً. جاب بازاروف في بضع دقائـق جميع مماشي البستان ومر بزريبـة الماشية والاسطبل وصادف اثنين مـن أبناء الخدم فتحدث معهما وأخذهما علـى الفور إلى المستنقع الصغير الواقع على بعد كيلومتر عن الضيعة بغية تصيد الضفادع.

فسأله أحد الولدين:

– ما حاجتك إلى الضفادع يا سيدي؟

فأجـاب بـازاروف الذي يجيد علـى نحو خاص كسـب ثقة الناس الادنى منه رغم استهانته بهم وعدم تسامحه معهم اطلاقاً:

– أننـي أشرّح الضفدعـة واراقب ما يجري في داخلهـا، وبما اننا، أنا وأنت، نفس الضفادع بفارق واحد هو أننا نسير على رجلين اثنتين فأنني سأعرف ما يجري في داخلنا أيضاً.

– وما فائدة ذلك؟

– كيلا أخطئ عندما تمرض أنت واضطر أنا لمعالجتك.

– أنت دختور؟

– نعم.

– هل أنت سامع يـا فاسكا؟ السيد يقول أننا والضفادع شيء واحد. يا للغرابة!

– أنـا أخاف منها، مـن الضفادع – قال فاسكا، وهو طفل في حوالي السابعـة حافي القدمـين بقميصه القوزاقـي الرمادي ذي الياقـة المنتصبة وشعره الابيض كالكتان.

– لماذا تخاف منها؟ فهل تعض؟

– هيا، أدخلا الماء أيها الفيلسوفان!

في تلـك الأثنـاء استيقظ نيكـولاي بتروفيتش هو الآخـر وتوجه إلى اركادي فوجـده مرتدياً ملابسه. خرج الاب وابنـه إلى الشرفة المحجوبة بالستـارة. وعلى المائدة قـرب الدرابزون كان السمـاور يغلي بين باقات كبيرة من الليلاك. حضرت نفس البنت التي كانت بالامس أول من استقبل القادمين في المدخل وقالت بصوت رفيع:

– فينيتشـكا متوعكة، ولا تستطيـع الحضور. وطلبت أن استفسر هل يروق لكم أن تصبوا الشاي بأنفسكم أم يجب ارسال دونياشا لتصبه؟

– سأصبه بنفسـي، بنفسي – أجاب نيكولاي بتروفيتش على عجل.
– أي شاي تحب، يا اركادي، بالقشدة أم بالليمون؟

– بالقشـدة – أجاب اركادي ثم قال متسائلا بعد لحظة صمت: – يا ابتي...

ألقى نيكولاي بتروفيتش نظرة حائرة على ابنه وقال:

– ماذا؟

غض اركادي بصره وطفق يتكلم:

– اعـذرني، يا ابتي، إذا بدأ لك سـؤالي في غير محله. ولكن صراحتك بالامس تحملني على أن أكون صريحا... أفلا تزعل مني؟..

– تكلم.

– أنت تجعلني أجتاسر على أن اسألك... أليس السبب في عدم حضور فيني... أليس السبب في عدم حضورها لتصب الشاي هو وجودي أنا؟

اشاح نيكولاي بتروفيتش بوجهه قليلا، ثم قال أخيرا:

– ربما أنها تتصور... أنها تخجل...

داهم اركادي اباه بنظرة سريعة وقال:

– لا داعي للخجل. فأنت تعرف، أولاً، طراز تفكيري (كان اركادي مسروراً كل السرور لتلفظ هذه الكلمات). وثانياً – هل اريد أنا، يا ترى، أن أضيق على حياتك وعلى عاداتك قيد شعرة؟ ثم أنني واثق من أنك لا يمكن أن تختار السوء. فطالما سمحت لها بأن تعيش معك تحت سقف واحد فذلك يعني أنها تستحقه. وعلى كل حال فالابن ليس بحاكم على ابيه، وخصوصاً إذا كان الابن مثلي وإذا كان الاب مثلك أنت الذي لم تضيق على حريتي قيد انملة.

كان صوت اركادي يرتجف في بادئ الأمر. فقد أحس بشعور من التسامح والنبل، ولكنه ادرك في الوقت ذاته بأنه يتلو على ابيه ما يشبه الموعظة. إلا أن صوت المرء يؤثر عليه تأثيراً شديداً. ولذا تلفظ اركادي الكلمات الاخيرة بصلابة، بل وعلى نحو مؤثر. فقال نيكولاي بتروفيتش بصوت خافت، وراحت اصابعه من جديد تفرك حاجبيه وجبهته:

– شكراً لك، يا اركاشا. تصوراتك صائبة حقا. فلو لم تكن هذه البنية جديرة، طبعا... ذلك ليس نزوة عابرة. وليس من السهل علي أن اتكلم معك بهذا الخصوص، ولكنك تفهم جيداً أن من الصعب عليها أن تأتي بحضورك، وخصوصا في اليوم الأول من وصولك.

– اذن فسأذهب إليها بنفسي – هتف اركادي بنفحة جديدة من المشاعر النبيلة وقفز من كرسيه – وسوف ابين لها أن لا داعي للخجل مني.

نهض نيكولاي بتروفيتش هو الآخر وطفق يقول:

– اركادي، أرجوك... لا تفعل ذلك... فأنا لم...

بيد أن اركادي لم يسمعه، فقد ترك الشرفة راكضاً. لاحقه نيكولاي بتروفيتش بنظراته ثم هوى على الكرسي خجلا. خفق قلبه... ومن

الصعب التأكيد بأنـه تصور في تلك اللحظة غرابة العلاقات المرتقبة حتماً بينه وبين ابنه، أو أنه ادرك بأن اركادي ربما قدم له المزيد من الاحترام لو أنه لم يتنـاول هذه القضية بتاتاً، أو أنه لام نفسه على ضعفها وخورها. كانت جميع هذه المشاعر تعتمل في دخيلته، ولكن بشكل أحاسيس تكاد تكون غامضة، بينما الاحمرار لا يزايل وجهه، ولا يزال قلبه يخفق.

تهـادت خطوات مستعجلة. دخل اركادي الشرفة تعلو وجهه مسحة من الطيبة والحنان وهتف منتصراً:

– لقـد تعارفنا، يا والدي! وهي متوعكة حقاً اليوم وسوف تأتي فيما بعـد. ولكن لم لم تخبرني بـأن لدي أخا؟ لكنت قد قبلتـه مساء أمس كما قبلته الآن.

أراد نيكولاي بتروفيتش أن يقول شيئاً وأن ينهض ويفتح يديه ليحتضن ابنه... ولكن اركادي اندفع إليه يعانقه.

– مـا هـذا؟ هل تتعانقان مـن جديد؟ – دوى وراءهمـا صوت بافل بتروفيتش.

فرح الاب والابن بقدر واحد لظهوره في هذه اللحظة. فهناك حالات مؤثرة بود المـرء أن يتخلص منها مع ذلك باسرع ما يمكن. فقال نيكولاي بتروفيتش مرحاً:

– ما الذي يثير دهشتك؟ لقد طال انتظاري لاركاشا... ولم اشبع من التطلع إليه نهار أمس.

فقال بافل بتروفيتش:

– لست مندهشاً اطلاقاً. فأنا نفسي لا أمانع في معانقته.

اقـترب اركادي من عمه واحس من جديد بلمسات شاربيه الفواحين على خديه. جلس بافـل بتروفيتش إلى المائدة. وكان يرتدي بدلة صباحية

انيقـة على النمط الانجليزي، وطربوشاً صغـيراً يزهو على رأسه. كان هذا الطربوش وربطة العنق المعقـودة بلا اعتناء ينمان عن طلاقة الحياة الريفية. بيد أن الياقة المنتصبة لقميصه الملون، كما يتطلب زي الصباح، قد انغرزت بلا رحمة. كالمعتاد، في ذقنه الحليق، وسأل العم من ابن اخيه:

– ابن صديقك الجديد؟

– خـرج. فهو يستيقظ مبكـراً ويتجول عادة. المهم أن لا تلتفتوا إليه. فهو لا يحب الرسميات.

– أجـل، لاحظت ذلـك. وهل سيبقـي عندنا طويلاً؟ – سـأل بافل بتروفيتش وبدأ يضع شيئاً من الزبدة على قطعة خبز دون استعجال.

– حسب الظروف. فقد عرج علينا في طريقه إلى ابيه.

– أين يقيم ابوه؟

– في مقاطعتنـا، على بعد ثمانين كيلومتراً من هنـا تقريباً. لديه هناك ضيعة غير كبيرة. وقد خدم في السابق طبيباً في أحد الافواج.

– أها... ذلك، اذن، ما جعلني اسائل نفسي أين سمعت بهذا اللقب: بـازاروف؟.. يـا نيكولاي، أتذكر أن طبيباً لقبه بـازاروف كان يخدم في فرقة ابينا، أليس كذلك؟

– أجل، أظن...

– بالضبـط. يعنـي أن ذاك الطبيـب هـو أبـوه، احـم! – مسد بافل بتروفيتشـ شاربيه ثم سأل ممططاً كلامه: – ولكن من هو السيد بازاروف نفسه يا ترى؟

– تسـأل مـن هو بـازاروف؟! – قال اركادي وانفرجـت شفتاه عن ابتسامة خبيثة – هل تريد، يا عمي العزيز، أن أخبرك من هو بازاروف؟

– اعمل معروفاً يا ابن اخي.

– أنه نهلستي.

– ماذا؟ – سأل نيكولاي بتروفيتش، بينما رفع بافل بتروفيتش سكينه وعلى طرفها الزبدة وظل على هذه الحال دون حراك. فكرر اركادي قائلاً:

– نهلستي.

فقال نيكولاي بتروفيتش:

– مصطلح نهلستي، على ما أظن، مشتق من الكلمة اللاتينية نيهيل «nihil»، أي لا شيء، عدم. وبالتالي فأن هذه الكلمة تعني إنساناً يرفض كل شيء، أليس كذلك؟

– الاصح: لا يحترم شيئاً – عقب بافل بتروفيتش وتابع وضع الزبدة على الخبز، فقال اركادي:

– أنه الإنسان الذي يعالج كل شيء من وجهة نظر انتقادية.

– أفليس ذلك سواء؟ – سأل بافل بتروفيتش؟

– كلا، ليس سواء. فالنهلستي هو الإنسان الذي لا يطاطئ رأسه أمام أية شخصية مرموقة ولا يتقبل أي مبدأ دون تمحيص مهما كان الاحترام الذي يحظى به ذلك المبدأ.

– ثم ماذا؟ فهل ذلك شيء حسن؟

– هذا أمر يتوقف على الاشخاص، يا عمي، فهو قد يعود على البعض بالخير وقد ينقلب على البعض الآخر شراً مستطيراً.

– هكذا اذن. هذا أمر لا يعنينا، على ما اعتقد. فنحن أبناء الجيل السابق نتصور أن من المستحيل القيام بخطوة واحدة أو حتى مجرد التنفس بدون المبادئ، المبادئ المقبولة، كما تقول، بدون تمحيص،

(ولكنكم غيرتم ذلك كله)(٨)، «الله يعطيكم العافية ورتبة جنرال». أما نحن فسوف نتطلع إليكم مغرمين بكم أيها السادة الـ... لا أدري كيف تنطقون هذه الكلمة؟

– ... النهلستيون، – قال اركادي بوضوح.

– أجل. في السابق كان هناك الهيجليون، أما اليوم فقد ظهر النهلستيون. فلنر كيف ستعيشون في الفراغ الخالي من الهواء. أما الآن فدق الجرس رجاء، يا أخي نيكولاي، فقد حان موعد احتساء الكاكاو.

دق نيكولاي بتروفيتش الجرس وصاح: «دونياشا!». ولكن فينيتشكا نفسها ظهرت في الشرفة بدلاً من دونياشا. كانت امرأة غضة في حوالي الثالثة والعشرين من العمر. ناصعة البشرة بشعر فاحم وعينين سوداوين وشفتين حمراوين ممتلئتين كشفاه الأطفال ويدين رقيقتين. كانت ترتدي بدلة قطنية أنيقة. وكان منديل ازرق جديد قد استقر خفيفاً على كتفيها المكورتين. حملت قدحاً كبيراً من الكاكاو فوضعته أمام بافل بتروفيتش واعتراها الحياء كلياً: فنضح الدم الساخن كالموجة القانية على محياها المليح الرقيق. غضت بصرها وتوقفت قرب المائدة مستندة إليها باطراف أصابعها، وكأنما شعرت بأن مجيئها أمر مخجل، ولكنها في الوقت ذاته تتصور بأن لها الحق في أن تحضر.

قطب بافل بتروفيتش حاجبيه بصرامة، بينما ارتبك نيكولاي بتروفيتش، ثم قال الأول بصوت خافت:

– مرحباً، فينيتشكا!

– مرحباً يا سيدي، – اجابته بصوت خفيض رنان، ثم خرجت

---

(٨) في الأصل بالفرنسية Vous avez change tout cela.

بهدوء وهي تسترق النظر إلى اركادي الذي ابتسم لها بود. كانت تسير متمايلة بعض الشيء، ولكن ذلك لم يكن يعيبها.

ساد الصمت الشرفة لحظات. وكان بافل بتروفيتش يرتشف الكاكاو، ثم رفع رأسه فجأة وقال بصوت يكاد يكون همساً:

– ها هو النهلستي قادم.

بالفعل كان بازاروف يسير في الحديقة متخطياً جنينات الزهور. كان معطفه القطني وسرواله ملطخين بالاوساخ، وقد علقت نبتة من نبتات المستنقع بقبعته المستديرة العتيقة فطوقت اسطوانتها. كان يحمل بيده اليمنى كيساً صغيراً تهتز داخله كائنات حية، اقترب من الشرفة بسرعة وحنى رأسه قائلا:

– مرحبا أيها السادة. معذرة لتأخري عن الفطور. سأضع هؤلاء الاسيرات في أماكنهن واعود في الحال.

– ما هذا؟ أهو علق؟ – سأل بافل بتروفيتش.

– كلا. ضفادع.

– أتأكلها، أم تربيها؟

– استعملها في التجارب، – قال بازاروف في غير اكتراث وذهب إلى الدار. فعقب بافل بتروفيتش:

– سيشرحها. يؤمن بالضفادع ولا يؤمن بالمبادئ.

القى اركادي نظرة آسفة على عمه، فهز نيكولاي بتروفيتش كتفيه خلسة. وادرك بافل بتروفيتش نفسه بأن نكتته غير موفقة فحول مجرى الحديث إلى المزرعة وطفق يتكلم عن وكيلها الجديد الذي جاءه أمس يتشكى من العامل «الازعر» فوما لأنه لا يطيع أحدا، وقال عنه الوكيل: «سيعيش ويقضي نحبه في غباوة مثل ايسوب الذي ساءت سمعته في كل مكان».

٦

عاد بـازاروف. جلس إلى المائدة وشرع يحتسـي الشاي باستعجال. تطلع إليه كلا الاخوين بصمت، بينما راح اركادي ينقل نظراته خلسة بين ابيه وعمه. وأخيراً سأل نيكولاي بتروفيتش:

– هل قطعت مسافة طويلة؟

– هنـاك مستنقـع قـرب اجمة الحور. وقـد رأيت خمسـة من طيور البكاسين، بوسعك أن تصادها يا اركادي.

– حضرتك ليس صياداً؟

– كلا.

– أنت تدرس الفيزياء، اليس كذلك؟ – سأل بافل بتروفيتش بدوره.

– أجل الفيزياء، بل العلوم الطبيعية على العموم.

– يقال أن الجرمن تفوقوا كثيراً في هذا الميدان خلال الآونة الأخيرة.

– أجل، الالمان أساتذتنا في ذلك – اجاب بازاروف بلا اكتراث.

استخدم بافل بتروفيتش كلمة «الجرمن» بدلا من «الالمان» للسخرية، ولكن أحداً ما لم يلاحظ ذلك.

– هـل تكن كل هذا الاحترام للالمان؟ – قـال بافل بتروفيتش بتبجيل متكلـف. فقد أخذ يشعر بانزعاج خفي، إذ أن استهانة بازاروف المتمادية ولـدت تذمـراً في طبعـه الارستقراطـي. فأن ابـن الطبيب هـذا لم يشعر بالخجـل، بل وأجاب على نحو متقطـع، دون رغبة، بصوت يشوبه شيء من الخشونة التي تكاد تقرب من الوقاحة.

– العلماء هناك إناس حاذقون.

– هكـذا، اذن. أمـا بخصوص العلماء الروس فليس لديك، على ما يبدو، مثل هذا الاطراء، أليس كذلك؟

– أخشى أن يكون الأمر كذلك..

– هذا نكران ذات يستحق أكبر قدر من المديح – قال بافل بتروفيتش وهـو يعـدل قامته ويميل برأسـه إلى الوراء – ولكن كيف قـال لنا اركادي نيكولايفيتش قبل قليل أنك لا تعترف بأية شخصيات بارزة ولا تؤمن بها؟

– ما الذي يجعلني اعترف بها؟ وما الذي أؤمن به؟ عندما يعرض علي شيء معقول أوافق عليه، هذا كل ما في الأمر.

– وهـل يعرض جميع الالمـان شيئا معقولا؟ – سـأل بافل بتروفيتش واكتسـى وجهه بتعبير لا ابالي هائم كما لو كان قـد حلق كلياً إلى ما وراء السحب.

– ليس جميعهم، – اجاب بازاروف بتثاؤبة قصيرة دلت على أنه ليس راغباً في مواصلة الجدل الفارغ.

القـى بافـل بتروفيتش نظـرة علـى اركادي وكانما يريـد أن يقول له: «صديقك مهذب حقا!»، ثم قال من جديد بشيء من الجهد:

– أمـا أنـا فخطيئتي هـي أني لا أخلـع النعوت على الالمـان. وما من داع للـكلام عن الالمان الروسيين: فالـكل يعلمون أي نوع من البشر هم. ولكننـي لا استسيغ الالمان الالمانيين أيضـاً. فالقدماء منهم كانوا يصلحون لشـيء، عندما كان لديهم، مثلا، شيلرّ وغوته... واخي نيكولاي معجب بهما خصوصاً. أما الآن فليس هناك غير الكيماويين والماديين...

– الكيمـاوي الحـاذق أفضـل بعشريـن مرة مـن أي شاعـر – قاطعه بـازاروف. فقال بافل بتروفيتش رافعاً حاجبيه قليـلاً وكأنما ينوي أن يغط في النوم:

– هكذا، يعني أنك لا تعترف بالفن؟

– فن اكتساب المال، أو خير طريقة لعلاج البواسير! – هتف بازاروف بضحكة ساخرة مستهينة.

– هكـذا اذن، هكذا تتفضل بالتنكيت. يعنـي أنك ترفض كل شيء. ولا تؤمن إلا بالعلم. أليس كذلك؟

– اخبرتـك بـأني لا أؤمن بشيء. والعلم، ما هـو العلم عموماً؟ هناك علـوم مثلما هناك صنائع والقاب. أمـا العلم عموماً فهو غير موجود على الاطلاق.

– حسنـا جداً. ولكن مـاذا بخصوص القواعد الأخـرى المقبولة في حياة الناس؟ هل تلتزم بنفس هذا التجاه السلبي ازاءها؟

– مـا هذا، أهـو استجواب؟ – سـأل بازاروف. فشحـب لون بافل بتروفيتش بعض الشـيء... ورأى نيكولاي بتروفيتش أن من واجبه أن يتدخل في الحديث:

– سـوف نتحـدث معك يا عزيـزي يفغينـي فاسيليفيتش فيما بعد بتفصيل أكبر حول هذا الموضوع. وسوف نطلع على رأيك ونعرض رأينا. ومن ناحيتي فأنا مسرور جـداً لدراستك العلوم الطبيعية. سمعت أن ليبيغ اجرى اكتشافا مدهشـا بخصوص تسميد الحقول. ويمكنك أن تساعدني في اعمالي الزراعية: فبوسعك أن تقدم لي نصيحة نافعة ما.

– أنـا في خدمتـك، يا نيكـولاي بتروفيتش. ولكن شتـان بيننا وبين ليبيـغ! يتعين في البداية تعلم الابجدية ثم تناول الكتاب. أما نحن فلا نزال غارقين في لجة الجهل.

«يـدو أنك نهلستي حقاً» – فكر نيكـولاي بتروفيتش في نفسه، ثم أضاف قائلاً:

– ومع ذلك اسمح لي أن استعين بك عند الاقتضاء. أما الآن، يا بافل، فقد حان الوقت، على ما اعتقد، للتداول مع وكيل المزرعة.

نهض بافل بتروفيتش من كرسيه وقال دون أن ينظر إلى أحد:

– مـا اتعس أن يعيش المـرء خمس سنوات في القرية بعيداً عن العقول العبقريـة! فهـو يصبح أكثر بـلادة. أنه يحـاول أن لا ينسى مـا تعلمه في الماضـي، وعلى حين غرة يتضح له أن كل ذلك هراء، فيقال له أن الاذكياء لم يعـودوا يدرسون مثل هذه السخافـات وأنه هو مجرد طرطور متخلف. فما العمل؟! يبدو أن الشباب اذكى منا حقاً.

استدار بافل بتروفيتش ببطء على كعبيه وخرج متباطئاً فتبعه نيكولاي بتروفيتـش. وحالما اغلـق الباب بعد خروج الاخوين سـأل بازاروف من اركادي ببرود:

– ماذا؟ هل هو على هذه الشاكلة دوماً؟

– فقال اركادي:

– اسمع، يا يفغيني، تحدثت معه بخشونة بالغة. لقد اهنته.

– فهـل يتعين عليّ أن اداريهم، هـؤلاء الارستقراطيين الريفيين؟! كل ذلك مجرد خيلاء وحماقة وعادات السباع. الاحرى به أن يتابع مهمته في بطرسبـورغ ما دام على هذه الطبـاع... آ. ما لنا وله، فلنتركه وشأنه. هل تعلـم؟ لقد عثرت على نوع نادر جـداً من الجعلان العوامة: «ديتيسكوس مارغيناتوس»[٩]. سأريك أياه:

فقال اركادي:

– وعدتك أن احكي لك قصته.

---

(٩) في الأصل باللاتينية Dytiscus marginatus.

– قصة الجعل؟

– كفـى، يا يفغيني. قصة عمي. وسترى أنه ليس بذلك الإنسان الذي تتصوره. أنه يستحق الرثاء أكثر مما يستحق السخرية.

– لا أشك في ذلك. ولكن لماذا تشغل بالك به إلى هذا الحد؟

– كن منصفاً يا يفغيني.

– وما الداعي لذلك؟

– كلا، اسمعني...

وقص عليه اركادي قصة عمه التي يجدها القارئ في الفصل التالي.

٧

تلقى بافـل بتروفيتش كيرسانـوف تعليمه في المنـزل أول الأمر، شأنه شـأن اخيه الاصغر نيكولاي، ثم في «سلك الوصفاء». وكان منذ طفولته يتمتـع بجمال رائـع. زد على ذلك أنـه كان معتداً بنفسـه وساخراً بعض الشيء وحاد الطبع بشـكل يثير الضحك أحياناً. ولذا كان لا بد أن يروق للآخرين. حالما تخرج ضابطاً أخذ يظهر في كل المحافل. كان يحمل على الاكـف، ويـداري نفسه لحد الحماقة، بل ويتدلـل ويتغنج، وما كان ذلك ليعيبـه بشيء. فقد كانـت النساء مفتونات به لحد الجنـون، وكان الرجال ينعتونه بالمتألق ويحسدونـه في سرهم. عاش، كما ذكرنا، في منزل واحد مـع اخيه الذي أحبـه حباً صادقاً، مع أنه لم يكـن يشبهه بشيء. نيكولاي بتروفيتشـ ضئيل القـوام يعرج قليـلاً، وعيناه السوداوان غـير الواسعتين جميلتـان ولكنهما حزينتان بعض الشيء وشعره خفيف ناعم. كان يهوى الكسل، ولكنه يهوى المطالعة أيضاً ويخشى الظهور في المحافل. أما بافل بتروفيتشـ فلم يصـرف ولا أمسية واحدة في المنزل، وقـد اشتهر بالبسالة واللباقة (فهو الذي جعل الجمباز موضة لدى شباب المجتمع الراقي)، و لم

يقرأ غير خمسة أو ستة كتب فرنسية. وفي عامه الثامن والعشرين أصبح ضابطاً برتبة رائد تنتظره أفضل المناصب. ولكن كل شيء تغير فجأة.

في ذلك الحين كانت تظهر في مجتمع بطرسبورغ الراقي من حين لآخر امرأة لم يطوها النسيان حتى الآن. وهي الأميرة ر. كان لديها زوج مهذب مؤدب، ولكنه على شيء من الغباوة، و لم يكن لديها أطفال. كانت تسافر إلى الخارج فجأة، وتعود إلى روسيا فجأة. وعلى العموم كانت غريبة الاطوار، تعيش حياة متميزة. اشتهرت بأنها امرأة لعوب تنغمر بولع كبير في مختلف أنواع الملذات، وترقص حتى الاغماء، وتقهقه وتنكت مع الشباب الذين تلتقيهم قبيل الغداء في غرفة استقبال شبه معتمة. أما في الليل فكانت تنتحب وتصلي، فلا يقر لها قرار، وغالباً ما تظل حتى الصباح تجوب الغرفة جيئة وذهاباً، غارقة في لجة الكآبة، أو تنكب، شاحبة باردة، على سفر المزامير. وحالما يحل النهار تتحول من جديد إلى واحدة من نساء المجتمع الراقي، وتتنقل وتضحك وتثرثر من جديد وكأنما تندفع لملاقاة كل ما يمكن أن يوفر لها ادنى قدر من التسلية. كانت ذات قوام مدهش. ضفيرتها الذهبية اللون الثقيلة كالذهب تتدلى إلى أسفل الركبتين. ولكنه ما من أحد بوسعه أن يطلق عليها نعت الحسناء، فلم يكن في محياها شيء جميل غير عينيها، وليس عيناها بالضبط - فهما رماديتان غير واسعتين - بل نظرتهما السريعة العميقة اللامبالية حتى البسالة والمتأملة حتى الكآبة - أنها نظرة كلها الغاز. كان شيء ما مدهش يضوء في هذه النظرة حتى عندما تتفوه هي باتفه الالفاظ. وكانت ملابسها على قدر كبير من الاناقة. صادفها بافل بتروفيتش في احدى السهرات ورقص معها المازوركا، فلم تقل طوالها ولا كلمة واحدة ذات شأن، ووقع في هواها بشدة وعنف. وسرعان ما حقق هدفه هذه المرة أيضاً وهو الذي تعود على الانتصارات. إلا أن سهولة الفوز لم تخفف من غلوائه. على العكس، فقد تعلق تعلقاً أشد وأكثر مضضاً بهذه المرأة التي ظل فيها، على ما يبدو، شيء منشود

بعيـد المنال لم يتوصل إليه أحد، حتى عندما تستسلم كلياً. ولا يعلم إلا الله بمـا كان يعشش في هذه الروح! لقد بدت وكأنها أسيرة قوى خفية مجهولة بالنسبة لها نفسها، قوى تتلاعب بها يحلو لها. وما كان بوسع ذكائها غير المفـرط أن يسيطر علـى نزوات تلك القـوى. كان سلوكها بمجمله عبارة عن طائفـة من الحماقات. فالرسائـل الوحيدة التي يمكـن أن تثير شكوك زوجها بحق هي رسائل كتبتهـا إلى شخص غريب عليها تقريباً، أما حبها فـكان ينضح حزنا: لم تعـد تضحك وتمزح مع الـذي اختارته، وصارت تستمع إليه وتحدق فيه متحيرة. وكانت تلك الحيرة تتحول أحياناً، بصورة مفاجئـة على الاغلب، إلى رعـب بارد، فيكتسي وجههـا بتعبير وحشي مـوات، وتنطوي علـى نفسها في غرفة النوم فتغلقهـا وتجهش في نحيب مخنـوق بوسع الوصيفة أن تستمع إليه عندما تلصق اذنها بقفل الباب. كان كيرسانوف، حينما يعـود إلى منزله بعد لقاءات الغرام، يحس مراراً بكآبة مـرة كالتي تعتصر القلب وتمـزق نياطه عادة بعد الاخفـاق المطبق. وكان يسائل نفسه: «ماذا اريد أكثر من ذلك؟». ولكن الكآبة تعتصر قلبه. وذات مرة أهداها خاتما نحت أبو الهول الاسطوري على فصه. فسألته:

– ما هذا؟ أبو الهول؟

– أجل. وهو أنتِ.

– أنـا؟ – سألته واحتوته على مهل بنظرتها المليئة بالالغاز. ثم اضافت بسخريـة غـير متمادية، وظلـت عيناها تسلطـان عليه نفس تلك النظرة الغريبة:

– ألا تتصور أن ذلك اطراء بالغ؟

كان الأمـر صعبـاً على بافل بتروفيتشـ حتى عندما احبتـه الاميرة ر. ولكنـه كاد يجن عندما خفت حبها لـه عاجلاً. كان يتعذب ويغار عليها، ويلاحقها في كل مـكان ولا يتركها تذوق طعم الهدوء، حتى سئمت من

لجاجتـه وملاحقاته فسافرت إلى الخارج. احال نفسه على التقاعد بالرغم من رجـاء اصدقائه ونصائح رؤسائه، ولحق بالامـيرة، فقضى أربعة أعوام في الغربـة تارة يطاردها وتارة يفلتها عمداً. وأخذ يشعر بالخجل من نفسه وصـار يكـره نفسه بسبب تخاذلـه... ولكن ما من شـيء كان بوسعه أن يعينـه. فقـد انغرزت في اعمـاق روحه حتـى الجذور صورتهـا الجذابة، الغامضة التي لا تكاد تنطوي على أي معنى. وفي بادن عادت علاقاتهما، ذات مـرة، إلى سابق عهدها. وخيل إليه أنها لم تكـن تحبه فيما مضى ابداً بنفسـ القدر الذي تحبه بـه الآن... ولكن ما أن مر شهـر حتى انهتى كل شـيء: فقد اندلع اللهيب للمرة الاخـيرة ثم انطفأ إلى الابد. وعندما ادرك حتمية الفراق الذي لا مفر منه اراد، على الأقل، أن يظل صديقاً لها وكأنما الصداقة مع مثل هذه المرأة أمر ممكن... غادرت بادن خلسة وصارت منذ ذلـك الحين تتحاشى كيرسانوف دوماً. أما هو فقد عاد إلى روسيا وحاول أن يعيش عيشته القديمة، ولكنه لم يعد قادراً على العودة إلى المجرى القديم. فـراح يطوف مـن مكان لآخر كمـن سلب عقله. كان لا يـزال يظهر في المحافـل ويحتفظ بجميع عـادات الشخص المنتمـي إلى المجتمع الراقي، وكان بوسعه أن يتفاخـر بانتصارين جديدين أو ثلاثة، ولكنه لم يعد ينتظر شيئـاً ذا شـأن لا من نفسه ولا من الاخريـن، ولم يتخذ أي اجراء يتستحق الذكر. داهمته الشيخوخة ووخط الشيب شعره. وصار يشعر بحاجة إلى قضاء الامسيات في النادي جالسـاً جلسته السوداوية المضجرة أو مناقشاً بـلا مبالاة في معشر العزاب، وتلك، كما هو معروف، دلالة سوء. بديهي أنه لم يكن يفكر في الزواج حتى مجرد تفكير. مضت على هذا النحو عشر سنـوات كالحة عقيمة، مضت بسرعة، بسرعة مرعبـة. فالوقت لا ينقضي في ايمـا مـكان بأسرع ممـا في روسيا. ويقـال أنه ينقضـي في السجن فقط بصـورة أسرع. ذات مـرة، أثناء الغداء في النادي، عـرف بافل بتروفيتش بوفـاة الاميرة ر. التي قضت نحبها في باريس في حالة تقرب من الجنون.

نهض من المائدة وأخذ يجوب غرف النادي طويلاً، وكان يتوقف مسمراً قرب المقامرين، ولكنه لم يعد إلى المنزل قبل الموعد المعتاد. وبعد حين من الوقت تسلم مظروفاً باسمه. كان في المظروف الخاتم الذي أهداه للاميرة. لقد رسمت على أبي الهول علامة صليب وامرت حامل المظروف بأن يقول له أن الصليب هو حل اللغز.

حدث ذلك في مطلع عام ١٨٤٨، في نفس الوقت الذي وصل فيه نيكولاي بتروفيتش إلى بطرسبورغ بعد وفاة زوجته. لم يكن بافل بتروفيتش قد تقابل مع اخيه منذ أن انتقل هذا إلى القرية: فقد وافق زفاف نيكولاي بتروفيتش الايام الأولى لتعرف بافل بتروفيتش على الاميرة. وعندما عاد من الخارج توجه إليه ناوياً البقاء عنده زهاء شهرين والاطلاع على حياته الهانئة، ولكنه لم يمكث لديه غير اسبوع واحد. فقد كان الفارق في أوضاع الاخوين كبيراً جداً. وفي عام ١٨٤٨ تقلص هذا الفارق: إذ فقد نيكولاي بتروفيتش زوجته وفقد بافل بتروفيتش ذكرياته. حاول بافل إلا يفكر بالاميرة بعد وفاتها. إلا أن نيكولاي ظل يحتفظ بشعور إنسان عاش الحياة على نحو صائب، فقد كان ابنه يترعرع أمام ناظريه. أما بافل فهو، على العكس، اعزب مستوحش وقد دخل مرحلة كالحة معتمة، مرحلة الندامة التي تشبه الآمال والآمال التي تشبه الندامة، حيث مضى الشباب، بينما لم تحل الشيخوخة بعد.

كانت هذه المرحلة أصعب على بافل بتروفيتش مما على أي شخص أخر: فعندما فقد ماضيه فقد معه كل شيء.

قال له نيكولاي بتروفيتش ذات مرة:

– لا ادعوك إلى مارينو (اطلق نيكولاي بتروفيتش هذا الاسم على قريته تكريماً لزوجته ماريا)، فعندما كانت المرحومة على قيد الحياة شعرت هناك بالضجر، أما الآن فسيكون ضجرك أشد على ما اعتقد.

فأجاب بافل بتروفيتش:

- كنت آنذاك لا ازال احمق متململا. أما الآن فقد هدأت، أن لم اقل صرت اذكى قليلاً. وأنا، على العكس، مستعد لاسكن عندك إلى الأبد، إذا سمحت.

وبدلاً من الجواب عانقه نيكولاي بتروفيتش. غير أن بافل بتروفيتش لم يشد العزم على تحقيق ما نواه إلا بعد عام ونصف من هذا الحديث. ولكنه عندما سكن القرية لم يغادرها حتى في فصول الشتاء الثلاثة التي قضاها نيكولاي بتروفيتش مع ابنه في بطرسبورغ. أخذ يطالع باللغة الانجليزية على الأكثر، بل وحول حياته كلها على النمط الانجليزي. صار نادراً ما يتقابل مع الجيران، ولا يغادر القرية إلا في الانتخابات حيث يصرف أغلب الوقت صامتاً، ما عدا بعض الحالات النادرة حيث يغيظ الاقطاعيين المتمسكين بالقديم ويخيفهم بالنزوات المتحررة دون أن يتقرب إلى ممثلي الجيل الجديد. وكان هؤلاء وأولئك يعتبرونه مغروراً معتداً بنفسه. بيد أن هؤلاء وأولئك كانوا يحترمونه لمسلكه الارستقراطي الممتاز وللاشاعات عن انتصاراته ولأنه مهندم على اروع ما يكون، ولأنه ينزل دوماً في أفضل الغرف في ارقى الفنادق، ولأنه على العموم لا يتناول إلا الاطعمة الفاخرة، حتى أنه تغدى ذات مرة مع ولنغتون عند لودفينغ فيليب، ويحترمونه لأنه كان يحمل معه في ترحاله وتجواله حقيبة فضية لادوات الزينة وحوض استحمام متنقلاً، ولأنه يتطيب بعطور «كريمة» مدهشة غير معتادة، ولأنه يلعب الهويست[١٠] بمهارة ويخسر فيه دوماً، وكانوا يحترمونه، أخيراً، لنزاهته التي لا تشوبها شائبة. وقد اعتبرته النساء ملنخولياً فاتناً، ولكنه ما عاد يعبأ بالنساء...

---

(١٠) ضرب من لعب الورق. المترجم.

وقال اركادي في ختام حديثه:

– أرأيت، يا يفغيني، كم أنت مجحف بحق عمي! ثم أنه انقذ أبي مراراً من المصائب واعطاه كل نقوده. وحتى الضيعة، وهذا أمر ربما لا تدري به، غير مقسمة بينهما. بل هو مستعد لمساعدة أي كان. وبالمناسبة فهو يلتزم جانب الفلاحين دوماً. لكنه، والحق يقال، يتقزز منهم ويتشمم الكولونيا عندما يتكلم معهم...

– أمر واضح: اعصاب – قاطعه بازاروف.

– ربما. ولكن قلبه في منتهى الطيبة. ثم انه ليس بليداً ابداً. فما اثمن النصائح التي قدمها لي... وخصوصاً... وخصوصاً في الموقف من النساء.

– طبعاً! من لدغته الافعى يخشى من جر الحبل. ليس ذلك جديداً علينا!

– خلاصة القول – واصل اركادي كلامه – أنه تعيس للغاية، صدقني. وأن احتقاره خطيئة.

– من يحتقره؟ – اعترض بازاروف – ولكنني أعتقد أن الإنسان الذي قامر بحياته كلها على حب امرأة وتكدر، عندما خسر المقامرة، فانحدر إلى درجة أصبح معها عاجزاً عن القيام بأي شيء ليس رجلاً وليس ذكراً. تقول أنه تعيس، فأنت أعرف به، ولكن الحماقة لم تفارقه كلياً. أنا واثق من أنه لا يمزح عندما يتصور نفسه إنساناً ذكياً طيباً لكونه يقرأ وريقة غاليينياني ويخلص الفلاحين مرة في الشهر من العقوبة الجسدية.

– ولكن تذكر تربيته والعصر الذي عاش فيه.

– ما شأن التربية؟ على كل فرد أن يربي نفسه بنفسه، كما فعلت أنا، مثلاً... أما العصر، فما الداعي لأن اكون تحت سلطته؟ فليكن هو تحت سلطتي. كلا، يا أخي، ما ذلك إلا استهتار وحماقة! ثم ما هذه العلاقات

الغامضة بين الرجل والمـرأة؟ أننا الفسلجيين نعرف ماهية تلك العلاقات. راجع تشريح العـين، فمن اين تنبع تلك النظرة المليئة بالالغاز، كما تقول؟ ما ذلك إلا رومانسية مصطنعة وهذر متعفن. الافضل أن نذهب لنتفحص الجعل.

وتوجـه الصديقان إلى غرفة بازاروف التي اكتنفتها، منذ أن حل فيها، روائح طيبة وجراحية ممزوجة بنفح تبغ رخيص.

٨

لم يبـق بافـل بتروفيتش طويـلاً أثناء التـداول بين اخيه ووكيـل المزرعة النحيـف الفـارع القامـة ذي العينين المراوغتـين والصوت العسلـي الشبيه بصوت المسلول. كان الوكيل يرد على جميع ملاحظات نيكولاي بتروفيتش بقولـه «طبعاً، يا سيدي، أمر معروف» ويحـاول أن يصور جميع الفلاحين سـكارى ولصوصاً. كانت المزرعة التي أصلحت على شاكلة جديدة مؤخراً تصر كعجلة بدون تشحيم وتتشقق كالاثاث المصنوع كيفما اتفق من خشب لم يجـف بعد. لم يكن نيكـولاي بتروفيتش يائساً، ولكنه كثيراً ما كان يتنهد ويتأمـل: فهو يعـرف أن الأمور لن تسير على ما يرام بدون مال، في حين أنه انفق جميع اموالـه تقريبا. وقد صدق اركادي عندما قال ان بافل بتروفيتش اعـان اخاه أكثر من مرة. فـأن بافل بتروفيتش الـذي رأى أخاه مراراً يشقى ويمعن التفكـير في كيفية تدبير الأمور ولو بشكل ما، كان يقترب من النافذة ببـطء ويدس يديـه في جيبيه ويقول بصـوت خافت: «استطيـع ان اعطيك مـالاً»[١١]، ويسلم المـال له بالفعل. لكنـه في ذلك اليوم لم يكـن لديه شيء مـن المال، ولذا فضل الانسحـاب. كانت المشاحنات بشـأن المزرعة تبعث

---

(١١) في الاصل بالفرنسية «Mais je puie vous donner de l’argent».

الغـم فيه، وكان يخيل إليه دوماً أن نيكـولاي بتروفيتش، بالرغم من حرصه ومثابرتـه، لا يديـر الامور كما يرام، مـع أن بافل بتروفيتش مـا كان بوسعه أن يشـير بالتحديد إلى خطأ أخيه. وكان يفكـر في نفسه: «ليس أخي عملياً بالقدر الكافي، فهم يخدعونـه». وكان نيكولاي بتروفيتش، على العكس، يقدر كل التقدير مواهب أخيه العملية وينشد لديه النصح دوماً. كان يقول: «أنا إنسان ضعيف لين، عشت عمري في الريف، أما أنت فقد عشت طويلاً مـع الناس. أنك تعرفهم جيداً ولديك نظرة صقر». وكان بافل بتروفيتش لا يرد على هذه الكلمات، بل يشيح بوجهه دون أن يبين لاخيه العكس.

تـرك بافل بتروفيتش اخاه في مكتبه وسار في الرواق الذي يفصل القسم الامامـي من الدار عن قسمها الخلفـي. وعندما وصل إلى باب واطئ توقف متفكراً ثم فتل شاربه وطرق الباب.

– من الطارق؟ ادخلوا – رن صوت فينيتشكا.

– أنا – أجاب بافل بتروفيتش وفتح الباب.

نهضـت فينيتشكا في الحال مـن الكرسي الذي كانـت جالسة عليه مع طفلها، وسلمت الطفل إلى فتاة خرجت به فوراً من الغرفة، وعدلت منديلها على عجل.

– معـذرة إذا كنـت قد ضايقتك – طفق بافـل بتروفيتش يتكلم دون أن ينظر إليها – أريد فقط أن أكلفك... سيذهب أحد ما إلى المدينة اليوم على ما اظن... اطلبي منه أن يشتري لي شاياً أخضر.

– سمعاً وطاعة يا سيدي – اجابت فينيتشكا – كم ترغبون أن نشتري؟

– نصف رطـل يكفي، باعتقادي – اجاب ثم أضاف بعد أن القى نظرة عاجلـة احاطت بمـا حواليه وانزلقت علـى وجه فينيتشكا أيضـاً – يبدو أن لديـك تغيرات هنـا. – واردف عندمـا رأى أن فينيتشـكا لم تفهمه – هذه الستائر مثلا.

– أجـل، هـذه الستائر، لقـد تفضل بهـا علينا نيكـولاي بتروفيتش. ولكنها معلقة منذ زمان.

– أنـا أيضاً لم ازرك منذ زمان. أمـا الآن فقد اصبحت غرفتك مريحة تماماً.

– بفضـل نيكولاي بتروفيتش – اجابت فينيتشكا همساً، فسألها بافل بتروفيتش بتأدب ولكن بدون ادنى أثر للابتسام:

– هل هنا افضل مما في الجناح السابق؟

– أفضل، طبعاً.

– ومن اسكنوا بذلك هناك؟

– الغسالات.

– اها!

لـزم بافل بتروفيتش الصمت. ففكرت فينيتشكا في نفسها: «سيذهب الآن». ولكنه لم يذهب، فظلت واقفة أمامه متسمرة تفرك اصابعها بخفة. إلى أن قال أخيراً:

– لماذا اعطيتها طفلك! أنا أحب الاطفال، احضريه لي.

احتقن محيا فينيتشكا من الحياء والسرور. كانت تخشى بافل بتروفيتش، فهو لم يكلمها ولا مرة تقريبا. فنادت دونياشا قائلة:

– احضـروا ميتيا (كانـت فينيتشكا تخاطب كل مـن في الدار بصيغة الجمع). لا بل تمهلوا: ينبغي أن البسه بدلة.

توجهت فينيتشكا نحو الباب، فبادرها بافل بتروفيتش:

– لا فرق.

– في الحال – اجابت فينيتشكا وخرجت برشاقة.

ظل بافـل بتروفيتش وحيداً، فاخذ يتلفت هذه المرة باهتمام خاص إلى

ما حواليه. كانت الغرفة الواطئة الصغيرة التي يقف فيها نظيفة ومريحة للغاية، تفوح فيها رائحة الارضية التي طليت مؤخراً ورائحة الاقحوان والنعناع. وعلى طول الجدران صفت كراس ذات مساند خلفية بشكل قيثارات، كان الجنرال الراحل قد اشتراها في بولندة ابان احدى الحملات، وفي ركن من الغرفة انتصب سرير صغير فوقه حجاب من الشاش، إلى جانب صندوق مرصع بالمسامير وذي غطاء محدب. وفي الزاوية المقابلة اشتعل قنديل أمام ايقونة معتمة كبيرة للقديس نيقولاي الذي تدلت بشريط احمر على صدره بيضة فرفورية صغيرة مثبتة إلى هالته. وعلى رفي النافذتين زجاجات مربى الموسم المنصرم مغلقة بعناية، ويتسرب من خلالها ضوء أخضر، وقد كتبت فينيتشكا على اغطيتها الورقية بحروف كبيرة «عنب الثعلب». نيكولاي بتروفيتش يحب هذا النوع من المربى خصوصاً. وكان قفص يتدلى بحبل طويل من السقف وفيه حسون قصير الذيل يشقشق ويتقافز بلا كلل، والقفص يهتز ويرتعش بلا انقطاع، وتقع حبات القنب على الارضية بنقر خفيف. وعلى الحائط بين النافذتين علقت، فوق الصوان، صور فوتوغرافية لنيكولاي بتروفيتش في وضعيات مختلفة، وهي صور سيئة التقطها مصور متجول. وإلى جانبها صورة لفينيتشكا غير موفقة ابدا، إذ لم يكن يلوح منها غير وجه بلا عينين يتسم ابتسامة متوترة في اطار معتم. وفوقها صورة يرمولوف في معطف فضفاض من اللباد، وهو يلقي نظرة عابسة رهيبة على جبال القوقاز البعيدة من تحت خف حريري للدبابيس علق فوقه وغطى جبهته كلها.

مرت خمس دقائق تقريباً. وكان يتهادى من الغرفة المجاورة حفيف وهمس. رفع بافل بتروفيتش من فوق الصوان كتاباً ملوثاً، هو أحد مجلدات رواية ماسالسكي «الرماة»، فتصفح عدة صفحات منه... فتح الباب ودخلت فينيتشكا تحمل ميتيا. كانت قد البسته قميصاً أحمر بشريط مقصب على الياقة، ومشطت شعره ومسحت وجهه: كان يتنفس

بصعوبة ويندفع بجسمه كله ويلوح بيديه الصغيرتين كما يفعل جميع الاطفال الاصحاء. بيد أن القميص الانيق أثر عليه، كما يبدو، فقد طفت على وجهه المنتفخ مسحة من الارتياح. وكانت فينيتشكا قد صففت شعرها هي أيضاً. ارتدت منديلاً أفضل. غير أنه كان بوسعها أن تظل كما كانت عليه. حقاً، فهل هناك اكثر جاذبية في الوجود من أم جميلة شابة مع طفل معافى؟

– يا لك من طفل ريان! – قال بافل بتروفيتش متساهلاً ودغدغ أسفل ذقن ميتيا بطرف ظفر سبابته الطويل. حدق الطفل في الحسون وابتسم.

– هذا عمك – قالت له فينيتشكا وقد مالت اليه بوجهها وهي تهزه هزة خفيفة، في حين وضعت دونياشا على رف النافذة بهدوء شمعة البخور المشتعلة والصقتها من الاسفل على قطعة نقد صغيرة. فسأل بافل بتروفيتش:

– كم شهراً بلغ يا ترى؟

– ستة شهور، وسيحل شهره السابع قريباً، في الحادي عشر.

– اليس الشهر الثامن؟ – تدخلت دونياشا بشيء من الاستحياء.

– كلا، السابع، كيف ذلك؟! – ابتسم الطفل من جديد وحدق في الصندوق ثم خطف انف امه وشفتيها فجأة باصابعه الخمس، فقالت فينيتشكا دون أن تبعد وجهها عن اصابعه: – مشاكس.

– يشبه اخي – لاحظ بافل بتروفيتش، ففكرت فينيتشكا في نفسها: «ومن عساه أن يشبه؟» فواصل بافل بتروفيتش كلامه وكأنه يخاطب نفسه:

– أجل، شبه لا شك فيه. – ثم القى على فينيتشكا نظرة متفحصة تكاد تكون حزينة.

– هذا عمك – كررت هي همساً هذه المرة. وفجأة تعالى صوت نيكولاي بتروفيتش:

– اها! بافل! ها قد وجدتك!

التفت بافل بتروفيتش باستعجال وتجهم وجهه، إلا أن اخاه نظر إليه بفرح وامتنان جعلاه يرد بابتسامة من كل بد. ثم قال متطلعاً في ساعته:

– طفلك رائع. أما أنا فقد عرجت إلى هنا بخصوص الشاي...

خرج بافل بتروفيتش من الغرفة في الحال وقد اكتسى وجهه بمسحة من اللامبالاة. فسأل نيكولاي بتروفيتش من فينيتشكا:

– هل جاء بنفسه؟

– بنفسه، يا سيدي، طرق الباب ودخل.

– واركادي، الم يزرك بعد تلك المرة؟

– كلا. إلا ينبغي أن انتقل إلى الجناح، يا نيكولاي بتروفيتش؟

– ما الداعي لذلك؟

– اعتقد أن ذلك سيكون أفضل الآن.

– كـ... كلا – قال نيكولاي بتروفيتش متلعثماً ومسح جبهته – كان ينبغي القيام بذلك قبل الآن... مرحباً، يا عزيزتي – قال بانتعاش مفاجئ واقترب من الطفل فقبله في وجنته، ثم انحنى قليلاً ومس بشفتيه يد فينيتشكا التي بدت بيضاء كالحليب على قميص ميتيا الاحمر.

– ماذا دهاكم، يا نيكولاي بتروفيتش؟! – همست وغضت بصرها، ثم رفعت عينيها بهدوء... كان رائعاً تعبير عينيها عندما تسلط نظراتها المنبعثة من تحت الجبين وتضحك بحنان وبشيء من البلادة.

تعرف نيكولاي بتروفيتش على فينيتشكا بالشكل التالي: ذات مرة اضطر قبل ثلاثة اعوام أن يصرف الليل في خان بمدينة صغيرة نائية. وقد سر ودهش لنظافة الغرفة التي خصصت له ولنظافة شراشف الفراش،

فخطـرت على باله فكرة: «لعل صاحبة الخان المانية». ولكنه اتضح له أن صاحبـة الخان امـرأة روسية في حوالي الخمسين من العمـر ترتدي فستاناً أنيقـاً وتتحلـى بمحيا ذكـي مليح ولهجة رزينـة. تحدث معهـا أثناء تناول الشـاي، فاعجب بها كثيراً. كان نيكولاي بتروفيتش آنذاك قد انتقل تواً إلى داره الجديـدة ومـا كان راغباً في ابقاء الاقنان معـه، فصار يبحث عن اجراء. وكانـت صاحبة الخان قد تشكت، بدورها، من قلة عدد القادمين إلى المدينـة ومن مصاعب الدهر، فاقترح عليها أن تشتغل لديه بمثابة مدبرة المنـزل، فوافقت. كان زوجها قـد توفى منذ زمان وترك لهـا بنتاً وحيدة هي فينيتشكا. وبعد زهاء اسبوعـين وصلت آرينا سافيشنا (وهذا هو اسم مدبـرة المنزل الجديدة) مع ابنتها إلى مارينـو وسكنت في الجناح. واتضح أن نيكـولاي بتروفيتش قد وفق في الاختيار، فقد رتبت آرينا شؤون الدار علـى ما يرام. أما فينيتشـكا التي تجاوزت آنذاك السابعـة عشرة من العمر فلـم يتكلم عنها احد ونادراً مـا كانت تُرى: فقد عاشت بهدوء وتواضع. وفي الآحـاد فقـط كان نيكولاي بتروفيتش يلاحـظ في زاوية ما من زوايا كنيسـة الابرشية جانباً مـن وجهها الابيض الرقيق. مـر أكثر من عام على هذا المنوال.

ذات صبـاح حضـرت آرينا إليـه في المكتب وانحنت، علـى عادتها، انحنـاءة شديدة ورجتـه أن يعالج ابنتها التي اصابتهـا شرارة من الفرن في عينها. كان نيكولاي بتروفيتش، شأنه شأن جميع الذين يلازمون منازلهم، قـد مارس العلاج، حتى أنه اقتنى صندوق ادوية منزلياً. أمر آرينا أن تحضر المصابـة فوراً. وعندما علمـت فينيتشـكا أن السيد يدعوهـا إليه اعتراها جبن شديد، ولكنهـا تبعت امها مع ذلك. اقتادها نيكولاي بتروفيتش إلى النافـذة وامسك رأسها بكلتا يديه. تفحص جيـداً عينها المتورمة المحمرة ونصـح باستخدام غسول اعـده بنفسه في الحال، ثم مزق منديله إلى عدة قطـع وبين لها كيف ينبغي غسل العين. استمعـت إليه فينيتشكا ثم همت

بالخروج، إلا أن آرينا قالت لها: «قبلي يد السيد، يا حمقاء». ولم يمد لها نيكولاي بتروفيتش يده، بل قبلها هو، مرتبكاً، في مفرق شعر رأسها المنحني. وسرعان ما شفيت عين فينيتشكا، ولكن الانطباع الذي تركته في نيكولاي بتروفيتش لم يمح بسرعة. كان يلوح في مخيلته دوماً ذلك الوجه النضير الرقيق المتطلع بشيء من الخوف. وقد احس تحت راحتي يديه بذلك الشعر الناعم، وشهد تينك الشفتين العذراوين المنفرجتين قليلاً عن اسنان لؤلؤية تلمع ندية في الشمس. صار يتطلع إليها في الكنيسة باهتمام أكبر ويسعى إلى التحدث معها. كانت في بادئ الأمر تتجنبه، وذات مرة لمحته، قبيل المساء، في درب ضيق شقه المارة عبر حقل الجودار، فاندست بين السنابل الكثيفة العالية المختلطة بالشيح وبازهار العنبر، كيلا تقع انظاره عليها. ولكنه لمح رأسها بين السنابل الذهبية وهي تتطلع كالوحش الصغير، فهتف برقة:

– مرحباً، يا فينيتشكا! أنا لا اعض.

– مرحباً. – همست دون أن تغادر كمينها.

وصارت تتعود عليه شيئاً فشيئاً، لكنها ظلت تشعر بالخجل في حضوره، إلى أن توفيت أمها بالكوليرا. فإلى أين تتجه فينيتشكا؟ لقد ورثت عن امها حب النظام والتعقل والرزانة. ولكن ما انضر فتوتها وما أشد وحدتها! وما أطيب نيكولاي بتروفيتش وما أكثر تواضعه! أما الباقي فلا داعي لذكره...

– دخل أخي عليك هكذا ببساطة؟ طرق الباب ودخل؟! – سألها نيكولاي بتروفيتش.

– أجل، يا سيدي.

– تلك بإدارة حسنة. أعطيني ميتيا كي الاعبه.

وأخذ نيكولاي بتروفيتش يقذفه حتى السقف تقريبا، مما أثار اشد المرح

لدى الطفل، كما أثار قدراً غير ضئيل من القلق لدى الام التي صارت تمد يديها نحو رجليه العاريتين في كل قذفة يتلقاها.

أمـا بافل بتروفيتش فقد عاد إلى مكتبه الانيق، إلى الجدران المزينة بورق جميـل ذي لـون غريب، وبسجـادة فارسية زاهية علقـت عليها أسلحة، والاثـاث الجـوزي المنجد بحريـر أخضر غامـق، والمكتبـة المصنوعة من خشـب البلوط الاسود القـديم (على طراز عصر النهضـة)[١٢]. والتماثيل البرنزية الصغيرة على طاولة الكتابة الرائعة والمدفأة الحائطية... ارتمى على الاريكـة واشبك يديه تحـت رأسه وظل جامداً ينظـر إلى السقف بما يشبه القنـوط. ولا أحد يعلم ما إذا كان يريـد أن يخفي حتى عن الجدران تلك المسحة التي طغت على وجهه أو ما إذا كان هناك سبب آخر جعله ينهض فيسدل الستائر الثقيلة على النوافذ، ثم يهوى على الاريكة من جديد.

٩

في نفسـ ذلك اليوم تعرف بـازاروف على فينيتشكا. كان يتجول مع اركادي في البستان ويبين له السبب الذي منع بعض الشجيرات المغروسة فيه، وخصوصاً البلوط، من أن تمد جذورها:

– ينبغي غرس المزيد من أشجار الحور الفضي والشوح، بل والزيزفون واضافة شيء من التربة الخصبة إليها. – ثم واصل كلامه قائلا: – لماذا نمت هـذه التعريشة جيداً؟ ذلك لأن الاقاصيا والليلاك شجيرات طيبة لا تحتاج إلى رعاية. عجباً، هناك أناس.

كانـت في التعريشـة فينيتشـكا ودونياشا وميتيا. توقـف بازاروف،

(١٢) في الاصل بالفرنسية Renaissance.

وحنى اركادي رأسه لفينيتشكا، كما يحنيه لشخص من معارفه القدامى. فسأله بازاروف حالما ابتعدا قليلا:

– من هذه؟ ما احلاها!

– عمن تتكلم؟

– ليس هناك غير واحدة حلوة.

اوضح له اركادي باختصار وبشيء من الارتباك من هي فينيتشكا. فقال بازاروف:

– اها! لابيك ذوق جيد على ما يبدو. أنه يعجبني، والله! يا له من مقدام! ولكن ينبغي أن أتعرف عليها – اضاف بازاروف واتجه عائداً نحو التعريشة. فصاح به اركادي مذعوراً:

– يفغيني! احذر، بالله عليك.

– لا تقلق. فنحن أناس محنكون، عشنا في المدن.

اقترب بازاروف من فينيتشكا فرفع قبعته وبدأ كلامه بانحناءة مؤدبة:

– اسمحي لي بأن اقدم نفسي: صديق اركادي نيكولايفيتش، وأنا إنسان وديع.

نهضت فينيتشكا من المقعد ونظرت إليه بصمت. فواصل بازاروف كلامه:

– ما أروع هذا الطفل! لا تقلقي فأنا لم أحسد أحداً بعد. لماذا احمرت وجنتاه إلى هذا الحد؟ هل بدأت اسنانه تنبت أم ماذا؟

– أجل، يا سيدي. – أجابت فينيتشكا – ظهرت لديه أربع أسنان، ولكن لثته تورمت من جديد.

– ناوليني اياه.... لا تخشي شيئا، فأنا طبيب.

أخـذ بـازاروف الطفل الذي لم يبـد أية مقاومة و لم يرتعـب، مما أثار دهشة فينيتشكا ودونياشا.

– هـا أنـا ذا ارى... لا بأس، كل شـيء على ما يـرام: سيكون حاد الأسنان. إذا حدث ما يسيء أخبريني. وأنت هل تشكين من شيء؟

– كلا، والحمد لله.

– الحمـد أفضل مـن اسواه. وأنـت؟ – اضاف بـازاروف ملتفتا إلى دونياشا.

اكتفت دونياشا، وهي فتاة عبوس في الدار وضحوك فيما عداها، بان انفجرت ضاحكة رداً عليه.

– طيب. خذي طفلك العملاق.

اخذت فينيتشكا طفلها وقالت بصوت خافت:

– عجباً، ما اهداه معكم.

– كل الاطفال هادئـون معي، فأنا أعرف سرهم – اجاب بازاروف، فعلقت دونياشا:

– الاطفال يشعرون بمن يحبهم.

وأكدت فينيتشكا ذلك قائلة:

– بالضبط. ميتيا لا يقبل أبداً أن يأخذه شخص أخر.

– وأنا، هل سيقبلني؟ – سأل اركادي الذي وقف بعيداً بعض الوقت ثم اقترب من التعريشة.

حـاول اغراء ميتيا ليأتي إليه، ولكن هـذا ازاح رأسه إلى الوراء وشرع بالبكاء، مما جعل فينيتشكا ترتبك كثيرا. فقال اركادي متساهلا:

– في مرة أخرى، عندما يتسع الوقت ليتعود علي.

ابتعد الصديقان، فسأل بازاروف:

– ما اسمها يا ترى؟

– فينيتشكا... فيدوسيا – اجابه اركادي.

– واسم ابيها؟ ينبغي معرفته أيضا.

– نيكولايفنا.

– (حسنا)[١٣] . يعجبني فيها أنها ليست خجولة جداً. يمكن لشخص أخـر، في أغلب الظن، أن يلومها على ذلك بالذات. ولكن ما هذا الهراء؟ مم الخجل؟ أنها أم وهي محقة.

– هي محقة، لا شك، ولكن أبي... – قال اركادي.

– وهو محق أيضا – قاطعه بازاروف.

– كلا، لا اعتقد.

– يبدو أن وريثاً آخر لا يعجبك، أليس كذلك؟

– عيـب عليـك أن تظن بي ذلك – قـال اركادي حانقا – أنني اعتبر والدي غير محق ليس من هذه الناحية، بل اعتقد أنه ينبغي عليه أن يتزوجها.

– بخ، بخ! – قال بازاروف بهدوء – ما اعظم نبلنا! أنك لا تزال تعلق أهمية على الزواج. لم أكن أتوقع منك ذلك.

خطـا الصديقان بضع خطوات صامتين. ثم شرع بازاروف يتكلم من جديد:

– رأيت كل شـيء في مزرعة ابيك. الدواب عجاف والخيول محطمة الحوافـر والمباني في حالة يرثى لها، والعاملون كسـالى إلى أقصى حد. أما

(١٣) في الاصل باللاتينية Bene .

الوكيل فهو أما أحمق وأما محتال. لم أتأكد من ذلك بعد بالشكل اللازم.

– ما أشد صرامتك اليوم، يا يفغيني فاسيليفيتش!

– والفلاحون الطيبون يخدعون اباك من كل بد. أنت تعرف القول المأثور: «الفلاح الروسي يأكل حتى ربه».

– اكاد اتفق مع عمي، فلديك فكرة سيئة تماما عن الروس.

– وما أهمية ذلك! ليس في الروسي أفضل من فكرته السيئة عن نفسه. المهم أن اثنين في اثنين يساوي أربعة. وما عدا ذلك فهو تفاهة.

– والطبيعة تفاهة أيضا؟ – سأل اركادي وهو ينظر متأملا في ابعاد الحقول الزاهية وقد انارتها على نحو جميل شفاف أشعة الشمس المائلة إلى المغيب.

– الطبيعة كذلك تفاهة بالمعنى الذي تفهمها به انت. فالطبيعة ليست معبدا، وأنما هي ورشة، والإنسان عامل فيها.

تهادت اليهما من الدار في تلك اللحظة أصوات فيولونسيل متباطئة. كان شخص ما يعزف «انتظار» شوبرت متحمساً بالرغم من قلة مهارة يده، وكانت الموسيقى العسلية تنساب في الهواء كالشهد. فسأل بازاروف معجباً:

– من هذا يا ترى؟

– ابي.

– أبوك يعزف على الفيولونسيل؟

– أجل.

– وكم عمره؟

– أربعة وأربعون.

قهقه بازاروف فجأة.



– ما الذي يضحكك؟
– كيـف لا! شخص في الرابعة والاربعين، (رب عائلة)[١٤] في الريف يعزف على الفيولونسيل!
ظل بازاروف يقهقه، ولكن اركادي لم يتسم هذه المرة بالرغم من كل اعجابه بصديقه ومعلمه.

١٠

مضى أسبوعان تقريباً. سارت الحياة في مارينو على منوالها: اركادي يتنعم وبازاروف يعمل. تعود الجميع في الدار على بازاروف وعلى أسلوبه المستهـين والفاظه المبتسرة المتقطعـة. ورفعت الكلفة بينـه وبين فينيتشكا خصوصـا، حتى أنها أمرت ذات ليلـة بايقاظه من النوم لأن تشنجاً انتاب ميتيـا. حضر بازاروف وعالج الطفل وقضى هناك زهاء ساعتين وهو على عادتـه تـارة ينكت وتارة يتثاءب. غـير أن بافل بتروفيتش كره بازاروف بكل جوانحـه. كان يعتبره متعالياً سليطاً ودهماويـاً وقحاً. وخيل إليه أن بـازاروف لا يحترمه ويكاد يحتقره هو بافل كيرسانوف! وكان نيكولاي بتروفيتش يخشى «النهلستـي» بعض الشيء ويرتـاب في جدوى تأثيره علـى اركادي، ولكنه يستمـع إلى احاديثه باهتمام ويحضـر باهتمام أيضاً تجاربـه الفيزياوية والكيمياوية. كان بازاروف قـد احضر معه مكرسكوباً وصار يصرف الساعات الطوال معه. وتعلق الخدم به أيضاً، بالرغم من أنه كان يمـزح معهم لا أكثر. فقد احسوا بأنه، مع ذلك، اخ لهم وليس سيداً. كانـت دونياشا تتضاحـك معه برغبة وتسلط عليه نظـرات منحرفة ذات معنى عندما تمر به مسرعة «كالسمانة». وحتى بيوتر، ذلك الإنسان المغالي

---

(١٤) في الاصل باللاتينية Pater famillas .

في التباهي والمفرط في الغباء بتجاعيده المتوترة دوماً على جبهته، والذي كان أحسن ما فيه هو أنه ذو نظرة تنطوي على الاحترام وأنه يقرأ تهيجا، وكثيراً ما ينظف بزته بالفرشاة، صار يتبسم وتنفرج اساريره حالما يلتفت إليه بـازاروف. كان أبناء الخـدم والحشم يتراكضـون وراء «الدختور» كالجـراء. ولم يبغضـه من الخدم غير بروكوفيتش العجـوز الذي يقدم له الطعـام على المائدة عابسـا، وينعته «بالجزار» و «الوغـد»، ويؤكد أنه، بفوديـه الطويلـين، خنزير حقيقـي في دغـل. وكان بروكوفيتش، على طريقته الخاصة، ارستقراطياً ليس ادنى من بافل بتروفيتش.

حلت أفضل أيـام العام، الأيام الأولى من يونيو. كان الطقس رائعا. غـير أن الكوليرا كانت تتهدد وتتوعد من بعيد، ولكن سكان هذا اللواء اعتادوا على زيارتها. كان بازاروف ينهض مبكرا جدا ويتوجه إلى مسافة كيلومترين أو ثلاثة ليس لغرض التجوال – فلم يكن يطيق الجولات دون هـدف – بل لغرض جمـع الأعشاب والحشـرات. وفي بعض الاحيان يصطحب اركادي، فيدور بينهما، عـادة، في طريق العودة جدل اعتاد اركادي أن يكون الخاسر فيه بالرغم من أنه يتكلم أكثر من رفيقه.

ذات مـرة تأخرا امداً طويلاً. فخرج نيكـولاي بتروفيتش للقائهما في البستـان. وعندما اقترب من التعريشـة سمع فجأة خطوات الشابين السريعة وصوتيهما. كانـا يسيران في الجانب الآخر من التعريشة وليس بوسعهما أن يرياه. قال اركادي:

– معرفتك بابي غير كافية.

فاختبأ نيكولاي بتروفيتش. في حين اجاب بازاروف:

– أبوك رجل طيـب. ولكنه إنسان متقاعد حانت نهايته.

ارهف نيكولاي بتروفيتش السمع... ولم يحر اركادي جوابا.

صـرف «الإنسان المتقاعد» زهاء دقيقتين بلا حـراك ثم عاد إلى الدار خلسة وببطء. بينما واصل بازاروف كلامه:

– رأيته أول امس وهو يقرأ أشعار بوشكين. قل له من فضلك أن ذلك لا جدوى فيـه. فهو ليس غلاما: لقد حان الوقت لترك هذه التفاهة. فمن الذي يرغب في أن يغدو رومانسياً في الآونة الراهنة؟! اعطه شيئاً ما جيداً للقراءة.

– ماذا اعطيه؟

– اظن من الأفضل أن تعطيه في البداية «المادة والقوة»(١٥) لبوخنر.

– رأيي من رأيك. فأن «المادة والقوة»(١٦) مكتوب بلغة سلسلة – قال اركادي مؤيدا.

بعد ظهـر ذلك اليوم حدث نيكولاي بتروفيتش اخاه وهو جالس في مكتبه:

– هكـذا صرت وايـاك في عداد المتقاعدين، وقـد حانت نهايتنا. من يـدري؟ ربمـا بازاروف على حـق. ولكن الشـيء الوحيد الـذي يؤلمني، واقولها صراحة، هو أني كنت آمل بأن أعيش مع اركادي الآن بالذات بود ووئام، ولكن اتضح أني بقيت متخلفاً، بينما تقدم هو إلى الامام، ولا يمكن أن يفهم بعضنا بعضا.

فهتف بافل بتروفيتش بنفاد صبر:

– مـا الـذي جعله يتقدم إلى الامـام؟ وبم يختلف اختلافـاً كبيراً عنا؟

---

(١٥) في الاصل بالالمانية Stoff und kraft ، كتاب العالم الفسلجى الالماني فريدريك بوخنر (١٨٢٤ – ١٨٩٩) – المترجم.

(١٦) في الاصل بالالمانية.

كل ذلـك غرسـه في ذهنه هذا السنيور النهلستـي. أنني اكره هذا الطبيب التافـه، ويخيل إلى أنه دجـال لا أكثر. أنا واثق من أنـه لم ينجز في الفيزياء شيئاً بجميع ضفادعه.

– كلا، يا أخي، لا تقل ذلك. بازاروف ذكي وعلامة.

– ثم أن غروره شيء مقيت – قاطعه بافل بتروفيتش من جديد. فوافقه اخوه:

– أجل، أنه مغرور. يبدو أن ذلك أمر لا مفر منه. ولكن الشيء الوحيد الـذي لا افهمه هو أني ابذل قصـارى جهدي، على ما أظن، كيلا اتخلف عـن العصر: دبرت أمـور الفلاحين وانشأت مزرعة حتـى صار الناس في اللواء كله ينعتونني بالاحمـر، وأنا اطالع واتعلم وأحاول عموما أن أكون علـى مستوى المتطلبات العصرية، ومع ذلك يقولان أن نهايتي قد حانت. بل أني بنفسي أخذت أفكر، يا اخي، أن نهايتي قد حانت بالفعل.

– لماذا؟

– لأننـي عندمـا كنت اليوم اقرأ بوشكـين... وقعت في يدي ملحمة «الغجر»، على ما أتذكر... اقترب مني اركادي في الحال، وانتزع الكتاب بصمـت وهدوء وبأسف حنون على وجهه كمـا لو انتزعه من طفل غرير ووضع امامي كتابا آخر بالالمانية... ثم ابتسم وذهب وأخذ معه بوشكين.

– هكذا اذن! وأي كتاب اعطاك؟

– ها هو.

اخـرج نيكولاي بتروفيتش من الجيب الخلفي لبزته الطبعة التاسعة من كراس بوخنر بالذات.

قلبه بافل بتروفيتش بيديه، فقال:

– احم! اركادي مهتم بتربيتك. ماذا، هل حاولت أن تقرأه؟

– حاولت.

– وماذا؟

– فأما أني غبي، وأما أن هذا كله هراء. الارجح أني غبي.

– ألم تنس الالمانية؟

– لا ازال افهمها.

قلب بافل بتروفيتش الكتاب من جديد والقى على أخيه نظرة عابسة. ولـزم كلاهما الصمت. ثم قال نيكولاي بتروفيتش في محاولة لتغيير مجرى الحديث على ما يبدو:

– بالمناسبة، تسلمت رسالة من كوليازين.

– من ماتفي ايليتش؟

– نعم. وصل لتفتيش اللـواء. واصبح من الكبار، ويريد، كما كتب، أن يرانا باعتبارنا اقرباءه وقد دعانا مع اركادي إلى المدينة.

– هل ستذهب؟ – سأل بافل بتروفيتش.

– كلا، وأنت؟

– لن اذهب أنا أيضا. ليس هناك ما يستحق أن نقطع أكثر من خمسين كيلومـترا. (ماثيو)[17] يريد أن يعرض علينا امجاده، فليذهب إلى الشيطان! يكفيـه بخور اللواء وحده، ولا داعي لنحرق نحن أيضاً البخور أمامه. ثم مـا قيمة المستشار السري؟! لو كنت واصلت هـذه الخدمة الروتينية الغبية لغدوت الآن جنرالاً. زد على ذلك أنني وأياك متقاعدان.

– أجـل، يا أخي، يبدو أن الوقت قد حـان لاعداد التابوت وتصليب

(١٧) في الاصل بالفرنسية Mathieu، يقصد ماتفي كوليازين – المترجم.

اليدين على الصدر – قال نيكولاي بتروفيتش متنهدا. فدمدم أخوه:

– كلا، لـن استسلم بهـذه السرعة. أمامنا بعد مناوشة مع هذا الطبيب الصعلوك، أنني أتوقع ذلك.

حدثـت المناوشة في نفس ذلك اليوم أثنـاء احتساء شاي المساء. دخل بافل بتروفيتش غرفـة الاستقبال مستعدا للمعركـة. كان مستثاراً منفعلا، لا ينتظـر غير توفـر الحجة للانقضاض على العـدو. ولكن الحجة لم تتوفر لامـد طويل. بـازاروف على العموم قليـل الكلام بحضـور «العجوزين كيرسانوف» (هكذا نعت الاخوين). وفي ذلك المساء كان مزاجه متعكراً، فأخـذ يحتسي الشاي، صامتاً، فنجاناً أثر آخر. وظل بافل بتروفيتش على أحر من الجمر حتى تحققت رغبته في آخر الأمر.

تطـرق الحديـث إلى أحد الاقطاعيين المجاورين. فقـال بازاروف بلا مبـالاة، وكان قد تقابل معه في بطرسبورغ: – «ارستقراطي مزيف دني». فبدأ بافل بتروفيتش كلامه وشفتاه ترتعشان:

– اسمـح لي أن اسألـك، هل تعنـي كلمتا «ارستقراطـي» و «دني»، بمفهومك، شيئا وحدا؟

– قلت «ارستقراطي مزيف» – اجاب بازاروف وهو يرتشف بكسل جرعة من الشاي.

– بالضبط، ولكنني اعتقد أن رأيك هو ذاته بخصوص الارستقراطيين الحقيقيين والارستقراطيين المزيفين على حد سواء. أرى من واجبي أن أعلن لـك بانني لا اشاطرك هذا الرأي. واتجرأ علـى القول أن الجميع يعرفونني إنسانـاً لبرالياً محبـاً للتقـدم، ولذلك بالـذات فأنا احـترم الارستقراطيين الحقيقـيين. تذكـر، يـا سيـدي الجليـل، (رفع بـازاروف بصـره إلى بافل بتروفيتشـ لـدى سماعه.هذه الكلمـات، فكرر هذا قولـه بشدة) تذكر، يـا سيدي الجليـل، الارستقراطيين الانجليز. انهـم لا يتنازلون عن ذرة من

حقوقهم، ولذلــك فهم يحترمون حقوق الآخرين، انهــم يطالبون بتنفيذ الواجبات ازاءهــم ولذلك ينفذون واجباتهم هــم. الارستقراطية منحت بريطانيا الحرية وهي تحافظ عليها.

فاعترض عليه بازاروف:

– سمعنا هذه الأغنية مرات عديدة. ولكن ما الذي تريد اثباته بهذا؟

– اريـد بهيذا، يا سيدي الجليـل، (كان بافل بتروفيتش حينما يغضب يقول متعمداً «هيذا»، «بهيذا»، مع أنه يعلم جيداً أن قواعد اللغة لا تسمح بذلــك. وتجلت في هذه العادة الغريبة مخلفات تقاليد عهد الاسكندر. ففي الحــالات النادرة التــي كان كبار الشخصيات آنــذاك يتكلمون فيها باللغة الأم كان بعضهــم يستخدم كلمــة «هيذا» والبعض الآخــر كلمة «هوذا» بدلاً مــن «هذا»، ولســان حالهم يقــول: نحن روس اقحــاح ولكننا في الوقــت ذاته وجهاء يجوز لنا أن نستهين بالقواعد المدرسية) اريد بهيذا أن اثبت أنه بدون شعور الكرامــة الشخصية، وبدون احترام النفس – وهذه المشاعــر متطورة لــدى الارستقراطيــة – لا يمكن وجــود أي اساس متين (لخير المجتمع)[١٨].. للكيــان الاجتماعي. أن شخصيــة الفرد، يا سيدي الجليل، هــي الأمر الرئيسي. ويتعين على شخصية الإنسان أن تكون متينة كالصخــرة لأن كل شــيء يبنى عليهــا. وأنا اعلم جيــدا بأنك، مثلا، ترى عاداتــي، وهندامي، وأناقتي في الاخير، امرا مضحكا، ولكنني أفعل ذلك كلــه بدافع من احترامي لنفسي، وبدافع من شعــوري بالواجب، اجل، يا سيــدي، بالواجب. انني أعيش في القريــة، في الريف، ولكنني لا اتضع، فأنا احترم الإنسان الكامن في دخيلتي.

فقال بازاروف:

---

(١٨) في الاصل بالفرنسية bien public .

– اسمح لي، يا بافل بتروفيتش. أنك تحترم نفسك وتجلس مكتوف اليدين، فما نفع ذلك (لخير المجتمع؟)[19] بوسعك أن لا تحترم نفسك، مثلا، فلا يتغير في الأمر شيء.

شحب لون بافل بتروفيتش:

– هذه مسألة أخرى تماماً. لست بحاجة لأوضح لك الآن لماذا اجلس مكتوف اليدين على حد تعبيرك. اكتفي بالقول أن النزعة الارستقراطية مبدأ، ولا يستطيع أن يعيش بدون مبادئ في عصرنا إلا اللاأخلاقيون أو الفارغون. قلت ذلك لاركادي في اليوم التالي من وصوله واكرره لك الآن. أليس كذلك يا نيكولاي؟

هز نيكولاي بتروفيتش رأسه بالايجاب، في حين قال بازاروف:

– ارستقراطية، لبرالية، – ما أكثر الكلمات الاجنبية... العديمة الجدوى! الروسي ليس بحاجة إلى هذه الكلمات مطلقا.

– فما الذي هو بحاجة إليه باعتقادك؟ عندما نستمع إليك يخيل إلينا أننا خارج البشرية وخارج قوانينها. معذرة، أن منطق التاريخ يتطلب...

– ما نفع هذا المنطق؟ – قال بازاروف – نحن في غنى عنه.

– كيف؟

– بكل بساطة. أنت، على ما اعتقد، لا تحتاج إلى المنطق لكي تضع كسرة الخبز في فمك عندما تشعر بالجوع. فأين أنت، حينئذ، من تلك التجريدات؟

لوح بافل بتروفيتش بيده يائسا:

– أنني لا أفهمك بعد هذا كله. أنت تهين الشعب الروسي. لا افهم

(١٩) في الأصل بالفرنسية.

كيف يمكن عدم الاعتراف بالمبادئ والاصول! فبأية قوة تعملون؟

– قلت لك، يا عمي، أننا لا نعترف بالشخصيات – تدخل اركادي في الحديث. فقال بازاروف:

– نحن نعمل مدفوعين بتأثير ما نعتبره نافعاً. وفي الحال الحاضر يعتبر الرفض انفع شيء. لذا فنحن نرفض.

– كل شيء؟

– كل شيء.

– كيف؟ ليس الفن والشعر فقط... بل وحتى الـ... لا اتجرأ على ذكره... يا للفظاعة...

– كل شيء – كرر بازاروف بمنتهى الهدوء.

حدق فيه بافل بتروفيتش. فلم يكن يتوقع ذلك، بينما احتقن وجه اركادي من شعوره بالارتياح. فشرع نيكولاي بتروفيتش يتكلم:

– معذرة، انكم ترفضون كل شيء، أو على الاصح تهدمون كل شيء... ولكن يجب البناء أيضا.

– ليس ذلك من واجبنا. ينبغي تطهير المكان أولا.

وأضاف اركادي بلهجة ذات شأن:

– حالة الشعب الراهنة تتطلب ذلك. وعلينا أن ننفذ هذه المطالب، فليس لنا حق في الانهماك بارضاء الانانية الفردية.

يبدو أن هذه العبارة الاخيرة لم تعجب بازاروف، فقد كانت تفوح منها رائحة الفلسفة، أي الرومانسية، ذلك لأن بازاروف نعت الفلسفة أيضا بالرومانسية، ولكنه لم ير ضرورة لدحض رأي تلميذه الفتي. بيد أن بافل بتروفيتش هتف بحماس مفاجئ:

– كلا، ثـم كلا! لا أصـدق بانكما، أيها السيـدان، تعرفان الشعب الروسي حق المعرفة، وتمثلان متطلباتـه ومطامحه! كلا، فالشعب الروسي ليـس بالشكل الذي تتصورانه. أنه يحترم قدسيـة التقاليد، ويمجد الآباء، ولا يمكن أن يعيش بدون ايمان...

فقاطعه بازاروف:

– لن أجادل في ذلك، بل اني مستعد للموافقة على انك محق فيه.

– وإذا كنت محقاً...

– ومع ذلك فهذا لا يدلل على شيء.

– بالفعـل، لا يدلـل على شيء – كرر اركادي هذا القول بثقة لاعب الشطـرنج الماهر الذي توقع نقلة الخصم الخطـرة، على ما يدو، ولكنه لم يرتبك قيد شعرة. بيد أن بافل بتروفيتش دمدم مبهوتا:

– كيف لا يدلل على شيء؟ أفلا يعني ذلك انكما ضد شعبكما؟

– فليكن. – هتف بازاروف – عندما يهدر الرعد يتصور الشعب أن الرسول ايليا يتجول على عربته في السماء. فماذا؟ هل علي أن اوافقه؟ ثم أنه روسي، وأنا؟ الست روسيا؟

– كلا، لسـت روسيـاً بعـد كل ما قلتـه الآن! لا أستطيـع أن اعتبرك روسياً.

فرد بازاروف بتفاخر وكبرياء:

– كان جـدي يحـرث الارض. اسـأل أي فلاح مـن فلاحيكم هل يعتبرك أنت أم يعتبرني أنا قريبا له؟ بل أنك لا تجيد حتى الكلام مع الفلاح.

– أما أنت فتتكلم معه وتحتقره في الوقت ذاته.

– لا ضير في ذلك اذا كان يستحق الاحتقار! أنت تلومني على اتجاهي

هـذا، فمن قال لك أنه ظهـر لدي بالصدفة، وأن مبعثه ليس هو نفس تلك الروح الشعبية التي تدافع عنها؟

– طبعاً! طبعاً! ما احوج الشعب إلى النهلستيين!

– لا يحـق لك أن تحكم هل هناك حاجة إلى النهلستيين أم لا. ثم أنك تعتبر نفسك أيضاً شخصاً نافعاً.

– يـا سادة، ارجوكـم، يا سـادة، لا تتعرضـوا للاشخاص! – هتف نيكـولاي بتروفيتش وهـم بالنهوضـ. إلا أن بافل بتروفيتش ابتسم واضعا يده على كتف اخيه، فحمله على الجلوس من جديد. وقال له:

– لا تقلق. فأنا لن انحدر إلى ذلك بحكم الشعور بالكرامة التي يسخر منها، بقسـاوة، السيد... السيد الطبيب. معـذرة – واصل كلامه مخاطباً بازاروف من جديد – ربما تظن أن مذهبك هذا جديد، أليس كذلك؟ عبثا تتصوره على هذا النحو. فالمادية التي تبشر بها كانت على الالسنة اكثر من مرة، ولكن بطلانها كان يتضح على الدوام...

– وهـا هي كلمـة اجنبية[٢٠] أخـرى! – قاطعه بـازاروف وبدا عليه الغضـب فاكتسى وجهه بلون نحاسي خشن – نحن لا نبشر بشيء، ذلك ليس من عاداتنا.

– فما الذي تفعلونه؟

– إليكـم مـا نفعله: في السابق، في الماضي غـير البعيد، كلنا نقول أن موظفينا يستلمون الرشاوى، وأنه ليست لدينا لا طرق ولا تجارة ولا قضاء عادل...

---

(٢٠) يقصد مصطلح «المادية» الذي هو بالروسية أيضاً لاتيني الاصل (materialism) – المترجم.

– أجل، أجل، انكم نقاد متشددون، هكذا يسمى ذلك على ما اظن. أنا موافق على الكثير من انتقاداتكم، ولكن...

– ثم ادركنا أن الثرثرة، الثرثرة وحدها عن عللنا من اسهل الامور، وأن ذلك يؤدي إلى الابتذال والتحذلق فقط. ورأينا كذلك أن النابهين من بيننا، أولئك الذين ينعتون بالتقدميين والنقاد المتشددين، لا يصلحون لشيء، وأننا غارقون في السخافات، وأننا نتشدق في الكلام عن الفن والابداع العفوي، والنزعة البرلمانية والمحاماة وغير ذلك مما لا يعرفه إلا الشيطان وحده، في حين أن المطلوب هو الخبز الكفاف. الخرافات المرهقة تخنقنا، وشركاتنا المساهمة تفلس وتنهار لسبب واحد هو قلة الناس النزيهين، والحرية التي تجهد الحكومة في تأمينها لا تكاد تعود علينا بنفع لأن فلاحنا مستعد لأن يسرق نفسه بنفسه لا لشيء إلا ليتجرع المسكرات في الحانة.

فقاطعه بافل بتروفيتش:

– لذا اقتنعتم بهذا كله وقررتم أن لا تباشروا بأي عمل جدى.

– قررنا أن لا نباشر بأي عمل – كرر بازاروف متجهما.

لقد حزن لنفسه فجأة، فما الداعي للصراحة أمام هذا الاقطاعي...

– ما عدا الشتم والسباب، اليس كذلك؟

– ما عدا الشتم والسباب...

– وهذا يسمى نهلستية؟

– وهذا يسمى نهلستية – كرر بازاروف بتسلط شديد هذه المرة.

اغمض بافل بتروفيتش جفنيه بعض الشيء وقال بصوت بدا غريبا لهدوئه:

– هكذا اذن، يعني أن النهلستية دواء لكل داء. وانكم مخلصونا

وابطالنا. ولكن ماذا فعل الآخرون، النقاد الآخرون مثلا، ليستحقوا ملامتكم؟ افلا تثرثرون انتم أيضاً كالآخرين؟

فتمتم بازاروف:

– ربما لدينا خطايا أخرى، ولكن ليست هذه الخطيئة منها.

– فماذا اذن؟ هل تفعلون شيئا يا ترى؟ أو هل تنوون فعل شيء؟

لم يجبه بازاروف. فارتعش بافل بتروفيتش منفعلا، ولكنه سيطر على نفسه في الحال ثم تابع كلامه:

– احم! انهم يفعلون، يهدمون... ولكن كيف يجوز الهدم دون معرفة الغرض منه؟

– أننا نهدم، لأننا قوة – قال اركادي.

فالقى بافل بتروفيتش نظرة على ابن اخيه وابتسم ساخرا. فكرر اركادي وهو يعدل من قامته:

– أجل نحن قوة لا تطأطئ رأسها لاحد.

– مسكين! – جأر بافل بتروفيتش، فلم يعد يطيق المزيد ابداً – هلا فكرت ما فائدة مواعظك التافهة هذه في روسيا! كلا، حتى الملاك يمكن أن يضيق ذرعا بذلك! قوة! القوة موجودة لدى القلموقي[21] المتوحش ولدى المغولي أيضاً، فما حاجتنا إليها؟ أننا نعتز بالحضارة، أجل، أجل يا سيدي الجليل، نعتز بثمارها. فلا تقل لي أن هذه الثمار ضئيلة: أن (أردأ رسام)[22] وأسوأ عازف من الذين يتسلمون خمسة كوبيكات لقاء الحفلة

---

(٢١) القلموق قبائل رعوية من اصل مغولي. يعيش الشعب القلموقي حالياً في جمهورية كلميكيا السوفيتية ذات الحكم الذاتي – المترجم.

(٢٢) في الاصل بالفرنسية un barbouilleur.

الواحدة أنما هما أكثر نفعا منكم، لأنهما يمثلان الحضارة، ولا يمثلان القوة المغولية الفظة! تتصورون أنفسكم أناسا تقدميين، بينما لا يعوزكم غير الجلوس في خيمة القلموق! قوة! تذكروا أخيرا، أيها السادة الاقوياء، أن عددكم لا يزيد على اصابع اليد، بينما يشكل أولئك ملايين من الذين سيسحقونكم ولن يسمحوا لكم أن تدوسوا باقدامكم أقدس اقداسهم!

فقال بازاروف: - إذا كانوا سيسحقوننا فليكن. ولكن تلك مسألة فيها نظر. ثم أن عددنا ليس بالقليل، كما تتصور.

- كيف؟ هل تفكرون بلا مزاح أن تتغلبوا على شعب بكامله؟

- أنت تعرف أن موسكو احترقت من شمعة بخسة - اجاب بازاروف.

- هكذا اذن. من الكبرياء التي تكاد تشبه كبرياء الشيطان إلى التهكم. ذلك ما يولع به الشباب، وذلك ما تنصاع له افئدة الغلمان غير المحنكة! انظر، ها هو احدهم يجلس قربك، أنه يكاد يصلي لك، فمتع انظارك (اشاح اركادي بوجهه الذي تجهم). ثم أن هذه العدوى قد انتشرت بعيداً. قيل لي أن رسامينا في روما لا يترددون على الفاتيكان مطلقا. ويكادون يعتبرون روفائيل أحمق، ويعللون ذلك بكونه شخصية بارزة، بينما هم عاجزون عقيمون حتى القرف ولا يقودهم خيالهم إلى أبعد من «الفتاة عند النافورة» مهما بذلوا من جهد! ثم أن الفتاة تلك مرسومة باقبح شكل. أنهم رائعون برأيك، اليس كذلك؟

فاعترض بازاروف قائلا:

- برأيي أن روفائيل لا يساوي شروى نقير، وانهم ليسوا افضل منه.

- مرحى! مرحى! اسمع يا اركادي... على هذا النحو ينبغي للشباب العصريين أن يتكلموا! فكيف لا يقتدون بكم، يا ترى؟ في السابق كان الشباب مضطرين إلى التعلم، فلم يكونوا راغبين في أن يذيع صيتهم

كجهلـة، ولـذا كانوا، طبعـا، يجدون ويجتهـدون. أمـا الآن فيكفيهم أن يقولوا أن كل شـيء في العالم تافه، وانتهى الأمر! لقد سر الشباب وفرحوا. وبالفعـل، في السابق كانوا بلهاء لا غير، أمـا الآن فقد اصبحوا، على حين غرة، نهلستيين.

– هـا قد خانك شعـور الكرامة الشخصية المحمـود – قال بازاروف بـبرود، في حين اشتاط اركادي غضبا وبرقت عيناه – لقد تمادينا في الجدال إلى حد بعيد... ويخيل الي من الافضل وقفه. – ثم اضاف ناهضا – سأكون على استعداد للاتفاق معك حينما تقدم لي ولو مثالا واحد في حياتنا الراهنة، العائلية أو الاجتماعية، لا يستحق الرفض بلا رحمة.

فهتف بافل بتروفيتش:

– سأقـدم لك الملايين من هذه الامثلة، الملايين! لنأخذ على أقل تقدير، المشاعة.

التوت شفتا بازاروف عن ابتسامة ساخرة باردة:

– بخصوص المشاعة، الافضل أن تتكلم مع اخيك، فقد جرب عمليا، على مـا يبدو، ما هي المشاعة وما هو التكافل ومـا هو الامتناع عن تعاطي المسكرات وهلمجرا.

– والعائلـة، العائلـة، أخيرا، بالشكل الذي هـي عليه لدى فلاحينا! – صاح بافل بتروفيتش.

– وهـذه المسألـة أيضـا الافضـل لك، على مـا اعتقـد، أن لا تتناولها بالتفصيـل. أفلم تسمع بالذيـن يجامعون كناتهم؟ خـذ بنصيحتي، يا بافل بتروفيتش، امهل نفسك يومين، حالياً من المستبعد أن تجد ولو مثالاً واحداً. تفحص كل فئات مجتمعنا وفكر جيداً في كل واحدة منها، أما أنا واركادي فسوف...

– ... تسخر من كل شيء – قاطعه بافل بتروفيتش.

– كلا، سنشرح الضفادع. فلنذهب يا اركادي، إلى اللقاء أيها السادة!

خــرج الصديقان وظل الاخوان وحيدين، فتطلعــا إلى بعضهما البعض أولا، ثم قال بافل بتروفيتش:

– هؤلاء هـم شباب اليوم! وهؤلاء ورثتنا!

– ورثتنا – كرر نيكولاي بتروفيتش بحسرة وكآبة. ظل، طوال الجدال، علــى أحر من الجمر، وكان يلقي علــى اركادي خلسة نظرات ممضة – هل تــدري ماذا تذكرت، يا أخي؟ ذات مرة اختلفت مع المرحومة امنا، فكانت تصيح ولا تريد أن تستمع إلي... وقلت لها في آخر الامر أنها لا تستطيع أن تفهمني وأننا ننتمــي إلى جيلين مختلفين. لقد اغاظها هذا القول أشد الغيظ. ففكــرت أنا: ما العمل؟ الحبة مــرة ولكن يجب ابتلاعها. وها هو دورنا قد حان. فيمكن لورثتنا أن يقولوا لنا: لستم من جيلنا فابتلعوا الحبة المرة.

– أنــك طيــب القلب ومتواضع اكــثر من اللازم – اعترض عليه بافل بتروفيتشــ – فانــا، علــى العكس، واثق مــن أنني واياك محقــان اكثر بكثير مــن هذين السيديــن الصغيرين، بالرغم من أننا ربما نتكلــم بلغة عتيقة بعض الشــيء ولا نمتلك مثل تلك الغطرســة الجسورة... ما أشــد كبرياء الشباب الراهــن! فأن سألت أحدهــم: أي نبيذ تريد، حلوا أم مــزاً؟ يجبك بصوت جهير وبمسحة من الخيــلاء على وجهه وكأنما الكون كله يتطلع إليه في تلك اللحظة: «اعتدت على تفضيل النبيذ الحلو!»...

– هل تريــدون المزيد من الشاي؟ – سألت فينيتشكا وقد دست رأسها في شــق الباب، إذ لم تكن تجرأ على دخول غرفة الاستقبال طالما تتعالى فيها اصوات المتجادلين.

– كلا، يمكنــك أن تأمري بنقل السماور – أجاب نيكولاي بتروفيتش ونهض للقائهــا. فقال له بافل بتروفيتش على نحو متقطع: (عم مساء)[٢٣]، وذهب إلى مكتبه.

(٢٣) في الأصل بالفرنسية bon soir.

١١

بعد نصف ساعة توجه نيكولاي بتروفيتش إلى تعريشته المحببة في البستان. واستولت عليه افكار حزينة. فقد تحسس بوضوح لأول مرة انفصال ابنه عنه. وتوقع أن الهوة بينهما ستتسع من يوم لآخر. فلا جدوى من قضائه أياما كاملة في شتاءات بطرسبورغ وهو يطالع احدث المؤلفات، ومن العبث أنه كان ينصت إلى احاديث الشبان ويفرح عندما يتسنى له أن يدس كلمة في حوارهم الفوار. وفكر في نفسه: «اخي يقول أننا محقان، وإذا تخيلنا عن أي أثر للغرور، فأنا شخصيا ارى انهما أبعد عن الحقيقة منا، ولكنني في الوقت ذاته أشعر بأن لديهما ما ليس لدينا، وبأنهما متفوقان علينا بشيء ما... الفتوة؟ كلا: ليس الفتوة وحدها. أفلا يكمن تفوقهما في أن آثار الاقطاعية عندهما أقل مما عندنا؟».

طأطأ نيكولاي بتروفيتش رأسه ومسح وجهه بيده، وفكر من جديد:

«ولكن كيف يمكن رفض الشعر؟ وعدم الاحساس بالفن والطبيعة؟...»

تطلع إلى ما حواليه وكأنما يريد أن يفهم كيف يمكن عدم الاحساس بالطبيعة. حل المساء، واختفت الشمس وراء حرج الحور المنبسط على بعد نصف كيلومتر من البستان: كانت ظلاله تمتد بلا نهاية عبر الحقول الساكنة. ومر فلاح على ظهر فرس بيضاء تسير خببا في الدرب الضيق المعتم على طول الحرج. كان مرئيا كله بوضوح، كله حتى الرقعة على كتفه بالرغم من الظلال التي تلفعه. وكانت قوائم الفرس قد لاحت بوضوح يبعث على الانشراح. كانت أشعة الشمس بدورها تخترق الحرج وتنساب عبر الاجمة فتغمر جذوع الحور بضوء دافئ جعلها شبيهة بجذوع الصنوبر وجعل لون أوراقها نيليا فاتحا. وتشهق فوقها سماء زرقاء باهتة خضبها الشفق بلمسات خفيفة. كانت سنونوات تحلق عاليا، وقد هدأ النسيم

كليـا، وأخذت نحـلات متخلفة تئز بكسل وخمول بـين ازهار الليلاك. وكان البرغش يتزاحم كعمود من الدخان على غصن منعزل اشراب بعيدا. «ما اروع ذلك، يا الهي!» – فكر نيكولاي بتروفيتش وكاد ينشد اشعاره المحببـة، ولكنه تذكر اركادي وكراس «المـادة والقوة»(٢٤) فلزم الصمت وظـل جالسا تتلاعب به الافكار اليتيمة على نحو محزن ومفرح معا. كان يحب الاحلام، فقد طورت الحياة الريفية فيه القدرة على التمتع بالاحلام. فهل مر زمن طويل عليه عندما كان يحلم على هذا النحو وهو ينتظر عودة ابنه في الخان؟ بيد أن تغيراً جرى مذ ذاك، وتحددت العلاقات التي لم تكن واضحـة آنذاك... ولكن على أي نحو؟! لاحـت امامه من جديد صورة المرحومـة زوجته، ليـس بالشكل الـذي عرفها فيه طـوال سنين عديدة، ربـة بيت شاطرة طيبة، بل فتـاة يافعة ذات قوام نحيـف ونظرة متفحصة عـذراء وجديلة مفتولة بشدة فـوق عنق طفولي. تذكر كيـف رآها للمرة الأولى. كان، وقتهـا، لا يـزال طالبا. صادفها على سلـم المنزل الذي يقيم فيه. اصطدم بها صدفة، فالتفت ليعتذر منها ولكنه لم يستطع إلا أن يدمدم بالفرنسية: (معذرة يا سيـدي)(٢٥) في حين طأطأت هي رأسها وابتسمت ابتسامة ساخرة ثم ركضت فجأة كما لو كانت خائفة. وفي منعطف السلم القـت عليه نظرة خاطفة واكتسى محياها بمظهر الجد واصطبغ بالاحمرار. وفيما بعد بدأت أول الزيارات الخجولة وانصاف الكلمات والابتسامات المبتـورة والحيرة والكآبة والانفعالات، وأخيرا تلك الفرحة اللاهثة... أين تلاشـى ذلك كله؟ تـزوج منها وكان سعيدا مثـل القليلين في المعمورة... وفكر: «لم لا تعيش تلك اللحظات الحلوة الأولى عيشة أبدية لا تموت؟».

لم يحاول أن يوضح لنفسه فكرته هذه، ولكنه احس بأنه راغب في أن

(٢٤) في الأصل بالالمانية stoff und kraft.

(٢٥) في الاصل بالفرنسية Pardon، monsieur.

يمسك بزمن المسرات ذاك بشيء ما أقوى من الذاكرة، وكان يريد أن يلمس من جديد قوام زوجته ماريا ويتحسس دفاها وأنفاسها، وخيل إليه وكأنها قد اطلت عليه...

- يا نيكولاي بتروفيتش، أين أنتم؟ - صدح على مقربة منه صوت فينيتشكا.

فانتفض. ولم يشعر لا بالالم ولا بالخجل... لم يكن ليتقبل حتى فكرة المقارنة بين زوجته وفينيتشكا، ولكنه أسف لانها عزمت على البحث عنه. فقد ذكره صوتها حالا بشعره الاشيب وشيخوخته وحاضره...

العالم السحري الذي كاد يلجه وكاد يظهر من امواج الماضي الضبابية اهتز فتبدد.

- أنا هنا. سأحضر، اذهبي - اجابها، وتبادرت إلى ذهنه فكرة بخصوص لهجة الجواب: «تلك هي آثار الاقطاعية». نظرت فينيتشكا إليه في التعريشة صامتة ثم اختفت، في حين لاحظ هو مندهشا أن الليل قد حل منذ أن غرق في أحلامه. كان كل شيء حواليه قد اظلم وسكن، ولاح محيا فينيتشكا أمامه شاحباً ضئيلاً. نهض ليعود إلى الدار، ولكن فؤاده المترجرج ما كان ليهدأ بين جوانحه، فأخذ يتمشى طويلا حتى كاد يكل، في حين لم يخفت في دخيلته ذلك القلق الحزين التواق الغامض. ما كان أشد ضحك بازاروف عليه لو علم بما اعتمل في فؤاده آنذاك! وحتى اركادي ربما ادانه على ذلك! لقد انهمرت الدموع، دموع بلا سبب، من عينيه هو المهندس الزراعي والسيد الذي بلغ الرابعة والاربعين. أن ذلك افدح بمائة مرة من الفيولونسيل.

واصل نيكولاي بتروفيتش سيره ولم يستطع أن يشد العزم على دخول الدار، ذلك العش المريح الوادع الذي يتطلع إليه بترحاب

من جميع نوافذه المضاءة. كان عاجزا عن مفارقة الظلمة والبستان والاحساس بالنسيم العليل يداعب وجهه، وذلك الحزن والقلق...

في منتصف الدرب لاقى بافل بتروفيتش الذي سأله:

– ماذا بك؟ أنك شاحب كالشبح، أنت متوعك، فلم لا ترقد؟

اوضح له نيكولاي بتروفيتش بايجاز حالته النفسية وانصرف. بلغ بافل بتروفيتش آخر البستان، واخذ يتأمل. ثم رفع بصره هو أيضا إلى السماء. لكن عينيه السوداوين الرائعتين لم تعكسا شيئا غير ضوء النجوم. فهو لم يولد رومانسيا، و لم تكن روحه الجافة المتلهفة باناقة والنفورة من البشر على النمط الفرنسي لتجيد الانصياع إلى الاحلام...

– هل تعلم، يا اركادي؟ تبادرت إلى ذهني فكرة رائعة – قال بازاروف في تلك الليلة – ذكر أبوك اليوم أنه تسلم دعوة من قريبك الوجيه. وأنه لا ينوي السفر إليه، فهلا سافرنا واياك إلى مدينة ( )، فذاك السيد يدعوك أنت أيضا. إلا ترى كيف تحول الطقس هنا؟ فلنرتحل ولنر المدينة. سنصرف خمسة أيام أو ستة وكفى!

– وهل ستعود إلينا بعد ذلك؟

– كلا. أريد أن اسافر إلى والدي. فهو يقيم، كما تعلم، على مسافة ثلاثين كيلومتراً من تلك المدينة. لم اره من زمان، وكذلك أمي. ينبغي أن ازيل هم العجوزين. فهما طيبان، وخصوصا والدي المرح للغاية. وأنا وحيدهما.

– وهل ستبقى عندهما طويلا؟

– لا اعتقد. ربما سيكون ذلك مملا.

– وهل ستمر بنا في طريق العودة؟

– لا ادري... سأفكر في ذلك. اتفقنا؟ هل سنسافر؟

– أجل – قال اركادي متكاسلا.

كان قد سر في دخيلته كل السرور لاقتراح صديقه، ولكنه رأى أن من واجبه اخفاء مشاعره. فما جدوى كونه نهلستياً اذن؟!

في اليـوم التالي سافر مع بـازاروف إلى مدينة (   ). أسف الشباب في مارينـو لسفرهما. حتـى أن دونياشا اسقطت دمعـة. إلا أن «العجوزين» تنفسا الصعداء.

١٢

يديـر المدينة التي توجه إليهـا صاحبانا متصرف مـن الشباب، تقدمي ومتعسـف في الوقت نفسه، كما يصادف كثـيراً في روسيا. فقد استطاع أثنـاء العام الأول مـن حكمه أن يتشاجر ليس فقط مـع زعيم نبلاء اللواء، يوزباشـي الفرسان المتقاعد المضياف وصاحب حقل تربية الجياد، بل ومع موظفيه هو. واتسع نطـاق النزاعات التي نشبت بهذا الخصوص حتى أن الـوزارة في بطرسبورغ رأت في آخر الامـر أن ترسل شخصاً مخولاً كلفته بالنظـر في القضيـة هناك. ووقـع اختيـار المسؤولين على ماتفـي ايليتش كوليازيـن، وهو ابـن كوليازين الذي رعى الاخويـن كيرسانوف في غابر الزمـان. وكان هو أيضاً من «الشباب»، أي أنه بلغ الاربعين مؤخراً، لكنه اصبح مـن رجالات الدولة أو يكاد، وكانت علـى صدره نجمتان. إلا أن احـدى النجمتين اجنبية وليسـت من عداد الاوسمـة السامية. كان يعتبر مـن دعاة التقدم شأنه شأن المتصـرف الذي وصل للبت في امره، و لم يكن يشبـه السواد الاعظم من الموظفين الكبار بعد أن اصبح واحدا منهم. كان مغرورا أشد الغرور، وكان زهوه بلا حدود، بيد أنه كان متساهلا متسامحا بسيط العادات، ذا نظرة تنم عن الرضا. وهو يضحك من كل قلبه حتى كاد يشتهر في بادئ الأمر بأنه «شخص طيب جدا». ولكنه يجيد في الحالات

الهامـة ذر الرمـاد في العيـون، كما يقـال. وعندئذ كان يقـول: «الحيوية ضروريـة». (فالحيوية هي الخاصية الأولى لرجـل الدولة)[٢٦] . وفيما عدا ذلك يظـل مخدوعا عادة، فيمتطيه أي موظف لديـه شيء من الخبرة. كان ماتفـي ايليتش يكـن اعمق الاحترام لغيزو. ويحاول اقنـا ع الجميع بأنه لا ينتمـي إلى الروتينيين والبيروقراطيين المتخلفين، وأنه لا يدع أي مظهر هام للحيـاة الاجتماعية دون أن يلتفـت إليه... كان مطلعـا خير اطلاع على امثـال هذه الكلمـات. حتى أنه كان يتابـع، ولو بتعـال واستهانة، تطور الادب الحديـث، كما يفعل الرجل عندما ينضم أحياناً إلى موكب الصبيان الـذي يصادفه في الطريق. لم يكن ماتفي ايليتش، في الواقع، يختلف كثيرا عن رجالات الدولة في عصر الاسكندر، أولئك الذين يطالعون في الصباح صفحة من كونديليـاك استعداداً لحضور أمسية عند السيدة سفيتشينا التي كانـت تقطن بطرسبورغ آنذاك، سوى أن أساليبه هي أساليب أخرى أكثر حداثـة. كان من افراد الحاشية اللبقـين وكان محتالاً جداً ولا شيء أكثر من ذلك. فلم يكن يعرف شيئاً في شؤون الخدمة و لم يكن يمتلك حصافة، لكنه يجيـد تدبير أموره الشخصيـة ولا يستطيع أحد أن يجاريه في ذلك، وهذا هو الأمر الرئيسي.

استقبـل ماتفي ايليتش اركادي بطيبـة القلب الملازمة للموظف الكبير المستنـير، بـل وبشيء مـن المداعبة. لكنه استغـرب عندما علـم أن قريبيه اللذيـن دعاهمـا ظلا في القريـة. فقال: «أبـوك غريب الاطـوار دوما». وأخذ ينشـ بشراريب ردائه المنزلي المخملي الرائـع، ثم توجه إلى موظف شـاب في بزة مهندمة علـى افضل ما يكون وهتف به فجـأة وبمسحة من الاهتمـام: «ماذا؟». اعتدل الشـاب الذي التصقت شفتـاه ببعضهما من

---

(٢٦) في الأصـل بالفرنسيـة L'energie est la premiére qualité d'un home d'éat.

طول السكوت ونظر إلى رئيسه متحيراً. إلا أن ماتفي ايليتش صرف نظره عـن مرؤوسـه بعد أن حيره. أن موظفينا الكبـار يحبون على العموم تحيير مرؤوسيهم، ثم أن الأساليب التي يلتجئون إليها لبلوغ هذا الهدف متنوعة للغايـة. وبالمناسبة فأن الاسلوب التـالي يحظى بانتشار واسع، إذ هو، كما يقـول الانجليز، الاسلوب (المفضل)[٢٧]: يكـف الموظف الكبير فجأة عن فهم ابسط الكلمات فيتظاهر بالصمم. ويسأل، مثلا، أي يوم في الاسبوع الآن؟

فيجاب باكمل قدر من الاحترام: «اليوم هو الجمعة يا صاحب المعالي».

– آ؟ ماذا؟ ماذا تقول؟ – يكرر الموظف أسئلته على نحو متوتر.

– اليوم هو الجمعة، يا صاحب المعالي.

– كيف؟ ماذا؟ ما هي الجمعة؟ أية جمعة؟

– الجمعة، يا صاحب المعالي، يوم من أيام الاسبوع.

– ماذا؟ هل تتجرأ على تعليمي؟

كان ماتفي ايليتش، مع ذلك، موظفا كبيرا، بالرغم من أنه يعتبر ليبراليا متحررا. قال لاركادي:

– انصحـك، يا صديقـي، أن تقوم بزيارة إلى المتصـرف. أنت تعرف أني انصحـك بذلك ليس لأنني متمسك بالمفاهيـم القديمة حول ضرورة التشريفات لدى السلطات، بل لمجرد أن المتصرف إنسان مستقيم، زد على ذلك أنك ربما ترغـب في التعرف على المجتمع هنا... فلست دبا على ما اعتقد؟ أما هو فسوف يقيم حفلة ساهرة كبرى بعد غد.

فسأل اركادي:

---

(٢٧) في الأصل بالانجليزية «is quite a favourite».

– هل ستحضر الحفلة أنت؟

– أنـه يقيمها من أجلـي – قال ماتفي ايليتش بما يكاد يشبه الاسف. – هل تجيد الرقص؟

– على نحو سيء.

– شـيء مؤسف. فهنا توجـد فاتنات، ثم أن من العيـب على الشاب أن لا يجيـد الرقص. اقول ذلك أيضـا ليس بحكم المفاهيم القديمة، فأنا لا اعتقـد أبدا بأن العقل ينبغي أن يكون في الرجلين، بيد أن البايرونية المقلدة مضحكة، (لقد ولى زمانها) [٢٨].

– ليس ذلك، يا عمي العزيز، بسبب البايرونية...

– سأعرفك على سيدات المدينة، وأحميك تحت جناحي، حيث ستجد الدفء، اليس كذلك؟ – قاطعه ماتفي ايليتش وقهقه بخيلاء.

دخـل الخـادم وأعلن عن وصول مديـر الخزينة، وهو شيـخ ذو عينين عسليتين وشفتـين متجعدتين، يهوى الطبيعـة إلى أقصى حد، وخصوصا في أيـام الصيف حيـث «تأخذ كل نحيلة رشفة مـن كل زهيرة» على حد تعبيره...

عـاد اركادي، فوجد بـازاروف في الخـان الذي نـزلاه. صرف وقتا طويلا في اقناعه بزيارة المتصرف، حتى قال بازاروف أخيرا: «ما في الأمر حيلة! ولا مجال للتراجع عما اقدمنا عليه! طالما وصلنا لمشاهدة الاقطاعيين فلنشاهدهـم!». استقبل المتصرف الشابين بترحـاب ولكنه لم يشر عليهما بالجلوس و لم يجلس هو الآخر. كان على الدوام في عجلة من امره. ففي الصباح يرتدي بدلتـه الرسمية وربطة عنق مشدودة على نحو خانق، ولا

---

(٢٨)– في الأصل بالفرنسية il a fait son temps.

يكمـل طعامه وشرابه، بل يصدر اوامره طوال الوقت. وكان سكان اللواء يلمحـون عادة إلى شخصيته الضعيفـة. لقد دعا هذا المتصرف كيرسانوف وبـازاروف لحضـور الحفلة الساهرة التـي سيقيمها، ولكنـه بعد دقيقتين دعاهمـا من جديد لحضور نفس الحفلة وخيل إليه هذه المرة أنهما شقيقان فسماهما بالاخوين كيساروف، وليس كيرسانوف.

كانـا عائدين إلى الخان من المتصرف عندما قفـز فجأة من عربة خفيفة قربهما شخص قصير القامة في سترة مجرية مما يرتديه أنصار النزعة السلافية واندفع نحو بازاروف هاتفا: «يفغيني فاسيليفيتش!».

فقال بازاروف مواصلا سيره على الرصيف:

– آ! هذا أنت، يا سيد سيتنيكوف، يا للمصادفة!

– تصـور، مصادفة بحت. – أجاب ذاك والتفت إلى العربة فلوح بيده للحوذي خمس مرات وصاح: – هيا اتبعنا، هيا! – ثم واصل كلامه قافزا عبر الساقية: – رجاني ابي... فلديه هنا تجارة... علمت اليوم بوصولكما فعرجت عليكما... (وبالفعل عندما عاد الصديقان إلى غرفتهما في الخان وجـدا هناك بطاقة ذات زوايا معقوفة وعليها اسـم سيتنيكوف بالفرنسية على جهة وبخط سلافي فني على الجهة الثانية). آمل انكما لستما عائدين من المتصرف!

– لا تأمل في ذلك. فنحن عائدان منه بالذات.

– أها! سأذهب إليـه أنا أيضا في هذه الحالة... يا يفغيني فاسيليفيتش، عرفني على صديـ... على سيادته...

– سيتنيكوف، كيرسانوف – دمـدم بازاروف دون أن يتوقف. فقال سيتنيكـوف مبتسما وهو يسير على نحو جانبـي ويشد باستعجال قفازيه الانيقين للغاية:

– مسرور جداً. سمعت الكثير جدا عن... أنا من قدامى معارف يفغيني فاسيليفيتش، ويمكنني القول بأنني تلميذه. وأنا مدين له بتحولي الفكري...

تطلع اركادي إلى تلميذ بازاروف. كانت مسحة من القلق والبلادة تغطي الملامح الضئيلة والمستساغة في الوقت ذاته على وجهه الحليق. كانت عينان غائرتان غير واسعتين تنظران بحدة واضطراب، وكان هو يضحك باضطراب أيضاً، بقهقهة متقطعة كما لو كانت متخشبة. ثم واصل كلامه:

– هل تصدقني؟ عندما قال يفغيني فاسيليفيتش بحضوري لاول مرة أنه يجب عدم الاعتراف بالشخصية احسست باعجاب لا حد له... وكأنما تفتحت ابصاري! وفكرت في نفسي: «ها قد عثرت آخر الأمر على إنسان!». وبالمناسبة ينبغي لك، يا يفغيني فاسيليفيتش، أن تزور من كل بد واحدة من السيدات هنا، وهي قادرة كليا على أن تفهمك، وستكون زيارتك لها عيدا حقيقيا. اعتقد أنك سمعت بها، أليس كذلك؟

– من هي؟ – سأل بازاروف دون اكتراث.

– (ايدوكسي)[٢٩]، يفدوكسيا كوكشينا. إنسانة رائعة، (متحررة)[٣٠] بكل معنى الكلمة، امرأة تقدمية. على فكرة، فلنذهب إليها سوية. أنها تعيش على مقربة من هنا. وسوف نتناول الفطور عندها. فانتما لم تفطرا بعد، اليس كذلك؟

– لم نفطر بعد.

– حسنا أنها افترقت عن زوجها، و لم تعد مرتبطة بأحد.

---

(٢٩) في الأصل بالفرنسية Eudoxie.

(٣٠) في الاصل بالفرنسية émacipée.

فقاطعه بازاروف:

– هل هي مليحة؟

– لـ... لا اعتقد.

– يا للشيطان! فلأي غرض تدعونا لزيارتها؟

– يا لك من منكت... ستسقينا قنينة شمبانيا. افليس ذلك كافيا؟

– هكذا اذن! يبدو أنك إنسان عملي حقا. وبالمناسبة، إلا يزال والدك يتاجر بالمسكرات؟

– لا يـزال – اجاب سيتنيكـوف بعجلة وقهقه بصريـر كالصأصأة – ماذا؟ هل تذهبان إليها؟

– لا أدري، في الواقع.

– اردت أن تشاهـد الناس، فاذهب – قال اركادي بصوت كالهمس. فسأل سيتنيكوف:

– وأنـت، يا سيـد كيرسانوف؟ تفضل أنت أيضـا، فلا يمكن الذهاب بدونك.

– كيف لنا أن ننهال عليها دفعة واحدة؟

– لا بأس. كوكشينا إنسانة رائعة.

– وهل ستقدم لنا قنينة شمبانيا؟ – سأل بازاروف. فأجابه سيتنيكوف:

– ثلاث قنان. انني اتعهد.

– بماذا؟

– برأسي.

– الافضل باموال ابيك. ومع ذلك فلنذهب.

١٣

الدار الصغيرة التي تسكنها افدوتيا نيكيتشينا (أو يفدوكسيا) كوكشينا من دور النبلاء المبنية على الطراز المسكوبي، وهي تقع في أحد الشوارع التي احترقت مؤخراً بمدينة . ومن المعروف أن مدن الالوية عندنا تحترق مرة كل خمسة أعوام. لاح فوق الرقعة المثبتة بصورة مائلة على الباب مقبض جرس صغير. وفي الدهليز استقبلت القادمين امرأة ترتدي قلنسوة خفيفة. ربما هي وصيفة وربما هي رفيقة لصاحبة الدار، مما يدل على المطامح التقدمية لهذه الاخيرة. وسألها سيتنيكوف: افدوتيا نيكيتيشنا موجودة؟ فتعالى صوت رفيع من الغرفة المجاورة:

– هذا أنت يا (فكتور)[٣١]؟ ادخل.

وفي الحال اختفت المرأة ذات القلنسوة.

– لست لوحدي – قال سيتنيكوف وهو يخلع سترته المجرية الطويلة بحيوية، وقد ظهر تحتها شيء يشبه حشية التدفئة أو البطانة الفضفاضة. ثم القى نظرة متحمسة على اركادي وبازاروف، في حين اجاب الصوت:

– لا فرق. (ادخلوا)[٣٢].

دخل الشبان غرفة تشبه مكتب العمل أكثر مما تشبه غرفة الاستقبال. كانت الاوراق والرسائل واعداد سميكة من المجلات الروسية، وأغلبها غير مفتوح، منتشرة على الموائد المغبرة، وقد القيت في جميع الانحاء اعقاب السجائر البيضاء. وعلى اريكة جلدية جلست في وضع يشبه

---

(٣١) في الأصل بالفرنسية Victor.

(٣٢) في الاصل بالفرنسية Entrez.

الاضطجاع امرأة لا تزال في عمر الشباب، وهي شقراء مشعثة بعض الشيء في بدلة حريرية ليست على قدر من الاناقة، واساور كبيرة تطوق يديها القصيرتين ومنديل مخرم يلف رأسها. نهضت من الاريكة والقت على كتفيها دون عناية معطفاً مخملياً مبطناً بفرو القاقم العتيق المائل إلى الاصفرار وقالت بكسل: «مرحباً يا (فكتور)»[٣٣] وصافحت سيتنيكوف، بينما قال هو على نحو متقطع مقلداً بازاروف:

– بازاروف، كيرسانوف.

– على الرحب والسعة – اجابت كوكشينا، ثم ركزت على بازاروف نظرات من عينيها المستديرتين اللتين لاح بينهما أنف محمر صغير، اخنس كاليتيم، واضافت قائلة: – أنا اعرفك – وصافحته هو الآخر.

تقزز بازاروف. لم يكن في قوام هذه المرأة المتحررة الباهت الدقيق شيء قبيح أبداً. إلا أن تعبير وجهها يترك في الناظر إليها انطباعاً غير مريح. وكان بود المرء أن يسألها عفوياً: «ماذا؟ هل أنت جائعة؟ أو ضجرة؟ أو خجولة؟ لماذا أنت متوترة؟». كانت، شأنها شأن سيتنيكوف، تشعر على الدوام بالضيق النفسي. وهي تتكلم وتتحرك بلا أدنى أثر للتكلف، ولكن على نحو اخرق في الوقت ذاته. ولعلها تعتبر نفسها كائناً بسيطاً طيب القلب، بيد أنه مهما فعلت من شيء، يخيل اليكم أن هذا الشيء بالذات هو ما لم تكن تريد فعله، فكل ما تفعله يبدو متعمداً، اي أنه لم يكن بسيطاً ولا طبيعياً.

– أجل، أجل، أنا اعرفك يا بازاروف – كررت القول (وكانت متمسكة بالعادة الملازمة لكثير من سيدات الالوية وسيدات موسكو في تسمية الرجال بألقابهم فقط منذ اليوم الأول لتعارف) – هل تريدون سيجارا؟

– بالطبع. – قال سيتنيكوف على الفور وقد جلس متراخياً على

---

(٣٣) في الاصل بالفرنسية Victor.

الكرسي رافعاً رجله إلى الأعلى – فليقدموا لنا الفطور، نحن جياع على نحو مرعب، بل وامري بتقديم قنينة من الشمبانيا.

– يا له من محب للنعيم! – قالت يفدوكسيا وضحكت (كانت لثتها العليا تتعرى من فوق أسنانها عندما تضحك)، أليس كذلك، يا بازاروف؟
– فقال سيتنيكوف بشيء من الاستعلاء:

– أنني أهوى الحياة المريحة وهذا لا يمنعني من أن أكون متحرراً.

– كلا، يمنعك! – هتفت يفدوكسيا، ولكنها امرت وصيفتا باعداد الفطور واحضار الشمبانيا. ثم أضافت مخاطبة بازاروف: – ما هو رأيك بهذا الخصوص؟ أنا واثقة من أنك توافقني.

– كلا – اعترض بازاروف – قطعة اللحم افضل من كسرة الخبز حتى من الناحية الكيمياوية.

– هل تدرس الكيمياء؟ أنها هوايتي، حتى أني ابتدعت بنفسي نوعاً من الدهان.

– دهان؟ أنت؟

– أجل، أنا. ولأي غرض، هل تعلم؟ لصنع الدمى، كيلا تتحطم رؤوسها. فأنا إنسانة عملية أيضاً. ولكن ليس كل شيء جاهزاً بعد. ينبغي أن اطالع ليبيغ. وبالمناسبة هل قرأت مقالة كيسلياكوف في «الوقائع الموسكوبية» عن عمل النساء؟ اقرأها من فضلك فأنت تهتم بمسألة المرأة، وبالمدرسة أيضاً، أليس كذلك؟ ما الذي يمارسه صديقك؟ وما اسمه؟

كانت السيدة كوكشينا تنثر اسئلتها الواحد تلو الآخر باستهانة رقيقة دون أن تنتظر الجواب عليها، كما يتكلم الأطفال المدللون عادة مع مربياتهم.

– اسمي اركادي نيكولايفيتش كيرسانوف، وأنا لا أمانع شيئا.

قهقهت يفدوكسيا.

– شيء مليح! ماذا؟ ألا تدخن؟ اتدري، يا فكتور، باني زعلانة عليك؟!

– لأي سبب؟

– يقـال أنك صرت تمدح جورج صاند من جديد. أنها امرأة متخلفة، ولا شـيء غـير ذلك! كيف يمكـن مقارنتها مع امرسـون؟! فليست لديها أيـة افـكار لا عن التربيـة ولا عن الفسلجـة ولا عن أي شـيء. وأنا واثقة مـن أنها لم تسمع حتى بعلـم الاجنة، فكيف يمكن بدون ذلك في عصرنا؟ (نشـرت يفدوكسيا يديها). آه، يا للمقالـة المدهشة التي كتبها يليسيفيتش بهذا الخصوص! أنه سيد عبقري! (اعتادت يفدوكسيا دوماً على استخدام كلمة «سيد» بدلاً من «شخص»). يا زاروف، اجلس قربي على الاريكة. ربما أنت لا تدري بأني أخاف منك أشد الخوف.

– لماذا؟ اسمحي لي أن اعرف.

– أنـك سيد خطر. ناقد لاذع. آه، يا إلهـي! من المضحك أنني أتكلم كلمـا تتكلم اقطاعية في قريـة نائيـة. وبالمناسبة، فأنا اقطاعيـة حقاً. ادير الضيعة بنفسي، ثم أن مختار القرية لدي، يروفي، لو تعلمون، سيد مدهش، مثل بطل كوبـر «باثفايندر». ففيه شيء من عدم التصنع! قررت أن أعيش هنا نهائياً. أنها مدينة لا تطاق، أليس كذلك؟ ولكن ليس في الأمر حيلة!

فقال بازاروف ببرود:

– مدينة كسائر المدن.

– اهتمامـات ضئيلة، هـذا هو الأمر الفظيـع! في السابق كنت اقضي الشتـاء مـن كل عام في موسكو... أمـا الآن فهناك يعيش زوجي المسيو كوكشـين. ثـم أن موسكو الآن... لا أدري... لم تعـد على ما يرام. أنني أفكر في السفر إلى الخارج. ففي العام الماضي كدت أتهيأ كلياً للسفر.

فسألها بازاروف:

– إلى باريس، أليس كذلك؟

– إلى باريس وهيديلبرغ.

– ما الداعي لهيديلبرغ؟

– كيف لا، فهناك بونزين!

لم يحر بازاروف جواباً.

– هل تعرف (بيير)[٣٤] سابوجنيكوف؟

– كلا، لا اعرفه.

– كيف؟ (بيير) سابوجنيكوف... أنه يزور ليديا خوستاتوفا على الدوام.

– أنا لا اعرفها هي أيضاً.

– تعهد بأن يرافقني. الحمد لله أنني حرة طليقة ليس لدي اطفال... ماذا قلت؟: الحمد لله! فليكن. لا فرق.

لفت يفدوكسيا سيجارة بأصابعها المسمرة من أثر التبغ وبللتها بلسانها ثم مصتها واشعلتها. دخلت الوصيفة تحمل صينية.

– ها هو طعام الفطور! تفضلوا إلى المائدة! يا فكتور افتح القنينة، فهذا اختصاصك.

– أجل، اختصاصي – دمدم سيتنيكوف ثم ضحك بصرير كالصاصاة مرة أخرى.

– هل توجد هنا حسناوات؟ – سأل بازراوف وهو يجهز على القدح الثالث. فأجابت يفدوكسيا:

(٣٤) في الأصل بالفرنسية Pierre.

– أجل، ولكنهن جميعاً فارغات. فمثلاً، (صديقتي)[٣٥] اودينتسوفا، لا عيب في حسنها. ولكن مما يؤسف له أن سمعتها ليست على ما يرام... لا ضير في ذلك، ولكنها لا تتمتع بأية حرية للرأي، وأي اتساع في الافق... مطلقاً. ينبغي تغيير نظام التربية بمجمله. ولقد فكرت في ذلك. فنساؤنا تربين تربية سيئة للغاية.

– لن تفعلي لهن شيئاً – تدخل سيتنيكوف – ينبغي احتقارهن، وأنا احتقرهن تماماً! (كانت امكانية الاحتقار والافصاح عن هذا الاحتقار أحب شيء لدى سيتنيكوف. وكان في الواقع يتهجم على النساء دون أن يعلم بأنه سوف يضطر بعد بضعة أشهر أن يتزلف إلى زوجته لسبب واحد هو أنها ابنة الأمير دوردوليوسوف). فما من واحدة منهن تستطيع أن تفهم حديثنا هذا، وما من واحدة منهن تستحق بأن نتكلم، نحن الرجال الجادين، عنها!

– لسن بحاجة مطلقاً إلى فهم حديثنا – قال بازاروف، فتدخلت يفدوكسيا:

– عمن تتكلم؟

– عن الحسناوات.

– كيف؟! يعني أنك تؤيد رأي برودون، أليس كذلك؟

عدل بازاروف قوامه بكبرياء وقال:

– لا أؤيد آراء أحد اطلاقاً. فلدي آرائي الخاصة.

– فلتسقط الشخصيات! – صاح سيتنيكوف فرحاً بالمناسبة التي تهيأت له كي يعرب عن أفكاره بقوة، بحضور الشخص الذي يتزلف إليه.

---

(٣٥) في الاصل بالفرنسية mon amie.

– غير أن ماكولي نفسه – ارادت كوكشينا أن تتكلم، ولكن صوت سيتنيكوف دوى:

– فليسقط ماكولي! هل تدافعين عن هؤلاء النسوة؟

– ليس عن النسوة، بل عن حقوق المرأة التي اقسمت على الدفاع عنها حتى آخر قطرة من دمي.

– فليسقط! – ولكن سيتنيكوف توقف عن الهتاف، ثم اضاف:

– أنني لا أنكر هذه الحقوق.

– كلا، يخيل الي أنك من انصار النزعة السلافية البحت!

– لست منهم، بالرغم من أنني طبعاً...

– كلا، ثم كلا. أنك من أنصار النزعة السلافية، ومن المتمسكين بالتعاليم المتزمتة البالية. لا يعوزك إلا سوط في اليد!

فقال بازاروف:

– السوط شيء حسن. ولكننا وصلنا إلى آخر قطرة...

– من ماذا؟ – قاطعته يفدوكسيا.

– من الشمبانيا، يا يفدوكسيا نيكيتشينا المبجلة، من الشمبانيا، وليس من دمك.

– لا أستطيع أن اسمع بلامبالاة أحداً يتهجم على النساء – واصلت يفدوكسيا كلامها – هذا أمر فظيع، فظيع. فبدلاً من أن تتهجموا عليهن من الافضل أن تقرأوا كتاب ميشليه «عن الحب»[٣٦]. شيء رائع! أيها

---

(٣٦) في الأصل بالفرنسية «De l'amour». جول ميشليه (١٧٩٨ – ١٨٧٤) كاتب ومؤرخ فرنسي. صدر كتابه المذكور عام ١٨٥٩. المترجم.

السـادة، فلنتحدث عن الحب. – قالت ذلك والقت يدها بفتورورقة على وسادة الاريكة المدعوكة. وخيم صمت فجائي. ثم قال بازاروف:

– كلا، مـا الداعي للكلام عن الحب. لقد ذكـرت اسم اوديتسوفا... هكذا سميتها، أليس كذلك؟ من هي هذه السيدة النبيلة؟

– لا اروع منهـا! – قـال سيتنيكوف بصرير كالصأصـأة – سأقدمك لهـا. ذكية، غنية، أرملة. ومـن المؤسف أنها غير متطورة بمـا فيه الكفاية. فمـن اللازم لها أن تتعرف بصورة اقرب علـى عزيزتنا يفدوكسيا. اشرب نخبك، يـا (يفدوكسي)[٣٧] ! فلنقرع الكؤوس! – ثم أخذ سيتنيكوف يترنم بالفرنسية:

«Et tok، et tok، et tin – tin – tin!

Et tok، et toke، et tin – tin – tin!!»

فقالت كوكشينا:

– أنت عابث لعوب يا (فكتور)[٣٨].

– استغرق الفطـور وقتاً طويلاً. ولحقت بقنينـة الشمبانيا الأولى ثانية وثالثة، بل ورابعة... كانت يفدوكسيا تثرثر بلا انقطاع. وكان سيتنيكوف يماشيها في الثرثرة. فقد تحدثنا كثيراً عن الزواج، وعما إذا كان تقليداً وهمياً أو جريمة. وعن الناس الذين يولدون، هل هم متماثلون أم لا؟ وفيم يكمن التفرد الشخصي في الواقع؟ وأخيراً احتقنت يفدوكسيا كلياً بما احتسته من نبيذ وأخذت تنقر بأظافرها المسطحة على مفاتيح البيانو المشوش وشرعت تنشـد بصوت مبحوح بعضاً من أغاني الغجر في البداية ثم موال سيمور–

---

(٣٧) في الاصل بالفرنسية Eudoxie.

(٣٨) في الاصل بالفرنسية.

شيف «غرناطة الناعسة»، بينما شد سيتنيكوف رأسه بوشاح ومثل دور العشيق الولهان عندما غنت هي كلمات:

وتلتحم شفتاك بشفتي

في قبلة حرى

نفد صبر اركادي فقال أخيراً بصوت مسموع: «يا سادة، غدا الأمر اشبه بدار المجاذيب».

أما بازاروف الذي كان نادراً ما يضيف كلمة ساخرة إلى الحوار – إذ أنه مشغول بالشمبانيا أكثر من غيرها – فقد تثاءب بصوت عال ونهض ثم خرج مع اركادي دون أن يودع صاحبة الدار. هرع سيتنيكوف في أثرهما متسائلاً:

– ماذا؟ ماذا؟ – وأخذ يتملقهما ويتراكض حولهما تارة من اليمين وتارة من الشمال – ألم أقل لكما أنها شخصية رائعة؟! كثر الله من أمثالها! أنها ظاهرة اخلاقية سامية في الواقع.

– ومؤسسة ابيك هذه هل هي ظاهرة اخلاقية سامية أيضاً؟ – سأل بازاروف وهو يشير باصبعه إلى الحانة التي مروا قربها في تلك اللحظة.

قهقه سيتنيكوف من جديد بصرير كالصأصأة. كان يخجل كل الخجل من منحدره العائلي، وما كان يدري هل يتعين عليه أن يعتبر كلمات بازاروف الخشنة المفاجئة اطراء أم اهانة.

١٤

بعد بضعة أيام اقيمت الحفلة الساهرة لدى المتصرف. وكان ماتفي ايليتش «بطل الحفلة» حقاً. فقد اعلن رئيس نبلاء اللواء على رؤوس الاشهاد أنه جاء، في الواقع، احتراماً له، بينما واصل المتصرف «اصدار

الأوامـر» حتـى في الحفلة مع أنـه ظل ساكناً بـلا حراك. أمـا رقة ماتفي ايليتشـ في مخاطبـة الآخريـن فكانت تضاهـي عظمته بـلا نقصان. كان يداري الجميـع، بعضهم بنأمة من الاشمئزاز وبعضهـم الآخر بمسحة من الاحترام، ويحاول جهده أن يبدو أمام السيدات بمظهر (الفارس الفرنسي الحقيقـي)[39]، ويقهقه دون كلـل بتلك الضحكة الرتيبـة العريضة الرنانة التي تليق بالموظفين الكبار.

طبطـب على ظهر اركادي وناداه بصوت عال «يا ابن اختنا العزيز»، وتفضـل على بـازاروف ذي البزة العتيقة على الشـيء بنظرة هائمة عابرة ولكنها متساهلة انبعثت منه عبر وجنته، وبفحيح ترحيبي مبهم لم يفهم منه سوى «أنا...» «جدا...». وقدم اصبعه لسيتنيكوف كي يصافحه وابتسم له، وهو يشيح عنه في الوقت ذاته. وقال «مفتون بك»[40] حتى لكوكشينا التـي حضرت ترتدي قفازات قذرة وبـدون تنورة الحفلات المنتفخة، غير أنها شكّت شعرها بدبوس طائر الجنة. كان هناك جمهور غفير من الناس.

ولا نقصـ في عدد الرجـال. كان المدنيون قد حوصـروا بأغلبهم إلى الجـدران، بينمـا راح العسكريـون يرقصـون ببالـغ الجهـد، وخصوصاً واحـد منهم، كان قد عاش في باريس سـتـة أسابيع فتعلم مختلف الهتافات الفرنسية المتهورة من أمثال «يا للشيطان!» و «يا للعجب!» و «ها، ها، يا صغيرتي»[41].

راح يتلفـظ هـذه الهتافـات على أحسن مـا يكون، بلهجـة باريسية فاخـرة، ولكنه، فيما عدا ذلك، كان يحطم اللغة الفرنسية تحطيماً، أي أنه يتكلم باللهجة الفرنسيـة – الروسية التي يسخر منها الفرنسيون عندما لا

(٣٩) في الأصل بالفرنسية en vrai chevalier français.
(٤٠) في الأصل بالفرنسية «Enchante».
(٤١) في الأصل بالفرنسية «Pst، Pst، mon bibi» «Ah fichtree»، «Zut».

يشعرون بحاجة إلى أن يقولوا لنا في مجاملة بأننا نتكلم بلغتهم كما يتكلم الملائكة.

لم يكن اركادي يجيد الرقص، كما نعلم، أما بازاروف فلم يمارس الرقص مطلقاً. ولذلك انزويا في ركن، فانضم إليهما سيتنيكوف الذي تظاهر بمسحة من السخرية المستنكفة وأخذ يطلق ملاحظات جارحة ويسلط نظرات وقحة على ما حواليه، وبدا وكأنه يتمتع بلذة خالصة. وعلى حين غرة تبدلت سحنته فالتفت إلى اركادي وقال بشيء من الارتباك «وصلت اودينتسوفا».

التفت اركادي فرأى امرأة فارعة القوام في بدلة سوداء توقفت عند باب الصالة. ادهشته بروعة قدها الممشوق. يداها العاريتان مستقرتان على نحو جميل إلى جانبي خصرها الاهيف. واغصان الفوشية الخفيفة تتدلى على نحو جميل أيضاً من شعرها اللامع على كتفيها المنحدرتين. وعيناها الفاتحتان تبعثان من تحت جبينها الابيض البارز بعض الشيء نظرات ثاقبة هادئة، هادئة بالذات وليس متأملة. وشفتاها تبتسمان ابتسامة تكاد لا تلحظ. كان محياها يبث قوة ما، رقيقة حنوناً.

– هل تعرفها؟ – سأل اركادي من سيتنيكوف.

– أعرفها جيداً. أتريد أن اقدمك إليها؟

– حبذا... بعد هذه الرقصة.

تنبه بازاروف هو الآخر إلى اودينتسوفا. فقال:

– ما هذا القد؟ أنها لا تشبه الاخريات.

انتظر سيتنيكوف حتى انتهت الرقصة فاصطحب اركادي إلى اودينتسوفا. ومن المشكوك فيه أنه كان يعرفها جيداً: فقد تلعثم في اقواله، بينما نظرت هي اليه بشيء من الاستغراب. إلا أن وجهها اكتسى بمسحة

مـن الترحاب عندما سمعـت لقب اركادي. فسألته عمـا إذا كان هو ابن نيكولاي بتروفيتش.

– بالضبط.

– رأيـت والـدك مرتين وسمعـت عنه الكثير. يسرني جـداً أن اتعرف عليك – واصلت كلامها.

وفي تلـك اللحظـة اقـترب منها ضابـط ودعاهـا لرقصـة الكدريل. فوافقت.

– هل ترقصين يا ترى؟ – سألها اركادي باجلال.

– أجل. فلماذا تظن بأني لا ارقص؟ أم أني ابدو لك طاعنة في السن؟

– عفـواً، كيف ذلك... ولكن في هـذه الحالة اسمحي لي بأن ادعوك لرقصة المازوركا.

ابتسمت اودينتسوفا متسامحة وقالت:

– تفضـل. – وسلطـت علـى اركادي نظرة، أن لم تكـن متعالية فهي شبيهـة بنظـرات الاخوات المتزوجـات إلى اخوانهن الذيـن لا يزالون في مقتبل العمر.

لم تكن اودينتسوفا أكبر مـن اركادي بكثير. فقد دشنت عامها التاسع والعشرين ولكنه كان يشعر في حضورها بأنه تلميذ أو طالب، وكأنما الفرق في عمريهما أكبر من ذلك بكثير. اقترب منها ماتفي ايليتش ومظهره يدل علـى العظمة واقوالـه تنم عن التزلف. فانـزوى اركادي جانباً ولكنه ظل يتطلع إليها. و لم تفارقها نظراته خلال رقصة الكدريل أيضاً. كانت تتكلم بـلا تكلف مع مراقصها، مثلما تكلمت لتوها مع الموظف الكبير، وكانت تميـل برأسها وانظارها بهدوء، وقد ضحكـت مرتين بخفوت. كان انفها كبـيراً بعض الشيء كأنوف جميـع الروس تقريباً، و لم يكـن لون بشرتها

صافياً لحـد الكمال، ومع ذلك تصور اركادي أنـه لم يقابل ابداً مثل هذه المرأة الرائعة. و لم تكن نغمات صوتها لتفارق مسمعه، وحتى طيات بدلتها بدت له على غير ما هي عليه لدى الاخريات، كانت اوسع وأكثر استقامة، وكانت حركاتها متناسقة على نحو خاص وطبيعية في الوقت ذاته.

أحسـ اركادي بشـيء من الوجـل في الفؤاد حين تقـدم إلى صاحبته عندما تهـادت أولى انغام المازوركا، وعندمـا اراد أن يتكلم معها لم يفعل غـير أن مسد شعـره بيده دون أن يعـثر على كلمة واحـدة مناسبة. الا أن وجلـه واضطرابه لم يستمرا طويـلا، فقد انتقلت إليه عـدوى الهدوء من اودينتسوفـا. و لم يمض ربع ساعة إلا وصار يتحدث بطلاقة عن ابيه وعمه وعـن الحياة في بطرسبـورغ وفي القرية. استمعت إليـه اودينتسوفا بأدب وانتبـاه، وكانـت تفتح مروحتهـا وتغلقها بعضـ الشـيء. كان اركادي يتوقف عن الثرثرة عندما يدعوها الراقصون للرقص. وبالمناسبة فقد دعاها سيتنيكوف مرتين. كانت تعود فتجلس من جديد وتلتقط المروحة، وحتى صدرهـا لم يكن يتنفس اسرع من المعتاد، بينما يواصل اركادي ثرثرته من جديـد، وهو مغمـور بفرحة وجـوده قربها والتحدث إليهـا والتطلع إلى عينيها، وإلى جبينها الرائع، وإلى محياها البديع الذي ينم عن وجاهة وذكاء. كانت قليلة الكلام، ولكن معرفتها بالحياة تجلت في كلماتها القليلة. ادرك اركادي مـن بعضـ ملاحظات هذه المـرأة التشابه أنه تيسـرت لها معرفة الكثير والتمعن في أمور جمة...

– مـن ذلك الذي كان واقفاً معك قبيـل أن رافقك السيد سيتنيكوف الي؟ – سألته، فسألها اركادي بدوره:

– هل لاحظته؟ ما اجمله، أليس كذلك؟ أنه صديقي بازاروف.

وطفق اركادي يتجدث عن «صديقه».

تحـدث عنه باسهـاب واعجاب جعلا اودينتسوفا تلتفـت إليه وتسلط

عليـه نظرة متفحصة، في حين كانت المازوركا تقترب من نهايتها. ما اشد اسـف اركادي لمفارقة صاحبتـه: فقد صرف معها زهـاء ساعة من احلى الاوقـات! صحيح أنه كان طوال هذا الوقت يشعـر وكأنها متفضلة عليه وكأنمـا ينبغـي أن يكون ممتناً لهـا... إلا أن مثل هذا الشعـور لا يثقل على الافئدة الفتية.

صمت الموسيقى.

فقالت اودينتسوفا ناهضة:

– (شكـرا)[٤٢]. وعدتنـي بزيارتـي، فاصطحـب صديقـك معـك. وستكون في منتهى الطرافة رؤية شخص يتجاسر على عدم الايمان بشيء.

اقـترب المتصرف من اودينتسوفا فأعلـن أن العشاء جاهز وقدم لها يده وقـد اكتسى وجهه بمسحة من الاهتمام. التفتت أودينتسوفا، ذاهبة، لكي تبتسـم لاركادي وتحنـي له رأسها لآخر مـرة. انحنى هـو انحناءة واطئة ولاحقها بنظراته (فكم اعجبه اعتدال قوامها الملفع بلمع رمادي من الحرير الاسـود!) وفكـر في نفسه: «في هـذه اللحظة لم تعـد تتذكر وجودي»، واحس باستسلام رهيف يكتنف جوانحه...

– مـاذا؟ – سأل بازاروف اركادي حالما عاد هذا إليه في الركن – هل تمتعـت؟ قال لي أحد النبـلاء الآن أن هذه السيدة «مـن الصنف المطواع» بيـد أن ذاك النبيـل احمق على ما يبدو. وفي رأيك هـل هي «من الصنف المطواع» حقا؟

فأجاب اركادي:

– أنني لا أفهم هذا النعت حق الفهم.

---

(٤٢) في الأصل بالفرنسية Merci.

– يا للبراءة العذرية!

– اذن فأنا لا أفهم نبيلك ذاك. اوديتسوفا فاتنة جداً، دون شك، ولكنها تتصرف ببرود وصرامة بحيث...

– في الماء الساكن تختبئ العفاريت. – اجابه بازاروف. – تقول أنها تتصرف ببرود. وذلك ذوق رفيع. أنت تحب المرطبات، أليس كذلك؟

فدمدم اركادي:

– ربما لا يمكنني أن احكم على ذلك. أنها تريد أن تتعرف عليك ورجتني أن اصطحبك إليها.

– أتصور كيف بالغت في الحديث عني! ومع ذلك حسنا فعلت. خذني إليها، ولا فرق إذا كانت هي معبودة اهالي اللواء أو «متحررة» على شاكلة كوكشينا، فأن لديها كتفين لم ار مثلهما من زمان.

تألم اركادي لوقاحة بازاروف، ولكنه لام صديقه، كما يحدث غالباً، ليس على الشيء الذي ازعجه فيه... فسأله بهدوء:

– لم لا تريد للنساء أن يتمتعن بحرية الفكر؟!

– ذلك، يا أخي، لأني لاحظت أن القبيحات وحدهن يفكرن بحرية.

توقف الكلام عند هذا الحد. وغادر الشابان المكان فور انتهاء العشاء. فشيعتهما كوكشينا بضحكة عصبية حاقدة، ولكن بشيء من الاستحياء، فقد اهينت كرامتها لأن هذا وذاك لم يلتفتا إليها. ظلت في الحفلة آخر الجميع، وفي الساعة الرابعة ليلاً رقصت مع سيتنيكوف المازوركا البولونية على الطريقة الباريسية. وبهذا المشهد الكبير الدلالة اختتمت حفلة المتصرف.

١٥

في اليـوم التالي قال بازاروف لاركادي وهمـا يرتقيان سلم الفندق الذي نزلت به اودينتسوفا:

– سنرى إلى أيـة فصيلة من الثدييات تنتمي هذه المرأة. يخيل الي أن شيئا ما هنا ليس على ما يرام.

فهتف أركادي:

– أنـك تدهشني! كيـف؟ كيف يجوز لـك، أنت بـازاروف، أن تتمسك بتلك الاخلاق المتحجرة التي...

– يـا لغرابة اطوارك! – قاطعه بازاروف باستهانة. – أفلا تعرف أن تعبير «ليس على ما يرام» يعني في لهجتنا، وبالنسبة لنا، «على ما يرام»؟ أي أن هناك غنيمة ما. افلست أنت الذي قلت اليوم أنها تزوجت على نحـو يثير الاستغراب، بالرغم مـن أن الزواج من عجوز غني ليس، في رأيـي، بالأمر الغريب أبداً، بل هو، على العكس، خطوة حكيمة. أنني لا اصدق الاقاويل الشائعـة في المدينة، ولكنني اميل إلى الاعتقاد، كما يقول متصرفنا المستنير، بأنها صادقة.

لم يجب اركادي بشيء، وطرق الباب. رافق وصيف شاب يرتدي بـزة الخدم كلا الصديقـين إلى غرفة واسعة مؤثثة علـى نحو سيئ، كما هـو شأن كل الغرف في الفنادق الروسية، ولكنها تكاد تغص بالزهور. وسرعان ما ظهرت اودينتسوفا نفسها في فستان صباحي بسيط. بدت أكـثر فتوة في ضوء شمس الربيع. قـدم اركادي لها بازاروف، ولاحظ بدهشة خفية أن هذا قـد ارتبك شيئاً، في حين ظلت اودينتسوفا هادئة كلياً، مثلما كانت بالامس. واحس بازاروف نفسه بأنه ارتبك، فاكتأب لذلك، وفكر في نفسه: «يا للعجب! ارتعبت من امرأة!» ثم ارتمى على الكرسي بهيئة طليقة ليسـت افضل من هيئة سيتنيكوف، وشرع يتكلم

مغالياً في عدم التكلف، بينما لم تحول اوديتتسوفا عنه عينيها الصافيتين.

ولـدت آنا سيرغييفنـا اوديتتسوفا من سيرغـي نيكولايفيتش لوكتيف المقامر والنصاب الوسيم المعروف الذي ذاع صيته طوال خمسة عشر عاماً تقريبـاً على سكني القرية، وسرعـان ما وافته المنية هناك، فترك ثروة ضئيلة جـداً لابنته آنا البالغة من العمر عشرين عاماً وكاترينا البالغة من العمر اثني عشـر عاماً. وكانت امهما، وهي من سلالة الامراء خ... الذين احاق بهم الافلاس، قـد توفيت في بطرسبورغ عندمـا كان زوجها لا يزال في اوج ازدهاره. كانت حالة آنا بعد وفاة ابيها عسيرة للغاية. فالتربية الممتازة التي تلقتهـا في بطرسبورغ لم تكن قد اعدتها لتحمل أعبـاء المعيشة والشؤون المنزليـة ولا لحياة الريف الخاوية. ولم تكن تعـرف أحداً على الاطلاق في المنطقـة كلها، ومـا كان بوسعهـا أن تلتمس النصح من أحـد. كان أبوها يتحاشـى الاتصال بالجـيران، فقـد كان يحتقرهم وكانوا هـم يحتقرونه كل علـى طريقته الخاصة. إلا أنها لم تفقـد رشدها، فاستدعت على الفوز خالتهـا الأمـيرة افدوتيا ستيبانوفنـا خ...، وهي عجوز شريـرة متعجرفة استأثـرت بأفضل الغرف حالمـا انتقلت إلى دار ابنة اختها وصارت تدمدم وتتذمر من الصباح إلى المساء، وحتى عندما تتمشى في البستان تصطحب وصيفها الوحيد القن المتجهم بعمرته المثلثة وبزته المتهرئة الصفراء الضاربة إلى الخضـرة والمقصبة بشريط ازرق. تحملـت آنا بصبر كل نزوات خالتها، وواظبت على تربية اختها شيئا فشيئا، وكادت تستسلم لفكرة الذبول في الريف... إلا أن القدر اعد لها مصيراً آخر. فقد لمحها صدفة شخص ثري جـداً اسمه اوديتتسـوف. كان في السادسة والاربعـين من العمر، غريب الاطوار منقبض النفس، بديناً ثقيلاً متجهماً. ولكنه لم يكن بليداً ولا شريراً. اغـرم بها وطلب يدها فوافقت على الزواج منـه. غير أنه عاش معها زهاء ستة اعوام وقضى نحبه مخلفا لها كل ثرواته. قضت آنا سيرغييفنا زهاء عام بعـد وفاته دون أن تغادر القرية، ثم سافرت مع اختها إلى الخارج، ولكنها

زارت المانيـا فقط فانتابهـا الحنين وعادت لتعيش في قريـة نيكولسكويه المحببـة إليها والتي تبعد زهاء اربعين كيلومتراً عن مدينة . لديها هناك دار فاخرة مؤثثة على نحو ممتـاز وبستان رائع ذو مشاتل زجاجية: فالمرحوم اودينتسـوف لم يبخل علـى نفسه بشـيء. كانت آنا سيرغييفنـا نادراً ما تسافـر إلى المدينة لقضاء بعض الاشغال في أغلب الحالات، ولأمد قصير. ولم يكـن الآخرون في اللـواء يحبونها، فكانوا يستفظعـون زواجها من اودينتسـوف ويروجون مختلف الاشاعات عنها ويزعمون بأنها ساعدت أباهـا في احابيله وغشه، وأنها لم تسافـر إلى الخارج عبثا، بل لغرض ستر عواقـب وخيمة... وكان المتحدثون الغاضبون يضيفون إلى ذلك قائلين: «هل انتم فاهمون؟». كانوا يقولون أنها «اجتازت النار والحديد». وكان المنكـت المعروف في اللـواء كله يضيف إلى ذلك عـادة: «... والانابيب النحاسيـة أيضاً». وكانت كل هـذه الاقاويل تبلـغ مسامعها، ولكنها لا تعيرها اهتماماً. فهي ذات طبع طليق حازم.

جلسـت اودينتسوفـا متكئة على مؤخـرة المقعد فوضعـت يداً على يـد وهي تستمع إلى بـازاروف الذي تحدث كثيراً، خلافـاً لعادته، وكان واضحاً أنه يحاول الهـاء محدثته، مما اثار استغراب اركادي من جديد. لم يكن اركادي واثقاً مما إذا كان بازاروف قد بلغ مقصده أم لا. فمن الصعب الحكـم، حسب تعابير وجه آنا سيرغييفنا، على الانطباعات التي تكونت لديها. إذ أن محياها احتفـظ بتعبير واحد، رقيق بشوش، وومضت عيناها بانتبـاه هادئ لا يعكـر صفوه شيء. كان تصنع بـازاروف في اللحظات الأولى للزيـارة قد اثـار استياءها، كما تثـير الاستياء الرائحـة الكريهة أو الصـوت الحـاد، ولكنها ادركـت في الحـال أن ذلك بسبـب الارتباك، فانفجـرت اساريرهـا. كان شيء واحد فقط يثير نفورهـا وهو الابتذال، إلا أنـه ما من أحد بوسعه أن يتهـم بازاروف بالابتذال. وتعرض اركادي في ذلك اليوم للدهشة المرة تلو الاخرى. فقد كان يتوقع من بازاروف أن

يتكلم مع اودينستوفا، كما يتكلم مع امرأة حصيفة، عن معتقداته وآرائه. فقد اعربت عن رغبتها في الاستماع إلى الشخص «الذي يتجاسر على عدم الايمان بشيء». ولكن بازاروف، بدلاً من ذلك، صار يتحدث عن الطب والصيدلة وعلم النبات. واتضح أن اودينتسوفا لم تضيع الوقت سدى في وحدتها: فقد طالعت طائفة من الكتب الجيدة، وكانت تتكلم بلغة روسية سليمة. سارت بالحديث إلى الكلام عن الموسيقى. لكنها لاحظت أن بازاروف لا يعترف بالفن، فعادت بشكل غير ملحوظ إلى علم النبات، مع أن اركادي تهيأ للكلام عن أهمية الانغام الشعبية. واستمرت اودينتسوفا على معاملته كما يعامل الأخ الاصغر. خيل إليه أنها تقدر فيه طيبته وبساطة الفتوة لا أكثر. استغرق الحديث أكثر من ثلاث ساعات، وكان متأنياً متنوعاً حيوياً.

نهض الصديقان في آخر الأمر وودعا آنا سيرغييفنا فنظرت إليهما برقة وحنان ومدت يدها البيضاء الجميلة إلى احدهما ثم إلى الآخر، وفكرت قليلاً ثم قالت بابتسامة طيبة متهيبة:

– إذا كنتما، أيها السيدان، لا تخشيان الملل فتعالا إلى في نيكولسكويه.

فهتف اركادي:

– شكراً، يا آنا سيرغييفنا، أني اعتبر ذلك منتهى السعادة...

– وأنت، يا مسيو بازاروف؟

اكتفى بازاروف بانحناءة، مما أثار دهشة اركادي للمرة الاخيرة، فقد لاحظ أن وجه صديقه قد احمر شيئا.

وقال له في الشارع: – ماذا؟ إلا تزال على رأيك بخصوص «الصنف المطواع»؟

– من يدري؟! إلا ترى كيف جمدت نفسها؟! – اعترض بازاروف،

ولكنـه اضاف بعد قليل: – أنهـا دوقة متسلطة. لا يعوزها غير حلة طويلة الاذيال وتاج على الرأس.

– دوقاتنا لا يتكلمن الروسية بهذه الطلاقة.

– لقد ذاقت الأمرين، يا اخي، وعركت الحياة مثلنا.

– ومع ذلك فهي في منتهى الروعة – قال اركادي. فواصل بازاروف كلامـه: – يا له مـن بدن موفور. لا بد مـن نقله إلى طاولـة التشريح على الفور.

– كفاك هذراً يا يفغيني! بالله عليك! بلغ السيل الزبى.

– لا تزعـل، أيهـا الفتى الرقيق. قلنا لك جاديـن أنها من صنف ممتاز. وينبغي أن نذهب إليها.

– متى؟

– بعـد غد مثلاً. فما الذي نفعله هنا؟ هل نظـل نحتسي الشمبانيا مع كوكشينـا؟ أم نستمع إلى قريبك الموظف اللبرالي الكبير؟.. سنشد الرحال بعـد غد. ثم أن ضيعة أبي المتواضعة ليست بعيدة من هناك. نيكولسكويه تقع على طريق ، أليس كذلك؟

– بلى.

– (حسنـا)[٤٣]. لا داعي للتواني، فـلا يتوانى إلا الحمقى والمتظاهرون بالذكاء. أقول لك: أنه بدن موفور!

بعـد ثلاثة أيـام شد الصديقـان الرحال إلى نيكولسكويـه. كان النهار وضاء معتدل الحـرارة. وكانت خيول البريد المتخمة تنهب الطريق بوئام، وهي تلـوح دون عناء بذيولها الملتوية المتشابكـة. أخذ اركادي يتطلع إلى

---

(٤٣) في الأصل باللاتينية Optime.

الطريق ويبتسم دون سبب واضح. إلا أن بازاروف هتف فجأة:

- يمكنك أن تهنئني. فاليوم، الثاني والعشرين من يونيو، عيد ملاكي الحارس. وسنرى إلى أي حد هو مهتم بي، - ثم اضاف بصوت خفيض:
- في البيت ينتظرونني اليوم... فلينتظروا، ما أهمية ذلك؟!

١٦

تقع الضيعة التي تقطنها آنا سيرغييفنا على هضبة مكشوفة معتدلة الانحدار على مسافة غير بعيدة عن كنيسة حجرية صفراء ذات سقف أخضر واعمدة بيضاء ومدخل مزين في اعلاه برسم جداري[٤٤] يمثل «قيام المسيح» على الطراز «الايطالي». وكانت رائعة على الخصوص الملامح المستديرة في صورة محارب اسمر يرتدي خوذة فولاذية ويتصدر الرسم منبطحاً. ووراء الكنيسة امتدت القرية بصفين من اكواخ تبدو على بعضها مداخن فوق سطوح من القش. وكانت دار اودينتسوفا مبنية بنفس طراز الكنيسة، وهو الطراز المعروف عندنا باسم الاسكندري. وهي مطلية كذلك بدهان اصفر ولها سطح اخضر واعمدة بيضاء وقوصرة مثلثة ذات شعار. وقد انشأ معماري اللواء كلتا البنايتين بموافقة المرحوم اودينتسوف الذي لم يطيق التجديدات الفارغة الاعتباطية على حد تعبيره. وتحاذى الدار من كلا الجانبين اشجار البستان القديم المعتمة، ويؤدي إلى مدخلها ممر من أشجار الشوح المقلمة.

استقبل صاحبينا في الدهليز وصيفان فارعا القامة، اسرع احدهما على الفور لاستدعاء كبير الوصفاء. كان هذا رجلاً بديناً في بزة رسمية سوداء. حضر في الحال ورافق الضيفين على السلم المفروش بالسجاد إلى غرفة

(٤٤) في الاصل بالايطالية al fresco.

خاصة فيها سريران مـع جميع مستلزمات الزينة والغسيل. يبدو أن النظام سائد في الدار: فـكل شيء نظيف، وفي كل الانحاء تفوح روائح مقبولة، كما في صالات الاستقبال في الوزارات.

قال كبير الوصفاء:

– آنا سيرغييفنا ترجوكما أن تشرفاها بعد نصف ساعة. فهل من أوامر أو توجيهات؟

فأجاب بازاروف:

– ليست لدينا اوامر، أيها المحترم، سوى قدح من الفودكا إذا تفضلت.

– سمعاً وطاعة يا سيـدي – قال كبير الوصفاء بشيء من الاستغراب، وذهب مصراً بجزمته. فعلق بازاروف:

– يا له من اسلوب راق مهيب! أليس كذلك؟ أنها دوقة حقاً.

فاعترض اركادي:

– ايـة دوقـة هـي إذا كانـت قـد دعـت لضيافتها منـذ اللقـاء الأول ارستقراطيين شديدي البأس مثلنا؟!

– وخصوصاً أنا، طبيب المستقبـل، أين الطبيب وحفيد القندلفت... أنت تعلم أني حفيد قندلفت، أليس كذلك؟

– مثل سبيرانسكي – اضاف بازاروف بعد فترة صمت قصيرة وقد زم شفتيـه... – ومع ذلك فقد دللت هذه السيدة نفسها. ما اشد دلالها! أفلا يتعين علينا أن نرتدي بزة رسمية؟!

اكتفـى اركادي بـأن هـز كتفيـه... ولكنه هـو الآخر احسـ ببعض الارتباك.

بعد نصـف ساعة دخل بـازاروف واركادي غرفـة الاستقبال. وهي

غرفة واسعة عالية السقف مؤثثة بأثاث فاخر تماماً ولكن بدون ذوق رفيع. الموبيليا الثقيلة الثمينة مصفوفة على طول الجدران المزينة بورق بني موشح بلـون ذهبـي. كان المرحوم اودينتسـوف قد اقتناهـا في موسكو بواسطة صديقـه ووكيله تاجـر الخمور. وفـوق الاريكة الوسطـى علقت صورة رجل اشقر مترهل، بدا وكأنه يسلط على الضيفين نظرة غير ودية. فهمس بازاروف لاركادي: «أنه هو على ما يبدو»، ثم اضاف وقد انكمش انفه: «مـاذا؟ هـل نهرب؟» إلا أن ربـة البيت دخلت في تلـك اللحظة. كانت ترتدي فستانـاً خفيفاً. وكان شعرها المصفف على نحو املس وراء اذنيها قد اضفى مسحة عذرية على محياها الطري الصافي.

بدأت كلامها قائلة:

– اشكركمـا على الوفاء بالوعد. ارجو أن تقيما في ضيافتي. الاحوال هنا ليست سيئة في الواقع. وسأعرفكما على اختي. أنها تجيد العزف على البيانـو. وهـذا لا يعني شيئـا بالنسبة لك يا مسيو بـازاروف، ولكنك، يا مسيـو كيرسانوف، تحـب الموسيقى كما يخيـل الي. وبالاضافة إلى اختي تعيش عندي خالتـي العجوز، وفي بعض الاحيان يزورنـا أحد الجيران فنلعب الورق. ذلك هو مجتمعنا كله. أما الآن فلنجلس.

تلفظـت اودينتسوفـا هذه الخطبـة القصيرة بمنتهى الوضـوح، كما لو كانت قد حفظتها عن ظهر قلب. ثم وجهت كلامها إلى اركادي، واتضح أن أمهـا كانت تعـرف أم اركادي، بل وكانت حافظة سر حبها لنيكولاي بتروفيتش. وتكلـم اركادي بحماس عن المرحومة والدتـه، بينما انشغل بازاروف في تصفح الالبومات وفكر في نفسه: «كم صرت وديعاً!».

هرعت إلى غرفة الاستقبال كلبة سلوقية جميلة بطوق ازرق، واخذت تداعب الارضية بمخالبها. وعلى أثرها دخلت فتاة في حوالي الثامنة عشرة ذات شعر أسود ومحيا اسمر لطيف مستدير بعض الشيء وعينين سوداوين

واسعتـين. كانـت تحمل سلة مليئـة بالزهـور، فأومأت إليهـا اوديتسوفا بحركة من رأسها وقالت:

– هذه اختي كاتيا.

سلمـت كاتيا على الحاضرين ثم جلست قرب اختها واخذت تصفف الزهور، بينما اقتربت الكلبـة السلوقية، واسمها فيفي، من الضيفين وهي تهـز ذيلها، ودست انفها البارد في يد احدهما ثـم في يد الآخر. وسألت اوديتسوفا اختها:

– هل جمعت كل هذه الزهور بنفسك؟

فأجابت كاتيا:

– أجل.

– وخالتنا، هل ستأتي لتناول الشاي؟

– ستأتي.

عندمـا تتكلم كاتيا تبتسـم على نحو رقيق للغايـة، باستحياء وصراحة وتنظـر من الاسفل إلى الاعلـى بشكل طروب وبشيء مـن الصرامة. كل شيء فيها لا يـزال غضاً نضيراً: صوتها والزغب على وجهها كله واليدان الورديتان براحتيهما المائلتين إلى بياض والكتفان المضغوطتان بالكاد... كانت مصطبغة بالاحمرار دوما وكانت تتنفس بصورة متلاحقة سريعة.

التفتت اوديتسوفا إلى بازاروف قائلة:

– أنـك، يا يفغينـي فاسيليفيتش، تقلب الصور بحكـم اللياقة لا أكثر. فهي لا تثير اهتمامك. الافضل أن تقترب منا، فلنتجادل في أمر ما.

اقترب بازاروف وسأل:

– فيم نتجادل، يا سيدتي؟

– في كل ما تريد. واحذرك بأني أحب الجدل كثيرا.

– أنت؟

– أجل. هل يدهشك ذلك؟ لماذا؟

– لأن طباعك، أن صح حكمي، هادئة باردة، في حين يتطلب الجدل ولعاً وانهماكاً.

– كيف استطعت أن تخبر طباعي بهذه السرعة؟ أنني عنيدة ضعيفة الصبر. ومن الافضل أن تستفسر من كاتيا عن ذلك. هذا أولاً. ثم اني انساق للولع بسهولة كبيرة.

نظر بازاروف إلى آنا سيرغييفنا وقال:

– ربما، فأنت اعرف، وما دمت تريدين المجادلة فتفضلي. كنت أتطلع إلى مناظر سويسرا السكسونية في البومك، لكنك قلت لي أن هذا لا يمكن أن يثير اهتمامي. ولقد قلت ذلك لأنك لا تتصورين وجود شعور فني عندي. وبالفعل فهو غير موجود. لكن هذه المناظر يمكن أن تثير اهتمامي من الناحية الجيولوجية، من حيث تكون الجبال، مثلاً.

– عفواً. أنك، كجيولوجي، ستلجأ على الأغلب إلى الكتب، إلى المؤلفات المتخصصة، وليس إلى الرسوم.

– الرسم يبين لي بوضوح وايجاز ما يتحدث عنه الكتاب في عشر صفحات كاملة.

لزمت آنا سيرغييفنا الصمت لحظة، ثم قالت بعد أن استندت بكوعها إلى الطاولة فقربت وجهها من بازاروف:

– هل يعقل أنه ليست لديك ذرة من الشعور الفني. فكيف تستطيع الاستغناء عنه؟

– اسمحي لي أن اسألك: ما الحاجة إليه؟

- من أجل اجادة معرفة الناس ودراستهم على الأقل.

ضحك بازاروف بشيء من السخرية وقال:

- توجد لهذا الغرض، أولاً، الخبرة الحياتية، وثانياً، افيدك بأن لا جدوى من دراسة كل فرد على حدة. البشر متشابهون جسدياً وروحياً. ولدى كل منا دماغ وطحال وقلب ورئتان، وكلها مبنية بشكل واحد. وحتى ما يسمى بالسجايا الخلقية أنما هي واحدة لدى الجميع: فالفروق الطفيفة لا تعني شيئا. يكفي وجود نموذج بشري واحد لكي يمكن الحكم على الآخرين جميعاً. فالبشرة كأشجار الغاب، وما من عالم نباتي يمارس دراسة كل شجرة على حدة.

رفعت كاتيا التي كانت تصف زهرة إلى زهرة دون استعجال انظارها متحيرة إلى بازاروف فاحتقن وجهها حمرة حتى الاذنين عندما اصطدمت نظرتها بنظرته السريعة المستهينة. أما آنا سيرغييفنا فقد هزت رأسها وقالت:

- إذا كانوا كأشجار الغاب فذلك يعني، برأيك، أنه لا فرق بين البليد والذكي، ولا فرق بين الإنسان الخير والشرير، أليس كذلك؟

- كلا، يوجد فرق، كما بين المريض والمعافى. فالرئتان لدى المصاب بالتدرن ليستا بمثل حالتهما لدينا، مع انهما مبنيتان بشكل واحد. ونحن نعرف على وجه التقريب بواعث العلل الجسدية، أما العلل الاخلاقية فسببها التربية الفاسدة ومختلف التفاهات التي تتحشى بها أدمغة البشر منذ الصغر. سببها، باختصار، حالة المجتمع البشعة. فصححوا اوضاع المجتمع ولن تظل هناك علل.

كان بازاروف يتحدث بشكل بدا معه وكأنه يفكر في الوقت ذاته على النحو التالي: «لا فرق بين ما إذا كنت تصدقينني أم لا!». مسد فوديه بحركة بطيئة من اصابعه الطويلة، بينما راحت عيناه تجولان في الانحاء.

فقالت آنا سيرغييفنا:

– تتصور أنه لن يبقى هناك بلداء ولا أشرار بعد تصحيح المجتمع؟

– لدى توفر النظام الاجتماعي الصائب سيكون سواء، على أقل تقدير، ما إذا كان الانسان بليداً ذكياً، شريراً أو خيراً.

– أجل، فهمت. سيكون لدى الجميع نفس الطحال المتماثل.

– بالضبط، يا سيدتي الجليلة.

فالتفت اودينتسوفا إلى اركادي متسائلة:

– وأنت، يا اركادي نيكولايفيتش، ما هو رأيك؟

فأجاب اركادي:

– انني متفق مع يفغيني.

نظرت إليه كاتيا عابسة. فقالت اودينتسوفا:

– أنكما تثيران دهشتي، أيها السيدان. ولكننا سنواصل الحديث فيما بعد. فأن خالتي قادمة لتناول الشاي. وعلينا أن نرأف بحالها.

دخلت الاميرة خ...، خالة آنا سيرغييفنا، وهي امرأة قميئة نحيلة ذات وجه صغير منقبض وعينين شريرتين جامدتين تطلان من تحت شعر مستعار اشيب. انحنت للضيفين بالكاد وارتمت على المقعد المخملي الواسع الذي لا يحق لاحد غيرها أن يجلس عليه. وضعت كاتيا تكية تحت قدمي العجوز فلم تشكرها على ذلك بل ولم تنظر إليها، سوى أنها حركت يديها تحت الوشاح الاصفر الذي يغطي جسمها النحيف كله تقريباً. الاميرة تحب اللون الاصفر. فحتى قلنسوتها مزينة باشرطة صفراء صارخة. سألتها اودينتسوفا رافعة صوتها أكثر من المعتاد:

– كيف قضيت ليلتك يا خالتي؟

– هذه الكلبة هنـا أيضاً – دمدمت العجوز بدلاً من الجواب، وعندما لاحظـت أن فيفـي قامـت بخطوتين مترددتـين نحوها صاحـت بها: – اغربي! اغربي!

استدعت كاتيا فيفي وفتحت لها الباب:

فاندفعـت فيفي الى الخارج فرحة علـى امل أن احداً ما سيذهـب للتنزه معهـا، ولكنها عندما ظلـت وحدها وراء الباب اخـذت تخدشه وتزعق بخفوت. عبست الاميرة، وهمت كاتيا بالخروج...

فقالت اودينتسوفا:

– اظـن أن الشاي جاهز، أليس كذلك؟ أيهـا السيدان، هيا، يا خالتي تفضلي لتناول الشاي.

نهضـت الاميرة صامتة مـن مقعدها وخرجـت في مقدمة الجميع من غرفـة الاستقبـال، فتوجه الآخـرون على أثرهـا إلى غرفة الطعـام. ازاح وصيـف صغـير مقعداً محفوفـاً بالوسائد عن المائدة وقد أثـار صريفاً. هذا المقعد مخصص هو الآخر للأميرة فارتمت عليه. صبت كاتيا الشاي وقدمت إليهـا أولاً قدحـاً مزخرفاً بشعار ملون. وصبت العجـوز لنفسها شيئاً من العسـل في القدح (فكانت تـرى أن احتساء الشـاي بالسكر خطيئة وأنه يكلف غالباً مع أنها لم تنفق كوبيكا واحداً على أي شيء). ثم سألت على حين غرة بصوت ابح وبلهجة ملتوية:

– ماذا كتب الامير ايفان؟

لم يجبها أحد. وسرعان ما أدرك بازاروف واركادي أن أصحاب البيت لا يعيرونهـا اهتماماً بالرغم من احترامهـم الظاهري لها. وفكر بازاروف في نفسـه: «يحتفظون بهـا من أجل المظاهر لأنها مـن سلالة الامراء»... اقترحـت آنا سيرغييفنا بعد تناول الشـاي الذهاب للنزهة. إلا أن المطر بدأ يتساقط رذاذاً، فعاد الجميع إلى غرفة الاستقبال ما عدا الاميرة. وصل الجار

المحب للعب الورق. واسمه بورفيري بلاتونيتش. وهو شخص بدين اشيب قصير القامة، مرح ومؤدب للغاية. كانت آنا سيرغييفنا تتحدث مع بازاروف أكثر من غيره فسألته عما إذا كان راغباً في أن ينازلهما في لعبة البرفرانس العتيقة. فوافق بازاروف معلناً أنه يتعين عليه أن يتعود على قتل الفراغ بلعب الورق كي يستعد مسبقاً للوظيفة التي تنتظره كطبيب في أحد الاقضية. فقالت آنا سيرغييفنا:

– ولكن حذار. فأنا وبورفيري بلاتونيتش سنحطمك. – ثم اضافت قائلة: – أما أنت يا كاتيا فاعزفي شيئاً لاركادي نيكولايفيتش اذ أنه يهوى الموسيقى، وسوف نستمع إليها نحن أيضاً.

اقتربت كاتيا من البيانو على مضض. وتبعها اركادي على مضض أيضاً مع أنه يهوى الموسيقى فعلاً. فقد خيل إليه أن اودينتسوفا تبعده عنها بينما اجتاح فؤاده، كما هو شأن أي شاب في عمره، ذلك الشعور الغامض المتلهف الشبيه ببوادر الحب. رفعت كاتيا غطاء البيانو وسألت بصوت خفيض دون أن تنظر إلى اركادي:

– ما الذي تريد أن اعزف؟

فأجاب اركادي بلا مبالاة:

– ما تشائين.

فكررت كاتيا السؤال دون أن تبدل جلستها:

– أية موسيقى تفضل؟

فأجاب اركادي بنفس اللهجة:

– الكلاسيكية.

– هل تحب موزارت؟

– أحب موزارت.

أحضـرت كاتيا نوطـات السوناتا الفانطازية لمـوزارت. وعزفتها على نحـو ممتاز وأن بشيء من الصرامة والجفاف. جلست باستقامة وبلا حراك دون أن تحيـد بنظرهـا عن النوطات وقد ضمت شفتيهـا بشدة، وفي آخر السوناتـا احتقن وجههـا وتدلت خصلة صغيرة مـن شعرها المتهدل على حاجبها القاتم.

اعجـب اركادي خصوصاً بالقسم الأخير من السوناتا الذي تظهر فيه بغتة، وسـط فرحة النغم المنطلق الآسرة، انفعالات الكآبة المريرة، المأساوية تقريبـاً... إلا أن افـكار اركادي التي اثارتها أنغـام موزارت لم تكن تحوم حـول كاتيا. فعندما نظـر إليها لم تخطر على باله غير فكرة واحدة: «هذه الفتاة تعزف على نحو لا بأس به، وهي نفسها لا بأس بها».

بعد أن انتهت كاتيـا من عزف السوناتا سألت دون أن ترفع يديها عن مفاتيح البيانو: «كفاية؟».

فقـال اركادي أنه لا يجرأ علـى تكليفها المزيد، وشرع يتكلم معها عن مـوزارت، وسألها عما إذا كانت قد اختـارت هذه السوناتا بنفسها أم أن أحداً مـا نصحها بذلك. إلا أن كاتيا كانت تجيبـه باختصار. فقد انطوت علـى نفسها وتقوقعت. عندما تنتابها تلـك الحالة يكتسي وجهها بمسحة مـن العنـاد الذي يقرب مـن البلادة. ومـا كانت لتخـرج إلى السطح من قوقعتهـا إلا بعد فترة، لم تكن خجولة، لكنها كانت مرتابة وعلى شيء من الوجل مـن اختها التي ربتها، وما كانت هذه الأخيرة تعرف بذلك طبعاً. وانتهى الأمر بأركادي إلى أن استدعى فيفي التي عادت وأخذ يمسد رأسها بابتسامة ملاطفة بحكم اللياقة لا أكثر. وراحت كاتيا تصفف ازهارها من جديد.

أما بازاروف فـكان يتعرض لجزاء تلو آخر. كانت آنا سيرغييفنا تلعب الورق بمهارة، وكان بورفيري بلاتونيتش ماهراً أيضاً. لذا ظل بازاروف هو

المغلوب ولو قليلاً، إلا أن ذلك لم يكن بالأمر المريح له تماماً. وخلال العشاء عادت آنا سيرغييفنا إلى الكلام عن علم النبات حين قالت لبازاروف:

– فلنذهب للنزهة غداً منذ الصباح. اريد أن اعرف منك التسميات اللاتينية للنباتات البرية وخواصها.

– وما هي حاجتك إلى التسميات اللاتينية؟ – سأل بازاروف فأجابته هي:

– ينبغي أن يسود النظام كل شيء.

عندما خلا اركادي بصديقه في الغرفة المخصصة لهما هتف قائلا:

– ما اروعها!

– أجل. آنا سيرغييفنا إمرأة ذكية. لقد رأت ما رأت.

– بأي معنى تقول ذلك، يا يفغيني فاسيليفيتش؟

– بمعنى طيب، يا عزيزي! وأنا واثق من أنها تتصرف بضيعتها على أفضل ما يكون. إلا أن المعجزة ليست هي وأنما اختها.

– كيف؟ تلك السمراء؟

– أجل، تلك السمراء. فهي النضارة التي لم يمسها أحد. أنها الخوف والصمت وكل ما يرغب المرء فيه. وهي تستحق الاهتمام. يمكنك أن تصنع منها ما تشاء. أما تلك فهي امرأة محنكة.

لم يرد اركادي على بازاروف بشيء. رقد كلاهما وفي ذهنه افكاره الخاصة.

كانت آنا سيرغييفنا في ذلك المساء تفكر هي الأخرى بضيفيها. أعجبها بازاروف بعدم تصنعه وبحدة احكامه. وجدت فيه شيئاً جديداً لم تصادفه من قبل، في حين لا يعوزها الفضول.

كانـت آنا سيرغيفنا كائنا غريـب الاطوار لدرجة كبيرة. فهي لا تؤمن بأية خرافات وليس لديها أية معتقدات راسخة، لكنها لا تتنازل لأحد ولا تتبـع أحدا. لقد رأت الكثير، وأولعت بالكثير، ولكن ما من شيء يرضيها بالتمام والكمـال، بل ومن المستبعد أنها كانت راغبة فيما يرضيها بالتمام والكمـال. كان ذهنها حـاداً ولا اباليأ في الوقت ذاتـه: لم تكن شكوكها لتخمـد أبداً إلى حد النسيـان، كما لم تكن لتتأجج أبداً إلى حد القلق. ولو لم تكـن ثرية مستقلة لربما انخرطـت في المعركة وتذوقت طعم الهوى... لكنها كانت تعيشـ حياتها بيسر رغم الضجر الـذي ينتابها أحياناً، وهي تواصل توديع أيامها الواحد تلو الآخر دون استعجال، ودون تهيج تقريباً. كانـت الألوان المستبشرة تلوح أحياناً أمام ناظريها، لكنها تشعر بالارتياح لتلاشـي تلـك الالوان ولا تحـس بالأسف لغيابهـا. كان تصورها يتجاوز حتى حدود ما تعتبره مبادئ الاخلاق المعتادة أمراً مسموحاً به، لكن دمها حتى في تلك الحالة يظل يجري باستقرار كالسابق في بدنها الهادئ القويم الجـذاب. ويصادف أنها، عندما تخـرج من الحمام المعطر دافئة رقيقة كل الرقة، تأخذ في تأمل تفاهات الحياة وكدحها وشرورها... فيمتلئ فؤادها ببسالة مفاجئة، ويطفح بالمطامح النبيلة، ولكن آنا سيرغيفنا تنقبض وتتأوه حالما يهب نسيم مـن النافذة المواربة، فتكاد تزعـل، ولا تعود بحاجة في تلك اللحظة إلا إلى شيء واحد هو أن لا يهب هذا النسيم الدنيء عليها.

كانـت تريد شيئاً ما، شأنهـا شأن جميع النساء اللواتي لم يتسن لهن أن يتذوقـن طعم الحب، ولكنها لا تعرف ماذا تريد بالضبط. وفي الواقع فهي لم تكـن تريد شيئاً، بالرغم مـن توهمها بأنها تريد كل شيء. كانت بالكاد تطيق المرحوم اودينتسوف (فقد تزوجت منه لمصلحة، بالرغم من أنها ربما لم تكن لتوافق أن تصبح زوجة له لو لم تعتبره إنساناً طيباً) فولد لديها ذلك اشمئـزازاً خفياً من جميع الرجال، فلم تعـد تتصورهم إلا بشكل كائنات ثقيلـة ذاويـة متحشفة وملحاحة عاجزة. ذات مـرة صادفت في مكان ما

في الخارج فتى سويدياً وسيمـاً بمحيا تكسوه مسحة من الفروسية وعينين زرقاوين ظاهرتين تظللهما جبهة عريضة. ترك فيها هذا الفتى أثراً شديداً، ولكن ذلك لم يمنعها من العودة إلى روسيا.

فكـرت آنا سيرغييفنا في نفسها: «يا لهـذا الطبيب من شخص غريب الاطوار!» وهي مضطجعة في فراشها الرائع على وسائد مخرمة تحت لحاف حريري خفيف. لقد ورثت عن ابيها بعضاً من ميله إلى الابهة. وهي تكن حباً جماً لأبيها الخاطئ والطيب في الوقت ذاته. وكان هو متيماً بها، يمزح معها بود كالند للنـد، ويثق بها تمام الثقة ويلتمس النصح عندها. لكنها لا تتذكر أمها.

وفكـرت من جديد: «يا لهذا الطبيـب من شخص غريب الاطوار!». تمـددت وابتسمت واشبكت يديها تحـت رأسها، ثم جابت بنظراتها على عجـل زهاء صفحتين مـن رواية فرنسية تافهة، وسقـط الكتاب من يديها وغفت نظيفة باردة في بياضات نظيفة عاطرة.

في صبـاح اليوم التالي توجهت آنا سيرغييفنـا مع بازاروف فور انتهاء الفطـور لدراسة النباتـات البرية و لم تعد إلا قبيل الغـداء. لم يترك اركادي المكان فصرف زهـاء ساعة مع كاتيا دون أن يشعر بالملل، وقد اعربت هي نفسهـا عن استعدادها لتكرار سوناتا الامس، لكـن قلبه انقبض في الحال عندما عـادت اودينتسوفا أخيراً وعندما رآهـا... كانت تسير في البستان بخطـوات متعبة بعض الشيء، وكانـت وجنتاها متوردتين وعيناها تلمعان بأسطـع من المعتاد تحـت قبعة القش المستديرة، كانـت أصابعها تداعب عوداً رفيعاً لزهرة برية، وقد هبطت طرحتها الخفيفة على مرفقيها وتدلت الاشرطـة الرماديـة العريضة من القبعة فلامست صدرهـا. كان بازاروف يسير خلفها واثقاً من نفسه وبلا اعتناء، كما هي عادته دوماً، إلا أن ملامح وجهـه لم تعجـب اركادي بالرغـم من مرحهـا بل وحتى وقتهـا. توجه

بازاروف إلى غرفته بعد أن دمـدم: «مرحباً!». أما اودينتسوفا فقد شدت على يد اركادي شاردة البال ومرت ازاءه هي الأخرى.

ففكر اركادي: «لماذا قال لي مرحباً، أفلم نلتق اليوم؟»[٤٥].

١٧

الزمن (وهـذا أمر معروف) يطير كالطير أحيانـاً ويزحف كالسلحفاة أحيانـاً أخرى. إلا أن المرء يغدو علـى أحسن حال عندما لا يلاحظ كيف يمـر الزمـن: سريعـاً أو بطيئاً. علـى هذه الحـال بالذات صـرف اركادي وبـازاروف لـدى اودينتسوفا زهاء خمسة عشر يومـاً. وساعد على ذلك مـا اعتادت عليه هي من نظـام في دارها وحياتها. كانـت متمسكة بهذا النظام تمسكاً صارماً، وكانت تحمل الآخرين على الانصياع له. فكل شيء في غضون اليـوم الواحد يجري في اوقاته المحددة. في تمام الثامنة صباحاً يلتئـم الجمع لاحتساء الشاي. وفي الفترة بين الشاي والفطور يفعل كل ما يشـاء، وكانت ربة البيت نفسها آنـذاك تسوي الامور مع الوكيل (فلاحو الضيعـة يعملون على أسـاس الجزية) ومع كبير الوصفـاء وكبيرة مدبرات المنزل. وقبيـل الغداء يلتئم الجمع من جديد لتجـاذب اطراف الحديث أو للمطالعة. وكانـت فترة المساء تخصص للتنزه ولعـب الورق والموسيقى. وفي الساعة العاشرة والنصـف تتوجه آنا سيرغييفنا إلى مضجعها لتنام بعد أن تصـدر أوامرهـا بخصوص يوم غـد. لم يرق لبـازاروف تنظيم الحياة اليوميـة الرتيب هذا والمتسـم بشيء من المراسيـم الاحتفالية. كان يقول: «كان المـرء يتدحرج علـى سكة حديـد». ويعتبر الخـدم ببزاتهم الخاصة

---

(٤٥) مـن عـادات الروس أن يحيوا بعضهم البعض بكلمـة «مرحبا» مرة واحدة في اليوم لا أكثر. – المترجم.

والوصفاء الخاشعين بمثابة أهانة لمشاعره الديمقراطية. ويرى أنه ما دامت الأمور تسير على هذا الشكل فينبغي تناول الغداء على الطريقة الانجليزية اذن: ببزات رسمية وربطات عنق بيضاء. وقد تداول في هذا الموضوع ذات مرة مع آنا سيرغييفنا التي اعتادت أن يعرض كل شخص أمامها آراءه بلا مواربة. استمعت إليه ثم قالت: «أنت محق من وجهة نظرك. ولربما أنني، في هذه الحالة، ابدو اقطاعية حقا. لكنه لا يجوز العيش في الريف على نحو مشوش، فالضجر سيقتلنا آنذاك». وواصلت العمل على هواها. كان بازاروف يتذمر من ذلك. لكن السبب الذي جعله واركادي يعيشان بيسر وسهولة عند اودينتسوفا هو بالذات أن كل شيء في دارها «كأنما يتدحرج على سكة حديد». ومع ذلك حدث تغير لدى كلا الشابين منذ الايام الأولى لمكوثهما في نيكولسكويه. فأن بازاروف الذي مالت إليه آنا سيرغييفنا، كما هو واضح، بالرغم من ندرة اتفاقها معه، صار يشعر بقلق لم يكن يعرف له أثراً في السابق: غدا سريع الانزعاج، قليل الرغبة في الكلام، وأخذ ينظر شزراً، ولا يقر له قرار، كما لو أنه يشعر بوخز خفي. أما اركادي الذي خيل إليه نهائياً بأنه وقع في غرام اودينتسوفا فقد أخذ ينساق للكآبة الهادئة. ومع ذلك لم تمنعه هذه الكآبة من التقرب إلى كاتيا، بل وساعدته على أن يقيم معها علاقات ودية رقيقة. فكر اركادي في نفسه: «تلك لا تقدرني! فليكن!.. أما هذا الكائن الطيب فلا يرفضني»، وتذوق قلبه من جديد حلاوة الاحاسيس المتسامحة. كانت كاتيا تخمن بأنه يبحث عن تهدئة للنفس بمعاشرتها، فلم تحرمه و لم تحرم نفسها من اللذة العذرية الناجمة عن الصداقة المشوبة بشيء من الخجل والموشحة بشيء من الثقة. وما كان الاثنان ليحادثا بعضهما البعض بحضور آنا سيرغييفنا: كانت كاتيا تنكمش دوماً بتأثير نظرة اختها الثاقبة، أما اركادي فما كان باستطاعته، شأنه شأن اي محب، أن يلتفت إلى أي كائن آخر بحضور محبوبته، ولكنه لم يكن يشعر بالارتياح إلا لوجوده مع كاتيا وحدها.

كان يـدرك بأنـه عاجز عن اثـارة اهتمام اوديتسوفا، ولـذا فهو يعاني من الوجل والحيرة عندما يبقى معها وحيداً. و لم تكن هي الأخرى تعرف ماذا ينبغـي أن تقـول له: فهو لا يزال يافعاً جداً بالنسبـة لها. أما مع كاتيا فعلى العكس. كان اركادي يشعـر وكأنه مع واحد من أهلـه، وكان متساهلاً معهـا، فلا يعيقها عن الاعـراب عن الانطباعات التـي تخلفها في نفسها الموسيقـى ومطالعة القصص والاشعار وغير ذلـك من التفاهات، دون أن يلاحـظ أو يـدرك أن هذه التفاهات تشغل باله هـو أيضاً. و لم تكن كاتيا، من ناحيتها، لتعيقه عـن الاستسلام للأحزان. كان اركادي يرتاح لكاتيا، وكانت اوديتسوفا ترتاح لبـازاروف ولذلك جرت العادة على أن يلتقي الاربعة لأمد قصير ثم يفترقوا فيتوجه كل زوج إلى جهته، وخصوصاً أثناء النزهـات. كاتيا مغرمة بالطبيعة، واركادي يحب الطبيعة أيضاً بالرغم من أنه لم يجرؤ على الاعتراف بذلك. كانت اوديتسوفا، شأنها في ذلك شأن بازاروف، غير مولعة بالطبيعة. و لم تمر الفرقة المستمرة تقريباً بين صاحبينا دون أن تـترك أثرهـا: فقد اخـذت علاقاتهما تتغير. كـف بازاروف عن التحـدث إلى اركادي بشأن اوديتسوفا، بل وكف حتى عن نقد «عاداتها الارستقراطيـة»، ولكنه ظل كالسابق يمتـدح كاتيا، سوى أنه نصح بتهدئة الميـول العاطفية لديهـا. إلا أن مدائحه كانت مستعجلـة ونصائحه جافة. وعلى العموم صـار يتحدث مع اركادي أقل بكثير من السابق... لقد بدا وكأنه يتحاشاه ويخجل منه...

لاحظ اركادي ذلك كله، ولكنه احتفظ بملاحظاته لنفسه.

كان السبـب الفعلي لهـذا «التغير الطارئ» هو الشعـور الذي اوحته اوديتسوفـا لبازاروف، فصـار يعذبه ويخرجه عن طـوره، في حين كان بـازاروف مستعـداً للتخلي عنه في الحال بقهقهـة مستهينة وشتائم وقحة لـو أن أحـداً ما لمح بمجرد تلميـح إلى احتمال وقوع مـا يعتمل في دخيلته. كان بازاروف من أشد هـواة النساء والجمال الانثوي، ولكنه نعت الحب

المثـالي، أو الرومانسـي على حد تعبيره، بالهراء وبالحماقـة التي لا تغتفر، واعتبر المشاعر الفروسية بمثابـة القبح أو المرض، واعرب أكثر من مرة عن استغرابه من عدم زج توغينبورغ[٤٦] مع جميع شعراء الفروسية العاطفيين في دار المجاذيـب. كان يقول: «إذا اعجبتك امرأة فحاول أن تحصل منها على مبتغاك، وإذا لم يكن هذا ممكناً، فلا داعي لشيء، حول وجهك عنها:

فالكـون غـير متوقف عليهـا». لقد راقت لـه اودينتسوفـا. وكانت الاشاعـات المنتشرة عنهـا وطلاقة افكارها واستقلالهـا وميلها دون شك إليه - كل ذلك كان لصالحه حسب الظاهر. لكنه سرعان ما ادرك بأنه «لن يحصـل منها على مبتغـاه»، وبأنه لا يمتلك القوى الكافيـة، ويا لدهشته، لتحويل وجهه عنها. كان دمه يفور حالما يتذكرها. وكان بوسعه أن يكبح دمـه بسهولة، لكن شيئاً آخر اجتاحه، شيئا مـا كان يتوقعه أبداً، شيئاً كان يسخـر هو منه دائماً، مما اهـان كبرياءه أشد أهانة. وصـار في احاديثه مع آنـا سيرغييفنـا يعرب بأكثر مـن السابق عن احتقاره اللاابـالي لكل ما هو رومانسـي، ولكنه عندما يخلو بنفسه يشتاط غضبا لوجود الرومانسي في دخيلته هو. وعنـد ذاك يتوجه إلى الغابة ويجوبها بخطوات واسعة محطماً الاغصـان التـي تصادفه ومسلطاً اللـوم بصوت خافت علـى اودينتسوفا وعلـى نفسه، أو يرتقي بيدر العشب المجفف في العنبر ثم يغلق عينيه بعناء ليرغـم نفسه على النوم، الأمر الذي لا يتيسر له على الدوام بالطبع. وعلى حـين غرة يخيل إليـه أن هاتين العينين الذكيتين ستحدقـان في عينيه برقة، أجـل برقة... وعند ذاك ينتابـه الدوار، وينسى نفسه للحظـة إلى أن يثور الحنق فيه من جديد. كان يلوم نفسه على مختلف أنواع الافكار «الشائنة»، كمـا لو أن الشيطان هو الذي اغواه. ويخيل إليه أحياناً أن تغيراً يطرأ على اودينتسوفـا أيضـاً، وأن شيئاً مـا متميزاً صار يبدو علـى ملامح وجهها،

---

(٤٦) بطل ملحمة شيلر «الفارس توغينبورغ». - المترجم.

لربما... ولكنه آنـذاك كان يضرب الأرض برجله عادة أو يصر على أسنانه ويهدد نفسه بقبضته.

والحال فأن بازاروف لم يكن علـى خطأ تماما. لقد ادهش اوديتسوفا وشغل بالها فصارت تفكر فيه كثيراً. لم تكن تشعر بالملل في غيابه و لم تكن تتوق إليه، لكن ظهوره ينعشها على الفور، وهي تنفرد به برغبة وتتحدث إليـه برغبة حتى عندما يغيظهـا أو ينال من ذوقها ومـن عاداتها الرشيقة. كانت كأنما تريد أن تختبره وتختبر نفسها.

ذات مـرة أعلن بصوت متجهم وعلى نحو مباغـت، أثناء تجوله معها في البستان، أنه ينوي السفر قريباً إلى أبيه في القرية... شحب لونها وكأنما تعرض قلبها لوخزة، وخزة حادة اثارت دهشتها وجعلتها فيما بعد تفكر لأمـد طويل فيما يعنيه ذلك. ومـا كان بازاروف ليعلن لها عن رحيله بغية اختبارها ومعرفة ما يمكن أن يؤول إليه ذلك: فهو لم يكن يلجأ إلى الكذب أبـداً. إذ أنـه تقابـل في صباح ذلك اليوم مـع خادمه السابـق تيموفييتش الذي أصبح وكيلاً لأبيه. وهو عجوز ضئيل محنك ورشيق بشعره الأصفر الباهت ووجهه المتورد المسفوع وعينيه المنكمشتين المنطويتين على دمعتين دقيقتين. فعلى حين غرة مثل امام بازاروف تيموفييتش هذا بقفطانه القصير من الجوخ السميك الرمـادي المائل إلى الزرقة، وجزمته المطلية بالقطران، وهو متمنطق بحزام جلدي مقطوع الطرفين. هتف به بازاروف قائلاً:

– هيا، مرحباً يا شيخ!

– مرحبـاً يـا سيدي يفغينـي فاسيليفيتش – أجاب العجـوز وابتسم منشرحاً، فاكتسى وجهه فوراً بالتجاعيد والغضون.

– لم جئت؟ ارسلوك لاستدعائي، أليس كذلك؟

– معذرة، يا سيدي، كيف يجوز ذلك؟ – تمتم تيموفييتش (وقد تذكر الوصيـة الصارمة التي تلقاها من سيده الأب قبيل رحيله) – كنت متوجهاً

إلى المدينـة لأداء بعض الشؤون، فسمعت بوجود حضرتكم، ولذا عرجت في طريقي، لأنظر إلى طلعتكم البهية... فكيف لي أن أقلقكم؟!

– لا تكذب – قاطعه بازاروف – فهل يمر الطريق إلى المدينة من هنا؟

انكمش تيموفييتش و لم يحر جواباً.

– كيف حال والدي؟ هل هو بصحة جيدة؟

– الحمد لله، يا سيدي.

– ووالدتي؟

– ايرينا فلاسيفنا كذلك، والحمد لله.

– لا بد أنهما ينتظرانني، أليس كذلك؟

مال العجوز برأسه الضئيل جانباً وقال:

– آه، يـا يفغينـي فاسيليفيتش، كيف لا ينتظـران؟ ! الله شاهد على ما اقول. يتفطر القلب ألماً عندما أنظر إلى والديكم.

– كفى، كفى، لا تبالغ. قل لهما بأني سأحضر قريباً.

– سمعاً وطاعة، يا سيدي – اجاب تيموفييتش وتنفس الصعداء.

خرج مـن الدار وهو يرتدي عمرتـه ويشدها على رأسـه بكلتا يديه. صعـد إلى عربته الخفيفة المزرية التي تركها عند البوابة، ثم اسرع بها خبباً، ولكن ليس باتجاه المدينة.

في مساء ذلك اليوم كانت اوديننسوفا جالسة في غرفتها مع بازاروف، بينمـا راح اركادي يجوب القاعة منصتـاً إلى عزف كاتيا. وقبعت الاميرة في غرفتهـا في الطابـق العلـوي، فهي على العمـوم لا تطيـق الضيوف، وخصوصاً هذين «الوقحين الجديدين» كما وصفتهما. اعتادت أن تجلس منتفخـة الاوداج في سائر غرف المنزل، ولكنهـا عندما تختلي في غرفتها

تنفجـر أحيانـاً أمام وصيفتهـا بشتائم مقذعة بحيث تهتـز قلنسوتها على رأسهـا مع شعرها المستعـار من جراء الانفعال. وكانـت اودينتسوفا على علم بذلك.

بدأت كلامها متسائلة:

– كيف عزمت على السفر دون أن تفي بوعدك؟

انتفض بازاروف:

– أي وعد يا سيدتي؟

– هل نسيت؟ لقد اردت أن تقدم لي بضعة دروس في الكيمياء.

– لا حيلـة في الأمـر! والدي ينتظـرني. ولا يجوز أن أتأخـر أكثر مما تأخرت. بالمناسبة يمكنك أن تقـرأي كتاب («مبادئ الكيمياء العامة» من تأليف بيلوز وفريمي)[٤٧] فهو كتاب جيد بلغة واضحة. وستجدين فيه كل ما تحتاجين إليه.

– أفـلا تتذكـر أنك أكـدت لي أن الكتاب لا يمكـن أن يعوض عن... نسيت تعبيرك، ولكنك تعرف ما أريد أن أقول... هل تتذكر؟

– لا حيلة في الأمر يا سيدتي! – كرر بازاروف.

فقالت اودينتسوفا بصوت اوطأ:

– ما الداعي للسفر؟

القـى عليها بنظرة ومالت هي برأسها إلى مؤخرة المقعد وصلبت يديها العاريتـين حتى المرفقـين على صدرها. بـدت شاحبة في ضـوء المصباح

---

(٤٧)– في الأصـل بالفرنسيـة Pelouse et Frérny «Notions générales de Chimie» جول بيلوز (١٨٠٧ – ١٨٦٧) وادموند فريمي (١٨١٤– ١٨٩٤) عالمان فرنسيان صدر كتابهما في باريس عام ١٨٥٣.



الوحيـد المغطى بأباجور من قماشـ مخرم. وكان فستـان ابيض فضفاض يلفعها كلياً بطياته الناعمة، وبالكاد بدا طرفا رجليها المتصالبتين أيضاً.

أجابها بازاروف بسؤال: وما الداعي للبقاء؟

التفتت اودينتسوفا:

– كيـف؟ أفلست مسروراً عندي؟ أم أنك تظـن بأنه لن يأسف عليك أحد هنا؟

– أنا واثق من ذلك.

صمتت اودينتسوفا قليلاً ثم قالت:

– عبثاً تفكر هكذا. وبالمناسبة أنا لا أصدقك. فليس بامكانك أن تقول ذلـك بجد – ظل بازاروف جالساً بلا حراك – لمـاذا الصمت، يا يفغيني فاسيليفيتش؟

– مـا الذي يمكنني أن أقوله لك؟ لا داعي للتأسف على الناس عموماً، وعلي خصوصاً.

– لماذا؟

– أنا شخص مستقيم موحش، ولا أجيد الكلام.

– أنك تنشد المديح يا يفغيني فاسيليفيتش.

– ليس ذلـك من عاداتي، أفلا تعلمين أن التمتـع بالجانب الجميل من الحياة، ذلك الجانب الذي تعتزين به أنت، ليس في مقدوري؟

أخذت اودينتسوفا تمضغ طرف منديلها اليدوي ثم قالت:

– فكر ما شاء لك. أما أنا فسأشعر بالضجر عندما تسافر.

فقال بازاروف:

– سيظل اركادي عندكم.

هزت اودينتسوفا كتفيها وكررت من جديد:

– سأشعر بالضجر.

– على كل حال لن تضجري لأمد طويل.

– لماذا تفترض ذلك؟

– لأنك قلت لي أن الضجر لا ينتابك إلا عندما يصيب الخلل النظام لديكم. وقد بنيت حياتك على نحو صائب لا خلل فيه، بحيث لن يبقى فيها مجال لا للضجر ولا للسأم... بل ولا لأية مشاعر مريرة.

– هل صحيح ما تقول؟ هل بنيت حياتي على نحو صائب حقاً؟

– كيف لا؟! الساعة، مثلا، ستدق العاشرة بعد لحظات، وأنا أعرف مسبقاً أنك ستطردينني.

– كلا، لن أطردك، يا يفغيني فاسيليفيتش. بوسعك أن تبقى. افتح هذه النافذة... فقد ضاقت أنفاسي شيئاً.

نهض بازاروف ودفع النافذة فانفتحت مدوية على مصراعيها... لم يكن يتوقع أنها ستفتح بهذه السهولة، ثم أن يديه ترتعشان. أطلت على الغرفة ليلة ناعمة حالكة بسماء سوداء تقريباً وأشجار ينبعث منها حفيف خفيف ونسيم طلق عليل تفوح منه رائحة طرية.

فقالت اودينتسوفا:

– اسحب الستارة واجلس. اريد أن اثرثر معك قبيل رحيلك. حدثني قليلاً عن شخصك، فأنت لا تتكلم عن نفسك أبداً.

– أحاول، يا آنا سيرغييفنا، أن أتحدث معك عن أشياء نافعة.

– أنت في منتهى التواضع... ولكن بودي أن أعرف شيئاً عنك، عن اسرتك، عن والدك الذي تتركنا من أجله.

ففكـر بـازاروف: «لمـاذا تقول مثل هـذا الكلام؟» ثـم نطق بصوت مسموع:

– ليسـ في ذلك ما يسر أبداً. وخصوصاً بالنسبة لك. فنحن من سواد البشر...

– أما أنا فارستقراطية برأيك، أليس كذلك؟

رفع بازاروف بصره إليها وقال بحدة فيها شيء من المبالغة:

– بلى.

ضحكت بسخرية وقالت:

– يخيـل الي أنك لا تعرفنـي إلا قليلاً، لا سيما وأنـك تؤكد أن الناس جميعـاً متشابهون ولا داعي لدراستهم. سـوف أقص عليك قصة حياتي كاملة في وقت ما... ولكن حدثني عن حياتك أولاً.

فقال بازاروف:

– أننـي لا أعرفـك إلا قليلاً. ربما أنت على حـق. ولعل كل إنسان لغز في الواقـع. فلو تناولناك أنت مثلاً، أنك تشعرين بالغربة في المجتمع، وهو يثقل عليك، ومع ذلـك دعوت طالبين ليسكنا عندك حيناً من الوقت. ثم لماذا تقيمين في الريف، أنت التي تتحلين بالحصافة والجمال؟

– كيف؟ ماذا قلت؟ أنا اتحلى... بالجمال؟

سألت اودينتسوفا منتعشة. فعبس بازاروف ثم قال:

– لا فرق، اردت أن اقول أني لا أفهم جيداً لماذا تقيمين في الريف؟

– أنك لا تفهم... ولكنك تفسر ذلك لنفسك بشكل ما، اليس كذلك؟

– أجـل... يخيل الي أنـك باقية طوال الوقت في مـكان واحد لأنك دللت نفسك ولأنك تحبـين أسباب الراحة حباً جماً، ولا تبالين بأي شيء

آخر.

ضحكت اودينتسوفا من جديد:

– أنت لا تريد قطعاً أن تصدق بأني يمكن أن اولع؟..

فنظر إليها بازاروف عابساً:

– بحب الاستطلاع، ربما. ولكن ليس بشيء آخر.

-- حقاً؟ ها أنا افهم لماذا تآلفنا. أن الطيور على أشكالها تقع.

– تآلفنا.... – دمدم بازاروف بصوت مكتوم.

– آه! لقد نسيت بأنك تنوي السفر.

نهض بازاروف. كان المصباح ينور بخفوت وسط الغرفة المنعزلة العاطرة التي اكتنفها الظلام بعض الشيء. وكانت طراوة الليل المستثيرة تتسرب عبر الستارة التي تتموج بين الفينة والفينة، ويتهادى الهمس الليلي السحري. لم تحرك اودينتسوفا ساكناً، لكن اضطراباً خفياً أخذ يدب فيها تدريجياً... وانتقل هذا الاضطراب بالتدريج إلى بازاروف الذي ادرك أخيراً أنك اختلى بامرأة شابة رائعة... سألت متباطئة: – إلى أين أنت؟

لم يحر جواباً وارتمى على الكرسي. فواصلت كلامها بنفس الصوت دون أن تحيد ببصرها عن النافذة:

– أنت تعتبرني إنسانة هادئة منعمة مدللة. بينما أنا واثقة من أنني في منتهى التعاسة.

– التعاسة! ما سببها؟ هل تستحق تلك الاقاويل الدنيئة أن تعيريها ادنى اهتمام؟

عبست اودينتسوفا، وأحزنها أن بازاروف فهمها على هذا النحو فقالت:

– هذه الاقاويل عاجزة حتى عن اثارة الضحك، يا يفغيني فاسيليفيتش. وأنا أربأ بنفسي عن أجعلها تقلقني. أنني تعيسة لأنني... لست راغبة في العيش. أنت تنظر الي بارتياب، وتفكر أن التي تتكلم معك «ارستقراطية» غارقة في الدانتيلا والثياب الفاخرة وجالسة على مقعد مخملي. لا أنكر أني اهوى ما وصفته بأسباب الراحة، ومع ذلك لا ارغب كثيراً في العيش. حاول أن توفق بين هذين الضدين كما يحلو لك. ولكن ذلك كله في نظرك، رومانسية.

فهز بازاروف رأسه وقال:

– أنك إنسانة حرة ثرية معافاة، فما الذي يعوزك؟ وماذا تريدين بعد؟

فكررت اودينتسوفا قوله وتنهدت:

– ماذا اريد! أنا مرهقة للغاية، ولقد شخت، حتى خيل الي أنني أعيش من زمان بعيد جداً. أجل، لقد شخت – اضافت وهي تسحب بهدوء اطراف الطرحة فتغطي بها يديها العاريتين. تقابلت عيناها مع عيني بازاروف، فاحمر محياها بعض الشيء:

– خلفت الكثير من الذكريات: الحياة في بطرسبورغ، والثراء، ثم الفقر، ثم وفاة أبي، والزواج، ثم الرحلة إلى الخارج... الذكريات كثيرة، ولكن لا قيمة لها. وأمامي طريق طويل، طويل للغاية، بينما ليس لدي هدف... ولذا فأنا لست راغبة في السير.

– هل خابت آمالك إلى هذه الدرجة؟ – سألها بازاروف، فأجابته متمهلة:

– كلا. ولكنني لست قانعة. يخيل الي لو أني استطعت أن اتعلق بشيء ما تعلقاً شديداً...

فقاطعها بازاروف:

– بودك أن تحبي، لكنك لا تستطيعين. وهذا هو مبعث تعاستك.

انشغلت اوديتسوفا بتفقد ردني طرحتها، ثم تساءلت:

– ألا استطيع أن أحب؟

– أمـر مستبعد. ولكن عبثـاً وصفت حالتك بالتعاسـة. على العكس فالذي يحدث له ذلك يستحق الشفقة على الأكثر.

– من تعني؟

– الذي يحب.

– ومن أين لك أن تعرف؟

– بالسمـا ع – اجـاب بـازاروف حانقـاً، وفكـر في نفسـه: «أنك تتغنجـين. أنك ضجرة وتتحرشين بي لعدم انشغالك بشيء، بينما أنا...» وكاد قلبـه يتفطر حقاً. فقال وقد مال بجسمـه كله إلى أمام وهو يتلاعب بأهداف المقعد:

– ثم أنك متشددة جداً، على ما اعتقد.

– ربما. في رأيي: أما كل شيء، وأما لا شيء. حياة بحياة. فإذا استاثرت بحياتـي هبني حياتك، وعند ذاك لن يكون هناك مجال للاسف ولن يكون هناك خط رجعة. وإلا فلا داعي لشيء.

فقال بازاروف:

– حقـاً. هذا شرط مشروع. لكن ما يدهشني هو أنك حتى الآن... لم تعثري على ما ترغبين.

– وهل تظن أن من السهل الاستسلام كلياً لأي شيء مهما كان؟

– ليس ذلك بالأمر السهل إذا أخذ المرء يتأمل، وينتظر، بل ويقيم نفسه بنفسه، أي يعتز بها. أما الإستسلام بدون تفكير فهو في منتهى البساطة.

– كيـف لا يعتـز المرء بنفسه؟ فـإذا لم تكن لي أية قيمـة فمن، يا ترى،

بحاجة إلى اخلاصي؟

– ليس من شأني، بل من شأن الإنسان الآخر، أن يقدر قيمتي. الأمر الرئيسي هو اجادة الاستسلام.

مالت اودينتسوفا إلى الامام قليلاً فابتعد ظهرها عن مؤخرة المقعد، وقالت:

– أنك تتكلم وكأنما قد جربت ذلك كله.

– أقول هذا الكلام للمناسبة فقط. فأنت تعرفين، يا آنا سيرغييفنا، أن ذلك كله ليس من اختصاصي.

– ولكن بوسعك أنت أن تستسلم، أليس كذلك؟

– لا ادري. لا أريد التباهي.

لم تقل اودينتسوفا شيئاً، فلزم بازاروف الصمت.

تهادت إليهما اصوات البيانو من غرفة الاستقبال. فقالت اودينتسوفا:

– ما الذي جعل كاتيا تعزف في هذا الوقت المتأخر؟!

فنهض بازاروف وقال:

– أجل، الوقت متأخر بالفعل، وقد حان موعد نومك.

– تمهل، ما الداعي للعجلة؟.. أريد أن أقول لك كلمة واحدة.

– ما هي؟

– تمهل – قالت اودينتسوفا همساً.

تجمدت نظرتها على بازاروف وكأنما هي تتفحصه باهتمام.

جاب الغرفة بعض الشيء ثم اقترب منها على حين غرة وقال

باستعجـــال «وداعاً» وشد على يدها بقوة كادت تجعلها تصرخ، ثم خرج. رفعــت اصابعها المتلاصقــة إلى شفتيهــا ونفخت عليها، ثــم نهضت من المقعد بقفزة على الفــور وتوجهت إلى الباب بخطوات سريعة وكأنما تريد اعادة بازاروف... دخلت إلى الغرفة في تلك اللحظة وصيفة تحمل دورقاً زجاجيــاً على صينية فضيــة. توقفت اودينتسوفا وأشــارت على الوصيفة بالانصــراف ثــم جلست مجدداً وغرقــت في التفكير مــن جديد. انفكت ضفيرتهــا وتهدلت كأفعى ســوداء على كتفها. ظل المصبــاح ينير غرفتها لأمــد طويل، وظلت هــي لامد طويل بلا حراك، ســوى أنها كانت تمسد باصابعها بين الفينة والفينة ذراعيها اللتين مسهما برد الليل.

أمــا بــازاروف فقد عــاد بعد زهــاء ساعتــين إلى غرفة نومــه منكمشاً متجهماً وقــد تبللت جزمته بالندى. وجــد اركادي جالساً قرب الطاولة وبيــده كتاب وسترته مشدودة الازرار حتى العنق. فسأله بازاروف وكأنما في صوته نأمة زعل:

– ألم تنم بعد؟

فقال اركادي دون أن يجيب على سؤاله:

– جلست طويلاً اليوم مع آنا سيرغييفنا.

– أجل، جلست معها عندما كنتما، أنت وكاتيا، تعزفان على البيانو.

– أنــا لم أعــزف... – اراد اركادي أن يواصــل كلامــه، ولكنــه لزم الصمــت. لقد أحس بأن الدمــوع ستنهمر من عينيه، ولكنه لا يريد البكاء أمام صديقه الساخر.

١٨

عندما حضرت اودينتسوفا لتناول الشاي قبيل الافطار في صباح اليوم

التـالي ظل بـازاروف جالساً لامد طويل وقد انحنـى على قدحه. ثم نظر إليهـا فجأة... فالتفتت إليه وكأنما تلقت دفعة منه. خيل إليه أن وجهها قد شحب شيئـاً خلال الليل. وسرعان ما انزوت في غرفتها حتى حان موعد الافطـار. كان الطقس ممطراً منذ الصباح، ولم يكن بالامكان التنزه. فالتأم الجمع كله في غرفة الاستقبال. فبدت الدهشة على وجه الاميرة، كما هي العادة، في بادئ الأمر، وكأنما اقترف هو جريرة معيبة، ثم ركزت انظارها الحاقدة عليه، ولكنه لم يعبأ بها.

فقالت آنا سيرغييفنا لبازاروف:

– فلنذهـب إلى مكتبي... يـا يفغيني فاسيليفيتشـ... أريد أن اسالك شيئاً... لقد ذكرت أمس اسم كتاب...

نهضـت وتوجهت إلى الباب. فتلفتت الامـيرة حواليها ولسان حالها يقـول: «انظروا، انظروا، ما اشد دهشتي!» ثم ركزت انظارها من جديد علـى اركادي، ولكنه رفع صوته وتبادل النظرات مـع كاتيا الجالسة قربه وواصل القراءة.

ادركت اودينتسوفا مكتبها بخطـوات سريعة. وتبعها بازاروف بخفة دون أن يرفع بصره، ولكنه كان يتلقف بمسمعه الحفيف الرقيق المنبعث من الفستـان الحريري السائر أمامه. جلست اودينتسوفا في نفس المقعد الذي جلست عليه بالامس، وشغل بازاروف المكان الذي شغله بالامس.

فقالت هي بعد فترة صمت قصيرة:

– ما اسم ذلك الكتاب؟

فأجاب بازاروف:

– («مبــادئ الكيمياء العامة» من تأليف بيلوز وفريمي)[٤٨] . ويمكن أن أوصيك كذلك بدراسة: («المنهج الأولي في الفيزياء التجريبية» من تأليف غانو)[٤٩] . فالرسوم في هذا الكتاب أكثر وضوحاً، وعلى العموم فأن هذا المنهج...

مدت اودينتسوفا يدها وقالت:

– معــذرة، يــا يفغيني فاسيليفيتش، فقد دعوتك إلى هنــا ليس بقصد مناقشة المناهج الدراسية. بودي أن نستأنف حديث البارحة. فقد انصرفت أنت على نحو مفاجئ... هل يزعجك ذلك؟

– أنا في خدمتك، يا آنا سيرغييفنا. ولكن عم تحدثنا البارحة يا ترى؟

صوبت اودينتسوفا نظرة منحرفة إلى بازاروف:

– يخيــل الي أننا تحدثنا عن السعادة. حدثتك أنا عن نفسي. وبالمناسبة فقد ذكرت كلمة «السعادة». فاخبرني ما الذي يجعلنا، حتى عندما نتمتع بالموسيقى، مثلاً، أو بأمسية جيدة أو بحديث مع اناس طيبين، نتصور ذلك كله مجرد اشارة إلى سعادة لا حدود لها، سعادة موجودة في مكان ما، غير السعــادة الفعلية، أي السعادة التي نتمتع بها نحن؟ ما السبب في ذلك؟ أم أنك ربما لا تشعر بشيء من هذا القبيل؟

فاعترض بازاروف:

– أنــت تعرفين المثل القائل «الحال أفضــل في ديار الآخرين». ثم أنك نفســك قلت البارحة بأنك غير قانعة. أما أنا فلا تتبادر إلى ذهني مثل هذه الافكار.

---

(٤٨) في الأصل بالفرنسية.

(٤٩) في الاصــل بالفرنسيــة Ganot، «Traité élémentaire de physique expérimentale» ادولف غانو عالم فيزياوي ورياضي (١٨٠٤ – ١٨٨٧).

– ربما تبدو لك مضحكة؟

– كلا، ولكنني لا أفكر بها.

– حقاً؟ أتعلم بأني تواقة جداً إلى معرفة ما تفكر به أنت؟

– كيف؟ أنني لا أفهمك.

– تصـور، لقد اردت أن نتصارح من زمـان. ولا داعي لأن أقول لك أنـك لست من الناس العاديين. فأنت تعرف ذلـك بنفسك. أنك لا تزال في طور الشباب والحياة كلها أمامك. فالأم تعد نفسك؟ وما هو المستقبل الـذي ينتظرك؟ أقصد: أي هدف تنوي تحقيقه؟ وإلى أين تسير؟ وما الذي تنطوي عليه جوانحك؟ وباختصار: فمن أنت؟ وما هي هويتك؟

– أنك تثيرين دهشتي، يا آنا سيرغييفنا. أنت تعلمين بأني ادرس العلوم الطبيعية. أما من أنا...

– أجل، من أنت؟

– لقد أخبرتك بأني سأكون طبيباً في أحد الاقضية.

ندت عن آنا سيرغييفنا حركة غير متأنية:

– لمـاذا تقول ذلك؟ أنك لا تؤمـن بما تقول. بوسع اركادي أن يجيبني على هذا النحو، وليس أنت.

– فهل اركادي أسوأ...

– كفـاك. هل يجوز أن تقتنع بمثـل هذا العمل المتواضع؟ أولست أنت الذي أكـدت دوماً أن الطب غير موجود بالنسبة لك؟ كيف لك، بأنفتك المعروفـة، أن تصبح طبيباً في أحد الأقضيـة؟! أنك تجيبني على هذا النحو لكـي تتخلص مني لأنك لا تثق بي قيد شعـرة. ولكن هل تعلم، يا يفغيني فاسيليفيتشـ، بأننـي يمكن أن افهمـك: كنت بنفسي فقـيرة أنوفا مثلك، ولربما اجتزت نفس المحن التي تجتازها.

– كل ذلـك شيء طيـب، يا آنا سيرغييفنا، ولكن معـذرة... فأنا على العموم لم اعتد الحديث عن نفسي. ثم أن الهوة بينك وبيني سحيقة...

– أية هوة؟ ستقول لي من جديد أني ارستقراطية، أليس كذلك؟ كفاك، يا يفغيني فاسيليفيتش! اظن أني اثبت لك...

– ثم – قاطعها بازاروف – ثم ما الداعي للكلام والتفكير في مستقبل لا يعتمـد علينا بقسمة الاعظم؟ فإذا حدث وعملت شيئا مفيداً فذلك أمر رائـع، وإذا لم يحدث فسأكـون، على الاقل، قانعاً بـأني لم اثرثر عبثاً قبل الاوان.

– أنـت تنعـت الحديث الـودي بالثرثـرة... أم أنك ربمـا لا تعتبرني، كامرأة، إنساناً يستحق ثقتك؟ فأنت تحتقرنا جميعاً.

– أنني، يا آنا سيرغييفنا، لا احتقرك بالذات، وأنت تعرفين ذلك.

– كلا، لا أعـرف شيئـا... ولكن فلنفترض أني افهم عدم رغبتك في الكلام من عملك المرتقب، بيد أن ما يعتمل فيك الآن...

– يعتمل! فهل أنا دولة أو مجتمع؟! على كل حال ليس ذلك أمراً هاماً. ثم هل يستطيـع المرء أن يتكلم بصوت جهوري دوماً عن كل ما «يعتمل» فيه؟

– أنا لا أفهم المانع في الافصاح عن كل ما يشعر به المرء.

– وهل تستطيعين ذلك أنـت؟ – سألها بازاروف، فأجابت بعد تردد قصير:

– استطيع.

طأطأ بازاروف رأسه، وقال:

– أنت أسعد مني.

فألقت عليه آنا سيرغييفنا نظرة متسائلة، وواصلت كلامها:

– فليكـن. ومـع ذلك هناك شـيء يقول لي أننـا لم نتآلف عبثـاً، وأننا سنكون صديقين حميمين. أنا واثقة من أن توترك هذا، أن صح القول، أو تحفظك سيتلاشى في آخر المطاف.

– هل لاحظت لدي تحفظاً... أو توتراً على حد تعبيرك؟

– أجل.

نهض بازاروف واقترب من النافذة.

– وتريدين أن تعرفي سبب هذا التحفظ، وتعرفي ما يعتمل في دخيلتي؟

– أجل – كررت اودينتسوفا بخوف غامض.

– ألن تزعلي مني؟

كلا.

– كلا؟ – كان بـازاروف واقفاً وظهره إليها – فاعلمي اذن أني أحبك بغباء وجنون... هذا ما فعلته بي.

مدت اودينتسوفا كلتا يديها إلى الامام، بينما التصقت جبهة بازاروف بزجـاج النافذة. كان يتنفس بعسـر، وكان بدنه يرتعش كلياً على ما يبدو. لكـن مـا انتابه لم يكن هـو ارتعاشة وجـل الشباب ولا الذعـر اللذيذ من الاعـتراف الاول. لقـد نبض في دخيلته هوى شديد مرهـق، هوى شبيه بالغيظ، ولربما هو الغيظ ذاته...

ارتعبـت اودينتسوفا من ذلك وشعرت بالعطف على بازاروف فقالت بصوت رنت فيه نغمة عفوية رقيقة:

– يفغيني فاسيليفيتش.

استـدار بسرعـة والقـى عليهـا نظرة نهمـة، ثـم أمسك بكلتـا يديها واحتضنها بغتة.

لم تتخلص من أحضانه فوراً. لكنها بعد لحظة صارت تقف بعيداً في الركن وتنظر إلى بازاروف من هناك. وهرع هو إليها...

فقالت برعب واستعجال:

- لم تفهمني.

وخيل إليها أنه لو خطا خطوة أخرى لصرخت... عض بازاروف شفته وانصرف.

بعد نصف ساعة سلمت الخادمة تذكرة من بازاروف إلى آنا سيرغييفنا. كان فيها سطر واحد لا غير: «هل يتعين علي السفر اليوم، أم يمكنني البقاء إلى غد؟» فأجابته آنا سيرغييفنا: «ما الداعي للسفر؟ لم أكن افهمك وأنت لم تفهمني» وفكرت: «أنني لم أكن افهم نفسي أيضاً».

لم تغادر غرفتها حتى الغداء. كانت تجوبها جيئة وذهاباً، وقد اشبكت يديها خلف ظهرها. لم تكن تتوقف إلا نادراً أمام النافذة تارة وأمام المرآة تارة أخرى، لتمسح بالمنديل على نحو بطئ بقعة ساخنة خيل إليها أنها ظهرت على جيدها. كانت تسائل نفسها عما حدا بها إلى أن «تسعى»، على حد تعبير بازاروف، إلى جعله يصارحها، وعما إذا كانت تتوقع شيئاً... فقالت بصوت مسموع: «أنا المذنبة. ولكنني لم أكن اتوقع ذلك». غرقت في تأملاتها واحتقنت بصبغة حمراء حين تذكرت وجه بازاروف الذي بدا متوحشاً تقريباً عندما هرع إليها...

«أم ان... - نطقت بذلك فجأة ثم توقفت، فنفضت شعرها... وشاهدت نفسها في المرآة. بدا رأسها المائل إلى الوراء، بابتسامة خفية في عينيها وشفتيها المنفرجتين بالكاد، وكأنما يشير عليها في تلك اللحظة بشيء خجلت منه هي نفسها...

فقررت في آخر الأمر: «كلا. الله يعلم إلامَ سيقودنا ذلك. لا تجوز المخاطرة. فالهدوء، مع ذلك، هو أفضل ما في الكون».

لم يتزعزع هدوؤها. ولكن الغم اعتراها حتى أنها بكت مرة دون أن تعلم السبب. بيد أنها لم تبك للشعور بالاهانة، فهي لم تشعر بأنها قد اهينت، وأنما تتصور نفسها، على الأكثر، مذنبة. فبتأثير مختلف المشاعر الغامضة والاسف على الحياة الآفلة والرغبة في التجديد حملت نفسها على الوصول إلى خط معين وارغمتها على التطلع إلى ما وراءه، فرأت وراءه ليس هوة سحيقة، بل خواء... أو ما هو ابشع من الخواء.

١٩

مهما بلغت قدرة اودينتسوفا على ضبط نفسها وتجاوز مختلف الاباطيل، فقد شعرت بعدم الارتياح عندما حضرت للغداء في غرفة الطعام. وبالمناسبة فقد مضى الغداء بصورة مرضية نوعاً، حيث وصل بورفيري بلاتونيتش واورد مختلف الاخبار المضحكة، إذ كان قد عاد من المدينة لتوه. وقال، فيما قال، أن المتصرف أمر معاونيه الخاصين أن يرتدوا المهاميز تحوطاً لما إذا كان سيرسلهم راكبين إلى مكان ما على جناح السرعة. وكان اركادي يتحدث مع كاتيا بصوت خافت ويداري الاميرة بتصنع. بينما لزم بازاروف الصمت متجهماً متعنتاً. نظرت اودينتسوفا مرتين على نحو مباشر وبدون مواربة إلى وجهه السوداوي الصارم بعينيه الخفيضتين واثر التصميم الانوف باد في كل ملامحه، وفكرت في نفسها: «كلا... ثم كلا...» بعد الغداء توجهت مع الجميع إلى البستان. وعندما لاحظت أن بازاروف يريد التحدث معها خطت بضع خطوات إلى الجانب وتوقفت. فاقترب منها وقال بصوت مكبوت دون أن يرفع إليها انظاره هنا أيضاً:

– يتعين علي أن اعتذر منك، يا آنا سيرغيفنا، فأنت غاضبة علي ولا بد.

فأجابته اودينتسوفا:

– لست غاضبة عليك، يا يفغيني فاسيليفيتش، ولكنني متكدرة.

– وهـذا اسـوأ. على كل حال فقد عوقبت أنا بمـا فيه الكفاية. إذ ليس هنـاك أكـثر حماقة من موقفي، وأنت، على ما أظـن، توافقينني في ذلك. لقـد كتبت لي: ما الداعـي للسفر؟ بينما لا استطيع البقـاء ولا اريده. ولن أكون هنا غداً.

– يا يفغيني فاسيليفيتش، لماذا...

– لماذا اسافر؟

– كلا، ليس هذا ما أردت أن أقوله.

– الماضـي لا يعود، يا آنا سيرغييفنا... وذلـك شيء يجب أن يحدث عاجـلاً أم آجلاً. وبالتالي علـي أن اسافر. أنني أعرف شرطاً واحداً يمكنني أن ابقى إذا تحقق، ولكن ذلك الشرط لن يتحقق أبداً. فأنت، ومعذرة على تجاسري، لا تحبينني ولن تحبيني أبداً، أليس كذلك؟

لمعت عينا بازاروف للحظة من تحت حاجبيه القاتمين.

لم تجبـه آنا سيرغييفنـا، وخطرت على بالهـا فكرة: «أنـا أخشى هذا الإنسان». فقال بازاروف وكأنما حزر فكرتها:

– وداعاً.

وتوجه نحو الدار.

تبعته آنا سيرغييفنا بهدوء، ونادت كاتيا فاصطحبتها ممسكة بساعدها. لم تفارقها حتـى المساء. كما لم تلعب الورق، بل اخذت تضحك ساخرة، الأمر الذي لم يناسب محياها الشاحِ المرتبك. تحير اركادي وصار يراقبها كما يفعـل الشبان عادة، فيسائل نفسه على الدوام: ما الذي يعنيه ذلك؟ انزوى بـازاروف في غرفته، ولكنه عاد لاحتساء الشاي. ارادت. آنا سيرغييفنا أن تقول له كلمة طيبة، ولكنها لم تكن تعرف كيف تبدأ الكلام معه...

بيـد أن حادثاً غير متوقع اخرجها من المـأزق. فقد أعلن كبير الوصفاء عن قدوم سيتنيكوف.

يصعب على الكلمات أن تعبر عن السرعة الخرقاء التي اقتحم بها الغرفة داعيـة التقدم الشاب هـذا. فبعد أن صمـم، باللجاجـة الملازمة له، على التوجه إلى القرية، إلى امرأة لا يعرفها إلا بالكاد و لم تكن قد دعته لزيارتها أبداً، ولكنها تستضيف، حسـب المعلومات التي وردته، شخصين ذكيين عزيزيـن عليه، فأنه مع ذلك شعر بالوجل ينتابه حتى العظام، وبدلاً من أن ينطـق عبارات الاعتذار والتحية التي حفظها عـن ظهر قلب مسبقاً دمدم سخافة وهذراً حيث زعم أن يفدوكسيا كوكشينا بعثته ليستفسر عن صحة آنا سيرغييفنا وأن اركادي نيكولايفيتش كان يثني دوماً أعظم الثناء...

تلعثم عندما لفـظ هذه الكلمة ونسي نفسه حتى أنه جلس على قبعته. بيـد أن أحداً لم يطرده، بـل قدمته آنا سيرغييفنـا إلى خالتها واختها، ولذا سرعان ما التقط أنفاسه واسترسل في الهذر. غالباً ما يصبح ظهور الابتذال امـراً نافعاً في الحيـاة: فهو يخفف من حـدة الاوتار المشـدودة جداً كما يخفـف من المشاعـر المتعالية أو المنفلتة، إذ تتجلـى صلة القربى التي تربط بينها وبينه. بوصـول سيتنيكوف اصبح كل شيء أكثر بلادة وأكثر بساطة على نحـو ما، حتى أن الجميـع تناولوا طعام العشاء بشهيـة أكبر وتفرقوا للنوم قبل نصف ساعة من المعتاد.

قال اركادي وهو مضطجع على الفراش لبازاروف الذي خلع ملابسه هو الآخر:

– بوسعي أن أكرر لك الآن ما قلته لي أنت ذات مرة: «لماذا أنت حزين إلى هذا الحد وكأنما اديت واجباً مقدساً؟».

منذ أمـد غير طويل ساد العلاقات بين الشابين نوع من المداعبة المغالية في عدم التكلف، الأمر الذي يدل دوماً على التذمر الخفي أو على الشكوك

التي لم تجد لها متنفساً.

فقال بازاروف:

– سأسافر غداً إلى والدي.

فنهض اركادي قليلاً واستند إلى مرفقه. لقد دهش وفرح لسبب ما. وقال:

– آها! هذا هو مبعث حزنك؟

فقال بازاروف متثائباً:

– من يعرف المزيد تداهمه الشيخوخة قبل الاوان.

فواصل اركادي كلامه:

– وآنا سيرغييفنا، ما هو رأيها؟

– وما شأن آنا سيرغييفنا؟

– أقصد هل ستسمح لك؟

– لست أجيراً عندها.

تأمل اركادي بعض الشيء، بينما رقد بازاروف ووجهه إلى الجدار.

مرت عدة دقائق في صمت. فهتف اركادي على حين غرة:

– يفغيني!

– ماذا؟

– سأسافر غداً معك.

لم يجب بازاروف بشيء، فواصل اركادي كلامه:

– غير أنني سأذهب إلى أهلي. سنتوجه معاً إلى قرية خوخلوفو، وهناك تأخذ خيولاً من فيدوت. يسرني جداً أن أتعرف على والديك، ولكني أخشى أن اضيق عليهما وعليك. ثم أنك ستعود إلينا فيما بعد، أليس كذلك؟

فقال بازاروف دون أن يستدير نحوه:

- تركت حاجياتي عندكم.

فكـر اركادي في نفسه: « لم لا يسألني عن السبب في سفري على هذا النحـو المفاجئ مثل سفره؟». وواصـل تأملاته: «حقاً لماذا اسافر أنا ولماذا يسافر هـو؟». ولم يستطع أن يجد جواباً مرضياً علـى أسئلته، بينما طفح قلبـه بشيء مـا لاذع. وأحس بأنه سيكـون من العسير عليـه مفارقة هذه الحياة التي اعتاد عليها. غير أن بقاءه لوحده أمر فيه شيء من الغرابة. فصار يحاجـج نفسه: «لقد حدث بينهما شيء ما. فمـا الداعي لأن اثقل عليها بعـد سفره؟ سوف تمل مني نهائياً، وسأفقد آخـر ما لدي». وأخذ يتصور آنـا سيرغييفنا، ويتصور وجهاً آخر يلوح قليلاً من وراء محيا الارملة الشابة المليح.

«أسفـي لكاتيا أيضاً!» - همـس اركادي للوسادة التي سقطت عليها دمعة... ثم نفض شعره بغتة وقال بصوت عال:

- أي شيطان جاء بسيتنيكوف البليد هذا؟

تحرك بازاروف في سريره، ثم قال:

- لا تـزال أنـت، يا أخي، غبياً علـى ما اعتقد. أن أمثـال سيتنيكوف يلزمو نـنـا. فأنا بحاجة إلى أمثـال هؤلاء البلداء، وعليك أن تفهم ذلك. هل يتعين على الآلهة أن ينشغلوا بالتفاهات؟..

«عجبـاً!» - فكر اركادي وانفرجت امامه فجأة هوة كبرياء بازاروف سحيقـة لا قرار لها. «ذلك يعني أننا من عداد الآلهة، أو على الاصح أنت إله، وأنا من البلداء، أليس كذلك؟».

- أجل، لا تزال أنت غبياً - كرر بازاروف متجهماً.

لم تبـد اودينتسوفـا دهشة كبـيرة عندما اعلـن اركادي في اليوم التالي عـن عزمه عن السفر مع بازاروف. لقد بدت متعبة شاردة البال. وجهت

إليـه كاتيا نظرة صامتة جـادة، بينما رسمت الاميرة شـارة الصليب تحت وشاحهـا، وكان لا بد لـه أن يلاحظ ذلـك. بيد أن سيتنيكـوف بالذات أصبـح في اشد الانزعاج. كان قد حضر بيد أن سيتنيكوف بالذات أصبح في أشـد الانزعاج. كان قد حضر تـواً لتناول الفطور في بدلة جديدة انيقة للغايـة، وليست هذه المرة مما يرتديه أنصار النزعة السلافية. وفي يوم أمس دهش الشخص الذي عـين لخدمته من كثرة الملابس التي جلبها معه. وها أن رفيقيـه يغادرانه على حين غرة! تخطر بعض الشيء بخطوات متقاربة، ثـم اندفع كأرنب مطـارد في طرف الغابة، وأعلن فجـأة بشيء من الذعر وبصوت يـكاد يقرب من الصراخ أنه عازم على السفـر أيضاً. و لم تحاول اودينتسوفا اقناعه بالبقاء.

قال الشاب التعيس مخاطباً اركادي:

– عنـدي عربة مكشوفة مريحة جـداً، وبوسعـي أن اصطحبك، أما يفغيني فاسيليفيتش فيمكن أن يستقل عربتك، وسيكون ذلك أفضل.

– كيف؟ طريقك غير طريقي. والمسافة إلينا بعيدة.

– لا بأس، لا بأس، لدي متسع مـن الوقت، ثم علـى أن ادبر بعض الشؤون في تلك الناحية.

– شؤون تجارة المسكرات؟ – سأله اركادي بمنتهى الازدراء.

بيـد أن سيتنيكوف كان في حالـة من اليأس والقنوط حتى أنه لم يقهقه هذه المرة خلافاً لعادته. فكرر القول:

– أؤكد لك أن العربة مريحة للغاية، وفيها مكان لنا.

فقالت آنا سيرغييفنا:

– لا تكدر المسيو سيتنيكوف بالممانعة.

نظر إليها اركادي وطأطأ رأسه بمهابة.

سافر الضيوف بعد الفطور. ودع بازاروف اودينتسوفا فمدت له يدها قائلة:

– سنلتقي مرة أخرى، أليس كذلك؟

فأجاب بازاروف:

– كما تأمرين.

– اذن سنلتقي.

كان اركادي أول من خرج من الدار، فصعد إلى عربة سيتنيكوف. وساعده كبير الوصفاء في ذلك بكل اجلال، في حين كان بود اركادي أن يصفعه أو ينتحب. واستقل بازاروف العربة الاخرى. عندما وصلوا إلى قرية خوخلوفو انتظر اركادي حتى شد صاحب الخان فيدوت الخيول، فاقترب من عربة بازاروف وقال له بابتسامته المعهودة:

– يفغيني. خذني معك، اريد أن أذهب إليكم.

فتمتم بازاروف:

– اصعد.

كان سيتنيكوف وهو يتمشى حول عجلات مركبته ويصفر بحماس، قد فغر فمه عندما سمع تلك الكلمات، بينما سحب اركادي ببرود حاجياته من عربة ذاك وصعد إلى عربة بازاروف فجلس قربه وحنى رأسه انحناءة تبجيل لسيتنيكوف وصاح: «هيا بنا!». تحركت العربة وسرعان ما اختفت عن الانظار... تطلع سيتنيكوف المرتبك أشد ارتباك إلى حوذيه، بيد أن ذاك كان يتلاعب بسوطه فوق ذيل الفرس. وعند ذاك قفز سيتنيكوف إلى عربته، زعق صارخاً على فلاحين مرا قربه: «لبسا قبعتيكما أيها الاحمقان!»، وتوجه إلى المدينة حيث وصلها في ساعة متأخرة. وفي اليوم التالي انهال، لدى كوكشينا، وابل من اللوم المقذع على ذينك «المتكبرين الوقحين الكريهين».

عندما صعد اركادي إلى عربة بازاروف شد على يده بقوة و لم يقل شيئاً لامد طويل. وبدا وكأن بازاروف قد فهم وقدر هذه الالتفاتة من رفيقه. لم يكن قد ذاق طعم النوم ولا التدخين في الليلة المنصرمة، و لم يكن قد تناول طعاماً يذكر منذ بضعة ايام. ونتأت صفحة وجهه من تحت طاقيته مكفهرة متجهمة. ثم قال أخيراً:

– ماذا، يا أخي، هلا اعطيتني سيجارا... ثم انظر: أليس لساني أصفر؟

– اصفر.

– هكذا... حتى السيجار غير لذيذ. تفككت الماكنة.

– تغيرت حقاً في الآونة الاخيرة.

– لا بأس، سنتعافى. هناك شيء واحد محزن. فأن امي رقيقة القلب إلى درجــة، حتى أنها تتألم أشد الألم إذا لم ينتفخ بطني و لم آكل عشر مرات في اليوم. أما أبي فلا بأس. لقد رأى ما رأى، وغربل الامور وتخلها. كلا، لا يمكن التدخين – قال ذلك وقذف السيجار وسط غبار الطريق.

فسأله اركادي:

– المسافة إلى ضيعتك خمسة وعشرون كيلومتراً؟

– أجل. ولكن اسأل هذا الحكيم عنها.

وأشــار إلى الفلاح الجالس على مقعد الحوذي، وهو من العاملين لدى فيدوت.

بيــد أن الحكيم اجاب بلهجة محليــة: «من يدري؟ لم يقس أحد المسافة هنــا». وواصل شتائمــه بصوت خافت على فرس المقدمــة التي كان تتهز رأسها بتشنج.

وطفق بازاروف يتكلم:

– أجـل، أجل، يا صديقي الفتـي، أنه لدرس فيه عبرة لك. الشيطان وحـده يعرف هذه الحماقة! كل شخص معلق بشعرة، ويمكن أن تنفرج تحته هـوة سحيقة في كل لحظة، بينما يبتدع هـو لنفسه مختلف المشاكل ويفسد حياته.

فسأله اركادي:

– الام تلمح؟

– ليس في ذلك تلميح. فأنا أقـول صراحة أنني وأياك تصرفنا تصرفاً أحمق. الأمر واضح تماماً. وقد لاحظت في المستشفى أن الذي يغضب على ألمه لا بد وأن يقهره.

فقال اركادي:

– لا أفهمـك تمامـاً. يخيل الي أنه لم يكن هناك مـا يمكن أن تتشكي منه.

– مـا دمت لا تفهمني تماماً فأنا احيطـك علماً بما يلي: برأيي أن قلع البـلاط من الشارع أهون من السماح لامرأة بأن تمتلك قيد انملة. فذلك كله مجـرد... – كاد بازاروف يتلفظ كلمته المحببة «رومانسية»، ولكنه امتنـع وقال: – سخافة صـرف. وسوف لن تصدقني إذا قلت لك الآن: لقـد كنا في معشـر نسائي، وكان ذلـك أمراً مسراً، لكـن ترك مثل هذا المعشـر كالاستحمـام بماء بارد في يـوم قائظ. فليس لـدى الرجل وقت لممارسـة هذه التفاهـات. على الرجل أن يكون شرسـاً، كما يقول المثل الاسبـاني الرائع. فأنت مثلاً – اضاف بـازاروف مخاطباً الفلاح الجالس في مقعد الحوذي – أنت، أيها الحصيف، هل لديك زوجة؟

التفت الفلاح إلى الصديقين بوجهه المسطح الاعشى:

– زوجة؟ طبعاً، فكيف يمكن بدونها؟

– وهل تضربها؟

– من، زوجتي؟ يصادف. فنحن لا نضرب بدون سبب.

– حسنا. وهي هل تضربك؟

هز الفلاح الاعنة:

– مـا هذا الـكلام، أيها السيد. ليس كل شـيء يصلح للمزاح... – زعل الفلاح على ما يبدو.

– هل أنت سامع يا اركادي نيكولايفيتش؟ أما نحن فقد ضربونا... ذلك ما يعنيه أن يكون المرء مثقفاً.

ضحـك اركادي بتكلف، بينما أشاح بـازاروف بوجهه، و لم ينبس ببنت شفة طوال ما تبقى من الطريق.

بدت الخمسة والعشـرون كيلومتراً لاركادي بقدر خمسين. وأخيراً لاحـت على صفحة هضبـة منحدرة القرية الصغيرة التـي يقطنها والدا بـازاروف. وإلى جانبهـا بدت وسـط اجمة من صغار البتـولا دار غير كبيرة من دور النبلاء وسقفها مغطى بالقش. وعند أول بيت قروي كان فلاحان مهندمان يتشاجران. فقد قال احدهما للآخر «أنت خنزير كبير ولكنك اسوأ ن الخنوص الصغير»، فقال الثاني «وزوجتك سحارة».

فقال بازاروف لاركادي:

– يمكنـك الحكم من صيغة المخاطبة غـير المتكلفة ومن لجهة الكلام بـأن فلاحي أبـي لا يتعرضون لمضايقة شديـدة. وبالمناسبة فها هو نفسه يخـرج إلى باحة الدار. لا بد وأنه سمع جرس العربة. أنه هو، هو طبعاً، عرفته من قوامه. ولكن، يا للعجب كيف شاب، المسكين، إلى هذا الحد!

٢٠

اطـل بازاروف من العربة، واشرأب اركادي بعنقه من وراء ظهر رفيقه فـرأى في مدخل الدار رجلاً نحيفـاً فارع القامة بشعر اشعث وأنف دقيق كمنقـار الصقر، وهو يرتـدي سترة عسكرية عتيقـة مفتحة الازرار. كان واقفـاً منفرج الساقين، يدخـن غليوناً طويلاً، ويضيق عينيـه بسبب أشعة الشمس.

توقفت الخيول.

فقال بازاروف الاب، وهو يواصل تدخينه مع أن الغليون يتراقص بين أصابعه: – ها قد وصلت أخيراً. هيا انزل، انزل، فلنتعانق.

عانق ابنه... فارتفع صوت نسائي مرتعش: «ينيوشا»[٥٠]، «ينيوشا». فتح الباب على مصراعيه وظهرت على عتبته عجوز متكورة قصيرة القامة في قلنسـوة بيضاء وبلوزة زاهية قصـيرة. تأوهت وتمايلت وكادت تسقط لولا أن اسندها بازاروف. طوقت يداها الممتلئتان عنقه على الفور والتصق رأسها بصدره، وساد الصمت كل شيء، ما عدا نشيجها المتقطع.

كان العجـوز بـازاروف يتنفس بصعوبة، وصار يضيـق عينيه أكثر من السابق. ثم قال بعد أن التقت نظرته بنظرة اركادي، في حين اشاح الفلاح الجالس على مقعد الحوذي بوجهه:

– كفاك، كفاك يا آرينا! لا داعي لذلك! ارجوك.

فتمتمت العجوز:

– آه يـا فاسيلـي ايفانوفيتش! منذ متـى لم ار حبيب قلبـي وقرة عيني ينيوشا... – وابعدت وجهها المتيم المدعوك المبلل بالدموع عن بازاروف

---

(٥٠) صيغة التحبيب من اسم يفغيني. – المترجم.

دون أن ترفـع يديها عن عنقه، ونظرت إليــه بعينين مغتبطتين، مضحكتين بعض الشيء، ثم التصقت به من جديد. فقال فاسيلي ايفانوفيتش:

– كل ذلــك في طبيعة الاشيـاء. ولكن من الافضـل أن ندخل البيت. فقــد وصل ضيف مع يفغيني. – ثم اضاف مخاطباً اركادي، وحف برجله قليـلاً – عفواً، أنــت تعرف هذه الأمور. تلك هي نقطــة ضعف المرأة. يا لقلب الأم...

قال ذلــك وارتعشت شفتــاه وحاجبــاه، وكان ذقنه يهتــز اهتزازاً... بيــد أنه كان، على مــا يبدو، راغباً في ضبط مشاعـره والتظاهر بشيء من اللامبالاة. فانحنى له اركادي. وقال بازاروف:

– فعلاً، فلندخل يا ماما.

واقتــاد إلى الــدار العجوز التي خارت قواهــا اجلسها في مقعد مريح، وعانق اباه من جديد على عجل وقدم له اركادي.

فقال فاسيلي ايفانوفيتش:

– يسعدني مــن صميم القلب أن نتعارف، ولكن لا تلمني، فكل شيء هنــا بسيط علــى الطراز العسكــري. يا آرينــا فلاسيفنا، اعملــي معروفاً، وروحــي عن نفسك. فما هــذا الخور؟ لا بد وأن السيــد الضيف يلومك على ذلك.

فقالت العجوز والدموع تنهمر من عينيها:

– يا عزيزي... لم اتشرف بعد بمعرفة اسمك واسم ابيك...

فقال فاسيلي ايفانوفيتش بصوت خافت له وزنه:

– اركادي نيكولايفيتش.

فقالت العجــوز بعد أن تمخطــت ومالت برأسهــا ذات اليمين وذات الشمال ومسحت عيناً بعد أخرى بكل عناية:

– اعذرني أنا الغبية. اعـذرني. كنت أفكر بأني سأموت دون أن يطول بي العمر لأرى قر... قرة عيني.

فقال فاسيلي ايفانوفيتش:

– ها قد رأيته، يا سيدتي.

ثـم التفـت إلى بنت حافية القدمـين في حوالي الثالثة عشـرة من العمر ترتـدي فستاناً قطنياً أحمر صارخاً، وهي تتطلـع بخوف من شق الباب، وناداها قائلاً:

– تانيوشـا. احضري للسيدة قدحاً من الماء بالصينية، هل أنت سامعة؟
– ثـم أضاف بشيء مـن المداعبة العتيقة الطـراز: أما أنتمـا أيها السيدان فاسمحا لي أن ادعوكما إلى مكتب المحارب القديم المتقاعد.

وأنّت آرينا فلاسيفنا متنهدة:

– تعال لاعانقك مرة أخرى يا ينيوشا. – انحنى إليها بازاروف – كم أصبحت جميلاً!

فقال فاسيلي ايفانوفيتش:

– لسـت واثقاً من جمالـه، ولكنه غدا رجلاً من خـيرة الرجال، كما يقـال. أما الآن فآمل، يا آرينـا فلاسيفنا، أنك بعد أن اشبعت قلب الامومة سوف تهتمين باشباع ضيفيـك العزيزين، فالبلبل، كما تعرفين، لا يقتات على الحكايات.

نهضت العجوز من المقعد وقالت:

– في الحـال، يا فاسيلي ايفانوفيتـش، ستكون المائدة جاهزة. سأذهب بنفسي إلى المطبخ وسآمر باعداد السماور. سيكون كل شيء على ما يرام. منذ ثلاث سنوات لم أراه و لم اطعمه و لم اسقه، فهل ذلك بالأمر الهين؟

– ارجـوك يا ربة البيت، ابذلي جهدك، فلا تجلبي الملامة على نفسك.

أمـا انتما أيها السيـدان فارجوكمـا أن تتبعاني. وها هـو تيموفييتش جاء ليحييـك يا يفغيني. فهو أيضاً قد سر، ولا بـد، أليس كذلك أيها العجوز؟ اتبعوني رجاء.

سـار فاسيلـي ايفانوفيتشـ في المقدمـة حـركاً متململـلاً وهو يحف ويخشخش بحذائه البالي.

كانـت داره تضم سـت غرف صغيرة لا غير. وكانـت احداها، وهي الغرفـة التي اقتـاد إليها صاحبينـا، تسمى بالمكتب. كانـت طاولة بقوائم سميكـة تحتـل كل الفسحة بين النافذتـين. وعلى الطاولـة اكداس اوراق اسودت من الغبار والقدم حتى بـدت كالمشوية بالدخان. وعلى الجدران بنـادق ومجالـد تركيـة وسيـف وخريطتـان جغرافيتـان وبعضـ الرسوم التشريحيـة وصـورة هوفيلاند وطغراء مصنوعة مـن الشعر في اطار اسود ودبلومـا مزججة. وكانت هنـاك اريكة جلدية مخسوفـة في ناحية وممزقة في ناحيـة أخرى بين صوانين هائلين من خشب البتولا الكاريلية. وكانت الرفـوف غاصـة، على غير انتظـام، بالكتـب والعلب والطيـور المحنطة والقناني والزجاجات الصغيرة. وفي أحد الاركان ماكنة كهربائية معطبة.

بدأ فاسيلي ايفانوفيتش كلامه:

– ذكـرت لك يـا زائـري العزيز أننـا نعيشـ هنا كمـا في المخيمات العسكرية المكشوفة...

فقاطعه بازاروف:

– كفـاك، علام تعتذر؟ اركادي يعرف جيداً بأنك لست قارون وأنك لا تمتلك قصراً. ولكن أين سيقيم؟ تلك هي المشكلة.

– كيف يا يفغيني؟ لدينا في الجناح غرفة ممتازة. وسيرتاح فيها كلياً.

– ماذا؟ هل بنيت جناحاً؟

فتدخل تيموفييتش قائلاً:

– كيف لا يا سيدي؟ هناك في مبنى الحمام.

– أي قرب الحمام – اضاف فاسيلي ايفانوفيتش على عجل – فالوقت صيف... سأذهب إلى هناك في الحال لاعطي بعض التعليمات. هلا احضرت، يا تيموفييتش، حاجياتهما! أما أنت، يا يفغيني، فاترك لك مكتبي طبعاً (لكل ما له)[٥١].

فقال بازاروف حالما خرج فاسيلي ايفانوفيتش:

– يا له من عجوز ظريف. أنه في منتهى الطيبة. وهو غريب الاطوار مثل ابيك، ولكن على طراز آخر. أنه كثير الثرثرة.

فقال اركادي:

– وأمك أيضاً امرأة رائعة على ما يبدو.

– أجل، أنها طيبة القلب. وسوف ترى أي غداء ستقدم لنا.

فقال تيموفييتش وقد دخل لتوه حاملاً حقيبة بازاروف:

– لم نتوقع وصولكما اليوم، يا عزيزي، فلم نحضر لحم البقر.

– سنستغني عن لحم البقر ما دام غير موجود. فالفقر ليس عيباً كما يقال.

فسأله اركادي على نحو غير متوقع:

– كم نسمة يمتلك ابوك؟

– الضيعة ليست له، فهي ملك لوالدتي، وعدد الفلاحين، على ما اتذكر، خمسة عشر.

---

(٥١) في الأصل باللاتينية Suum cuique.

– بل اثنان وعشرون – قال تيموفييتش بعدم ارتياح.

تهادى حفيف حذاء، وظهر فاسيلي ايفانوفيتش من جديد، وأعلن كالمنتصر:

– بعد بضع دقائق ستكون غرفتك جاهزة يا اركادي... نيكولايفيتش. هذا هو اسم ابيك على ما اعتقد، أليس كذلك؟ – ثم اضاف مشيراً إلى غلام قصير الشعر في قفطان أزرق ممزق عند المرفقين وفي جزمة ليست له: – هذا خادمك. واسمه فيدكا. اعتذر مرة أخرى، مع أن ولدي لا يسمح بالاعتذار، فالصبي يجيد: على الأقل، شحن الغليون. أنت تدخن، أليس كذلك؟

– أنا ادخن السجائر أكثر. – اجاب اركادي.

– ذلك في منتهى الحكمة. وأنا شخصياً أفضل السجائر، ولكن من الصعب جداً الحصول عليها في بقاعنا النائية هذه.

فقاطعه بازاروف من جديد:

– كفاك مسكنة. من الافضل أن تجلس هنا على الاريكة لاستطيع التطلع إليك.

ضحك فاسيلي ايفانوفيتش وجلس. كان وجهه يشبه وجه ابنه لدرجة كبيرة، سوى أن جبهته اوطأ واضيق، وفمه اوسع قليلاً. كان دائم الحركة، يهز كتفيه بلا كلل وكأنما الثوب ضيق تحت ابطيه. ويطرف كثيراً ويسعل بين الفينة والفينة ويحرك اصابعه، في حين يتميز ابنه بشيء من الهدوء اللاابالي.

تحدث فاسيلي ايفانوفيتش:

– تقول، يا يفغيني أني اتمسكن! كلا، لا تظن بأني كأنما اريد أن اتشكى لضيفنا من عشيتنا في طرف منعزل بعيد. فأنا على العكس أرى أنه لا

يوجد طرف بعيد بالنسبة للإنسان المفكر. وأنا، على الأقل، أحاول، قدر الامكان، أن أواكب العصر، فلا أترك الطحالب تغطيني، كما يقال.

اخرج فاسيلي ايفانوفيتش من جيبه منديلاً حريرياً اصفر جديداً، كان قد اخذه عندما ذهب لترتيب غرفة اركادي، وواصل كلامه وهو يلوح بالمنديل:

– ناهيك عن أني، مثلاً، حولت الفلاحين للعمل حسب الجزية واعطيتهم ارضي مناصفة في المحصول، بالرغم من الاضرار المحسوسة التي اتكبدها نتيجة لذلك. فقد اعتبرت هذا واجباً علي، فالعقل السليم نفسه يتطلب ذلك، مع أن الكثيرين من الملاك الآخرين لا يفكرون به. وأنا اهتم بالعلوم والتعليم.

فقال بازاروف:

– أجل، أرى لديك «صديق العافية» لعام ألف ثمانمئة وخمسة وخمسين.

فقال فاسيلي ايفانوفيتش باستعجال:

– يرسلها لي أحد أصدقائي القدامى. – ثم اضاف موجهاً كلامه إلى اركادي على الاكثر، واشار إلى رأس صغير من الجبس انتصب على الصوان وقسم إلى مستطيلات مرقمة وقال: – نحن، مثلاً، نعرف ما هي فراسة الدماغ[٥٢]. ولم يبق شينلين ورادماخير مجهولين لدينا.

فسأل بازاروف:

– أفلا يزالون في هذا اللواء يصدقون رادماخير؟

---

(٥٢) نظرية غير علمية للتدليل على السجايا الشخصية والملكات الذهنية من دراسة شكل الجمجمة. – المترجم.

سعل فاسيلي ايفانوفيتش وقال:

– في اللـواء... انتم اعـرف طبعاً، أيها السادة. فمـن أين لنا أن نلحق بكـم؟ سوف تحلـون أنتـم بالذات محلنـا. حتـى في زماني بـدا هوفمان ونظريته للاخلاط وبـراون ومذهبه الحيوي شخصـين مضحكين للغاية، ولكـن صيتهما ذاع أيضـاً في حينه. وحل شخص مـا جديد لديكم محل راديماخير وأنتـم تطأطئون رؤوسكم أمامه. لكنه ربمـا سيكون هو الآخر مثاراً للسخرية بعد عشرين عاماً.

فقال بازاروف:

– ازيـدك علماً بأننا الآن نسخر من الطب عموماً ولا نطأطئ رؤوسنا أمام أحد.

– كيف؟ أفلا تريد أن تصبح طبيباً؟

– بلى، فليس في ذلك تعارض.

دس فاسيلي ايفانوفيتـش اصبعه الوسطى في غليونـه، فلا يزال هناك شيء من الرماد الساخن. وقال:

– ربما، ربما. لن اجاد في ذلك. فمن أنا؟ مجرد طبيب عسكري متقاعد. وقـد تحولـت الآن إلى مهندس زراعي. – ثم وجـه كلامه إلى اركادي من جديـد: – خدمت في لواء جدك. أجـل رأيت في حياتي الكثير. فما أكثر المجتمعـات التي حضرتهـا والشخصيات التي صادقتهـا! أنني، أنا الذي تـراني الآن أمامك، قد جسست نبض الامـير فيتغينشتين وجوكوفسكي! وكنـت اعرف فرداً فرداً جميع الذين كانـوا في الجيش الجنوبي، هل أنت فاهم؟ (وهنا زم فاسيلي ايفانوفيتش شفتيه متباهياً). ولكن عملي ثانوي لا شأن له. فلا يطلب مني غير اجادة المبضع وكفى! أما جدك فكان عسكرياً حقيقياً وإنساناً مبجلاً للغاية.

فقال بازاروف متكاسلاً:

– قل الحقيقة: كان في منتهى الحماقة.

– آه يا يفغيني! اية الفاظ تنطق؟! ارحم حالي... بالطبع، لم يكن الجنرال كيرسانوف في عداد اولئك...

فقاطعه بازاروف:

– اتركه وشأنه. عندما اقتربت من هنا سررت لاجمتك، اجمه البتولا. لقد شهقت وارتفعت كثيراً.

انتعش فاسيلي ايفانوفيتش وقال:

– هل لاحظت كيف ازدهر البستان؟! غرست بنفسي كل شجرة فيه. وتوجد فاكهة وثمار وأعشاب طيبة. ومهما كان رأيكم أيها السادة الشباب فأن العجوز باراتسيلس نطق بالحقيقة عينها حينما قال: (بالاعشاب والكلمات والاحجار...[٥٣]). تخليت عن ممارسة التطبيب، كما تعلم. غير أني مضطر إلى العودة إليه مرتين في الاسبوع. فعندما يلتمس الناس المشورة لا يمكن طردهم. ويصادف أن يحتاج الفقراء إلى اسعاف، بينما لا يوجد هنا اطباء على الاطلاق. تصور أن أحد الجيران، وهو رائد متقاعد، يمارس التطبيب أيضاً. وعندما سألت عما إذا كان قد درس الطب أم لا، قيل لي: كلا، لم يدرسه. أنما يمارسه عملاً بالمعروف... ها – ها، عملاً بالمعروف! أرأيت؟ ها – ها! ها – ها!

فقال بازاروف متجهماً:

– فيدكا! املأ غليوني!

(٥٣) في الأصل باللاتينية in herbis، verbis et lapidibus لعله يقصد امكان المعالجة بها. – المترجم.

ثم واصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه بشيء من الاسف:

– ذات مرة وصل طبيب لعيادة مريض ولكن هذا الأخير (التحق بالاجداد[٥٤]) فلم يسمح الوصيف للطبيب بالدخول وقال له: لا حاجة. ولم يكن الطبيب يتوقع ذلك فسأله مرتبكاً: «ماذا؟ هل فاق السيد قبيل الوفاة؟» – «اجل». – «وهل فاق كثيراً؟» – «كثيراً» – . «ذلك شيء حسن». وعاد ادراجه. ها – ها – ها!

ضحك العجوز لوحده. وارتسمت ابتسامة متكلفة على محيا اركادي، بينما اكتفى بازاروف بأن اخذ نفساً من غليونه. استمر الحديث على هذا النحو زهاء ساعة. وتيسر وقت لاركادي كي يذهب إلى غرفته ويعود، فاتضح له أنها غرفة ملابس الاستحمام، ولكنها مريحة ونظيفة للغاية. وأخيراً دخلت تانيوشا وأعلنت أن الغداء جاهز.

نهض فاسيلي ايفانوفيتش أولاً، وقال:

– فلنذهب أيها السادة! معذرة إذا كنت قد اضجرتكما، ولعل ربة بيتي تلبي حاجتكما أكثر مني.

كان الغداء فاخراً، بل وسخياً، بالرغم من الاستعجال في اعداده. غير أن النبيذ لم يكن على المستوى المطلوب أن صح القول. كان طعم نبيذ الهيريس القاتم الذي اشتراه تيموفييتش من بائع يعرفه في المدينة شبيهاً بطعم النحاس أو صمغ الصنوبر. وكان الذباب قد لعب دوره أيضاً. في الاوقات العادية كان الخادم الصغير يطرد الذباب بغصن اخضر كبير، إلا أن فاسيلي ايفانوفيتش ابعده هذه المرة كي لا يتعرض للملامة من قبل الجيل الفتي. وتسنى لآرينا فلاسيفنا أن تتزين، فقد ارتدت قلنسوة عالية بأشرطة حريرية ووشاحاً ازرق موشى. انتحب من جديد حالما وقع نظرها على

---

(٥٤) في الاصل باللاتينية ad patres.

ابنها ينيوشا، غير أن زوجها لم يضطر إلى تهدئتها، فقد عجلت هي نفسها بمسح دموعها كي لا يبتل الوشاح. تناول الشابان الطعام وحدهما، إذ أن أهل البيت تغدو قبل حين. وسهر على الخدمة فيدكا الذي بدا مرهقاً بالجزمة غير المعادة، وعاونته في ذلك انفيسكوشكا وهي امرأة عوراء ذات ملامح تنم عن البسالة، تؤدي وظائف مدبرة المنزل ومربية الدواجن والغسالة. أخذ فاسيلي ايفانوفيتش طوال الغداء يتمشى في الغرفة ويتحدث بسرور بل وبغبطة عن المخاوف الوخيمة التي اوحت بها اليه سياسة نابليون والمسألة الايطالية المشوشة. و لم تكن آرينا فلاسيفنا لتلتفت إلى اركادي ولم تستحثه على تناول الطعام، فقد اسندت بقبضتها وجهها المستدير الذي اضفت عليه شفتاها المنتفختان القرمزيتان والشامات على وجنتيها وفوق حاجبيها مسحة من الطيبة المتناهية، وركزت انظارها على ابنها وراحت تتنهد طوال الوقت. كانت تتحرق إلى معرفة المدة التي سيقضيها بين ظهرانيهم، ولكنها تخشى أن تسأله عن ذلك. فكرت في نفسها: «ماذا لو قال يومين؟!» – وكاد قلبها يتوقف عن الوجيب. بعد تناول المقليات اختفى فاسيلي ايفانوفيتش لحظة، ثم عاد يحمل قنينة شمبانيا مفتوحة وهتف قائلاً: «مع أننا نعيش في الريف البعيد فلدينا ما نسلي أنفسنا به في المناسبات!». صب الشمبانيا في ثلاث كؤوس كبيرة وقدح صغير ورفع نخب «الزائرين الكريمين» وتجرع كأسه دفعة واحدة كما يفعل العسكريون وارغم آرينا فلاسيفنا على احتساء القدح حتى الثمالة. وعندما جاء دور المربى رأى اركادي الذي لا يطيق أي شيء سكري أن من واجبه أن يتذوق اربعة انواع مختلفة كانت قد اعدت مؤخراً، لا سيما وأن بازاروف رفض المربى رفضاً قاطعاً ودخن سيجارة في الحال. ثم ظهر على المائدة الشاي مع القشدة والزبدة والبسكويت. وبعد ذلك اقتاد فاسيلي ايفانوفيتش الجميع إلى البستان للتمتع بجمال المساء. وعندما مروا بأحد المقاعد همس لاركادي:

– في هـذا المكان اهـوى التفلسف والتمتع بغـروب الشمس كما يليق بالنساك. وهناك، على مسافة أبعد، غرست عدداً من الاشجار المحببة إلى هوراس.

فسأل بازاروف الذي انصت إليه:

– اية اشجار تلك؟

– أنها بالطبع... الاقاصيا.

بدأ بازاروف يتثاءب، فقال فاسيلي ايفانوفيتش:

– اعتقد أنه حان الوقت للرحالتين كي يعانقا مورفيوس(٥٥).

فقال بازاروف على الفور:

– أي حان الوقت للنوم! هذا رأي صائب. فقد حان الوقت حقاً.

ودع أمـه فقبلهـا في جبينهـا وعانقتـه هـي أيضاً، ثـم رسمت علامة الصليـب خلسة، من وراء ظهره، ثلاث مـرات. رافق فاسيلي ايفانوفيتش اركادي إلى غرفته وتمنى له «استجماماً هنيئاً كالذي تذوقته أنا عندما كنت في عمركـم السعيـد». وبالفعل فقد غط اركادي في نـوم هادئ في غرفة الملابس التي تفـوح فيها رائحة النعناع وكان جدجـدان يتناوبان الصرير علـى نحو منوم وراء المدفأة. تـرك فاسيلي ايفانوفيتش اركادي وتوجه إلى مكتبه فاتكأ على الاريكة عند رجلي ابنه. كان ينوي التحدث معه، ولكن بـازاروف أبعده علـى الفور وقال أنه راغب في النـوم، بينما لم يغمض له جفـن حتى الصبـاح. فتح عينيه باتساع وصار يحـدق في الظلمة حانقاً: فلـم تكن لذكريات الطفولة سلطة عليـه، زد على ذلك أنه لم يتخلص بعد من الانطباعات المريرة الأخيرة. وصلت آرينا فلاسيفنا وابتهلت في البداية

(٥٥)– اله الاحلام في الميثولوجيا اليونانية. – المترجم.

ما شاءت، ثم تحدثت لامد طويل جداً مع انفيسوشكا التي وقفت متسمرة أمـام سيدتها وغرزت فيها عينها الوحيدة وعرضت عليها بهمس سحري كل ملاحظاتهـا وآرائها بخصوص يفغينـي فاسيليفيتش. الم الدوار برأس العجوز مـن الفرحة والنبيذ ودخان السجائر، وحـاول زوجها أن يتكلم معها، ولكنه صرف النظر عن ذلك فلوح بيده يائساً.

آرينـا فلاسيفنا نبيلـة روسية حقاً من نبيلات الماضـي. وكان ينبغي أن تعيشـ قبل مائتي عام في عهود موسكو القديمة. فهي متدينة للغاية ورقيقة الشعـور، تؤمن بكل أنواع الفـأل والعرافة والتعاويـذ والاحلام، وتؤمن بالدراويش والجن والعفاريت، وبمصادفات السوء وعين الحسود والادوية الشعبيـة وملـح الخميس، وبقرب حلول نهاية العـالم، وتعتقد أن محصول الحنطـة السوداء يكون جيـداً إذا لم تطفأ الشموع أثناء صلاة الليل في عيد الفصح، وأن الفطر لا ينمو بعد أن تراه عين الإنسان، وأن الشيطان يحوم حول المياه، وأن هناك بقعة من الدم على صدر كل يهودي. كانت تخشى الفئران والافاعي والضفادع والعصافير والعلق والرعد والماء البارد وهبوب الريـح، والجياد والماعز والاشخاص المغر والقطط السود، وتعتبر الجداجد والـكلاب حيوانات نجسـة، ولا تأكل لحـم العجول والحمـام والارنب والسرطـان والجبن والبطيـخ الأحمر، لأن البطيخ المفتـوح يذكرها برأس يوحنـا المعمدان. وما كانـت لتستطيع الكلام عن المحـار بدون ارتعاش. كانـت نهمة أكولاً، ولكنها تلتزم بالصيـام كل الالتزام. وكانت تنام عشر ساعـات في اليوم، ولا تنام مطلقاً إذا داهم الصـداع فاسيلي ايفانوفيتش. ولم تقـرأ أي كتـاب ما عـدا «الكسيسـ، أو كوخ في الغـاب». وكانت تحـبر رسالة واحـدة أو رسالتين لا أكثر في العـام. لكنها تجيد تدبير الامور المنزليـة وتجفيف الفاكهة واعـداد المربى، مع أن يدها لم تمسـ شيئاً، ومع أنهـا لا تتحرك من مكانها عموماً إلا بشـق الانفس. كانت آرينا فلاسيفنا في منتهـى الطيبـة، ولم تكن غبية أبداً على طريقتهـا الخاصة. فهي تعرف

أن في الكــون اسيــاداً يجب أن يأمــروا وأناساً بسطاء يجــب أن يخدموا، ولذلــك لا تستنكف عــن التزلف ولا عن الركوع لحــد ملامسة الأرض، ولكنها تعامــل مرؤوسيها بلطف ووداعة، ولا تــترك أي متسول دون أن تتصــدق عليــه، ولا تلوم أحداً علــى الاطلاق، مع أنهــا تحب الخوض في مناقشــة سلوك الناس. كانت في شبابها مليحة للغاية، وكانت تعزف على الكلافيكورد[٥٦] وتتكلم الفرنسية بعض الشيء، ولكنها اصبحت بدينة ونسيــت الموسيقى واللغــة الفرنسية خلال الرحلات طــوال سنين عديدة مع فاسيلــي ايفانوفيتش الذي تزوجته مرغمة. وهــي تحب ابنها حباً جماً وتخشاه كل الخشية. وقد تخلت عن ادارة الضيعة لزوجها، فلم تعد تهتم بشــيء فيها، سوى أنها صارت تتأوه وتنش بمنديلها وترفع حاجبيها أعلى فأعلــى مرتعبة كلما شرع عجوزها يتحــدث عن التحويلات المرتقبة وعن مشاريعه. كانت متريّية تتوقع على الدوام شراً مستطيراً، وسرعان ما تنهمر دموعهــا حالما تتذكر شيئاً محزنــاً... أن عدد أمثال هــؤلاء النسوة يتضاءل الآن. والله وحده يعلم ما إذا كان يجب أن نفرح لذلك أم لا!

٢١

نهض اركادي مــن الفراش وفتح النافــذة على مصراعيهــا. وأول ما وقعــت عليــه انظاره هــو... فاسيلــي ايفانوفيتش. كان العجــوز في جبة شرقية، مما يرتديــه اهالي بخاري، وراح يجهد في البستنة متمنطقاً بمنديل. وعندما لمح ضيفه الشاب بادره مستنداً إلى الرفش:

- عم صباحاً! كيف قضيت ليلتك؟

---

(٥٦)- آلــة موسيقية وترية مــزوّدة بلوحة مفاتيح. تعتبر الاصــل الذي تطورت عنه البيانو. - المترجم.

– على اروع ما يكون.

– أمـا أنـا فكما ترى، مثـل شنشيناتوس، أعد جنينـة للشلجم الافلي المتأخـر. لقد حـل الآن، والحمد لله، زمان يتعين فيه علـى كل شخص أن يهيئ الاغذيـة لنفسه بيديه، فلا مجال للتعويل علـى الآخرين: ينبغي للمرء أن يعمـل بنفسه. ويعني ذلك أن جان جـاك روسو محق. كان بوسعك، يا سيدي، أن تراني قبل نصـف ساعة بهيئة أخرى تماماً. فقد تشكت احدى الفلاحـات من الزحار – كمـا يسمونه، أي من الدزنـتري – كما نسميه نحـن، ففعلت لها... كيف لي أن أجد التعبير الافضل؟! حقنتها بالافيون، ثم اقتلعـت سن امرأة أخـرى واقترحت عليها استخـدام الأثير... لكنها رفضـت. أنني افعـل ذلك كله (مجانا)(٥٧) كهـاو. وبالمناسبة ليس في ذلك مـا يثير العجب، فأنا (إنسـان جديد)(٥٨) من الدهمـاء ولست، كزوجتي الكريمـة، من النبلاء ابا عن جد... هـلا تفضلت إلى هنا، في الظل، لتنشق النسيم العليل قبيل شاي الصباح؟!

خرج اركادي إليـه فقال فاسيلي ايفانوفيتش رافعـاً يده بالتحية، على الطريقة العسكرية، إلى الطاقية العتيقة المتسخة التي تغطي رأسه:

– أهـلاً وسهـلاً بك مرة أخـرى! لقد تعودت أنت، كمـا اعلم، على الابهة وأسباب الراحة، ولكـن حتى عظماء العالم لا يستنكفون من قضاء بعض الوقت تحت سقف كوخ.

فقال اركادي بصوت مرتفع:

– عفواً، أين أنا من عظماء العالم؟ ثم أني لم أتعود على الابهة.

فاعترض فاسيلي ايفانوفيتش بتأدب:

---

(٥٧)– في الأصل باللاتينية gratis.

(٥٨)– في الاصل باللاتينية homo novus.

- كلا، كلا. فمع أني محال الآن إلى الارشيف، ولكنني عشت في المجتمع الراقي أيضاً، وأنا أعرف الطير من تحليقه. أنا نفساني وسيمائي على طريقتي الخاصة. واتجاسر على القول بأني لو لم أملك هذه الموهبة لانتهى أمري من زمان، ولسحقت أنا الإنسان الصغير. وأقول لك بلا محاباة أن الصداقة التي الحظها بينك وبين ولدي تبعث السرور حقاً في نفسي. لقد رأيته الآن. فهو، كعادته، وهذا أمر معروف لك ولا بد، قد نهض مبكراً وراح يجوب الاطراف. اسمح لي أن استفسر منك: هل تعرفت على ابني يفغيني من زمان؟

- منذ الشتاء المنصرم.

- هكذا اذن. اسمح لي أن اسألك مرة أخرى، ولكن ألا نجلس؟ اسمح لي كأب أن اسألك: ما هو رأيك بابني يفغيني؟

فأجاب اركادي بحماس:

- ابنك واحد من اروع الناس الذين تيسر لي أن اقابلهم في أي وقت.

اتسعت عينا فاسيلي ايفانوفيتش فجأة، واحمرت وجنتاه بعض الشيء. وسقط الرفش من يديه. ثم واصل كلامه:

- هكذا اذن، تتصور...

فعاجله اركادي:

- أنا واثق أن مستقبلاً عظيماً ينتظر ابنك، وأنه سيرفع رأسك. تأكدت من ذلك منذ لقائنا الأول.

- كيف... كيف كان ذلك؟ - نطق فاسيلي ايفانوفيتش هذه الكلمات بالكاد. وانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة معجبة لم تفارقهما بعد ذلك.

- تريد أن تعرف كيف التقينا؟

- نعم... وعلى العموم...

راح اركادي يتحدث عن بازاروف بحماس واعجاب أكبر مما في ذلك المساء عندما رقص المازوركا مع اودينتسوفا.

استمع إليه فاسيلي ايفانوفيتش واطال الاستماع، ثم تمخط ولف المنديل بكلتا يديه وسعل، ونقش شعره، وأخيراً لم يتمالك نفسه فانحنى على اركادي وقبله في كتفه. ثم قال دون أن تفارقه ابتسامته:

– افرحتني جداً. وعلي أن أقول لك باني... أؤله ابني، ناهيك عن عجوزي، فهي أم، وهذا أمر معروف، لكنني لا أجرؤ بحضوره على أن اعرب عن مشاعري لأنه لا يحب ذلك. فهو خصم لكل العواطف، حتى أن الكثيرين يلومونه على تصلب الطباع هذا ويرون فيه علامة الغرور أو انعدام الشعور، إلا أن أمثاله لا يمكن أن يقاسوا بالمعيار المعتاد، أليس كذلك؟ وعلى سبيل المثال فأن شخصاً غيره لا بد وأن ينفق اموال والديه بلا انقطاع، أما هو فلم يأخذ منا، والله ولا كوبيكاً زائداً، هل تصدق؟

فقال اركادي:

– أنه إنسان نزيه غير اناني.

– غير أناني بالفعل. وأنا، يا اركادي نيكولايفيتش، لا أؤلهه فحسب، بل افتخر به. ومن دواعي اعتزازي أن ترد ضمن سيرة حياته بمر الزمن الكلمات التالية: «ابن طبيب عسكري بسيط ولكن اباه استطاع أن يكتشف مواهبه مبكراً و لم يبخل بشيء من اجل تربيته...» – قال العجوز ذلك بصوت متقطع.

فشد اركادي على يده.

وبعد فترة صمت سأل فاسيلي ايفانوفيتش:

– ماذا ترى؟ سيبلغ الشهرة التي تتنبأ بها له ليس في مجال الطب، أليس كذلك؟

– ليس في مجال الطب طبعاً، مع أنه سيكون في هذا الميدان أيضاً واحداً من المع العلماء.

– ففي أي مجال، يا اركادي نيكولايفيتش؟

– من الصعب التكهن بذلك حالياً، ولكنه سيكون شهيراً.

– سيكون شهيراً! – كرر العجوز وغرق في تأملاته.

مرت انفيسكوشكا ازاءهما حاملة طبقاً كبيراً من توت العليق اليانع وقالت:

– امرتني آرينا فلاسيفنا أن ادعوكما لاحتساء الشاي.

فانتفض فاسيلي ايفانوفيتش وقال:

– هل سيقدم التوت مع القشدة الباردة؟

– أجل، يا سيدي.

– فلتكن باردة حقاً. لا تعبأ بالرسميات، يا اركادي نيكولايفيتش، خذ المزيد. لماذا لم يحضر يفغيني بعد؟

– أنا هنا – دوى صوت بازاروف الذي اطل من غرفة اركادي.

التفت فاسيلي ايفانوفيتش على عجل وقال:

– أها! اردت أن تزور رفيقك، ولكنك تأخرت (يا صديقي)[٥٩]، فقد كانت لنا معه محادثة طويلة. أما الآن فينبغي أن نذهب لاحتساء الشاي: أمك تدعونا. وبالمناسبة فأنا أريد أن أتحدث معك.

– عم؟

– في القرية فلاح يعاني من اليرقان...

---

(٥٩)– في الأصل باللاتينية amice.

– أي داء الصفر، أليس كذلك؟

– بلى، أنه يعاني من يرقان مزمن يكاد يكون عضالاً. وقد نصحته بتناول حشيشة القنطريون وعشبة القديس يوحنا وارغمته على أكل الجزر واعطيته شيئاً من الصودا، ولكن ذلك كله مجرد ادوية مسكنة، يجب اعطاؤه شيئاً ناجعاً. ومع أنك تسخر من الطب فأنا واثق من أنك يمكن أن تقدم لي نصيحة حصيفة. لكننا سنتكلم عن ذلك فيما بعد، أما الآن فهيا لتناول الشاي.

نهض فاسيلي ايفانوفيتش نشيطاً من المصطبة وانشد بيتين من «روبرت»:

سنشرع لنا قانونا، قانوناً

لعيشة سعيـ... سعيـ... سعيدة!

فعلق بازاروف مبتعداً عن النافذة:

– يا لها من قدرة رائعة على الحياة؟

انتصف النهار. وبدت الشمس لافحة من وراء حجاب رقيق من الغيوم البيضاء. كان الصمت يلفع كل شيء، ما عدا الديكة التي تتصايح بحماسة في القرية مثيرة في فؤاد كل من يسمعها أحساساً غريباً بالنعاس والضجر. وفي مكان ما في أعالي الاشجار رن، كهتاف متباك، نعيق نسر فتي لجوج. اضطجع اركادي وبازاروف في ظل كومة غير عالية من الاعشاب المجففة، بعد أن افترشا حزمتين من حشيش يابس مخشخش احتفظ بشيء من خضرته وعبقه.

قال بازاروف:

– شجرة الحور تلك تذكرني بطفولتي، فهي تنمو على طرف الحفرة التي تبقت من المستودع القرميدي. كنت آنذاك واثقاً من أن لدى الحفرة

والشجـرة طلسماً خاصاً: فلم اشعر بالضجر أبـداً قربهما. و لم أكن افهم آنذاك أنني لم أشعر بالضجر لأني كنت طفلاً. أما الآن فأنا إنسان راشد ولا يؤثر علي الطلسم.

فسأله اركادي:

– كم من الوقت قضيت هنا؟

– زهـاء عامين متتاليين. وفيما بعـد صرنا نأتي إلى هنا بين حين وآخر. فقد عشنا حياة الترحل، إذ كنا نجوب المدن أكثر من غيرها.

– وهل الدار مبنية من زمان؟

– نعم، بناها جدي، والد امي.

– ومن هو جدك هذا؟

– الشيطـان وحـده يعلـم. كان رائـداً علـى مـا اعتقـد، خـدم عند سوفوروف، وكان يتحدث دوماً عن عبور الألب. كان يكذب ولا بد.

– ولذلـك علقت صورة سوفوروف في غرفة الاستقبال لديكم. أنني أحـب الدور الصغيرة العتيقة والدافئة مثل داركم، ثم أن لها رائحة خاصة متميزة.

فقال بازاروف متثائباً:

– يفوح منها زيت القناديل والحندقوق. أما عن الذباب في هذه الدورة الجميلة... فحدث ولا حرج!

بعد فترة قصيرة سأل اركادي:

– قل لي هل كنت تتعرض لمضايقات في الطفولة؟

– أنت ترى والدي. أنهما ليسا متشددين.

– أنت تحبهما يا يفغيني، أليس كذلك؟

– طبعاً، يا اركادي!

– أنهما متميان بك!

لاذ بازاروف باذيال الصمت، ثم دس يديه تحت رأسه وقال أخيراً:

– هل تحزر بم افكر؟

– كلا. بم؟

– افكر أن والدي يعيشان بهناء! فأبي في الستين وهو مشغول باشغاله ويتحدث عن الادوية «المسكنة» ويعالج الناس ويتسامح مع الفلاحين، وباختصار، فهو يعيش حياة مرحة. وأمي تعيش بهناء أيضاً. فيومها مشحون بالمشاغل والتأوهات والتحسرات إلى درجة لا تترك لها متسعاً من الوقت لالتقاط النفس. أما أنا...

– وأنت؟

– أما أنا فأفكر: ها أنا ذا اضطجع هنا في ظل الكومة... والمحل الضيق الذي اشغله هنا ضئيل جداً بالمقارنة مع ما تبقى من المكان حيث أنا غير موجود ولا شأن لأحد بي، ثم أن ذلك القسم من الزمن الذي سأعيشه ضئيل جداً بالمقارنة مع الخلود حيث لم أكن موجوداً ولن أوجد... في حين أن هذه الذرة، هذه النقطة الهندسية، يدور فيها دم ويعمل فيها دما غ يريد شيئاً ما... فيا للفظاعة! ويا للسخف!

– عفواً! أن ما ذكرته ينطبق عموماً على جميع البشر... فعاجله بازاروف قائلاً:

– أنت على حق. اردت أن أقول أنهما. أعني والدي، مشغولان ولا يفكران بتفاهتهما، وهي لا تزكم انفيهما... أما أنا... فلا أحس بغير الضجر والغضب.

– الغضب؟ لماذا الغضب؟

– لماذا؟ كيف لماذا؟ فهل نسيت؟

– أنني أتذكر كل شيء. ومع ذلك لا اعترف بحقك في الغضب. أنت تعيس، لا اجادل في ذلك، ولكن...

– آ! يبدو لي أنك، يا اركادي نيكولايفيتش، تفهم الحب مثل جميع الشباب العصريين: تعالي، تعالي يا دجاجة! ولكن حالما تبدأ الدجاجة بالاقتراب تطلق أنت ساقيك للريح! لست من هذا الطراز. ولكن كفانا كلاماً عن ذلك. فمن العيب الكلام عما نحن عاجزون عنه. – استدار على جنبه – أها! يا لشجاعة هذه النملة التي تجر ذبابة محتضرة. واصلي عملك، يا اختي، واصليه! فبالرغم من مقاومتها انتهزي فرصة كونك، كحيوان، تتمتعين بحق عدم الاعتراف بمشاعر المؤاساة، خلافاً للإنسان الذي يحطم نفسه بنفسه!

– لا يليق بك هذا الكلام يا يفغيني! فمتى حطمت أنت نفسك؟

رفع بازاروف رأسه وقال:

– أنني افتخر بذلك. فما دمت لم احطم نفسي بنفسي، فلن تحطمني امرأة. هذا هو القول الفصل! خلاص! ولن تسمع مني كلمة واحدة عن ذلك بعد الآن.

ظل الصديقان صامتين بعض الوقت.

ثم طفق بازاروف يتكلم:

– أجل، الإنسان كائن غريب الاطوار. عندما تلقي نظرة جانبية، عن بعد، على الحياة الصماء التي يعيشها «الآباء» هنا يخيل إليك أنه لا أفضل منها! فيكفي أن تأكل وتشرب حتى تتصور بأنك تسلك السلوك الاصوب والاكثر تعقلاً. كلا! الضجر سيستولي عليك. وبود المرء أن يعاشر الناس، ولو اضطر إلى لومهم، فلا بد من المعاشرة.

فقال اركادي متأملاً:

– ينبغي تنظيم الحياة بحيث تكون لكل لحظة فيها اهمية.

– لا اعتراض على ذلك. فالشيء المهم حلو بالرغم من الزيف الذي يرافقه أحياناً. ويمكن التسامح حتى مع الاشياء التافهة... ولكن المشاحنات... المشاحنات هي الطامة الكبرى.

– المشاحنات غير موجودة بالنسبة للإنسان إذا كان لا يريد الاعتراف بها طبعاً.

– احم... لقد قلت الآن عبارة مبتذلة مضادة.

– ماذا؟ ما الذي تقصده بهذه التسمية؟

– إليك ما اقصده: إذا قلنا، مثلاً، أن التعليم نافع، فتلك عبارة مبتذلة، وإذا قلنا أن التعليم ضار، فتلك عبارة مبتذلة مضادة، فهي، حسب الظاهر، أكثر اناقة، ولكنها نفس الشيء في الواقع.

– ولكن أين الحقيقة؟ وفي أي جانب هي؟

– أين؟ سأجيبك كالصدى: أين الحقيقة؟

– مزاجك سوداوي اليوم يا يفغيني.

– حقاً؟ لا بد وأن الشمس قد لفحتني، ثم أنني أكلت الكثير من توت العليق.

– اذن فلا بأس بأن تغفو قليلاً.

– أجل. ولكن لا تنظر الي: فأن وجه أي إنسان يبدو بليداً أثناء النوم.

– هل تعير بالاً لما يفكر به الآخرون عنك؟

– لا ادري بماذا اجيبك. فالإنسان الحقيقي لا ينبغي أن يفكر بذلك. والإنسان الحقيقي ليس هو الذي يفكر فيه الآخرون، بل هو الذي

يخضعون له أو يكرهونه.

– يا للغرابة! فأنا لا اكره احداً – قال اركادي بعد أن تفكر قليلاً.

– أمــا أنا فأكــره كثيرين. أنت شخصــ رقيق رخو العــود، فأين منك الكره؟! أنك خجول لا تعول على نفسك كثيراً...

– وأنــت؟ – قاطعــه اركادي – هــل تعول على نفســك؟ وهل تقدر نفسك كثيراً؟

لزم بازاروف الصمت فترة. ثم قال متمهلاً:

– عندمــا أقابل شخصــاً لا يستسلم لي فسوف أغــير رأيي عن نفسي. أمــا الكره فأنك، مثلاً، قلت اليوم حينما مررنا ببيت مختار القرية فيليب – وهو بيت أبيض جميل – قلت أن روسيا ستبلغ الكمال عندما تكون لدى أبســط فلاح مثل هذه البناية، وأن على كل منا أن يساعد في ذلك... عند ذاك كرهــت أنا هذا الفلاح البسيط، فيليــب أو سيدور، الذي يتعين علي أن أبــذل جهدي من أجله، أما هو فلن يقدم الي حتى كلمة شكر... ثم ما حاجتي الي شكره؟ حسناً، سيعيش هو في بيت أبيض، وسينبت على قبري الشوك، وماذا بعد؟

– كفــاك يا يفغيني... مــن يستمع إليك اليوم يتفــق مرغماً مع أولئك الذين يلومونا على انعدام المبادئ.

– أنــت تتكلــم مثــل عمك. ليســت هناك مبــادئ اطلاقــاً، بل هناك الاحساسات، وكل شيء متوقف عليها. وأنت لم تدرك ذلك حتى الآن.

– كيف ذلك؟

– أنــه كذلك بالذات. خذني مثــلاً: أنني أتمسك باتجاه الرفض، وذلك بحكــم الاحساسات. فالرفضــ يبعث السرور في نفســي، ودماغي مبني على هــذا الاساس، ذلك كل شــيء! فما الذي يجعــل الكيمياء تعجبني؟

وما الذي يجعلك تحب التفاح؟ - ذلك أيضاً بحكم الاحساسات. فالأمر سواء. ولن يتغلغل البشر إلى أعمق من ذلك أبداً. ولن يقول ذلك أي كان. وحتى أنا لن أقوله لك مرة أخرى.

- والنزاهة هل هي احساس أيضاً؟

- كيف لا؟!

- يفغيني! - شرع اركادي يتكلم بصوت حزين. فقاطعه بازاروف:

- آ؟ مـاذا؟ لم يعجبك ذلك؟ كلا، يـا أخي! فطالما قررت أن تحش كل شـيء فحش رجليك أيضاً!.. علي وعلى اعدائي يا رب! ولكننا تمادينا في التفلسف. قال بوشكين «الطبيعة تبعث صمت الكرى».

فاعترض اركادي:

- لم يقل بوشكين شيئاً من هذا القبيل مطلقاً.

- لم يقـل. كان باستطاعتـه وكان يتعين عليه كشاعـر أن يقول ذلك. وبالمناسبة فقد ادى الخدمة العسكرية ولا بد.

- لم يكن بوشكين عسكرياً أبدا!

- كيـف لا؟ فعلى كل صفحة لديه تجد«إلى المعركة! إلى المعركة! دفاعاً عن كرامة روسيا!».

- وما هذه الاساطير التي تبتدعها؟! ذلك افتراء.

- افـتراء؟ فليكـن! أبهذه الكلمة تريد أن تخيفنـي؟! مهما افترينا على الإنسان فهو في الواقع يستحق أكثر من ذلك بعشرين مرة.

- من الأفضل أن ينام! - قال اركادي بزعل.

فأجاب بازاروف:

- بكل سرور.

بيد أن النعاس لم يراودهما. واجتاح فؤاديهما شعور يكاد يكون عدائياً. وبعد خمس دقائق فتحا عيونهما وتبادلا النظرات صامتين.

ثم قال اركادي فجأة:

– انظر! انفصلت ورقة اسفندان جافة وها هي تسقط على الارض بشكل يشبه كل الشبه تحليق الفراشة. أفليس ذلك غريباً؟ أن أكثر الامور كآبة وموتاً شبيه بأكثرها مرحاً وحياة. فهتف بازاروف:

– يا صديقي اركادي نيكولايفيتش! ارجو منك شيئاً واحداً: لا تتكلم على نحو جميل.

– أنني أتكلم بقدر استطاعتي... ثم أن ذلك تعسف في آخر الامر. تبادرت إلى ذهني فكرة فما الذي يمنعني من أن أعرب عنها؟

– هكذا اذن. فما الذي يمنعني أنا أيضاً من أن أعرب عن فكرتي؟ أنني أرى أن الكلام على نحو جميل أمر معيب.

– فما هو الأمر غير المعيب؟ الشتائم؟

– هه! يبدو لي أنك تنوي أن تقتفي حقاً أثار عمك العزيز. فما اشد فرحة ذلك الابله لو أنه سمعك!

– بم وصفت عمي بافل بتروفيتش؟

– وصفته بما يستحق: بالابله.

– ذلك أمر لا يطاق! – هتف اركادي.

فقال بازاروف بهدوء:

– أها! ثارت فيك مشاعر القربى. لقد لاحظت أنها راسخة في الناس بتصلب وعناد. فالإنسان مستعد للتخلي عن كل شيء، ولمفارقة كل الاوهام، ولكن الاعتراف، مثلاً، بأن أخاه الذي يسرق مناديل الغير لص

أنما هو فوق طاقته. وبالفعل، فهل يمكن أن لا يكون أخي عبقرياً إذا كان هو أخاً لي بالذات؟...

فاعترض اركادي منفعلاً:

- أن ما ثار في هو شعور العدالة البسيط، وليس مشاعر القربى، ولكنه طالما أنك لا تفهم هذا الشعور وليس لديك هذا الاحساس، فليس باستطاعتك أن تحكم عليه.

- وبعبارة أخرى: أن اركادي كيرسانوف فوق مستوى فهمي. لذا اطأطئ رأسي والوذ بالصمت.

- كفاك، ارجوك يا يفغيني. سوف نتشاجر في آخر الأمر.

- آه يا اركادي! اعمل معروفاً، فلنتشاجر مرة كما يرام، حتى النفس الأخير، حتى الابادة.

- يخيل الي أننا، على هذا النحو، سننتهي الى...

فعاجله بازاروف:

- ... أن نتلاكم؟ أليس كذلك؟ لا بأس أن نتلاكم هنا، على العشب، في هذا الجو الشاعري بعيداً عن العالم وعن أنظار الناس. ولكنك لن تقوى علي. فسوف اتشبث بنحرك على الفور...

نشر بازاروف اصابعه الطويلة المتصلبة... واستدار اركادي واستعد للمقاومة مازحاً... لكن وجه صديقه بدا له شريراً للغاية وخيل إليه أن خطراً فعلياً يتهدده في ابتسامة شفتيه الساخرة المصطنعة وفي عينيه المتوقدتين، مما جعله يحس بوجل لا ارادي...

- أها! هنا اختفيتما! - دوى في تلك اللحظة صوت فاسيلي ايفانوفيتش. جاء الطبيب العسكري العجوز مرتدياً سترة قطنية بيتية الصنع وقبعة من القش بيتية الصنع أيضاً - بحثت عنكما طويلاً... ولكنكما

اخترتما مكاناً ممتازاً وانشغلتما بعمل رائع، حيث تتطلعان إلى «السماء» راقدين على «الأرض»... أفلا ينطوي ذلك على أهمية خاصة؟!

فقال بازاروف:

– أنني لا أنظر إلى السماء إلا عندما تنتابني عطسة. – ثم التفت إلى اركادي واضاف هامساً: – من المؤسف أنه حال بيننا.

فهمس اركادي وشد على يد صديقه خلسة:

– كفاك. فأن أية صداقة لن تصمد طويلاً لمثل هذه الاشتباكات.

فقال فاسيلي ايفانوفيتش آنذاك وهو يهز رأسه وقد استند بيديه المتصالبتين على عصا معقوفة بتفنن صنعها بنفسه ووضع مقبضاً لها بشكل رأس تركي معمم.

– أنني اتطلع إليكما يا عزيزي ولا اشبع منكما. فكم فيكما من قوة وشباب مزدهر وقابليات ومواهب! انكما... مثل كاستوروس وبولوكس[٦٠] بالضبط!

فقال بازاروف:

– ها قد استشهدت بالميثولوجيا! واضح تماماً أنك كنت في حينه متضلعاً في اللاتينية! فلقد فزت، على ما اتذكر، بالميدالية الفضية لقاء الانشاء، أليس كذلك؟

– توأمان بالضبط! – قال فاسيلي ايفانوفيتش.

– ولكن كفاك رقة، يا ابتي.

فقال العجوز:

---

(٦٠) ابنا زيوس، توأمان. – المترجم.

– ذلـك مسموح به مرة في العمر. وبالمناسبـة فقد بحثت عنكما أيها السيدان لا لأعبر لكما عن المجاملات، بل لأخبركما، أولاً، بأننا سنتناول طعـام الغـداء قريباً، وثانيـاً، اردت أن احذرك يا يفغينـي... فأنت انسان ذكي تعرف الناس، والنساء كذلك، لذا سوف تتسامح... ارادت أمك أن تؤدي مراسيم الصلاة بمناسبة مجيئك. ولا تتصور بأني أدعوك لحضور هذه المراسيم، فق انتهت، ولكن الاب الكسي...

– خوري؟

– أجـل. الخوري سوف... يتغدى عندنا... لم أكن اتوقع ذلك، حتى أني نصحتـه بعـدم... ولكني لم انجح... فهـو لم يفهمني... ثـم أن آرينا فلاسيفنا... علماً بأنه إنسان متعقل وفي منتهى الطيبة.

فسأل بازاروف:

– لن يأكل حصتي من الغداء، أليس كذلك؟

فقال فاسيلي ايفانوفيتش ضاحكاً:

– كيف؟

– أنـا لا اطالب، اذن، بأكثر من ذلك. وأنا مستعد للجلوس إلى المائدة مع أي كان.

عدل فاسيلي ايفانوفيتش قبعته، وقال:

– أنا واثق مسبقاً من أنك أعلى مستوى من جميع الخرافات. فحتى أنا العجوز في سني الثانية والستين اخلو من تلك الخرافات. (لم يتجرأ فاسيلي ايفانوفيتـش على الاعتراف بأنه نفسه رغب في اداء الصلاة... كان متديناً لا أقل من زوجته) أما الأب الكسي فقد كان راغباً أشد الرغبة في التعرف عليـك. وسوف يعجبـك، سترى ذلك بنفسك. وهـو لا يعتذر عن لعب الورق... حتى أنه... وهذا سر بيننا... يدخن غليوناً.

– ما العمل؟ سنلعب القمار بعد الغداء وسوف أغلبه.

– هيه، من يعش ير! فتلك مسألة فيها نظر.

– ماذا؟ هل تستعيد ذكريات الماضي؟ – سأل بازاروف بنبرة متعمدة.

فاحمرت وجنتا فاسيلي ايفانوفيتش البرنزيتان على نحو مبهم وقال:

– عيب عليك يا يفغيني... ما فات فات. نعم، أنا مستعد للاعتراف أمام اركادي نيكولايفيتش بأنني كنت مولعاً بذلك في فتوتي. نعم. ولكنني دفعت الثمن! ما أشد حرارة الجو. اسمحا لي أن أجلس قربكما. فلن اثقل عليكما، أليس كذلك؟

– مطلقاً – اجاب اركادي.

ارتمى فاسيلي ايفانوفيتش على العشب متأوهاً، ثم طفق يتكلم:

– مضجعكما الحالي، يا سيدي الجليلين، يذكرني بحياتي في المخيمات العسكرية ومراكز التضميد في مكان ما قرب اكوام العشب. وكان ذلك في أحسن الاحوال – وندت عنه تنهدة – فلقد اجتزت كثيراً من المحن في حياتي. وعلى سبيل المثال احدثكما، إذا سمحتما، عن وباء الطاعون في بيسارابيا.

فعاجله بازراوف قائلاً:

– ذلك الذي منحت وسام فلاديمير من أجله؟ نعرف ذلك جيداً... وبالمناسبة فلماذا لا تحمل الوسام؟

– قلت لك بأني لا اعبأ بالخرافات – دمدم فاسيلي ايفانوفيتش (وهو الذي أمر يوم أمس فقط بانتزاع شريط الوسام الاحمر من سترته)، وراح يتحدث عن وباء الطاعون. ثم همس لاركادي بغتة وهو يشير إلى بازاروف وقد غمز بطيبة قلب: – لقد غفا – ثم اضاف بصوت عال: – يفغيني! انهض! فلنذهب لتناول الغداء...

اتضح أن الاب الكسي، وهو رجل مكتنز مرموق بشعره الكثيف الممشط بدقة وزناره المطرز على غفارته الحريرية البنفسجية، يتحلى بقدر كبير من المهارة والفطنة. فقد بادر إلى مصافحة اركادي وبازاروف وكأنه يدرك مسبقاً بأنهما ليسا بحاجة إلى تبريكاته، وقد تصرف عموماً بلا تكلف.

فلم يفضح نفسه و لم يمس الآخرين. وقد سخر على نحو مناسب من اللغة اللاتينية المدرسية ودافع عن اسقفه، وارتشف قدحين من النبيذ ورفض القدح الثالث. وتناول من اركادي سيجاراً ولكنه لم يدخنه، بل قال انه سيأخذه معه إلى البيت. كان شيء واحد لا يبعث على الارتياح فيه، وهو أنه يرفع يده ببطء وحذر بين حين وآخر ليتصيد الذباب على وجهه، ثم يهرسه أحياناً. وقد جلس إلى المائدة الخضراء معبراً عن ارتياحه باعتدال، وانتهى إلى أن غلب بازاروف روبلين وخمسين كوبيكاً ورقية: فأن عائلة آرينا فلاسيفنا لم تكن تعرف الحساب بالنقود الفضية... جلست الأم كعادتها ازاء ابنها (و لم تساهم في لعب الورق) فاسندت خدها بقبضتها كالسابق، و لم تكن تنهض إلا لكي تأمر باحضار صنف جديد من اصناف الطعام. كانت تخشى مداراة بازاروف الذي لم يبدو منه ما يشجعها على المداراة، ثم أن فاسيلي ايفانوفيتش نصحها هو الآخر بأن لا «تزعج» ابنها كثيراً. وأكد لها «أن الشباب لا يرغبون في ذلك» (ولا داعي للكلام عن غداء ذلك اليوم: فقد ارتحل تيموفييتش بنفسه منذ الفجر لكي يقتني لحم بقر من نوع تشيركاسي خاص، وتوجه مختار القرية إلى جهة أخرى لاقتناء سمك البربوط والراف والسرطان، وتسلمت الفلاحات اثنين واربعين كوبيكاً نحاسياً لقاء الفطر وحده). بيد أن عيني آرينا فلاسيفنا المتطلعتين إلى بازاروف على الدوام لم تعبرا عن الولاء والحنان وحدهما: فقد لاحت فيهما كآبة ممزوجة بالفضول والرعب، ولاح فيهما شيء من العتاب الوادع.

وبالمناسبـة فقد كان بازاروف في شغـل شاغل عن تفحص ما تعبر عنه عينـا امه. فكان نـادراً ما يخاطبها ويطرح عليها سـؤالاً ما موجزاً. طلب منهـا أن تقدم له يدهـا «كفال حسـن» في لعب الـورق، فوضعت يدها الرقيقة بهدوء على راحته الواسعة المتصلبة.

وبعد قليل سألته:

– ماذا؟ هل اعانك ذلك؟

فأجاب بابتسامة ساخرة مستهينة:

– أصبح الأمر أسوأ.

فقال الاب الكسي متظاهراً بالتأسف ومسد لحيته الجميلة:

– أنه يجازف كثيراً.

فتدخل فاسيلي ايفانوفيتش الذي لعب بالآس قائلاً:

– تلك قاعدة نابليونية، يا ابانا، قاعدة نابليون.

فقال الاب الكسي وهو يغطي الآس بورقة القشوش الرابحة:

– أنها هي التي قادته إلى جزيرة سانت هيلانة[٦١].

وسألت آرينا فلاسيفنا:

– ألا ترغب في عصير عنب الثعلب، يا ينيوشا؟

فاكتفى بازاروف بأن هز كتفيه.

وفي اليوم التالي قال لأركادي:

– كلا! سارتحـل غداً. لقد ضجرت. اريـد أن اعمل ولكن العمل هنا

---

(٦١) منفى نابليون. – المترجم.

مستحيل. سأذهب إلى قريتكم من جديد، فقد تركت جميع مستحضراتي عندكـم. هنـاك يمكننـي أن أنفرد على الاقـل. أما هنا فأن ابـي يؤكد لي: «مكتبي تحـت تصرفك، ولن يشوش عليك أحـد»، ولكنه هو بالذات لا يفارقنـي لحظة. ثم أن انفرادي عنه أمر لا يليق. وأمي هي الأخرى... فأنا اسمعها تتنهد من وراء الجدار، وعندما أخرج إليها لا أجد ما أقوله لها.

فقال اركادي:

– سوف تتألم هي كثيراً، وهو أيضاً.

– ساعود إليهما مرة أخرى.

– متى؟

– في طريقي إلى بطرسبورغ.

– أنني متأسف لأمك خصوصاً.

– ماذا؟ هل اشترتك بالثمار؟

غض اركادي بصره.

– أنـت لا تعرف أمك جيداً يا يفغيني. فهـي ليست امرأة رائعة فقط، بـل هي ذكية جداً في الواقع. تحدثت معي زهاء نصف ساعة صباح اليوم، وكان حديثها حصيفاً ممتعاً.

– لا بد وأنها تحدثت عني طوال الوقت، أليس كذلك؟

– لم يكن الحديث عنك وحدك.

– ربمـا. أنت أعرف. وما دامـت المرأة تستطيـع أن تتجاذب أطراف الحديث طوال نصف ساعة فتلك دلالة حسنة. ومع ذلك سأرتحل.

– لـن يكون سهلاً عليك أن تخبرهما بهـذا النبأ. فهما يتحدثان دوماً عما سنفعله هنا بعد أسبوعين.



– ليس سهلاً. كيف اغواني الشيطان أن اتحرش بأبي هذا اليوم؟! كان قد أمر مؤخراً بضرب أحد فلاحيه العاملين بالجزية، وحسناً فعل. أجل، أجل، لا تنظر الي مستفظعاً، حسناً فعل فذاك الفلاح لص وسكير رهيب، لكن أبي لم يكن يتوقع مطلقاً بأني سأسمع بذلك. لقد ارتبك أشد الارتباك، أما أنا فسوف اضطر إلى ايلامه زيادة عن ذلك... ولكن لا بأس! هذا أمر يمكن تحمله.

قال بازاروف «لا بأس!»، ولكنه لم يتجرأ على اشعار فاسيلي ايفانوفيتش بنيته إلا بعد مرور يوم كامل. فبعد أن ودعه أخيراً في المكتب قال بتثاؤبة متصنعة:

– آ... كدت انسى أن أقول لك... فليرسلوا خيولنا غداً إلى فيدوت لتستريح عنده[٦٢].

دهش فاسيلي ايفانوفيتش:

– ماذا؟ هل يغادرنا السيد كيرسانوف؟

– أجل، وأنا معه.

تبدلت سحنة فاسيلي ايفانوفيتش في الحال:

– أنت تنوي السفر؟

– أجل... علي أن أرحل. ارجوك أن تأمرهم بخصوص الخيول.

فقال العجوز متلعثماً:

– حسناً... سنرسل الخيول لتستريح... حسناً... ولكن، ولكن.. كيف ذلك؟

---

(٦٢) بغية استخدامها فيما بعد بدلا من الخيول المتعبة في منتصف الطريق. – المترجم.

– علي أن أرحل إليه لوقت قصير. وسأعود إلى هنا فيما بعد.

– أجل! لوقت قصير... حسناً – اخرج فاسيلي ايفانوفيتش منديله وتمخط منحنياً حتى كاد يلامس الأرض – ما العمل؟ سيكون ذلك... جاهزاً. ظننت أنك ستبقى عندنا... أمداً أطول. فأن ثلاثة أيام... بعد ثلاث سنوات... شيء قليل، قليل، يا يفغيني!

– أقول لك أني سأعود قريبا. من الضروري أن أرحل.

– ما دام ذلك ضرورياً... فما العمل؟ ينبغي أداء الواجب قبل كل شيء... اذن سنرسل الخيول، أليس كذلك؟ حسناً. بديهي أننا، أنا وآرينا، لم نتوقع ذلك. فهي قد طلبت زهوراً من جارتها وارادت أن تزين غرفتك. (لم يذكر فاسيلي ايفانوفيتش شيئا عن أنه كان ينهض مع بزوغ الفجر كل صباح ويجتمع إلى تيموفييتش، وقوفاً، ورجلاه في حذائه دون جوارب، ويخرج باصابعه المرتعشة ورقة نقدية بالية أثر أخرى، فيكلفه باقتناء مختلف المشتريات، مؤكداً بصورة خاصة على الاطعمة والنبيذ الأحمر الذي اعجب به الشابان أشد الاعجاب كما يبدو) الحرية أهم شيء. وتلك هي قاعدتي... فلا ينبغي التضييق على أحد... لا...

وصمت فجأة ثم اتجه نحو الباب.

– سنلتقي قريباً، يا ابني، اعدك.

إلا أن فاسيلي ايفانوفيتش لوح بيده يائساً وخرج دون أن يلتفت. عاد إلى غرفة النوم فوجد زوجته في الفراش، وأخذ يصلي همساً كيلا يوقظها. لكنها استيقظت، وسألته:

– هذا أنت، يا فاسيلي ايفانوفيتش؟

– نعم، ايتها الأم!

– هل أنت قادم من ينيوشا؟ أتدري؟ أخشى أن لا ينام نوماً هادئاً على

الاريكة. طلبت من انفيسوشكا أن تفرش له حشيتك السفرية ووسائد جديدة. وبودي أن اعطيه حشيتنا الريش، ولكنه، على ما اتذكر، لا يحب الفراش الوثير.

– لا تقلقي، أيتها الأم، فهو مرتاح. يا الهي، امح خطايانا واعف عنا.
– واصل صلاته بصوت خفيض. لقد رأف فاسيلي ايفانوفيتش بعجوزه فلم يخبرها في الليل بالمصيبة التي ستلم بها.

سافر بازاروف واركادي في اليوم التالي. خيمت الكآبة على كل من في الدار منذ الصباح. كانت صحون قد تساقطت من يدي انفيسوشكا، وحتى فيدكا تحير وانتهى إلى أن خلع جزمته. كان فاسيلي ايفانوفيتش مضطرباً أكثر من أي وقت مضى: كان يتمالك نفسه على ما يبدو، ويتكلم بصوت مرتفع ويطقطق برجليه، لكن وجهه قد ذبل وذوى، وصارت نظراته تتجنب ولده. انتحبت آرينا فلاسيفنا بخفوت، وكادت تستسلم للحيرة وعدم ضبط النفس لدرجة أكبر لولا أن صرف زوجها في الصباح الباكر ساعتين كاملتين في اقناعها وتهدئتها. وبعد أن تخلص بازاروف، أخيراً، من اليدين اللتين طوقتاه، وقطع وعوداً متكررة بأنه سيعود في وقت لا يتجاوز الشهر مطلقاً، وصعد إلى العربة، وتزحزحت خيولها ودق جرسها الصغير وتحركت عجلاتها، و لم يعد هناك داع لملاحقتها بالنظرات، فسكن الغبار الذي اثارته، وعاد تيموفييتش محني الظهر كلياً يجر قدميه مترنحاً في مشيته إلى غرفته الصغيرة، وبعد أن ظل العجوزان وحيدين في دارهما التي بدت، هي الأخرى، منكمشة هرمة على نحو مباغت، ارتمى فاسيلي ايفانوفيتش الذي كان قبل بضع لحظات يلوح بمنديله متماسكاً في مدخل الدار، على الكرسي وتدلى رأسه على صدره وتمتم: «تركنا، تركنا، ضجر منا وبقي الآن وحيداً، وحيداً، كالاصبع!»
– كرر هذا القول مراراً، وكان كل مرة يدفع بيده إلى الامام وسبابته منتصبة. وعند ذاك اقتربت منه آرينا فلاسيفنا ومالت برأسها الاشيب إلى

رأسه الاشيب أيضاً وقالت: «ما العمل يا فاسيلي! الابن كسرة مقطوعة من رغيف. وهو كالصقر يحط متى شاء ويحلق متى شاء، أما نحن فمثل نبتتين من الفطر عند تجويف في جذع شجرة، نجلس جنباً إلى جنب ولا نتزحزح من مكاننا. لكنني سأظل مخلصة لك إلى الأبد، مثلما أنت مخلص لي».

رفـع فاسيلي ايفانوفيتش يديه عن وجهه وعانـق زوجته ورفيقة حياته بشدة لم يعانقها بمثلها حتى في زمن الشباب: فقد خففت عليه احزانه.

٢٢

وصـل صاحبانـا إلى فيدوت صامتين، فلم يتبـادلا إلا كلمات لا شأن لهـا بين الحين والآخر. لم يكن بـازاروف راضياً عن نفسه تماماً. وما كان اركادي راضيـاً عنه. زد على ذلك أنه أحس بكآبة لا مبرر لها تعتصر قلبه. وهـي كآبة لا يعرفها إلا من هم في ريعـان الصبا. استبدل الحوذي الخيول وصعد إلى مقعده وسأل: إلى اليمين أم الشمال؟

ارتعش اركادي. الطريق إلى اليمين يؤدي إلى المدينة ومنها إلى داره. أما الطريق إلى الشمال فيؤدي إلى اودينتسوفا.

التفت إلى بازاروف وسأله:

- يفغيني، إلى الشمال؟

فأشاح بازاروف بوجهه ودمدم:

- ما هذه الحماقة؟

فأجاب اركادي:

- أنـا أعرف أنهـا حماقة. لا ضـير في ذلك. فهل هذه هـي حماقتنا الأولى؟

خفض بازاروف عمرته حتى غطت جزءاً من جبهته، ثم قال أخيراً:

- كما تشاء.

فصاح اركادي:

- إلى الشمال!

اسرعــت العربــة باتجــاه نيكولسكويــه. إلا أن الصديقــين اللذين قررا اقتراف تلك الحماقة قد صمتا بعناد أشد من السابق حتى لكأنهما حانقان.

ادركا مــن كيفية استقبال كبير الوصفاء لهما في مدخل دار اودينتسوفا أنهمــا تصرفــا بغير حكمــة عندمــا انصاعا لفكــرة راودتهمــا على حين غــرة. فمن الواضــح أن أحداً ما لم يكن يتوقــع قدومهما انتظرا طويلا في غرفــة الاستقبال واكتسى وجهاهما بمسحة من البــلادة. وأخيراً حضرت أودينتسوفا. رحبت بهما بلطفها المعتاد لكنها دهشت لعودتهما السريعة، و لم تكــن، كما بدا من تباطؤ حركاتهــا ولهجتها، في غاية السرور لذلك. وأســرع الشابان للأعلان بأنهما عرجا عليهــا في طريقهما إلى المدينة التي سيتوجهــان إليها بعد زهاء أربع ساعات. فاكتفت هي بأن تأوهت متعجبة بعضــ الشيء ورجــت اركادي أن ينقل تحياتها إلى أبيــه وبعثت في طلب خالتهــا. حضــرت الأميرة ناعسة، مما اضفى مزيــداً من الحنق على ملامح وجههــا الهرم المتغضــن. وكانت كاتيا كمــا في رؤية آنــا سيرغييفنا سواء بســواء على أقل تقدير. انقضت الساعات الاربع في احاديث لا أهمية لها عن كيت وكيت، وكانت آنا سيرغييفنا تستمع وتتكلم دون أن تبتسم. و لم تتحرك المشاعر الودية السابقة في فؤادها، على ما يبدو، إلا خلال الودا ع، حيث قالت:

- انتابتنــي الكآبة في الآونة الأخــيرة، ولكن لا تهتما بذلك، تعالا الي معاً بعد حين من الزمن.

رد عليهــا بازاروف واركادي بانحنــاءة صامتة، وصعدا إلى مركبتهما

واتجهـا إلى البيت في مارينو دون أن يتوقفا في ايما مكان. وصلا بسلام في مسـاء اليوم التالي. وطوال الطريق كله لم يذكـر لا هذا ولا ذاك حتى اسم اودينتسوفـا. ولم يفتح بازاروف علـى الخصوص فمه طوال الوقت تقريباً حيث راح يتطلع بقساوة متوترة إلى جانبي الطريق.

سـر الجميـع في مارينو لوصولهمـا غاية السرور. فـأن غياب اركادي ذلـك الأمد الطويـل أخذ يقلق نيكولاي بتروفيتشـ الذي هتف وطبطب برجليه وتقافـز على الاريكة عندما ركضت إليـه فينيتشكا بعينين براقتين وأعلنـت عن وصـول «السيدين الشابين». وحتى بافـل بتروفيتش احس ببعض الاضطـراب المفرح وابتسم مسامحاً وهو يشـد على يدي الجوالين العائديـن. وبدأت الأحاديث والتساؤلات. وتكلم اركادي أكثر من غيره وخصوصاً أثنـاء العشاء الذي استمر لامد طويل بعـد منتصف الليل. أمر نيكـولاي بتروفيتش بتقديم بضع قنان من جعة البورتر المركزة التي جلبت لتوهـا من موسكـو. وافرط هو في الشراب حتى غـدت وجنتاه قرمزيتين وراح يضحك بقهقهة فيها شيء من ضحك الأطفال أو الضحك العصبي. واجتاحـت الفرحة الخدم أيضاً. فكانت دونياشـا تتراكض إلى هنا وهناك كالمهووسـة، وهي تصفـق الابواب بين الحـين والآخر. وحـاول بيوتر، حتـى في الساعة الثالثة بعد منتصف الليـل، أن يعزف فالس القوزاق على القيثـارة. كانـت الأوتار تنوح بلطـف في الجو الجامـد، ولكن الوصيف المتعلـم لم يعـزف أي شـيء على مـا يرام ما عـدا بعض النغمـات الاولية القصيرة: فالطبيعة لم تمنحه موهبة موسيقية ولا أية موهبة أخرى.

بيد أن الحياة في مارينو لم تكن تجري على نحو طيب تماما. كانت حالة نيكولاي بتروفيتش المسكين تسوء أحياناً. وكانت الهموم في المزرعة تزداد مـن يوم لآخر، وهي هموم مشوشة لا تبعـث على السرور. وغدا التعامل مع الاجراء أمراً لا يطاق. فالبعض منهم يطالبون بتصفية الحساب أو زيادة الأجـور، بينما يترك البعض الآخر العمل مستأثراً بالعربون. كانت الخيول

عرضة للأمراض، وعدتها تتلف بلمح البصر. كانت الأعمال تنفذ بدون اتقان، واتضح أن الآلة الدارسة التي جلبت من موسكو غير صالحة بسبب ثقلها. أما الآلة الأخرى فقد اصابها العطب منذ تشغيلها للمرة الأولى. واحترق نصف حظيرة الماشية لأن عجوزاً عمياء من الخدم خرجت أثناء هبوب الريح تحمل جذوة «لتدخين» بقرتها... غير أن هذه العجوز نفسها أكدت بأن سبب المصيبة هو نية السيد في استحداث اجبان وألبان لا مثيل لها. وعلى حين غرة انتاب الكسل وكيل المزرعة حتى أنه أخذ يترهل كما يترهل كل روسي يعيش في بحبوحة. وحالما يرى نيكولاي بتروفيتش قادماً من بعيد يلقي بخشبة على خنوص يمر راكضا قربه أو يهدد غلاما شبه عار، وذلك ليبين له جده واجتهاده، لكنه في الواقع كان ينام أكثر الاوقات. و لم يكن الفلاحون العاملون بالجزية يدفعون النقود في الموعد المحدد، وكانوا يسرقون الاخشاب. وفي كل ليلة تقريباً كان الحرس يتصيدون خيول الفلاحين ترعى في مروج «المزرعة»، وأحياناً كانوا يقتادونها منهم بعراك. وقد فرض نيكولاي بتروفيتش غرامة نقدية على اتلاف المزروعات، لكن الأمور تنتهي عادة بأن تصرف تلك الخيول يوما أو يومين في حظيرة السيد ثم تعاد إلى أصحابها. زد على ذلك أن الفلاحين اخذوا يتشاجرون فيما بينهم: صار الاخوة يطالبون بالتقسيم، و لم تستطع زوجاتهم أن يتعايشن في منزل واحد، وكان العراك ينشب بينهم فجأة، فيعم هرج ومرج على حين غرة كما لو أن أحداً قد أمر بذلك، ويهرع الجميع إلى مدخل المكتب مندفعين إلى السيد مخمورين بوجوه مخدشة في الغالب وهم يطالبون بمحاكمة وعقاب. وترتفع ضجة وعويل وتختلط صأصأة النسوة المنتحبات بشتائم الرجال. كان يتعين الفصل بين الاطراف المتعادية، ولا بد من الصياح حتى يبح الصوت مع أن الصائح يعلم مسبقاً أنه لا يمكن التوصل إلى حل صائب. لم تكن الايدي العاملة كافية لجمع الغلة: فالفلاح الغني الوسيم المجاور وعد بأن يحضر

الحصادين مقابل روبلين عن كل هكتار، ولكنه خدع نيكولاي بتروفيتش بدناءة. وطلبت فلاحات السيد اجوراً مرتفعة للغاية، بينما أخذ القمح يتناثر من السنابل. أخفق الحصاد، في حين صار مجلس الوصاية يهدد ويطالب بدفع الفائدة المئوية بالتمام والكمال فوراً...

كان نيكولاي بتروفيتش يكرر بقنوط:

– خارت قواي! ليس بوسعي أن اعارك، ولا استطيع الاستنجاد بالشرطة، فالمبادئ تحول دون ذلك. بينما لن ينجز أحد شيئا بدون الخوف من العقاب!

– (هدوءا، هدوءا)[٦٣]– كان بافل بتروفيتش يجيبه، ولكنه هو نفسه يدمدم ويعبس وينتف شاربيه.

أما بازاروف فكان بعيداً عن هذه «المشاحنات»، بل وما كان مضطراً، كضيف، أن يتدخل في شؤون الغير. فمنذ اليوم التالي لوصوله إلى مارينو انهمك بمعالجة ضفادعه ونقاعياته ومستحضراته الكيمياوية وصرف الوقت كله في ذلك. في حين رأى اركادي، على العكس، أن من واجبه أن يساعد اباه أو أن يتظاهر على الأقل بالاستعداد لمساعدته. كان يستمع إليه بصبر، وقدم له ذات مرة نصيحة لا لكي يعمل بها أحد، بل لكي يعلن عن مساهمته بشكل ما. و لم يكن تدبير أمور المزرعة ليثير اشمئزازه: فهو يحلم، بارتياح، بممارسة النشاط الزراعي. بيد أن أفكارا أخرى شغلت باله آنذاك. كانت أفكار اركادي، ويا لدهشته هو، تحوم طوال الوقت حول نيكولسكويه. كان في السابق يكتفي بهز الكتفين لو أن أحدا قال له بأنه يمكن أن يشعر بالضجر من العيش مع بازاروف تحت سقف واحد، ناهيك عن سقف الوالدين. أما الآن فقد غدا ضجرا حقا، وصار شيء ما

(٦٣)– في الأصل بالفرنسية Du calme، du calme.

يدعــوه إلى بعيد. قرر أن يتمشــى حتى الارهاق، لكن ذلك لم يجده نفعاً. تحدث مع ابيه نيكولاي بتروفيتش ذات مرة فعلم أن لديه بضع رسائل ممتعة جدا كانت قد بعثت بها أم اودينتسوفا إلى المرحومة زوجته منذ زمان بعيد، و لم يتركـه وشأنه إلا بعد أن تسلم منه تلـك الرسائل التي اضطر نيكولاي بتروفيتشـ علـى التفتيش عنها في زهــاء عشرين مــن الادراج والصناديق المختلفــة. وعندما غدا اركادي مالكا لهذه الوريقــات البالية استقر بعض الشــيء كما لو تراءى له الهــدف الذي يتعين عليه بلوغــه. وصار يهمس بلا كلل «لقد قالت بنفسها: تعالا الي معا... سأسافر، سأسافر، وليكن ما يكون!». لكنه يتذكر الزيارة الأخـيرة والاستقبال الفاتر وارتباكه السابق فيعتريه الوجل. وأخيراً سيطرت عليه «عسى ولعل» ورغبة الشباب الخفية في تــذوق طعم سعادتــه وتجربة قواه علــى انفراد بدون أيــة وصاية مهما كان مصدرهــا. لم تمضِ على عودتــه إلى مارينو عشرة أيــام حتى عاد من جديــد إلى المدينة، بحجــة دراسة نظام مدارس الآحــاد، ومن هناك عرج علــى نيكولسكويه. كان يستعجل الحوذى بلا انقطاع وهو ينهب الدرب إلى هنــاك كضابط شاب توجه إلى المعركــة: كان مرتعبا مرحا. وهو ينتظر الوصول بفارغ الصبر. ويؤكد لنفسه «الأمر الأهم هو أن لا أفكر بشيء». وقــد وقع اختياره علــى حوذى مغوار، كان يتوقف أمــام كل حانة قائلا: «هــل نتجرع؟» أو «فلنتجرع!»، ولكنه بعد أن «يتجرع» لا يعود يرادف بالجيــاد. وها قــد لاح أخيرا السقف العــالي لتلك الــدار المعروفة... وفكر اركادي علــى الفــور: «ماذا فعلــت؟ ولكن لا مجال للعــودة!». وراحت الخيــول الثلاث تنهب الــدرب بوئام والحوذي يستحثهــا بصفيره. ها هو الجسر الصغير قد جلجل تحت السنابك والعجلات، وها هو ممشى أشجار الشــوح الحليقــة المقلمــة... ومرق فستــان نسائــي وردي وسط الخضرة الداكنــة وتطلع وجه فتــي من تحت اهــداب مظلة خفيفــة... أنها كاتيا، عرفهــا وعرفتــه. أمر اركادي الحــوذى بوقف الخيول المنطلقــة، فقفز من

المركبـة واقترب منها. فقالت بعد أن احتقـن وجهها كله بالتدريج: «هذا انت! فلنذهب إلى أختي، أنها هنا، في البستان. وسوف تسر لرؤيتك».

اقتـادت كاتيا اركادي إلى البستان. وكان اللقـاء معها فالا حسنا جدا كمـا خيل إليه، فقد سـر لها كما لو كانت من أهلـه. وجرت الأمور على اروع ما يكون: بدون كبير الوصفاء وبدون مراسيم. ففي منعطف الممشى لمـح آنا سيرغييفنا التي كانت واقفة وظهرهـا إليه. وعندما سمعت الخطى استدارت بهدوء.

كاد اركادي يرتبـك من جديـد، إلا أن أولى الكلمات التي فاهت بها جعلتـه يهدأ في الحال. «مرحباً، أيهـا الهارب!» – قالت بصوتها المتناسق الحنون وتوجهت للقائه باسمة بعينين شبه مغمضتين من الشمس والريح: «أين عثرت عليه يا كاتيا؟». فبدأ هو كلامه:

– جئت إليك، يا آنا سيرغييفنا، بشيء لا تتوقعينه أبدا...

– جئت الي بنفسك، وهذا أفضل شيء.

٢٣

كان بازاروف قد ودع اركادي متأسفا متهكما ولمح له بأنه لا يمكن أن يخدع قيد انملة بخصوص الهدف الحقيقي لهذه الزيارة، ثم اعتكف نهائيـا، حيث انتابته حمى العمل. لم يعد يتجـادل مع بافل بتروفيتش، لا سيما وأن هذا صار يتخذ بحضوره هيئة ارتسقراطية مفرطة ويعرب عـن آرائه بأصـوات متقطعة أكثر مما بكلمات. ومـرة واحدة فقط كاد بافـل بتروفيتش ينخرط في مساجلة مع النهلستي بصدد المسألة الشائعة آنـذاك عن حقوق نبلاء منطقـة البلطيق، لكنه توقف فجأة وقال بتأدب فاتر:

– علـى كل حـال، ليس بوسعنا أن نفهم بعضنا بعضـا. فأنا، على أقل تقدير، عاجز عن أن اتشرف بفهمك.

– كيـف لا؟! – هتـف بازاروف – الإنسان قـادر على فهم كل شيء حتـى اختلاج الاثـير وما يحدث على الشمس، لكنـه عاجز عن أن يفهم كيف يتمخط إنسان آخر بشكل يختلف عن تمخطه هو.

فقال بافل بتروفيتش متسائلا:

– هل هذا شيء ظريف؟ – وانزوى جانبا. بيد أنه كان في بعض الأحيان يستـأذن من بـازاروف لحضور تجاربـه. حتى أنه ذات مـرة قرب وجهه المعطـر والمضمخ بعقاقير ممتازة من المجهر لكي يرى كيف التهمت نقاعية شفافة ذرة خضراء وانشغلت بمضغها بواسطة قبضات صغيرة ورشيقة جدا موجودة في حلقومها. إلا أن نيكولاي بتروفيتش اكثر من أخيه ترددا على بـازاروف. كان بوده أن يحضر كل يوم «للتعلـم»، على حد تعبيره، لولا مشاغل المزرعة التـي تلهيه. و لم يكن يضايق الباحث الشاب، فهو ينزوي في أحد أركان الحجرة ويتطلع بانتباه، ونادرا ما يسمح لنفسه بطرح سؤال متهيـب. وكان يسعـى أثناء تناول طعام الغداء والعشـاء إلى توجيه الكلام نحو الفيزياء والجيولوجيـا والكيمياء، وذلك لأن جميع الأمور الأخرى، حتـى ما يتعلق منها بشؤون المزرعة، ناهيك عـن المسائل السياسية، يمكن أن تـؤدي إلى عـدم ارتيـاح الطرفـين، أن لم نقل إلى الصدامـات بينهما. وقد خمـن نيكولاي بتروفيتشـ أن حقد أخيه على بـازاروف لم يتقلص قيـد شعرة. ثـم أن حادثة تافهـة، من بين الحوادث العديـدة الأخرى، قد اكـدت تخمينه هذا. أخذت الكوليرا تظهـر في بعض الأماكن المجاورة، بـل و «انتزعت» اثنين مـن سكان مارينو نفسهـا. وذات ليلة تعرض بافل بتروفيتشـ لنوبة شديدة. تعذب حتـى الصباح ولكنه لم يلجأ إلى خدمات بـازاروف. وعندما رآه في اليوم التـالي وسأله بازاروف «لماذا لم يرسل في

طلبه؟» أجابه، وهـو لا يزال شاحبا كليا، ولكنه تنظف جيدا وحلق ذقنه: «الم تقـل بنفسك، علـى ما أتذكر، أنك لا تؤمـن بالطب؟». مرت الايام علـى هذا المنول، وكان بـازاروف يعمل بمثابرة وتجهـم... في حين تضم دار نيكـولاي بتروفيتشـ كائنا بوسعـه أن يروح عن بـازاروف همومه، وعلـى الاصح أن يتجاذب معه اطراف الحديث بسـرور... وهذا الكائن هو فينيتشكا.

كان يتقابـل معها في أغلب الحالات أثناء الصباح الباكر في البستان أو في الباحـة. لم يكن يتردد على غرفتهـا. و لم تكن هي تقترب من غرفته إلا مـرة واحدة سألته فيها عند الباب عمـا إذا كان يتعين عليها أن تغسل ميتيا أم لا؟ كانت تثق به، ولا تخشاه، بل كانت تتصرف بحضوره دون تكلف وبطلاقة أكـثر مما بحضور نيكولاي بتروفيتش نفسه. ومن الصعب معرفة السبـب في ذلك. لعلها كانت تحـس بصروة لا شعورية أن بازاروف خال مما يميز النبلاء، من كل ما هو رفيع يستهويها ويخيفها في الوقت ذاته. لقد كان هو في انظارها طبيبا ممتازا وإنسانا بسيطا سواء بسواء. كانت لا تشعر بالضيق مـن وجوده وهي تـداري طفلها. ذات مرة أخذ الـدوار برأسها فجـأة واصابهـا الصداع فتلقت مـن يده ملعقة الـدواء. كانت، بحضور نيكولاي بتروفيتش، كالغريبة على بازاروف: و لم تكن تفعل ذلك بسبب الدهاء بل بشعور من اللياق لا اكثر. وصارت تخشى بافل بتروفيتش أكثر مـن أي وقـت مضى. فقد أخذ منذ حين يراقبهـا ويظهر بغتة وراء ظهرها كما لو انفطرت عنه الأرض ببدلته الانجليزية ووجهه العبوس الجامد ويديه المخبأتـين في جيبيه. ولقـد تشكت فينيتشكا إلى دونياشـا قائلة: «تنتابني الرجفة منه». فأجابـت دونياشا بتنهدة وراحت تفكر بإنسان آخر «خال من العواطف». لقد غدا بازاروف، دون علم منه، طاغية قاسيا سيطر على فؤادها.

كانـت فينيتشـكا معجبة ببـازاروف، وكان هو معجبا بهـا، حتى أن

سحنــة وجهــه تتغير عندمــا يتحدث إليهــا: فتكتسب تعبــيرا صافيا يكاد يكــون طيبا، ويختلــط بأهماله المعتاد شيء من الاهتمــام الملفع بالفكاهة. كانــت فينيتشكا تزداد جمالا مــن يوم لآخر. ففي حيــاة النساء الشابات تصادف مرحلة يبدأن فيها بالازدهار والتفتح كورود الصيف. وقد حلت هــذه المرحلة بالنسبة لفينيتشكا. فكل شــيء يساعد على ذلك، حتى قيظ يوليــو الذي خيم آنذاك. كانت ترتدي فستانــا خفيفا أبيض تبدو فيه أكثر بياضــا وخفة. ولم تكن السمرة لتعلق ببشرتهــا، في حين صبغ الحر الذي لم تستطــع أن تحتمي منه وجنتيهــا واذنيها بالحمرة، واضفى على جسدها كلــه سكونا هادئا وصار ينعكس في عينيها الجميلتين بشكل فتور ناعس. لم تعد قــادرة على ممارسة أيما عمل تقريبا، كانــت يداها تكادان تلتصقان بركبتيها. وكادت تكف عن المشي، فصارت تتأوه وتشكى بعجز لعوب.

كان نيكولاي بتروفيتش يقول لها:

– من الافضل أن تستحمي كثيرا.

انشأ مسبحا واسعا فوقه ظلة من قماش سميك في واحدة من بركة التي لم ينضب ماؤها بعد.

– آه، يــا نيكولاي بتروفيتش! يمــوت الإنسان قبل أن يصل إلى البركة، وعندما يعود منها يموت أيضا. فالبستان خال من الظلال.

– حقــا، ليست هنــاك ظلال – يجيبهــا نيكــولاي بتروفيتش ويمسح حاجبيه.

ذات مرة، عاد بــازاروف من جولته في الساعة السابعة صباحا فوجد فينيتشــكا في تعريشة الليلاك التي ذوت زهورهــا من زمان، لكنها ظلت كثيفــة خضراء. كانت جالسة علــى المصطبة وقد لفــت رأسها، كعادتها، بمنديل أبيض، وقربها حزمــة كبيرة من ورود حمراء وبيضاء لا تزال ندية. حياها فقالت:

– آ! يفغيني فاسيليفيتش!

ورفعت طرف منديلها لكي تلقي نظرة عليه فتعرت يدها حتى المرفق.

– ماذا تفعلين هنا؟ تضفرين باقة؟ – سأل بازاروف وجلس قربها.

– أجل، باقة لمائدة الفطور. نيكولاي بتروفيتش يحب ذلك.

– الفطور لا يزال بعيدا. ما أكثر هذه الورود!

– قطفتها الآن، لأن من الصعب الخروج فيما بعد بسبب الحر. فالآن فقط يمكن أن نتنسم الهواء. اصابني ضعف شديد من هذا الحر. واخشى أن امرض بسببه.

– ما هذه الأوهام؟! دعيني اجس نبضك – التقط بازاروف يدها وبحث عن العرق فوجده يدق بانسجام حتى أنه لم يحسب دقاته. ثم قال:

– ستعيشين مائة عام.

– آه، الله يستر! – هتفت فينيتشكا.

– لماذا؟ إلا تريدين أن تمشي طويلا؟

– مائة عام! هذا كثير! جدتنا بلغت الخامسة والثمانين، فما كان اعظم آلامها! غدت سوداء صماء حدباء تسعل طوال الوقت. كانت عالة على نفسها. فما نفع هذه الحياة؟!

– تفضلين البقاء شابة، أليس كذلك؟

– وإلا فما الداعي لذلك؟

– ما هي أفضلية الشباب؟ خبريني!

– كيف؟ فأنا الآن شابة استطيع أن افعل كل شيء بنفسي، اروح واغدو واحضر ما يلزم ولا احتاج إلى طلب المعونة من أحد... فهل هناك

أفضل من ذلك؟

– أما أنا فسيان لدي شابا كنت أم شيخا.

– كيف تقولون سيان؟ ما تقولونه أمر مدهش.

– احكمي بنفسك يا فينيتشكا، ما نفع فتوتي؟ أنني أعيش وحيدا، اعزب...

– ذلك يتوقف عليكم دوما.

– ليس علي... تلك هي القضية! حبذا لو رأف أحد بحالي.

القت فينيتشكا نظرة جانبية على بازاروف ولم تقل شيئا. وبعد فترة صمت سألته:

– ما هذا الكتاب الذي معكم؟

– هذا؟ كتاب علمي معقد.

– هل تدرسون طوال الوقت؟ ألا يضجركم ذلك؟ يخيل الي انكم تعرفون كل شيء.

– ليس كل شيء، على ما يرام. هاك، اقرأي قليلا.

– لن أفهم من ذلك ذرة. هل هو كتاب روسي؟ – سألت فينيتشكا وهي تتلقى بيديها المجلد الثقيل – ما أثقله!

– روسي.

– لن أفهم منه شيئا مع ذلك.

– لا أقصد بأن تفهمي. أريد فقط أن اتطلع إليك عندما تقرأين. فأثناء ذلك تتحرك ارنبة انفك بشكل لطيف جدا.

ضحكت فينيتشكا وتركت الكتاب بعد أن كانت قد تهيأت لتقرأ بصوت خافت المقالة التي فتحته عليها وهي عن «خلاصة القطران»... فانزلق الكتاب من المصطبة إلى الأرض. فقال بازاروف:

– يعجبني كذلك أن اراك تضحكين.

– ماذا تقولون؟

– ويعجبني ان اسمعك تتكلمين، كخرير جدول.

أشاحت فينيتشكا بوجهها، ثم قالت وهي تمس الورود باصابعها:

– ما حاجتكم إلى الاستماع الي؟ لقد دارت احاديث بينكم وبين نساء نبيلات ذكيات.

– آه، يا فينيتشكا، صدقيني أن كل النبيلات الذكيات في العالم لا يساوين مرفقك.

– ماذا تقولون؟ – همست فينيتشكا وضغطت يديها إلى بدنها.

رفع بازاروف الكتاب من الأرض.

– ما هذا كتاب طبي، لماذا القيت به؟

– طبي؟ – سألت فينيتشكا واستدارت نحوه – هل تعلمون؟ ميتيا ينام نوما هانئا منذ أن اعطيتموني تلك القطرات، هل تذكرون؟ لا ادري كيف اشكركم على ذلك. ما اطيبكم!

فقال بازاروف ساخرا:

– في الحقيقة ينبغي الدفع للأطباء. فهم، كما تعلمين، أناس نفعيون.

رفعت فينيتشكا إلى بازاروف عينيها فبدتا اكثر سوادا بسبب الانعكاس الضارب إلى البياض والذي وقع على القسم العلوي من وجهها. و لم تكن تعرف ما إذا كان جادا أم مازحا.

– إذا اردتم فنحن على كل استعداد... سأطلب من نيكولاي بتروفيتش...

– تظنين بأني اريد نقودا!؟ – قاطعها بازاروف – كلا، أنني اريد منك شيئا غير النقود.

– ماذا اذن؟ – سألت هي.

– ماذا؟ احزري – قال بازاروف.

– كيف لي أن أحزر؟!

– اذن فسأقول لك. أنني أريد... واحدة من هذه الورود

ضحكت فينيتشكا من جديد حتى أنها ضربت كفا على كف. فقد بدت لها أمنية بازاروف مسلية للغاية. كانت تضحك وتشعر في الوقت نفسه بأن ذلك اطراء لها. وكان بازاروف يحدق فيها. وقالت أخيرا بعد أن انحنت على المصطبة وراحت تنتقي الورود:

– تفضلوا، تفضلوا، أية وردة تريدون حمراء أم بيضاء؟

– حمراء وغير كبيرة جدا.

عدلت من قامتها وقالت:

– خذوا.

ولكنها سرعان ما سحبت يدها الممدودة وعضت على شفتيها ونظرت إلى مدخل التعريشة ثم أخذت تتسمع. فسأل بازاروف:

– ماذا؟ هل هو نيكولاي بتروفيتش؟

– كلا... ذهب إلى الحقل... ثم أنني لا اخشاه... ولكن بافل بتروفيتش. خيل الي...

– ماذا؟

– خيل الي أنه هو الذي يتمشى هنا. كلا... لا أحد. خذوا – سلمت فينيتشكا الوردة إلى بازاروف.

– لماذا تخافين من بافل بتروفيتش؟

– أنه يخيفني دوما. لا يقول شيئا ولكنه ينظر الي بغموض. ثم انكم

أيضا لا تحبونه. هل تذكرون كيف كنتم في السابق تتجادلون معه. لا ادري عم كنتم تتجادلون ولكنني رأيت كيف تتلاعبون به هكذا، ثم هكذا...

اومأت فينيتشكا بيديها إلى كيفية تلاعب بازاروف بپافل بتروفيتش، كما خيل إليها.

ضحك بازاروف ثم سألها:

– لو فرضنا أنه تفوق علي فهل كنت ستدافعين عني؟

– كيف لي أن ادافع عنكم؟ كلا، لن يقوى عليكم أحد.

– حقا؟ أما أنا فاعرف يدا تستطيع أن تقهرني بأصبع واحد إذا ارادت.

– أية يد هذه؟

– إلا تعرفينها؟ شمي هذه الوردة التي اعطيتنيها.

اشرأبت فينيتشكا وقربت وجهها من الوردة... انزلق المنديل من رأسها على الكتفين، ولاح خضم ناعم من الشعر الأسود اللامع المشعث بعض الشيء.

– تمهلي، أريد أن اشمها معك – قال بازاروف وانحنى عليها فطبع قبلة شديدة على شفتيها المتفتحتين. ارتعدت، وانشبت كلتا يديها في صدره، لكن مقاومتها كانت ضعيفة فتسنى له أن يكرر قبلته ولأمد أطول.

تعالى سعال جاف من وراء الليلاك. ابتعدت فينيتشكا إلى طرف المصطبة الآخر بلمح البصر. وبان پافل بتروفيتش فانحنى قليلا وقال بكآبة حاقدة «انتما هنا»، ثم ابتعد. التقطت فينيتشكا كل الورود في الحال وخرجت من التعريشة هامسة: «حرام يا يفغيني فاسيليفيتش». ورنت في همسها ملامة غير منفعلة.

تذكر بازاروف المشهد الاخر مع اوديتسوفا فأنبه ضميره وشعر بكآبة

وبشيء من الاحتقار. لكنه نفض رأسه على الفور وهنأ نفسه ساخرا «على الانتماء الرسمي إلى سلك العشاق» وتوجه إلى غرفته.

أما بافل بتروفيتش فقد خرج من البستان ووصل إلى الغابة بخطاه المتباطئة. ظل هناك امدا طويلا، وعندما عاد لتناول الفطور سأله نيكولاي بتروفيتش بكل اهتمام عن صحته. فقد غدا وجهه في غاية القتامة. وأجاب بافل بتروفيتش بهدوء:

– أنت تعلم بأني أعاني أحياناً من داء الصفراء.

٢٤

بعد زهاء ساعتين طرق بافل بتروفيتش باب بازاروف.

– استميحك عذرا لاني الهيك عن مشاغلك العلمية – قال وجلس على كرسي قرب النافذة واستند بكلتا يديه إلى عصا ذات مقبض من العاج (وهو يتمشى عادة بدون تلك العصا) – لكنني مضطر لاستعطافك بأن تخصص لي من وقتك خمس دقائق... لا أكثر.

– وقتي كله في خدمتك – اجاب بازاروف وقد تبدلت سحنته حالما اجتاز بافل بتروفيتش عتبة بابه.

– تكفيني خمس دقائق. جئت لاطرح عليك سؤالا.

– عم، يا ترى؟

– تفضل واستمع. أول ما حللت أنت في دار أخي، عندما لم أكن قد حرمت نفسي من متعة التحدث معك، تعين علي أن استمع إلى محاججاتك بشأن العديد من الاشياء، ولكن الكلام، بقدر ما اتذكر، لم يتناول بيننا ولا بحضوري أبدا مسألة المنازلات، والمبارزة عموما. فاسمح لي أن أعرف رأيك بهذا الخصوص.

كان بـازاروف الـذي نهض لاستقبـال بافل بتروفيتشـ في البداية قد جلس على طرف الطاولة وكثف يديه. فقال:

– إليـك رأيي. المبارزة سخافة من الناحيـة النظرية. ولكنها شيء آخر من الناحية العملية.

– يعني تريد أن تقول، إذا كنت قد فهمتك جيدا، أنك لن تسمح لأحد في الواقـع بأن يهينـك دون أن تطالب بمبارزته بالرغـم من رأيك النظري بهذا الخصوص، أليس كذلك؟

– لقد حزرت فكرتي تماما.

– حسنـا جـدا يا سيـدي. يسرني كل السـرور أن اسمـع ذلك منك. كلماتك تنقذني من المجهول.

– تريد أن تقول: من التردد.

– الأمر سيان يا سيدي. أنني اتكلم بالشكل الذي يفهمني به الآخرون. فأنا... ليست من جـرذان المدارس والكليات. كلماتك تحررني من بعض الضروريات المحزنة. لقد صممت على أن اتبارز معك.

جحظت عينا بازاروف:

– معي أنا؟

– معك بالذات.

– معذرة، لأي سبب؟

فواصل بافل بتروفيتش كلامه:

– بوسعـي أن اوضح لك السبب، ولكنني أفضل السكوت عليه. أنك برأيـي، شخص نافل هنا. وأنا لا أطيق وجـودك، انني احتقرك. وإذا كان ذلك لا يكفيك...

لمعت عينا بافل بتروفيتش... والتهبت عينا بازاروف أيضا، فقال مدمدما:

– حسنا جدا يا سيدي. لا داعي للمزيد من التوضيح. لقد راودك وهم بان تجرب علي فروسيتك. وبوسعي أن ارفض منحك هذه المتعة. ولكن لا بأس، فليكن!

– أنني ممتن لك كل الامتنان. – اجاب بافل بتروفيتش – ويمكنني الآن أن آمل بأنك تتقبل التحدي دون أن تحملني على اللجوء إلى اجراءات العنف.

– أي اللجوء إلى هذه العصا، إذا تكلمنا بدون مجاز، اليس كذلك؟ – سأل بازاروف ببرود – ذلك عين الصواب. فليس هناك مطلقا ما يدعوك إلى اهانتي. ثم أن ذلك ليس بدون مخاطر. بوسعك أن تظل جنتلمانا... وأنا اتقبل تحديك كما يفعل الجنتلمان أيضاً.

– حسناً – قال بافل بتروفيتش ووضع العصا في ركن الغرفة – سنذكر الآن بضع كلمات بشأن شروط مبارزتنا، ولكن بودي أن أعرف أولا ما إذا كنت ترى ضرورة للجوء إلى شكليات الخصام البسيط الذي يمكن أن يغدو حجة للتحدي.

– كلا. الافضل بدون شكليات.

– وأنا من هذا الرأي أيضاً. ويخيل الي كذلك أن لا داعي للتعمق في الاسباب الحقيقية لنزاعنا. فنحن لا نطيق بعضنا البعض. فهل من داع إلى المزيد؟!

– حقا، هل من داع إلى المزيد؟! – كرر بازاروف متهكما.

– أما بخصوص شروط المبارزة، فبحكم عدم وجود شاهدين لدينا... من أين لنا العثور عليهما؟

– أجل، من أين لنا العثور عليهما؟

– ... فأنني أتشرف بأن اقترح عليك ما يلي: نتبارز غدا في وقت مبكر، في السادسة مثلا، وراء الاجمة، بمسدسين وعلى مسافة عشر خطوات...

– عشر خطوات؟ يعني أننا نحقد على بعضنا البعض بقدر هذه المسافة.

– من الممكن ثماني خطوات – قال بافل بتروفيتش.

– ممكن. لم لا؟!

– نطلق الرصاص مرتين، وتحوطا للطوارئ يضع كل منا في جيبه رسالة يلقي فيها على نفسه مسؤولية وفاته.

– ذلك ما لا اوافق عليه تماما – قال بازاروف – أنه يشبه الروايات الفرنسية. ولا يطابق الواقع.

– ربما. ولكن ليس من المريح التعرض لتهمة القتل، اليس كذلك؟

– أجل. ولكن هناك وسيلة لتلافي هذه الملامة الكئيبة. أن يكون لدينا شاهدان رسميان، ولكن من الممكن احضار شاهد عادي واحد.

– من هو يا ترى؟

– بيوتر.

– أي بيوتر هذا؟

– وصيف أخيك. أنه شخص ارتقى إلى مستوى التعلم العصري، وهو يؤدي واجبه بكل ما تتطلبه هذه الحالات من لياقة.

– يخيل الي أنك تمزح يا سيدي الجليل.

– أبدا. إذا ناقشت اقتراحي ستتأكد من أنه اقتراح وجيه وبسيط. فتلك

مسألـة لا يمكـن اخفاء آثارها. أمـا بيوتر فأتعهد باعـداده بالشكل اللازم وايصاله إلى ساحة المعركة.

– أنـك لا تـزال تمـزح – قال بافـل بتروفيتشـ ناهضـا – ولكن بعد الاستعداد الـذي ابديته متفضلاً لا يحـق لي أن اعترض عليك... وهكذا دبرنا كل شيء... وبالمناسبة هل لديك مسدسان؟

– من أين لي، يا بافل بتروفيتش؟ فأنا لست عسكريا.

– اذن اقـترح أن نستخدم مسدسيّ. وكن على ثقة بأنني لم استعملهما منذ خمس سنوات.

– هذا نبأ يبعث على السرور لدرجة كبيرة.

التقط بافل بتروفيتش عصاه...

– لا يتبقـى علي، أيها السيد الجليل، بعد ذلك إلا أن اشكرك واتركك تعود إلى اشغالك. يشرفني أن انحني مودعا.

– إلى لقاء سعيد، يا سيدي الجليل – قال بازاروف مودعا ضيفه.

خـرج بافل بتروفيتش، فوقـف بازاروف أمام البـاب لحظة، ثم هتف فجـأة: «تفو! يـا للشيطان! ما أجمل ذلـك وما اغباه! أيـة ملهاة مثلنا؟! الـكلاب المدربة ترقص علـى قوائمها الخلفية بهـذا الشـكل. وما كان بالامـكان الرفض، فلربمـا سولت لـه نفسـه أن يضربني، وعنـد ذاك... (شحـب لون بازاروف لهذه الفكرة، وفـارت فيه عزة النفس). عند ذاك سأكون مضطرا إلى خنقه كقط صغير». عاد إلى مهجره، لكن قلبه يتفطر، وفارقه الهدوء اللازم للمراقبة والبحث.

وفكـر في نفسه: «لقد رآنا اليوم، ولكن هـل يدافع عن أخيه حقا؟ ثم مـا أهمية القبلة؟ لا بد وأن هناك سببا آخر. يا الهي! أليس هو مغرما بها؟! بالطبع، بالطبع. أمر واضح وضوح النهار. ما احرج الموقف! شيء فظيع!

فظيـع من كل الوجوه. ينبغي أن اعرض جبيني للرصاص، وأن اسافر على كل حـال. هذا أولا. ثم هنـاك اركادي... وهذا الحمل الوديع نيكولاي بتروفيتش. شيء فظيع، فظيع».

مر النهار بهـدوء باهت أكثر من المعتاد. واختفى أثـر فينيتشكا وكأنما لم تكـن موجودة في هذا العالم. قبعت في غرفتهـا كفأرة في جحر. وبدا نيكـولاي بتروفيتشـ مهموما. فقد ورده نبأ ظهـور داء السناج في قمحه الذي علق عليه آماله بخاصة. وكان بافل بتروفيتش بمجاملته الجليدية ثقيلا على الجميع، حتى على بروكوفيتش. بدأ بازاروف بتحرير رسالة إلى ابيه، ولكنه مزقهـا والقى بها تحت الطاولة. وفكـر في نفسه «إذا مت فسوف يعلمان. ولكنني لن أموت. فسوف اجول طويلا في هذا العالم». طلب من بيوتـر أن يأتي إليه عند بزوغ فجر الغد من أجل قضية هامة. وتصور بيوتر أن بـازاروف يريد أن يصطحبه إلى بطرسبـورغ. خلد بازاروف إلى النوم في ساعـة متأخرة، واخـذت أحلام مشوشة تعذبه طـوال الليل... كانت اودينتسوفـا تدور أمامـه، وكانت هي أمه في الوقت نفسـه، وتبعتها قطة ذات شـوارب سوداء، وهذه القطة هـي فينيتشكا. وبدا له بافل بتروفيتش بشـكل دغل كثيف عليه أن يتبارز معه مـن كل بد. ايقظه بيوتر في الرابعة صباحا، فارتدى ملابسه على الفور وخرج معه.

كان الصبـاح منعشا رائعـا. وكانت سحابات صغـيرة متموجة تتناثر علـى زرقة صافية شاحبـة، واستقر ندى رقيق علـى الاوراق والاعشاب وبيوت العناكب وصار يلمع كالفضة. لاحت الارض الندية القاتمة وكأنها تحتفـظ باثار الفجر الحمراء، وكانت اغاريد القبرات تصدح من كل ارجاء السمـاء. بلغ بـازاروف الاجمة فجلس في الظل علـى طرفها، وعند ذاك فقـط كشف لبيوتر عـن الخدمة التي ينتظرها منـه. ارتعب الوصيف حتى الموت، ولكن بازاروف هدأ من روعه مؤكدا له بأنه ليس عليه إلا أن يقف بعيدا ويتطلـع، وبأنه لا يتحمل أية مسؤولية. واضاف قائلا: «ولكن فكر

أنــت، أي دور هام ستضطلع به!». أشــار بيوتر بيديه اشارة يائسة واطرق برأسه ممتقعا شاحبا واستند إلى جذع بتولا.

الطريق من مارينو يلتف حول الغابة الصغيرة، وهو مغطى بغبار خفيف لم تمسه عجلة ولا رجل منذ يوم أمس. كان بازاروف ينظر عفويا إلى طول هذا الطريق ويقتلع عشبا ويقضمه ويفكر في نفسه مكررا: «يا للغباوة!». وجعله برد الصباح يرتعش مرتين أو ثلاثا... نظر إليه بيوتر بكآبة، فاكتفى بازاروف بابتسامة ساخرة: فهو ليس جبانا.

تهــادى وقع سنابــك على الطريق... ولاح فلاح مــن وراء الاشجار. كان يقود حصانين معقلين امامه. وعندما مر قرب بازاروف نظر إليه نظرة غريبــة دون أن يرفع قبعته، الأمر الذي حير بيوتر باعتباره فالا غير حسن. وفكر بازاروف في نفسه «لقــد نهض هذا مبكرا أيضا، ولكنه على الأقل من أجل العمل. أما نحن فلأي غرض؟».

– يخيل الي أنه قادم، يا سيدي – همس بيوتر فجأة.

رفــع بــازاروف رأسه فــرأى بافــل بتروفيتش في ســترة خفيفة مخططة بمربعــات وسروال ناصع كالثلج. كان يســير مسرعا في الطريق، وقد تأبط صندوقا مغلفا بقماش أخضر.

– معذرة، فقد جعلتكما تنتظران على ما اظن، – قال منحنيا لبازاروف في البدايــة، ثــم لبيوتر الذي غدا في تلك اللحظة يحــترم فيه شيئا من قبيل الشاهد – ما اردت ايقاظ وصيفي.

– لا بأس. لقد وصلنا نحن أيضاً للتو – أجاب بازاروف.

– آ! حسنا! – تلفت بافل بتروفيتش حواليه – لا أحد هناك. لن يعيقنا أحد... هل نبدأ؟

– أجل.

– أعتقد أنك لا تطالب بإيضاحات جديدة؟

– كلا.

– هل تريد أن تشحنهما؟ – سأل بافل بتروفيتش وهو يخرج المسدسين من الصندوق.

– كلا. اشحنهما بنفسك، أمـا أنا فسأقيس المسافة. رجلاي اطول – اضاف بازاروف ساخرا – واحد، اثنان، ثلاثة...

– يفغيني فاسيليفيتش – تمتم بيوتر بصعوبة (إذا كان يرتعش كالمحموم)
– الأمر لكما. سأبتعد.

– اربعـة... خمسة... ابتعـد، يا اخي، ابتعد. يمكنـك أن تقف وراء شجـرة، بل وسد اذنيـك، ولكن لا تغمض عينيـك. وحالما يسقط احدنا اركض نحوه وارفعه. ستة... سبعة... ثمانية... – توقف بازاروف وقال مخاطبا بافل بتروفيتش: – كفاية؟ أم اضيف خطوتين؟

– كما تشاء – قال ذاك وهو يعبئ الرصاصة الثانية.

– اذن فلنضـف خطوتـين اخريين – ورسم بـازاروف بطرف جزمته خطـين على الارض – ها هما الخطان الفاصـلان. وبالمناسبة فكم خطوة ينبغي لكل منا أن يبتعد عن خطه؟ هذه مسألة هامة أيضاً، ولكننا لم نناقشها بالامس.

– عشـر خطوات على ما اعتقـد – اجاب بافـل بتروفيتش وقدم كلا المسدسين إلى بازاروف – تفضل بالاختيار.

– حسنـا. ولكن إلا توافقني يا بافـل بتروفيتش على أن مبارزتنا غريبة إلى حد مضحك. انظر إلى الوجه البليد لشاهدنا، مثلا.

– أنـت ترغـب في المزاح دوما – اجاب بافـل بتروفيتش انني لا انكر

غرابة مبارزتنا، ولكني أرى من واجبي أن احذرك بأني انوي المبارزة بكل جد. (فليسمع كل من لديه اذنان!)[٦٤].

– هيه! لا يخامرني شك في أننا عزمنا على ابادة بعضنا البعض. ولكن ما الذي يمنعنا من الضحك والتوفيق بين (المنفعة والمسرة)[٦٥]؟ هكذا اذن: تكلمني بالفرنسية واكلمك باللاتينية.

– سأتبارز بكل جد – كرر بافل بتروفيتش القول واتجه إلى مكانه. وحسب بازاروف من جهته عشر خطوات عن خطه وتوقف. فسأله بافل بتروفيتش:

– هل أنت مستعد؟

– تماما.

– يمكننا أن نتقارب.

تحرك بازاروف بهدوء إلى الامام فاتجه بافل بتروفيتش نحوه وقد دس يده اليسرى في جيبه ورفع فوهة المسدس بالتدريج... ففكر بازاروف «أنه يهدف نحو انفي مباشرة، ويفعل ذلك بكل عناية، يا له من قاطع طريق! ولكن ذلك احساس غير مسر. الأفضل أن اتطلع إلى سلسلة ساعته...». صر شيء ما بحدة قرب اذن بازاروف، ودوت اطلاقة في اللحظة ذاتها. وخطرت في ذهنه فكرة «ما دمت قد سمعت فلا خطر هناك». خطا خطوة أخرى وضغط على الزناد دون تهديف.

ارتجف بافل بتروفيتش رجفة خفيفة وامسك فخذه بيده. وشخب الدم على بنطاله الابيض.

---

(٦٤) في الأصل بالفرنسية A bon entendeur، salut.

(٦٥) في الاصل باللاتينية utile dulci.

القى بازاروف المسدس جانبا وهرع إلى خصمه فسأله:

– هل جرحت؟

فقال بافل بتروفيتش:

– كان من حقك أن تدعوني إلى الخط الفاصل. أما الجرح فهو ظفيف. لكل منا، حسب الشروط، حق في اطلاقة أخرى.

– ولكن معذرة، فلنؤجل ذلك إلى المرة التالية – اجاب بازاروف واسند بافل بتروفيتش الذي بدأ لونه يشحب – فأنا الآن لست مبارزا، بل أنا طبيب علي قبل كل شيء أن افحص جرحك. بيوتر! تعال إلى هنا. بيوتر! أين اختفيت؟

فقال بافل بتروفيتش بصوت متقطع:

– كل ذلك سخف... أنا لست بحاجة إلى معونة أحد. ينبغي... مرة أخرى... – أراد أن يمسك بشاربه، ولكن قواه خارت، فغارت عيناه، وفقد وعيه.

– يا للغرابة! اغماء! لأي سبب؟ – هتف بازاروف، وهو يضع بافل بتروفيتش على العشب – فلننظر ماذا حدث؟ – اخرج منديلا ومسح الدم وتحسس الجرح... ودمدم: – العظم سليم، والرصاصة اخترقت اللحم سطحيا، و لم تتلف إلا عضلة vastus externus. سيكون بوسعه أن يرقص بعد ثلاثة أسابيع!.. ومع ذلك اغمي عليه! يا لهؤلاء الناس العصبيين! ما اشد نعومة بشرتهم!

– هل قتل يا سيدي؟ – حف صوت بيوتر اللاهج وراء ظهره. فالتفت بازاروف:

– احضر قليلا من الماء، يا اخي، بسرعة. أما هو فسيعيش اطول من عمرك وعمري.

إلا أن الخادم العصري المكتمل لم يفهم كلماته، على ما يبدو، فظل واقفا دون حراك. فتح بافل بتروفيتش عينيه ببطء. فهمس بيوتر: «أنه يحتضر!» وراح يرسم علامة الصليب.

– أنت على حق... يا له من وجه بليد! – قال السيد الجريح بابتسامة مكرهة.

– اذهب لاحضار الماء، يا للشيطان! – صار بازاروف.

– لا داعي... كان ذلك مجرد (دوار)[٦٦] للحظة... ساعدني في الجلوس... هكذا... يكفي لف هذا الخدش بشيء ما وعند ذاك سأذهب إلى المنزل ماشيا، وإلا فيمكن ارسال عربة مكشوفة. أما المبارزة فيمكن أن لا تستأنف إذا شئت. لقد تصرفت بنبل... هذا اليوم، اليوم فقط، لاحظ ذلك.

– لا داعي لتذكر الماضي – قال بازاروف – أما المستقبل فلا داعي كذلك لتدويخ الرأس بشأنه، لأنني انوي الارتحال دون ابطاء. دعني اضمد لك رجلك الآن. جرحك لا خطر فيه، ومع ذلك من الافضل وقف النزيف. ولكن من الضروري في بادئ الأمر اعادة الوعي إلى بيوتر.

هز بازاروف بيوتر من ياقته وارسله لاحضار العربة.

فقال له بافل بتروفيتش:

– احذر، لا ترعب أخي، واياك أن تخبره.

اسرع بيوتر راكضاً لاحضار العربة، بينما جلس كلا الخصمين على الارض ولزما الصمت. حاول بافل بتروفيتش أن لا ينظر إلى بازاروف، فلم يكن راغبا في التصالح معه رغم كل شيء. كان خجلا من غطرسته ومن اخفاقه. كان خجلا من هذه البدعة التي اختلقها مع أنه كان يشعر بانها لن

---

(٦٦)– في الأصل بالفرنسية Verige.

تنتهي على نحو أفضل مما انتهت إليه. وراح يهدئ نفسه: «لن يبقى هنا على الاقل، والحمد لله». استمر الصمت ثقيلا مرهقا. وكان كلاهما في حال سيئة. السرور لدى الاصدقاء، ولكنه غير مريح مطلقاً للخصوم، وخصوصا عندما لا تمكن تسوية الأمر ولا الافتراق.

سأل بازاروف أخيراً:

– هل آلمك التضميد؟

– كلا، لا بأس، رائع – اجاب بافل بتروفيتش، ثم اضاف بعد قليل:
– لن نستطيع خدع أخي، ولا بد من اخباره بأننا تحارشنا بسبب السياسة.

فقال بازاروف:

– حسنا جدا. بوسعك أن تخبره بأني شتمت جميع الموالين للانجليز وكان هذا هو سبب المبارزة.

– طيب. ما الذي يظنه بنا هذا الشخص، على حد اعتقادك؟ – واصل بافل بتروفيتش كلامه مشيرا إلى نفس ذلك الفلاح الذي اقتاد الحصانين المعقلين حيال بازاروف لبضع دقائق قبل المبارزة، ثم عاد في نفس الطريق ورفع قبعته عندما رأى «السيدين». فأجاب بازاروف:

– من يدري؟!. أنه لا يظن شيئا، على الاغلب. فالفلاح الروسي هو ذلك المجهول الخفي الذي تحدثت عنه كثيرا السيدة رادكليف في زمان ما. فمن الذي يفهمه؟ أنه هو لا يفهم نفسه.

– آ! هذا هو رأيك؟! – طفق بافل بتروفيتش يتكلم، ولكنه هتف فجأة: – انظر، ماذا فعل صاحبك الابله بيوتر! ها هو أخي قادم إلى هنا!

التفت بازاروف فرأى نيكولاي بتروفيتش بوجهه الشاحب جالسا في العربة. قفز من العربة قبل أن تتوقف وهرع إلى أخيه. وقال بصوت متهدج:

– ما يعني ذلك؟ يا يفغيني فاسيليفيتش، قل لي من فضلك ما هذا؟

فأجاب بافل بتروفيتش:

– لا شـيء، عبثا اقلقوك. لقـد تناقشنا قليلا أنا والسيد بازاروف، وقد دفعت الثمن أنا بعض الشيء.

– لأي سبب حدث ذلك، بالله عليكما؟

– كيـف لي أن أوضح الأمر؟ السيد بـازاروف تحدث بغير احترام عن السيد روبرت بيل. وأضيف فورا بأني أنا وحدي المذنب في كل شيء، فأنا الذي تحديته وقد تصرف السيد بازاروف تصرفا ممتازا.

– هذا دم، كيف؟!

– وهـل كنـت تظن أن ماء يجـري في عروقي؟ هـذا الفصاد نافع لي. أليـس كذلـك يا دكتـور؟ ساعدني في ركـوب العربة ولا تجعـل الافكار السوداء تسيطر عليك. فسوف اشفى غدا. هكذا. رائع. تحرك يا حوذي.

سار نيكولاي بتروفيتش وراء العربة. وكاد بازاروف يتخلف... فقال له نيكولاي بتروفيتش:

– ارجوك أن تعتني بأخي إلى أن يأتي إلينا من المدينة طبيب آخر.

طأطأ بازاروف رأسه صامتا.

وبعـد ساعـة كان بافل بتروفيتـش راقدا على السريـر ورجله مضمدة بمهـارة. عم الهـرج والمرج الـدار. واصيبـت فينيتشكا بالـدوار. وكان نيكـولاي بتروفيتـش يتـألم في السـر، بينمـا راح اخوه يضحـك ويطلق النـكات، وخصوصـا مع بازاروف. وقد ارتدى قميصـا قطنيا خفيفا مع سـترة الصباح الانيقة وطربوش. لم يسمـح بانزال ستائر النوافذ واعرب على نحو طريف عن اسفه لضرورة الامتناع عن تناول الطعام.

ولكـن حرارته ارتفعت أثناء الليـل، وانتابه الصداع. وصل طبيب من

المدينـة. (لم يستمع نيكـولاي بتروفيتش إلى نصيحة اخيـه بعدم استدعاء الطبيـب. ثم أن بـازاروف نفسه اراد ذلك، كان قد قبـع في غرفته طوال النهـار مصفرا حانقـا و لم يغادرها إلا ليعود المريضـ لامد قصير. صادف فينيتشـكا مرتين، بيد أنها كانت تهرب منه مرتعبة). نصح الطبيب الجديد المريض بتناول اشربـة مرطبة، وأكـد بالمناسبة، رأي بـازاروف من أنه لا يتوقع أي خطر. وقـال له نيكولاي بتروفيتش أن أخاه جرح نفسه بسبب قلة حـذره. فأجاب الدكتـور: «هيه!»، ولكنه اضـاف، عندما تسلم في الحـال خمسة وعشرين روبلا من الفضة: «حقا! هذا أمر غالبا ما يحدث، بالضبط».

لم يخلـع أحد في الدار ملابسه و لم ينم. كان نيكولاي بتروفيتش يتردد على أخيه بين الفينـة والفينة سائرا على اطراف اصابعه، ويخرج منه على اطـراف أصابعه أيضاً كانـت تنتاب ذاك الغيبوبـة أو يئن بخفوت ويقول لـه بالفرنسية (نامـوا)[٦٧]، ويطلب شرابا. وقد رجـا نيكولاي بتروفيتش فينيتشكا مرة أن تحمل إليه قدحا من شراب الليمون فحدق بافل بتروفيتش فيها وتجرع القدح حتى الثمالة. وعند الصباح اشتدت حرارته قليلا وانتابه هذيان خفيف. في بادئ الأمر تلفظ بافل بتروفيتش بكلمات غير مترابطة، ثم فتح عينيه فجأة، وقال عندما رأى أخاه قرب السرير منحنيا عليه بعناية:

– ألا ترى، يا نيكولاي، أن فينيتشكا تشبه نيللي بعض الشبه؟

– من هي نيللي هذه، يا بافل؟

– كيف تسأل من هي؟ أنها الأميرة ر... وخصوصاً في القسم العلوي من الوجه. (من نفس القبيل)[٦٨].

---

(٦٧)– في الأصل بالفرنسية Couchez–vous.

(٦٨)– في الأصل بالفرنسية C'est de la meme famille.

لم يحر نيكولاي بتروفيتش جوابا، بل تعجب في سره من حيوية العواطف القديمة لدى الإنسان. وفكر: «ها انبجست بعد كل هذا الزمان».

وقال بافل بتروفيتش بأنين وهو يضع يديه وراء رأسه كئيبا:

- آه كم أحب هذا الكائن الفارغ! - ثم تمتم بعد عدة لحظات: - لن اسمح لأي شخص وقح أن يتجرأ على المساس...

تنهد نيكولاي بتروفيتش، فلم يكن يدرك من يعني أخوه بهذه الكلمات.

جاءه بازاروف في الساعة الثامنة من اليوم التالي. وقد اتسع له الوقت كي يجمع حاجياته ويطلق سراح ضفادعه وحشراته وطيوره كلها.

فقال نيكولاي بتروفيتش وهو ينهض لاستقباله:

- جئت لتودعني؟

- بالضبط يا سيدي.

- أنني افهمك واستحسن تصرفك تماما. فأخي المسكين مذنب، طبعا. وقد تلقى جزاءه. وقال لي بنفسه أنه وضعك في موقف يستحيل معه أن تفعل غير ما فعلت. أنا واثق من أنك لم تستطع أن تتحاشى هذه المبازة التي... التي تعزى بقدر ما إلى مجرد التناحر المستمر بين نظرتيكما المتبادلتين (أخذ نيكولاي بتروفيتش يخلط بين الكلمات). أن أخي إنسان من الطراز القديم، وهو عنيد سريع الغضب... والحمد لله على هذه النهاية. ثم أني اتخذت كل الاجراءات اللازمة لتلافي اشاعة...

فقال بازاروف باستهانة:

- سأترك لك عنواني فيما إذا حدثت ورطة.

- آمل أن لا تقع أية ورطة يا يفغيني فاسيليفيتش... ويؤسفني جدا أن

وجودك في داري قد انتهت... عفوا، قد انتهى على هذا النحو. ومما يزيد في اسفي أن اركادي...

– انني سأراه لا بد – اعترض بازاروف الذي تثير فيه كل انواع «التوضيحات» و «الاعتذارات» دوما شعورا بنفاد الصبر – وفي حالة العكس ارجوك أن تبلغه تحياتي واعتذاري.

– وأنا ارجوك... – اجاب نيكولاي بتروفيتش مطاطئا رأسه. ولكن بازاروف لم ينتظر ختام عبارته فانصرف.

عندما عرف بافل بتروفيتش باستعداد بازاروف للسفر اعرب عن رغبته في أن يراه ويشد على يده. إلا أن بازاروف ظل هذه المرة أيضا باردا كالجليد. فهو يعلم أن بافل بتروفيتش يريد أن يظهر بمظهر النبل. و لم يتسن لبازاروف أن يودع فينيتشكا. فقد تبادل معها النظرات فقط عبر النافذة. وبدا له محياها كئيبا. فقال في سره: «ستهلك على الاغلب!.. ولربما ستنجو على نحو ما». أما بيوتر فقد تأثر لدرجة كبيرة حتى صار ينتحب على كتف بازاروف إلى أن خفف عليه هذا بسؤاله «عما إذا كانت دموعه قد انهمرت أم لا»، في حين اضطرت دونياشا للالتجاء إلى الاجمة كي تخفي انفعالها. ارتقى المسؤول عن كل هذه الآلام عربة النقل واشعل سيجارا. عندما تماثلت أمام عينيه لآخر مرة عند منعطف الطريق، ضيعة كيرسانوف الممتدة بخط واحد مع دارها الجديدة اكتفى بازاروف بأن بصق وتمتم: «ارستقراطيون ملاعين» وتلفف بمعطفه على نحو اوثق.

سرعان ما تحسنت صحة بافل بتروفيتش، ولكنه اضطر لملازمة الفراش حوالي أسبوع. وقد تحمل الاسر، على حد تعبيره، بصبر واناة، بيد أنه افرط في الاهتمام بالزينة وطلب مرارا أن يرش بالكولونيا. كان نيكولاي بتروفيتش يقرأ له المجلات، بينما استمرت فينيتشكا على خدمته كالسابق، حيث كانت تحمل اليه المرق وشراب الليمون والبيض البرشت

والشـاي، ولكن رعبا خفيا كان ينتابها كلما دخلـت غرفته. فأن تصرف بافـل بتروفيتش غير المتوقع قد ارعـب كل من في الدار، وارعبها هي أكثر الجميع. وظل بروكوفيتشـ هو الشخص الوحيد الذي لم يضطرب وراح يقـول أن الأسياد في زمانه أيضاً كانوا يتبارزون. «كان السادة النبلاء فقط يتبارزون فيما بينهم. أمـا أمثال هؤلاء السفلة فكانوا يأمرون بمعاقبتهم في الاسطبل لقاء خشونتهم».

لم تتعرض فينيتشكا لتأنيب الضمير تقريبا، إلا أن فكرة السبب الحقيقي للنزاع كانت تعذبها بين الحين والآخر. ثم أن بافل بتروفيتش يسلط عليها نظرات غريبـة... بحيث كانت تشعر بعينيه تحدقان فيها حتى عندما تدير لـه ظهرها. وقد اصابهـا الهزال بسبب القلق الداخلـي الذي لا يفارقها، واصبحت، كما هي العادة، أكثر رقة وجمالا.

ذات صبـاح كان بافل بتروفيتش في حالـة جيدة فانتقل من السرير إلى الاريكـة، بينما توجه نيكـولاي بتروفيتش إلى البيدر بعـد ان استفسر عن صحتـه. حملـت فينيتشكا قدح الشـاي ووضعته علـى الطاولة وهمت بالخروج. لكن بافل بتروفيتش اوقفها قائلا:

– لم أنت مستعجلة يا فينيتشكا؟ عندك شغل آخر؟

– كلا... أجل يا سيدي ينبغي أن نصب الشاي هناك.

– ستصبه دونياشا بدونـك. أنا مريض فاجلسي معي قليلا. وبالمناسبة فأنا أريد التحدث إليك.

جلسـت فينيتشكا صامتة على المقعد. فقال بافل بتروفيتش وهو يمسد شاربه:

– اسمعـي، منذ زمان اردت أن أسألـك: يخيل الي أنك تخافين مني. حقا؟

– أنا يا سيدي؟

– نعم، أنت. أنك لا تنظرين إلي ابدا وكأنما لست بريئة.

احمرت فينيتشكا، ولكنها نظرت إلى بافل بتروفيتش الذي بدا لها غريبا بعض الشيء. فارتجف قلبها قليلا. وسألها هو:

– أنت بريئة أليس كذلك؟

فهمست هي:

– لم لا؟

– من يدري؟! وعلى كل حال، فازاء من يمكن أن تكوني مذنبة؟ ازائي أنا؟ أمر غير معقول. أزاء أشخاص آخرين في المنزل؟ شيء غير ممكن أيضا. لم يبق إلا أخي، ولكنك تحبينه، أليس كذلك؟

– أحبه.

– بكل روحك وفؤادك؟

– أنني أحب نيكولاي بتروفيتش بكل فؤادي.

– حقا؟ انظري الي يا عزيزتي (هذه هي المرة الأولى التي يخاطبها فيها بهذه الصيغة...) أنت تعلمين أن الكذب خطيئة كبرى!

– أنني لا أكذب، يا بافل بتروفيتش. كيف لي أن لا أحب نيكولاي بتروفيتش؟ أنني لست بحاجة إلى الحياة بدونه!

– ولن تستبدليه بأحد؟

– بمن استطيع أن استبدله؟

– من يدري؟ لنفرض، بهذا السيد الذي ارتحل من هنا.

نهضت فينيتشكا:

– يا الهي! لماذا تعذبونني يا بافل بتروفيتش؟ ما الذي فعلته لكم؟ كيف يمكن قول ذلك؟..

فقال بافل بتروفيتش بصوت حزين:

– فينيتشكا، لقد رأيت...

– ما الذي رأيتموه يا سيدي؟

– هناك... في التعريشة.

احمرت فينيتشكا حتى الشعر، حتى الاذنين. وقالت بصعوبة:

– ما ذنبي في ذلك؟

فنهض بافل بتروفيتش قليلا:

– ألست مذنبة؟ كلا؟ أبدا؟

– أنني أحب نيكولاي بتروفيتش وحده في هذا العالم وسأحبه إلى الأبد: – قالت فينيتشكا بقوة مفاجئة، بينما اختنقت بعبراتها، – أما ما رأيتموه فسأقول في يوم القيامة بأني لم أكن مذنبة فيه أبدا. ومن الأفضل أن أموت الآن ما دامت تحوم حولي الشبهات والظنون بأني اكفر بنعمة نيكولاي بتروفيتش...

إلا أن صوتها خانها هنا، واحست في الوقت ذاته بان بافل بتروفيتش أخذ يدها وشد عليها... نظرت إليه وتجمدت على تلك الحال. لقد غدا أكثر شحوبا من السابق، وكانت عيناه تلمعان. والاغرب من ذلك أن دمعة وحيدة ثقيلة انحدرت على خده. ثم قال بهمس وحنان:

– فينيتشكا! احبي أخي، احبيه! أنه إنسان في منتهى الطيبة! ولا تخونيه من أجل أي شخص في الكون، ولا تسمعي كلاما من أي كان! فكري أنت: ما افظع أن يحب المرء دون أن يكون محبوبا! لا تتركي أبدا أخي المسكين نيكولاي!

جفت دموع فينيتشكا وفارقها الخوف من أثر دهشتها العظيمة. ولكن ما أشد ما ارتعبت عندما الصق بافل بتروفيتش، بافل بتروفيتش

نفسه، يدها إلى شفتيه وانحنى عليها، لا ليقبلها، بل ليتنهد مرتعشا بين الفينة والأخرى.

«يا الهي! هل اصابته نوبة؟..» - فكرت في نفسها بينما نبضت فيه أثناء تلك اللحظة حياته الموات كلها.

صر السلم تحت خطوات سريعة... فدفعها بعيدا عنه والقى برأسه على الوسادة. فتح الباب فظهر نيكولاي بتروفيتش مرحا غضا مورد الخدين. وكان ميتيا الغض المتورد كأبيه يتراقص على صدره في قميص لا غير، وتشتبك رجلاه العاريتان بالازرار الكبيرة لمعطف ابيه الريفي.

هرعت إليه فينيتشكا على الفور وطوقته مع ميتيا بيديها ومال رأسها على كتفه. دهش نيكولاي بتروفيتش: فأن فينيتشكا المتواضعة الخجول لم تكن تلاطفه مطلقا بحضور شخص ثالث.

- ماذا دهاك؟ - سألها والتفت إلى أخيه وهو يسلمها ميتيا. ثم اقترب من بافل بتروفيتش وقال مستفسرا:

- هل ساءت حالتك؟

فدس هذا وجهه في المنديل القطني وقال:

- كلا... بالعكس، حالتي أفضل بكثير.

- عبثا استعجلت في الانتقال إلى الاريكة - قال نيكولاي بتروفيتش، ثم اضاف ملتفتا إلى فينيتشكا: - إلى أين أنت؟ - ولكنها كانت قد صفقت الباب خارجة - جئت لاريك طفلي العملاق. لقد اشتاق إلى عمه. فلماذا أخذته هي؟ ولكن ماذا دهاك؟ هل حدث بينكما شيء؟

فقال بافل بتروفيتش بصيغة مهيبة:

- يا أخي!

ارتعش نيكولاي بتروفيتش مرتعبا دون أن يعرف السبب. فكرر باڤل بتروفيتش قوله:

– يا أخي، اقطع عهداً بأنك ستنفذ طلبا لي.

– أي طلب؟ قل.

– أنه طلب هام جدا، عليه تتوقف، كما اعتقد، سعادة حياتك كلها. طوال هذا الوقت كنت أفكر كثيراً بما اريد أن أقوله لك الآن... أخي أد واجبك، واجب الإنسان النزيه النبيل، وضع حدا للغواية والقدوة السيئة من جانبك، وأنت من أفضل الناس!

– ما الذي تعنيه يا باڤل؟

– تزوج من فينيتشكا رسميا... أنها تحبك، وهي أم لابنك.

تراجع نيكولاي بتروفيتش خطوة وصفق يدا بيد.

– أهذا أنت الذي يقول ذلك؟ أنت باڤل الذي كنت اعتبره دوما ألد خصم لهذا النوع من الزواج! أهذا أنت الذي يتكلم؟ إلا تعلم بأن الشيء الوحيد الذي منعني من أداء ما وصفته أنت محقا بواجبي أنما هو احترامي لك؟!

– عبثا كنت تحترمني اذن – اعترض باڤل بتروفيتش بابتسامة كئيبة – أكاد اعتقد بأن بازاروف محق عندما لامني على النزعة الارستقراطية. كلا، يا أخي العزيز، كفانا تظاهرا وتفكيرا بالمجتمع الراقي: فقد غدونا كهولا متواضعين، وحان الوقت لكي نضع جانبا كل الهموم الباطلة، ونؤدي واجبنا بالذات، كما تقول أنت. وسوف ترى أننا سنلقي السعادة فضلا عن ذلك.

هرع نيكولاي بتروفيتش ليعانق اخاه هاتفاً:

– لقد فتحت عيني نهائياً! وليس عبثا أني كنت أؤكد دوما بأنك

اطيب واذكى إنسان في العالم. وأنا أرى الآن أن حلمك يضاهي نبلك.

فقاطعه بافل بتروفيتش:

– علـى مهلك، على مهلك. لا تدعس رجل أخيك الحليم الذي تبارز وهـو في الخمسين من العمر تقريبا كما يفعل ملازم ثان. هكذا اذن، تقرر الأمر: ستكون فينيتشكا... (عديلة لي)[٦٩].

– آه، يا عزيزي بافل! ولكن ماذا سيقول اركادي؟

– اركادي؟ مـا عساه أن يقول؟! سيفـرح. أنه لا يؤيد الزواج، ولكنه سيسـر للشعور بالمسـاواة. وبالفعل فما الداعي للتفرقـة (في القرن التاسع عشر)[٧٠]؟

– آه، بافل، بافل! دعني اقبلك مرة أخرى. ولا تخف فسأكون حذرا.

تعانق الشقيقان. ثم سأل بافل بتروفيتش:

– ماذا ترى، إلا يتعين اخبارها بنيتك في الحال؟

فاعترض نيكولاي بتروفيتش:

– ما الداعي للعجلة؟ فهل دار بينكما حديث بهذا الخصوص؟

– حديث بيننا؟ (ما هذه الفكرة؟)[٧١]

– طيـب. ينبغي أن تشفـى أولا، أما هذه القضية فليسـت آنية. ينبغي التفكير في الأمر جيدا...

– ولكنك صممت، أليس كذلك؟

(٦٩) في الأصل بالفرنسية belle-sceur.

(٧٠) في الاصل بالفرنسية au dix-neuvième siècle.

(٧١) في الأصل بالفرنسية Quelle idée.

- طبعـا. صممت. وأنا ممتن لك من الفـؤاد. سأتركك الآن، إذ ينبغي أن ترتاح، فأن أي انفعال يؤذيك... ولكننا سنتحدث في الأمر فيما بعد. حاول أن تغفو، يا حبيبي، والله يعافيك!

فكـر بافل بتروفيتش عندما ظل لوحده: «لماذا يشكرني؟ وكأنما لم يكن ذلـك متوقفا عليه هو! أما أنا فسأرتحل، حالمـا يتزوج، إلى مكان ما بعيد، إلى درزدن أو فلورنسة، وسأظل هناك إلى أن افطس».

بلل بافل بتروفيتش جبهته بالكولونيا واغمض عينيه. كان رأسه الجميل النحيل المضـاء بنور النهار الساطـع مستقرا على الوسـادة البيضاء كرأس جثة... بل كان هو جثة هامدة في الواقع.

٢٥

في ظـل شجـرة دردار باسقة في بستـان نيكولسكويـه جلست كاتيا مـع اركادي علـى مصطبـة معشوشبـة، وعلـى الأرض قربهمـا ربضت الكلبـة فيفي ولوت جسمها الطويـل على نحو رشيق بالشكل الذي ينعته الصيـادون «برقدة الارنب». لزم اركادي الصمت وكذلك كاتيا. امسك بكتاب مفتوح بالـكاد، في حين راحت هي تلتقط من السلة ما تبقى فيها من فتات الرغيف الأبيض وتلقي به إلى مجموعة صغيرة من العصافير كانت تتقافـز وتزقزق بمـا يلازمها من تهور وجبن عند قدميهـا تماما. كان نسيم خفيـف يداعب أوراق الدردار ويحرك بهدوء بقعا ضوئية ذهبية باهتة إلى قـدام وإلى وراء في الممشـى القائم وعلى ظهر فيفـي الاصفر. وكان ظل متـوازن ينسكب علـى اركادي وكاتيا. ومن حين لآخـر يلمع شريط من الضوء الساطـع في شعرها. لزما الصمت، ولكـن تقاربا مطمئنا تجلى في صمتهمـا وفي هيئة جلوسهما معا: كان كل منهمـا كأنما لا يفكر بجاره، ولكنـه مسرور في الخفاء لقربه منه. تغير محياهمـا منذ أن رأيناهما في آخر

مرة: فقد بدا اركادي أكثر هدوءا، بينما بدت كاتيا أكثر حيوية وجرأة.

ثم تحدث اركادي:

- الا ترين أن الدردار اسم على مسمى؟! فليس هناك شجرة تضاهيها في خفتها وشفافيتها.

رفعت كاتيا بصرها إلى أعلى وقالت: «أجل»، بينما فكر اركادي في نفسه: «أنها لا تلومني، مثل بازاروف، على كلامي الجميل». ثم قالت كاتيا مشيرة من عينيها إلى الكتاب في يد اركادي:

- لا أحب هايني عندما يضحك ولا عندما يبكي. أنني أجبه عندما يغرق في التأملات والاحزان.

- أما أنا فأحبه عندما يضحك. - قال اركادي.

- تلك آثار قديمة من اتجاهك الساخر... (ففكر اركادي: «آثار قديمة! ماذا لو سمع بازاروف ذلك!») تمهل قليلاً، وسوف تغير آراءك.

- من يغير آرائي، أنت؟

- أختي، وبورفيري بلاتونيتش الذي لم تعد تتشاجر معه، وخالتي التي رافقتها إلى الكنيسة أول أمس.

- ما كان بوسعي أن ارفض! أما آنا سيرغييفنا فهي نفسها، كما تتذكرين، كانت متفقة مع يفغيني في أمور كثيرة.

- كانت أختي آنذاك متأثرة به مثلك تماماً.

- آنذاك؟ مثلي؟ هل لاحظت أنني صرت اتخلص من تأثيره؟

لاذت كاتيا بالصمت، فواصل اركادي كلامه:

- اعرف أنه لم يعجبك بتاتاً.

- ليس بوسعي أن أحكم عليه.

– هـل تعلمين، يا كاتيا، بأنني كل مرة اسمـع فيها هذا الجواب لا أثق بـه؟.. فليس هناك إنسـان لا يستطيع كل منا أن يحكـم عليه! ذلك مجرد تملص.

– أقـول لك الحقيقـة... لا أستطيع القول بأنـه لا يعجبني... ولكنني أحس بأنه غريب علي وبأني غريبة عليه.. بل وحتى أنت غريب عليه.

– لماذا؟

– كيف اجيب؟.. أنه بري مفترس، بينما نحن أليفون.

– وأنا أليف أيضاً؟

اومأت كاتيا برأسها ايماءة ايجاب.

فحك اركادي ما وراء اذنه وقال:

– اسمعي، يا كاتيا، ذلك في الواقع أمر مغيظ.

– هل تريد أن تكون مفترساً؟

– كلا، ولكنني أرغب أن أكون نشيطاً شديد البأس.

– هـذا أمـر لا يخضع للرغبة... صديقك، مثـلا، لا يرغب في ذلك، ولكنه موجود فيه.

– احـم! أنـت تعتقدين بأنه أثر علـى آنا سيرغييفنا تأثـيراً كبيراً، أليس كذلك؟

– بلـى. ولكن لا أحد يستطيع أن يغلبهـا لأمد طويل – اضافت كاتيا بصوت خافت.

– لماذا تظنين ذلك؟

– انفتهـا شديدة... كلا، ليس ذلك ما اقصده... أنها تعتز باستقلالها غاية الاعتزاز.

– فمن لا يعتز به؟ – قال اركادي وفكر: «وما نفعه؟». وفكرت كاتيا أيضاً: «وما نفعه؟». أن أفكاراً متماثلة تتبادر دوماً إلى أذهان الشباب الذين كثيراً ما يلتقون بود.

ابتسم اركادي، واقترب قليلاً من كاتيا، فقال همساً:

– أنك تخافين منها بعض الشيء، أليس كذلك؟ اعترفي.

– ممن؟

– منها – كرر اركادي بلهجة ذات وزن.

– وأنت؟ – سألته كاتيا بدورها.

– وأنا أيضاً. لاحظي، قلت: وأنا أيضاً.

هددته كاتيا بسبابتها قائلة:

– ذلك يثير دهشتي. فأن اختي لم تكن تميل إليك في أي وقت أفضل مما هي الآن. أنها تميل إليك أكثر بكثير مما في زيارتك الأولى.

– حقا؟!

– ألم تلاحظ ذلك؟ ألا يبعث السرور فيك؟

تفكر اركادي قليلا ثم قال:

– ما الذي جعلني استحق عطف آنا سيرغييفنا؟ هل السبب أني احضرت لها رسائل والدتك؟

– أجل. وهناك أسباب أخرى لن أقولها لك.

– لماذا؟

– لن أقولها.

– آه! اعرف ذلك. أنك عنيدة جداً.

- أجل، عنيدة.

- وشديدة الملاحظة.

القت كاتيا على اركادي نظرة جانبية.

- ربما يثير ذلك غضبك؟ بم تفكر؟

- من أين لك هذه القابلية على الملاحظة الشديدة الموجودة لديك فعلاً؟! أنك ترتعبين لابسط الأمور ولا تثقين بأحد وتتحاشين الجميع...

- عشت لوحدي أمداً طويلاً، لذا صرت اطيل التأمل. ولكن هل أنا اتحاشى الجميع قاطبة؟

القى اركادي نظرة ممتنة على كاتيا. وواصل كلامه:

- ذلك شيء رائع. ولكن الناس في مثل حالتك، أريد أن اقول الذين يمتلكون ما تمتلكين، نادراً ما يتمتعون بهذه الموهبة. فالحقيقة يصعب عليها أن تصل إليهم، كما يصعب عليها أن تصل إلى القياصرة.

- ولكنني لست غنية.

استغرب اركادي قولها و لم يفهم في الحال. وخطرت على باله فكرة: «حقاً، فالضيعة كلها تعود لاختها!». و لم تكن هذه الفكرة مريرة بالنسبة له. فقال:

- ما أحسن لهجة قولك هذا!

- ماذا؟

- قلت ذلك بأطيب وابسط شكل دون خجل ولا تباه. وبالمناسبة فأنا أتصور أن الإنسان الذي يعلم ويقول أنه فقير ينبغي أن ينطوي على شيء خاص، على بعض الغرور.

- أنني لا أشعر بشيء من ذلك بفضل أختي. و لم أشر إلى حالتي المادية إلا لأن الحديث ساقني إلى ذلك.

– حسناً. ولكن اعترفي، أليس لديك شيء من الغرور الذي ذكرته تواً.

– مثلا؟

– مثـلا، استميحك عـذرا على سؤالي: أنك لـن تتزوجي من شخص غني، أليس كذلك؟

– إذا وقعـت في هـواه... كلا، يخيل الي أنني لـن أتزوج منه حتى إذا وقعت في هواه.

– هكـذا اذن – هتـف اركادي، ثـم أضـاف بعد برهـة: – ما الذي يجعلك ترفضين الزواج منه؟

– حتى الاغنية تتحدث عن عدم التكافؤ.

– ربما تريدين التسلط، أم...

– كلا! مـا الداعي لذلـك؟ بالعكس، أنني على استعـداد للانصياع، ولكـن عدم التكافؤ شيء ثقيل. أمـا الانصياع المقترن باحترام النفس فأمر مفهوم، أنه السعادة. ولكن حالة الخضوع والتبعية... كلا فأنا غارقة فيها.

– غارقـة فيها... – كرر اركادي قـول كاتيا وواصل كلامه: – أجل، أجـل. ليس عبثاً أنك وآنا سيرغييفنا من صلب واحد. فأنت مستقلة مثلما هـي. ولكنك أكثر انطواء. أنا واثق من أنك لـن تبادري أبداً إلى الاعراب عن مشاعرك مهما كانت عميقة ومقدسة...

– وكيف يكون الأمر على غير ذلك؟ – سألت كاتيا.

– أنكمـا على نفـس القدر من الفطنـة. ولديك نفس القـدر من قوة الطباع كما لديها، أن لم أقل أكثر منها...

– لا تقـارن بيني وبين أختي من فضلـك – قاطعته كاتيا على عجل – فذلك ليس بصالحي أبداً. يبـدو وكأنك قد نسيت أن أختي حسناء ذكية. ولا يجدر بك، أنت يا اركادي نيكولايفيتش على الخصوص... أن تقول

مثل هذه الكلمات، وبمثل هذه الملامح الجادة.

– مـاذا تعنين بقولـك: لا يجدر بي على الخصوصـ؟ وما الذي يجعلك تعتقدين بأني امزح؟

– أنت تمزح طبعاً.

– حقـاً؟ ولكن ماذا لو كنـت واثقاً مما أقول: وماذا لو كنت أعتقد بأني لم اعبر عن ذلك بعد بالشكل اللازم؟!

– أنني لا أفهمك.

– حقـا؟ هـا أنـا ارى الآن بأنني بالغت كثـيراً في امتـداح قدرتك على الملاحظة.

– كيف؟

لم يجب اركادي بشيء واشاح بوجهه، بينما وجدت كاتيا في السلة قليلا مـن فتـات الرغيف وراحت تلقي به إلى العصافـير. إلا أن حركة يدها كانت شديدة، فصارت العصافير تطير بعيداً قبل أن يتسنى لها أن تلتقط الفتات.

وقال اركادي فجأة:

– كاتيـا! ربما لن تعبـأي بما سأقـول. ولكن اعلمي بأني لـن استبدلك لا باختك ولا بأي كان في هذا العالم.

ثم نهضـ وابتعد مستعجلاً، كمـا لو كان قد ارتعب مـن الكلمات التي افلتها لسانه.

أمـا كاتيا فقد تراخت كلتا يديها وهوتا مع السلة على ركبتيها، وطأطأت رأسهـا وراحت تنظر طويـلاً إلى الجهة التي انصرف إليهـا اركادي. ظهرت بوادر الحمرة القانية على وجنتيها، لكن الابتسامة لم تعرف سبيلها إلى شفتيها، وكانت عيناها تعبران عن الحيرة وعن شعور آخر لا يزال غير معروف الهوية.

ودوى قربها صوت آنا سيرغييفنا:

– أنت لوحدك؟ خيل الي أنك توجهت إلى البستان مع اركادي.

حولت كاتيا نظرتها على مهل إلى اختها (التي وقفت على الممشى بملابسها الانيقة، بل الفاخرة، وراحت تداعب اذني فيفي بطرف مظلتها المفتوحة) وقالت على مهل أيضاً: – لوحدي.

– ارى أنك – اجابت تلك ضاحكة – يبدو أنه ذهب إلى غرفته.

– أجل.

– هل كنتما تقرآن معا؟

– أجل.

لامست آنا سيرغييفنا ذقن كاتيا ورفعت وجهها قليلاً: – ألم تتشاجرا؟

– كلا. أجابت كاتيا وازاحت يد اختها برفق.

– ما هذه اللهجة المهيبة في الجواب؟! ظننت أني سأجده هنا لاقترح عليه أن يتمشى معي. فقد طلب مني ذلك مراراً. احضروا لك حذاء من المدينة، اذهبي وقيسيه. فقد لاحظت يوم أمس أن احذيتك القديمة قد بليت كلياً. وأنت على العموم لا تولين ذلك ما يستحقه من اهتمام، بينما لديك ساقان رائعتان! ويداك حلوتان أيضاً... ولكنهما كبيرتان، لذا ينبغي الاستفادة من الساقين، ولكنك لست لعوباً.

واصلت آنا سيرغييفنا سيرها على الممشى بحفيف ينبعث من فستانها الجميل. نهضت كاتيا من المصطبة والتقطت هايني وذهبت أيضاً، ولكن لا لكي تقيس الحذاء.

فكرت في نفسها وهي ترتقي ببطء وخفة درجات سلم الشرفة الحجري الذي سخنته الشمس: «ساقان رائعتان. تقولين: ساقان رائعتان... وسوف يقع عندهما».

واعتراها الخجل في الحال فصعدت راكضة برشاقة. اجتاز اركادي

الـرواق متجهـاً إلى غرفتـه، فلحق بـه كبير الوصفـاء وافاد بـأن السيد بازاروف ينتظره فيها.

فتمتم اركادي وكاد الرعب يستولي عليه:

– يفغيني؟ هل وصل من زمان؟

– وصـل تواً وأمر بـأن لا أخبر آنا سيرغييفنا عنـه. طلب أن أوصله إليكم مباشرة.

«مـاذا؟ هل حلت بأهلي مصيبة ما؟» – فكر اركادي، وركض على السلـم مستعجلاً وفتح الباب في الحـال. كان منظر بازاروف قد جعله يهـدأ فـوراً، مع أن العين الثاقبة بوسعها، على مـا يبدو، أن تستشف في الهيئـة النحيلة للضيف غير المنتظر وفي ملامحـه النشيطة كالسابق علائم الاضطـراب الداخلي. كان جالساً على رف النافذة وعمرته على رأسه ومعطفـه المغـبر على كتفيـه. و لم ينهض حتى عندما هـرع إليه اركادي وعانقه بصخب واستغراب.

– لم اتوقـع مجيئـك مطلقاً! ما الذي دفعك؟! – كـرر اركادي وهو يجـول في الغرفة كما لـو كان يتصور نفسه مسـروراً وراغباً في اظهار سروره – كل شيء عندنا على ما يرام؟ وهل الجميع بخير؟

– كل شـيء عندكم على مـا يرام، ولكن ليس الجميـع بخير – تمتم بـازاروف – كفـاك هـذراً، اطلب لي عصـيراً واجلس واستمـع إلى ما سأقوله لك بعبارات قليلة ولكن شديدة الواقع على ما اعتقد.

سكن اركادي، بينما حدثه بازاروف عن مبارزته مع بافل بتروفيتش. دهش اركادي أشد الدهشة، بل وحزن بعض الشيء، لكنه لم ير ضرورة للاعـراب عن ذلك. واكتفى بالسؤال عما إذا كان جرح عمه غير خطر حقـاً. وعندما تلقى الجواب بأن الجرح مثير جداً ولكن ليس من الناحية

الطبيــة، ابتســم على مضض، وانتابــه شيء من الرعــب والخجل. وبدا بازاروف وكأنما قد فهمه، فقال:

– أجــل، يا أخي، تلك عاقبة العيش مــع الاقطاعيين. فالمرء مضطر إلى أن يغــدو مثلهم ويساهم في جــولات الفروسية. – واضاف بازاروف في الختــام – شددت الرحــال إلى «الآباء» وعرجت... لكــي احيطك علماً بذلــك. كان بوسعي أن أقــول شيئاً من هذا القبيل لــولا أني اعتبر الكذب بلا جــدوى حماقة. كلا، الشيطان وحده يعلم لماذا... جئت إلى هنا. من المجدي للإنسان، كما أعتقد، أن يمسك أحياناً بناصيته ويجتث نفسه كما يجتث الفجل من التربة. وهذا ما فعلته أنا مؤخراً... ولكنني رغبت في أن القــي نظرة أخرى على ما افترقت عنــه، على تلك التربة التي كنت غائصا فيها.

فاعترض اركادي قلقاً:

– آمل بأن هذه الكلمــات لا تشملني. آمل بأنك لا تفكر في الافتراق عني.

القى عليه بازاروف نظرة ثاقبة كادت تنغرز فيه:

– هل تعتقد بأن ذلك سيؤلمك؟ يخيل الي أنك نفسك قد فارقتني. أنت على قدر كبير مــن الطراوة والنظافة... لا بد وأن امورك مع آنا سيرغييفنا سائرة على ما يرام.

– أية أمور لي مع آنا سيرغييفنا؟

– أفلــم تصل من المدينة إلى هنا من أجلها يا طائري الصغير؟ وبالمناسبة كيــف حال مدارس الآحاد هناك؟.. مــاذا؟ أفلست متيماً بها؟ أم أنه حان الوقت للتواضع؟

– يفغيني، أنت تعلم بأني كنت على الدوام صريحاً معك. وأؤكد لك، وأقسم بالله، أنك على خطأ.

– احـم! كلمة واحـدة. – قال بازاروف بصـوت خافت – لا داعي للغضـب. فذلك أمر لا يعنيني مطلقاً. وبوسع الرومانسي أن يقول: احس بأننا على مفترق الطرق. أما أنا فأقول ببساطة، أننا مللنا بعضنا البعض.

– يفغيني...

– لا ضير في ذلك، يـا حبيبي. في العالم أشياء أكثر قيمة ولكنها تبعث علـى الملل أيضاً! أما الآن، أفلا يجـدر بنا أن نتوادع؟! منذ أن وصلت إلى هنـا أشعر بأني على اسوأ حال، كما لو قرأت المزيد من رسائل غوغول إلى عقلية متصرف كالوغا، وبالمناسبة فأني لم أطلب حل الخيول.

– كيف؟ هذا مستحيل.

– لماذا؟

– ذلـك أقصى حد من عدم اللياقـة ازاء آنا سيرغييفنا التي سترغب في رؤيتك من كل يد. ناهيك عن أثر في نفسي أنا.

– أنك متوهم.

– علـى العكس، أنا واثق منـه – قال اركادي معترضاً – ثم ما الداعي للتصنع؟ وما دمنا بهذا الصدد، أفلم تأت أنت إلى هنا من أجلها؟

– ربما، ولكنك متوهم مع ذلك.

غـير أن اركادي كان علـى حـق. فقد رغبـت آنا سيرغييفنـا في رؤية بـازاروف وبعثت كبير الوصفاء ليدعوه إليهـا. استبدل بازاروف ملابسه قبـل أن يتوجه إليها. واتضح أنه وضـع بدلته الجديدة بين حاجياته بحيث يسهل التقاطها.

استقبلتـه اودينتسوفا في غرفة الاستقبال وليس في الغرفة التي أعرب فيهـا، على نحـو مباغت، عن حبه لهـا. ومدت له بلطـف أصابع يدها، ولكن مسحة من التوتر العفوي كانت عالقة بمحياها.

فعاجلها بازاروف قائلا:

– يـا آنا سيرغيفنا، علـي في المقام الأول أن أهدئـك. فأمامك واحد مـن البشر الفانين أدرك خطأه مـن زمان ويأمل بأن الآخرين أيضاً قد نسوا حماقته. أنني مسافر لامـد طويل، ومع أني لست كائناً رقيق القلب، فمن المحـزن أن احمل معـي فكرة تؤكد لي أنك تتذكرينني باشمئزاز. ألست محقاً؟

تنفسـت آنـا سيرغييفنا الصعـداء كشخص ارتقى لتوه جبـلاً عالياً، وانعشت الابتسامة محياها. مدت يدها لبازاروف مجدداً وصافحته قائلة:

– الويل لمن يتذكر الغيظ الماضي، لا سيما وأني، إذا قلت الحق، أخطأت أنـا أيضاً آنذاك بشيء مـا، أن لم يكن بالتغنج. وباختصـار: فلنبق أصدقاء كالسابق. كان ذلك حلماً، أليس كذلك؟ فمن يتذكر الاحلام يا ترى؟

– من يتذكرها؟ لا سيما وأن الحب شعور متكلف...

– حقا؟ يسرني كل السرور أن اسمع ذلك.

هكذا تكلمت آنا سيرغييفنـا، وهكذا تكلم بازاروف. وفكر كلاهما بأنهما يقولان الحقيقة. فهل كانت كلماتهما تنطوي على الحقيقة، الحقيقة كاملة؟ ذلـك أمر لم يكونا يعلمان به هما، ناهيك عـن المؤلف. بيد أنهما تجاذبا اطراف الحديث وكأنما قد صدقا بعضهما البعض كلياً.

وسألـت آنـا سيرغييفنا بـازاروف، عرضـاً، عما كان يفعلـه عند آل كيرسانـوف. وكاد يحدثها عن مبارزته مع بافـل بتروفيتش، لكنه احجم عن ذلـك خشية أن تظن بأنه يحاول أن يتصنع أمـوراً مثيرة، فأجابها بأنه كان يعمل طوال الوقت. فقالت آنا سيرغييفنا:

– أمـا أنا فقد استولت علـي الكآبة في بادئ الأمر، والله وحده يعرف السبـب، حتى أني صممـت على السفر إلى الخارج. هـل تتصور؟!.. ثم

انقشــع ذلك كله، حيث وصل صديقك اركادي نيكولايفيتش فعدت من جديد إلى حالتي المعتادة، إلى دوري الحقيقي.

– أي دور، يا ترى؟

دور المربيــة والمرشــدة والأم، سمه كيفمــا تشــاء. وبالمناسبة هل تعلم بأننــي في السابق لم أكن أفهم جيداً الصداقــة الحميمة بينك وبين اركادي نيكولايفيتش. كنت أظن بأنه إنسان ليس ذا شأن كبير. أما الآن فقد عرفته علــى نحو أفضــل واقتنعت بأنه ذكــي... والأمر الأهم هــو أنه في ريعان الشباب... ليس مثلنا يا يفغيني فاسيليفيتش.

فسأل بازاروف:

– ألا يزال يتهيب بحضورك؟

– هل كان... – بدأت آنــا سيرغييفنا كلامها، ولكنها تفكرت قليلاً، واضافــت: – أصبح أكثر اطمئنانــاً، وصار يتحدث معي. في السابق كان يتحاشــاني. وبالمناسبــة فأنا أيضاً لم أكــن ابحث عن سبيــل لمعاشرته. فهو وكاتيا صديقان حميمان.

شعــر بــازاروف بالاســف وفكــر في نفســه: «لا يمكن للمــرأة أن لا تحتال!». ثم قال بابتسامة ساخرة فاترة:

– تقولــين أنه كان يتحاشاك. ولكن، على ما يبدو، لم يبق خافياً عليك أنه يحبك، أليس كذلك؟

– ماذا؟ وهو أيضاً؟ – انفلت السؤال من لسان آنا سيرغييفنا.

– وهو أيضاً. – كرر بازاروف بانحناءة وادعة – هل من المعقول أنك لم تكوني تعرفين ذلك، وأني أخبرتك بنبأ جديد؟

غضت آنا سيرغييفنا بصرها وقالت:

– أنت على خطأ يا يفغيني فاسيليفيتش.

– لا أظن. ولكن ربما ما كان يتعين علي أن أذكر ذلك.

ثم أضاف في سره: «ولذا لا تتحايلي بعد الآن».

– لم لا تذكـره؟! لكنني اعتقد بأنك، في هذه الحالة أيضاً، تعلق أهمية كبيرة على الانطباع العابر. ويخيل إلي انك تميل إلى المبالغة.

– من الأفضل، يا آنا سيرغييفنا، أن لا نتحدث عن ذلك.

– لمـاذا؟ – اعترضت عليه، ولكنها حولـت الحديث إلى جانب آخر. كانـت مع ذلك تشعـر بالخجل من بـازاروف، بالرغم مـن أنها قالت له واقنعت نفسهـا بأن النسيان قد طوى كل شـيء. وعندما كانت تتحدث معـه بأبسـط شكل، وحتى عندمـا كانت تمزح معه، شعـرت بأن الخوف يأخذ بخناقها بعض الشيء. فالناس على ظهر الباخرة في البحر، يتكلمون ويضحكـون بلا اكتراث، ويتجاذبون أطـراف الحديث كما على الأرض الصلبـة، ولكنه حالما تتوقف الباخرة للحظة، وحالمـا تظهر أقل اشارة إلى شـيء ما غير معتاد تلوح على جميع الوجوه فـوراً مسحة القلق التي تدل على الاحساس الدائم بالخطر المستمر.

استغـرق حديث آنا سيرغييفنا مع بازاروف أمـداً قصيراً. فقد اخذت تتأمل وصارت تجيب على نحو غير مركز، ثم اقترحت عليه أخيراً الانتقال إلى الصالـة حيث وجدا الاميرة وكاتيـا. فسألت ربة البيت: «أين اركادي نيكولايفيتش؟» وبعثت في طلبه عندمـا علمت بأنه لم يظهر منذ أكثر من ساعة. لم يعثروا عليه في الحال: فقد اعتكف في لجة البستان وجلس غارقاً في أفـكاره مسنداً ذقنـه إلى يديه المتصالبتين. كانت أفـكاره عميقة هامة، ولكن غـير حزينة. كان يعلم أن آنا سيرغييفنا قـد اختلت ببازاروف، فلم يشعر بالغيرة كما في السابق، بل، على العكس، كان وجهه مشرقاً بهدوء، وبدا وكأنه مسرور ومستغرب لشيء ما، ومصمم على أمر ما.

٢٦

مــا كان المرحــوم اودينتســوف يهــوى التجديــد، ولكنــه كان يتقبل «مظاهر الذوق الرفيع»، ولــذا انشأ في بستانه، بين المشتل المدفأ والبركة، بنايــة من القرميــد الروسي تشبــه الــرواق اليوناني القــديم. وعلى الجدار الخلفي الاصم لهذا الرواق أو الكاليري، حفرت ستة محاريب لتماثيل كان اودينتشــوف ينوي جلبها من الخارج. وكان على هذه التماثيل أن تجسد: الانفراد والصمت والتأمل والملنخوليــا والحشمة والحساسية. جلب أحد هــذه التماثيل، وهو تمثال الهــة الصمت واصبعها علــى شفتيها، ونصب في محرابــه. لكن اطفال الخدم كسروا أنف التمثــال في اليوم ذاته. ومع أن الجصاصــ المجــاور اعتزم أن ينحت لــه أنفا «أفضل بمرتــين من السابق»، فقــد أمر اودينتسوف برفعه. ولذا احتــل التمثال مكانه في ركن مستودع الطاحونــة، حيــث ظل هنــاك سنين طويلة يثير الرعــب الوسواسي لدى الفلاحــات. وتغطى الجانب المامي من الرواق بشجيرات كثيفة، فلا يلوح فــوق بحر من الخضرة إلا تيجان الاعمدة. كان الجو في الرواق بارداً حتى في الظهــيرة. ولم تكن آنا سيرغييفنا تهوى الــتردد على هذا المكان منذ أن رأت فيــه أفعى، إلا أن كاتيا غالباً مــا تجلس على المصطبة الحجرية الواسعة المبنية عند أحد المحاريب. كانت، وسط النضارة والظلال، تطالع أو تعمل أو تنســاق للاحساس بالسكون المطبق، ذلــك الاحساس المعروف لكل شخص، على ما يبدو، وتكمن روعته في التوقع الابكم اللاشعوري تقريبا لموجة الحياة العريضة التي تنداح بلا انقطاع حولنا وفي دخيلتنا.

في اليــوم التــالي لوصــول بــازاروف جلســت كاتيا علــى مصطبتها المفضلــة، وجلس اركادي قربها من جديد. فقــد رجاها أن تصطحبه إلى «الكاليري».

بقي على موعد الفطور زهاء الساعة. وحل الضحى اللافح محل الصباح النــدي. وظل محيا اركادي محتفظاً بمسحة الأمس، وكانت كاتيا مهمومة.

فبعد احتسـاء الشاي مباشرة استدعتها اختهـا إلى مكتبها ونصحتها، بعد شيء من الملاطفة التمهيدية (الأمر الذي كان دوماً يخيف كاتيا لدرجة ما) بأن تلتزم الحذر في سلوكها مـع اركادي، وتتحاشى خصوصاً الاحاديث الانفراديـة معـه، مما لاحظته خالتهـا وكل من في الدار كمـا زعمت. زد علـى ذلـك أن آنـا سيرغييفنا كانت معتكـرة المزاج مساء أمسـ، بل وأن كاتيا نفسها كانـت تشعر بالخجل وكأنما اقترفت ذنباً. وعندما لبت طلب اركادي قطعـت علـى نفسها عهدا بأن تلك هي آخـر مرة. وبدأ اركادي كلامه بشيء من الحياء وعدم التكلف في الوقت ذاته:

– كاتيا! منذ أن اسعدني الحظ في التواجد وأياك في دار واحدة تحدثت معك عن أمور كثيرة، بينما ظلت مسألة واحدة هامة جداً بالنسبة لي... لم أتناولها بعد. – ثم أضاف قائلاً وهو يلاحظ ويتحاشى نظرة كاتيا المتسائلة المسلطـة عليـه: – لقد قلت هنا أمسـ أنني تغـيرت. وبالفعل فقد تغيرت لدرجـة كبيرة، وأنت تعرفين ذلـك أفضل من أي إنسـان آخر، فأنا مدين لك، في الواقع، بهذا التغير.

– أنا؟.. لي؟.. – تمتمت كاتيا.

فواصل اركادي كلامه:

– أنني لم أعد غلاماً متعجرفاً كما كنت عندما وصلت إلى هنا. وليس عبثـاً أني بلغـت الثالثة والعشرين. وأنـا لا أزال كالسابق راغباً في أن أعدو إنسانـاً نافعـاً وأن اكرس كل قـواي للحقيقة، ولكننـي لم أعد ابحث عن مثلـي العليا حيثما كنت ابحث عنها في الماضـي. فهي تلوح لي... اقرب بكثير. ولم أكن قبل الآن أفهم نفسي، فقد كنت اتوخى حل مهمات فوق طاقتي... وقد تفتحت عيناي مؤخراً بفضل شعور واحد... أنني لا أتكلم بشكل واضح تماماً، ولكنني آمل بأنك ستفهمينني...

لم تحر كاتيا جواباً، ولكنها كفت عن التحديق في اركادي، وتكلم هو

من جديد بصوت أكثر اضطراباً، في حين واصل شرشور بين أوراق البتولا ترتيل انشودته بلامبالاة:

– أعتقـد أن مـن واجب كل إنسـان شريف أن يكـون صريحاً منتهى الصراحـة مـع الناس الذيـن... مع الذيـن... وباختصار مـع الأشخاص الاعزاء عليه، ولذلك فأني... أني أنوي...

وهنا خانت البلاغـة اركادي، فاضطرب وتلعثم واضطر إلى الصمت قليـلاً. لم ترفع كاتيا بصرها طوال الوقـت. وبدا وكأنها لم تفهم الامَ يقود محدثهـا هذا الكلام، فظلـت تنتظر شيئاً. ثـم بدأ اركادي كلامـه بعد أن استجمع قواه من جديد:

– أتوقـع بأني سأثير دهشتـك. لا سيما وأن هـذا الشعور يمسك أنت على نحو ما... لاحظي: على نحو ما... لقد لمتني أمس، حسبما أتذكر، علـى قلة جديتي – واصـل اركادي كلامه ومظهره يشبـه مظهر شخص تـورط في مستنقـع وصار يشعر بأنه يغوص فيه مـع كل خطوة يخطوها، ولكنـه مع ذلك يستعجـل إلى الامام على أمل الخلاصـ بأسرع ما يمكن، – أن هـذه الملامة كثـيراً ما توجه إلى الشبـاب... وتسلط عليهم... حتى عندما لا يعودون يستحقونها. ولو كنت امتلك المزيد من الثقة بالنفس... («ساعديني، ساعديني قليـلاً!» – فكر اركادي يائساً، ولكن كاتيا ظلت كالسابق مشيحة بوجهها) ولو كان باستطاعتي أن آمل...

– لـو كان باستطاعتـي أن اثق بما تقول... – تهـادى في تلك اللحظة صوت آنا سيرغييفنا الصافي.

صمت اركادي في الحال، بينما شحب لون كاتيا. كان الممشى يحاذي الشجيرات التي تحجب الرواق. وكانت آنا سيرغييفنا تتمشى هناك بمرافقة بازاروف. وما كان بوسع كاتيا واركادي أن يرياهما، ولكنهما سمعا كل كلمـة، مـع حفيف الفستـان، بل وحتـى الانفاس. سـارا بضع خطوات



وتوقفا، كما لو كان ذلك عمداً، في مواجهة الرواق مباشرة. وواصلت آنا سيرغييفنا كلامها:

– ألا ترى أننا نحن الاثنين على خطأ؟ لم نعد في ريعان الشباب، وخصوصاً أنا. عشنا عمراً، وتعبنا، وكلانا – فما الداعي للتواضع؟ – ذكي، فقد اهتممنا ببعضنا البعض في بادئ الأمر، وثار لدينا الفضول... وبعد ذلك...

– وبعد ذلك نفقت أنا – عاجلها بازاروف.

– أنت تعرف أن هذا ليس هو السبب في خلافنا. ومهما يكن من أمر، فالسبب الرئيسي هو أننا لم نكن بحاجة ماسة إلى بعضنا البعض. ففينا الكثير من... التماثل، أن صح القول. ولم نفهم ذلك في الحال. أما اركادي فعلى العكس...

– هل أنت بحاجة إليه؟ – سألها بازاروف.

– كفاك يا يفغيني فاسيليفيتش. أنت تقول بأنه يشعر بميل نحوي. وقد خيل الي دوماً أنه معجب بي. وأنا اعلم بأني يمكن أن أكون بمثابة مربية له، ولكن لا اخفي عليك أنني صرت أفكر به لدرجة أكبر. ففي هذا الشعور الفتى الغض شيء ما رائع....

– كلمة جذاب أكثر مناسبة لهذه الحال – قاطعها بازاروف، وكانت فورة المرارة واضحة في صوته المكبوت الهادئ. – تحدث اركادي أمس معي ببعض التحفظ فلم يقل شيئاً عنك ولا عن اختك... وتلك اشارة هامة.

فقالت آنا سيرغييفنا:

– أنه يعامل كاتيا معاملة الاخ لاخته. وهذا شيء يعجبني فيه، مع أنه ربما لا يجدر بي أن أسمح بمثل هذا التقارب بينهما.

– هل ذلك هو شعور الاخت ازاء اختها؟ – سأل بازاروف متمهلا.

– طبعـاً... لماذا توقفنا؟ فلنذهب، ما أغـرب هذا الحديث بيننا، أليس كذلك؟ وهل كنت أتوقع بأني سأتحدث معك على هذا النحو؟ أنت تعرف بأني اخشاك... وأنا في الوقت ذاته اثق بك لأنك، في الواقع، طيب القلب تماماً.

– لسـت طيب القلـب ابداً. هـذا أولاً. وثانياً: لقد فقـدت أية أهمية بالنسبة لك. ولذا تقولين بأني طيب القلب... لا فرق بين ذلك وبين وضع اكليل من الزهور على رأس الميت.

– يفغينـي فاسيليفيتش، ليسـت لدينـا سلطة علـى... – تكلمت آنا سيرغييفنا، إلا أن الريح هبت ووشوشت الاوراق وطارت كلماتها بعيداً. ثم قال بازاروف بعد برهة:

– أنت حرة طليقة.

و لم يعد بالامـكان سماع الحوار، فقد ابتعـدت الخطوات... وسكن كل شيء.

التفت اركادي إلى كاتيا وكانت جالسة بنفس الوضعية، لكنها طأطأت رأسها بدرجة أكبر. فقال بصوت مرتعش وهو يشد يداً على يد:

– كاتيـا! أحبـك إلى الابد دون رجعـة، ولا أحد أحـداً غيرك. كنت أريـد أن أقول لك ذلك واعرف رأيك فيـه. أنني التمس يدك لأنني لست غنيـاً ولأني أشعر بالاستعداد لتحمل كل التضحيات... لماذا لا تجيبين؟ ألا تصدقينني؟ هـل تظنين بأني أقول شيئاً طائشاً؟ ولكـن تذكري هذه الأيام الأخـيرة! أفلـم تقتنعي مـن زمان بـأن كل شيء ما عـداك، افهميني، كل شـيء اختفى مـن زمان دون أن يترك أثراً؟ تطلعـي الي، انطقي ولو بكلمة واحدة... أنني أحب... أحبك... صدقيني!

ألقت كاتيا على اركادي نظرة صافية ذات شأن، وكادت تبتسم بعد تأمل عميق، ثم قالت:

– حسناً.

قفز اركادي من المصطبة:

– حسناً؟ هل قلت: حسناً، يا كاتيا؟! ماذا تعني هذه الكلمة؟ هل تعني أني أحبك وأنك تصدقينني، أم... أم...؟ أنا أخشى من اكمال السؤال.

– حسناً – كررت كاتيا، ولكنه فهمها هذه المرة. فتلقف يديها الكبيرتين الرائعتين وضغطهما على صدره وهو يتنفس بعسر من شدة التأثر والاعجاب. كانت ساقاه بالكاد تحملانه، وراح يكرر: «كاتيا، كاتيا...». أما هي فقد بكت على نحو عذري، ثم ضحكت بهدوء لدموعها. من لم ير مثل هذه الدموع في عيني المحبوب لا يعرف، بعد، مدى السعادة التي يمكن للإنسان على الأرض أن يتذوقها وهو متجمد كلياً بسبب الامتنان والحياء.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي بعثت آنا سيرغييفنا في طلب بازاروف. حضر إلى مكتبها فسلمته بضحكة متكلفة ورقة بريدية مطوية. وكانت تلك رسالة من اركادي يلتمس فيها يد اختها.

قرأ بازاروف الرسالة بلمح البصر وبذل جهده كي لا يعرب عن شعور الشماتة الذي استولى عليه في الحال. ثم قال:

– هكذا اذن. ولكنك، كما يخيل الي، كنت حتى يوم أمس تعتقدين بأنه يحب كاتيا حب الاخ لاخته. فما الذي تنوين فعله الآن؟

– ماذا تنصحني أنت؟ – سألته آنا سيرغييفنا وهي تتابع ضحكتها.

فأجابها بازاروف بضحكة أيضاً، مع أنه لم يكن مسروراً أبداً، وما كان راغباً في الضحك على الاطلاق، كما لم تكن راغبة فيه هي:

– اظـن أن مـن الضروري تبريـك الشابين. فهمـا زوج طيب من كل النواحـي. ثـروة كيرسانوف لا يستهـان بها، وهو وحيد ابيـه، ثم أن اباه طيب القلب ولن يعترض.

جابـت اودينتسوفـا الغرفة، وكان الاحمرار والشحـوب يتناوبان في الظهور على محياها. ثم قالت:

– هـل تعتقد بذلك؟ حسنـاً! لا ارى مانعاً... وأنا مسـرورة لكاتيا.. ولاركادي نيكولايفيتش... بديهـي أنني سأنتظر جـواب ابيه. وسوف ابعثـه هو إليـه. اتضح أني كنت بالأمس على حق عندمـا قلت لك بأننا لم نعد من الشباب... فكيف لم ألحظ شيئاً؟ ذلك ما يثير دهشتي!

ضحكت آنا سيرغييفنا من جديـد واشاحت بوجهها في الحال. فقال بازاروف وقد ضحك هو الآخر:

– أصبح شباب اليوم أكثر تحايلاً.

وبعد برهة من الصمت قال مجدداً:

– وداعـاً. اتمنى لـك أن تنجزي هذا الأمر على أفضل ما يكون. أما أنا فسأفرح من بعيد.

– ماذا؟ هل ستسافر؟ ما الذي يمنعك الآن من البقاء؟ ابق... فالحديث معـك ذو شجـون... كما لو كان المـرء يسير على شفا هـوة سحيقة. في البداية ينتابه الوجل، وفيما بعد لا يدري من أين تأتيه الشجاعة. ابق.

– شكـراً لك يا آنا سيرغييفنا على هذا العرض، وعلى امتداح مواهبي الحواريـة. ولكـن يخيل الي أني صرفـت وقتاً طويلاً جـداً في التواجد في وسط غريب علي. فالأسماك الطائرة تستطيع البقاء في الجو بعض الوقت، ولكنهـا سرعان ما تقع على الماء من جديد. فاسمحي لي أن اندفع أنا أيضاً إلى بيئتي.

تطلعت اودينتسوفا إلى بازاروف. كانت ابتسامة ساخرة مريرة ترتسم علـى وجهـه الشاحب المتشنـج. وفكـرت في نفسهـا «كان يحبني!». واحست بالعطف عليه، فمدت له يدها بشعور من الود.

فهمها هو، فقال متراجعاً خطوة إلى الوراء:

– كلا! أنني إنسان فقير، ولكنني لم اتقبل الصدقات حتى الآن. وداعاً يا سيدتي، معك العافية.

فقالت آنا سيرغييفنا بحركة عفوية:

– أنا واثقة من أن هذا ليس لقاءنا الأخير.

– ربمـا. فكل شيء ممكن في هذا العالم – أجاب بازاروف وانحنى لها وانصرف.

وفي اليوم ذاته قال لاركادي وهو جالس القرفصاء يعد حقيبته:

– ها قد صممت على بناء عش لك، أليس كذلك؟ لا بأس، ذلك شيء حسـن. ولكن عبثا تحايلـت. كنت أتوقع منك وجهة أخـرى تماماً. أم أن ذلك ربما كان مباغتاً لك؟

فأجاب اركادي:

– لم أكـن اتوقعـه بالضبـط عندما فارقتـك. ولكن لمـاذا تتحايل انت وتقول «شيء حسن»، كما لو أني لا اعرف رأيك بالزواج؟

– آه، يـا صديقي العزيز! ما هـذه التعابير؟! لاحظ ما افعل: في الحقيبة مـكان فارغ وأنا احشوه بالقش. وكـذا الأمر في حقيبة حياتنا، نحشوها بـأي شيء كان على شرط أن لا يظـل فيها فراغ. لا تزعل، ارجوك، فأنت تتذكـر، على ما يبـدو، رأيي في كاتيا. فـأن سواها من الفتيـات يشتهرن بالـذكاء لمجرد أنهن يتأوهـن بذكاء. أما فتاتك فلن تتنازل عن حق لها، بل وسـوف تضبطك أنت. وهذا أمر طبيعي. – صفـق غطاء الحقيبة ونهض

- أمـا الآن فأكرر القول مودعاً... ولا داعـي لخداع النفس: أودعك إلى الابـد. ولقد شعرت أنت بذلـك... وتصرفت بحصافـة. فأنت لم تخلق لحياتنـا المريرة اللاذعة، حياة العزوبـة. وليست فيك وقاحة ولا حقد، بل لديـك بسالة الشباب وحماس الشباب. وهـذا أمر لا يصلح لنا. فالنبلاء، من أمثالك، لا يمكنهم أن يسيروا إلى أبعد من الاستكانة الكريمة أو الفوران الكـريم، بينما ذلك شيء تافه. وأنتم، مثلا، لا تحاربون، لكنكم تتصورون أنفسكـم فرساناً، أما نحـن فنبتغي المعركة حقاً. أين أنـت من ذلك؟! أن غبارنا يـؤذي عينيك، وأوساخنا تلوثك، بل وأنك لم تبلغ مستوانا، فأنت معجب بنفسك عفوياً، ويبعث السرور فيك كونك تلوم نفسك بنفسك. ذلـك شيء ممـل بالنسبة لنـا. فنحن بحاجـة إلى التنديـد بالآخرين! نحن بحاجـة إلى تحطيم الآخريـن! أنك شاب رائع، ولكنـك، مع ذلك، مجرد نبيل لبرالي رقيق.

فتمتم اركادي حزيناً:

- تودعنـي إلى الأبد، يا يفغيني، وليست لديك كلمات أخرى تقولها لي؟

حك بازاروف قفاه وقال:

- لـدي، يـا اركادي، لدي كلمـات أخرى، ولكني لـن أقولها لأنها رومانسيـة، بكل ما فيها من لطافـة تافهة. ولكن عجل أنت بالزواج وابن عشـك، وانجب المزيـد من الاطفال. وسوف يكونـون اذكياء لمجرد أنهم سيولـودون في الوقـت المناسب، وليس مثلما ولدنا أنـا وأنت. أها! ارى الخيول جاهزة. آن الاوان. لقد ودعت الجميع... ماذا؟ هل نتعانق؟

ارتمى اركادي على رقبة معلمه وصديقه السابق فانهمرت الدموع من عينيه.

وقال بازاروف بهدوء:

– ذلك هو فعل الفتوة! أنني أعلق آمالي على كاتيا. فسوف تواسيك بسرعة!

وعندما صعد إلى العربة قال لاركادي:

– وداعاً يا أخي! – ثم أشار إلى زاغين جاثمين جنباً إلى جنب على سقف الاسطبل واضاف قائلاً: – انظر! وتعلم!

فسأل اركادي:

– ماذا يعني ذلك؟

– كيف؟ هل أنت ضعيف إلى هذا الحد في علم الطبيعة؟ أم أنك نسيت أن الزاغ أفضل طير يحافظ على الاواصر العائلية؟ إليك مثالاً يحتذى!.. وداعاً، سنيور!

هدرت العربة وتهادت.

لقد قال بازاروف الحقيقة. فعندما تحدث اركادي مع كاتيا في المساء نسي معلمه كلياً، وصار يخضع لها بالتدريج. شعرت كاتيا بذلك و لم تستغرب له. كان يتعين عليه أن يرتحل في اليوم التالي إلى مارينو، إلى نيكولاي بتروفيتش. و لم ترغب آنا سيرغييفنا في التضييق على الشابين، لكنها لم تتركهما وحيدين لأمد طويل بسبب من اللياقة لا غير. وقد ابعدت عنهما، بكل لطف، الأميرة التي تلقت نبأ الخطوبة بهياج ونحيب. في بادئ الأمر كانت آنا سيرغييفنا تخشى أن يغدو منظر سعادتهما أمراً ثقيلاً عليها بعض الشيء، ولكن اتضح العكس تماماً: فهذا المنظر لم يثقل عليها، بل شغلها وجعلها، في الأخير، أكثر حناناً. فرحت آنا سيرغييفنا لذلك واغتمت له في الوقت ذاته. وفكرت في نفسها: «يبدو أن بازاروف على حق. فليس هناك غير حب الاستطلاع، والفضول، والرغبة في الاستقرار، والانانية...». ثم قالت بصوت عال:

– اطفال! فهل الحب شعور متكلف؟

بيد أن كاتيا واركادي لم يفهماها. فقد غدت غريبة عليهما وظل عالقاً في بالهما الحوار الـذي استمعا إليه دون قصد. وبالمناسبة فقد هدأتهما آنا سيرغييفنـا في القريب العاجل. ولم يكن ذلك عسيراً عليها: إذ هدأت هي نفسها.

٢٧

سـر العجوزان بازاروف لوصول ابنهما سروراً لا حدود له، فلم يكونا يتوقعـان وصولـه. واضطربت آرينا فلاسيفنا وصـارت تحوم في الدار إلى درجـة جعلت فاسيلـي ايفانوفيتشـ يشبهها «بالكـروان». وبالفعل كان الذيل الابتر في بلوزتها القصيرة يضفي عليها مسحة الطيور. أما هو فكان يتمتـم ويعض على الطـرف الكهرماني لغليونه الطويـل ويدير رأسه ذات اليمين وذات الشمال ممسكاً عنقه بأصابعه وكأنما يجرب ما إذا كان رأسه مركبـاً عليـه بالشكل اللازم أم لا. وكان يفتح فمـه الواسع على حين غرة ويقهقه دون ضجيج.

وقال بازاروف الابن لأبيه:

– جئـت، يا شيخ، لابقى عندك ستة أسابيع كاملة. اريد أن اعمل، فلا تشوش علي من فضلك.

فأجاب فاسيلي ايفانوفيتش:

– سوف لن ترى وجهي. لن اشوش عليك مطلقا!

وقد وفى بوعده. فبعـد أن اسكن ابنه في مكتبه كالسابق، كاد يختفي عنه وصار يمنع زوجته من التمادي في ابداء حنانها. وقال لها: «كنا، ايتها الام، قـد اضجرنا ينيوشا بعض الشـيء في مجيئه الأول. أما الآن فينبغي أن

نكون أكثر دهاء». وافقت آرينا فلاسيفنا زوجها في الرأي، ولكنها لم تربح الكثير من ذلك. إذ لم تعد ترى ابنها إلا أثناء الطعام، وصارت تخشى نهائياً التحدث معه. فما تكاد تقول «ينيوشا!»، وما يكاد ابنها يلتفت إليها، حتى تنهمك في ملامسة شراريب حقيبتها وتمتم: «لا شيء، لا أقصد شيئاً». ثم تتوجه إلى فاسيلي ايفانوفيتش وتقول له بعد أن تسند خدها إلى يدها: «كيف لي، يا عزيزي، أن اعرف ما يشتهيه ينيوشا في الغداء اليوم، هل يريد شوربة الكرنب أم حساء البنجر مع الكرنب؟». – «لماذا لا تسألينه بنفسك؟» – «أخشى أن اضجره!». إلا أن بازاروف سرعان ما كف من تلقاء نفسه عن الاعتكاف: فقد زايلته حمى العمل وحل محلها ضجر كئيب وقلق مكتوم. ولوحظ ارهاق غريب في حركاته وسكناته، وحتى مشيته الصلبة الجسورة السريعة قد تبدلت. لم يعد يتمشى على انفراد وصار ينشد المعاشرة. أخذ يحتسي الشاي في غرفة الاستقبال ويتجول في البستان مع فاسيلي ايفانوفيتش ويدخن معه بصمت. واستفسر ذات مرة عن صحة الخوري الكسي. في بادئ الأمر سر فاسيلي ايفانوفيتش لهذا التحول، ولكن فرحته لم تطل. وصار يتشكى لزوجته هامساً: «ينيوشا يعذبني. لا اعتقد بأنه مستاء أو غير قانع. فذلك شيء هين. ولكن المصيبة هي أنه متألم حزين. وصامت دوماً. فياليته يلومني ويلومك على الاقل. لقد اصابه الهزال وشحب لونه». فهمست العجوز: «يا الهي! يا الهي! حبذا لو البست الطلسم على عنقه. ولكنه لن يسمح لي بذلك». وحاول فاسيلي ايفانوفيتش عدة مرات أن يسأل ابنه بكل حذر عن عمله وعن صحته وعن اركادي... لكن بازاروف كان يجيبه باستهانة وعلى مضض. ذات مرة لاحظ بازاروف أن أباه يحاول أن يوجه الحديث معه بلطف إلى وجهة معينة، فقال له بكآبة: «لماذا تدور حولي وكأنك تسير على اطراف الاصابع؟ هذه العادة أسوأ من سابقتها». فأجاب فاسيلي ايفانوفيتش المسكين على عجل: «كيف؟ أنا لا أقصد شيئاً!». وظلت

عقيمة أيضاً تلميحاته السياسية. فعندما تحدث ذات مرة عن قرب انعتاق الفلاحين وعن التقدم كان يأمل باثارة عطف ابنه، ولكن هذا قال بلا اكتراث: «سمعت أبناء الفلاحين وأنا أسير قرب السياج أمس ينشدون بدلاً من الأغاني القديمة: حان زمان الوداد، والقلب ينضب بالهوى... ذلك هو التقدم الذي تريده».

كان بازاروف يتوجه أحياناً إلى القرية فيتحدث مع فلاح ما مازحاً كعادته. وكان يقول له: «اعرض علي، أيها الاخ، آراءك بشأن الحياة. ففيكم، كما يقال، كل قوة روسيا ومستقبلها، وبكم سيبدأ عصر جديد في التاريخ. سوف تمنحوننا اللغة الحقيقة والقوانين». فيلزم الفلاح الصمت أو يجيب بكلمات من نوع: «نحن نستطيع.. كذلك، لأننا، يعني... بقدر استطاعتنا». وكان بازاروف يقاطعه: «ولكن حدثني عن عالمكم، ما هو؟ هل هو ذلك العالم المستقر على قرن الثور؟».

– الأرض، يا سيدي، هي المستقرة على قرن الثور. – أوضح له الفلاح على نحو مسكن وبلهجة ترتيلية خانعة ساذجة. – ومعروف أن ارادة الاسياد تواجهنا، أي تواجه عالمنا. ولذا فأنتم آباؤنا وأسيادنا. وكلما كان السيد متشدداً، كان الفلاح مرتاحاً.

وبعد أن استمع بازاروف إلى مثل هذا الحديث ذات مرة هز كتفيه احتقاراً واشاح بوجهه، بينما عاد الفلاح ادراجه. فسأله فلاح آخر متوسط العمر متجهم الوجه كان قد استمع من بعيد، من عتبة كوخه، إلى الحديث مع بازاروف:

– عم تحدثتما؟ عن الضريبة المستحقة؟

– أية ضريبة يا أخي العزيز؟! – اجابه الفلاح الأول ولم يعد في صوته أثر للهجة الترتيلية الخانعة، بل ترامت منه لهجة مستهينة قاسية – ثرثر شيئاً ما، اراد أن يحك لسانه. أمر معروف. فهو سيد، وهل يفهم السيد شيئاً؟

– من أين له أن يفهم؟! – أجاب الفلاح الثاني. ونفض كلاهما قبعتيهما وأرخيا زناريهما وراح يتحدثان عن شؤونهما وحاجاتهما. أما بازاروف المتكابر هذا الذي هز كتفيه احتقاراً والذي يجيد الكلام مع الفلاحين (كما تفاخر في جداله مع بافل بتروفيتش) فلم يكن حتى ليتصور بأنه بدا في انظارهما مجرد بهلول لا أكثر...

بيد أنه عثر في آخر المطاف على ما يشغل به نفسه. ذات مرة ضمد فاسيلي ايفانوفيتش بحضوره رجل فلاح جريح، ولكن يدي العجوز كانتا ترتعشان فلم يفلح في شد الضماد، لذا ساعده ابنه، ومنذ ذلك الحين أخذ يساهم في عمل ابيه دون أن يكف في الوقت ذاته عن التهكم على الوسائل التي ينصح بها هو وعلى ابيه الذي يستخدمها في الحال. إلا أن تهكم بازاروف لم يكن يربك فاسيلي ايفانوفيتش قيد شعرة، فقد وجد فيه مسرة. كان يمسك رداءه المنزلي الملوث باصبعين على بطنه ويأخذ أنفاساً من غليونه وهو يستمع بمتعة إلى بازاروف. وكلما كانت تهجماته أشد كان أبوه السعيد يقهقه بطيبة قلب أكبر فيكشف عن جميع اسنانه السوداء بلا استثناء. وكان يستعيد هذه التهجمات البليدة أحياناً أو الخالية من المعنى، ويظل طوال عدة أيام يكرر، مثلاً، بمناسبة وبغير مناسبة: «تلك قضية لا جدوى فيها!»، وذلك لمجرد أن ابنه استخدم هذا التعبير عندما علم بأن اباه كان يتوجه لأداء صلاة الصبح. وهمس فاسيلي ايفانوفيتش لزوجته: «الحمد لله! لم يعد كئيباً! لو تعلمين كيف لامني اليوم. أنه معجزة!». وكانت مشاعر الافتخار والاعتزاز تستحوذ عليه عندما يتذكر أن له معاوناً كهذا. وكان يقول لفلاحة ما ترتدي قفطاناً رجالياً وقبعة ذات نتوءات، وهو يسلمها قنينة ماء هوليارد أو علبة مروخ البنج: «أجل، أجل، عليك يا عزيزتي أن تحمدي الله كل لحظة لأن ابني قد حل ضيفاً علي: فنحن نعالجك الآن بأحدث طريقة علمية، هل أنت فاهمة؟ وحتى امبراطور الفرنسيين نابليون لا يملك طبيباً أفضل». أما الفلاحة التي جاءت

تتشكى من «مغص في البطن» (وهي نفسها لا تفهم معنى هذه الكلمات) فكانـت تنحني احتراماً وتدس يدها في عبها كـي تستخرج أربع بيضات ملفوفة بطرف منشفة.

ذات مـرة اقتلع بـازاروف سناً لبائع متجول، ومـع أن هذه السن هي من الاسنـان العادية، فان فاسيلـي ايفانوفيتش احتفظ بهـا كتحفة نادرة، وعرضها على الاب الكسي وراح يكرر بلا كلل:

– انظر إلى جذورها، ما اقواها! وما اقوى يفغيني! لقد تطاير البائع في الجو... ويخيل الي أنه لو كان شجرة بلوط لتطاير أيضاً!...

– شـيء يستحق المديح! – قال الاب الكسي أخيراً دون أن يعلم كيف يجيب وكيف يتخلص من العجوز وهو في اوج حماسه.

ذات مرة أحضـر فلاح من القرية المجاورة اخاه المصاب بالتيفوئيد إلى فاسيلي ايفانوفيتش. كان المريضـ التعيس يحتضر وهو منبطح على حزمة قشـ، وقد اغمي عليه من زمان، وغطت بقع قائمة جسده. اعرب فاسيلي ايفانوفيتش عن اسفه لأن أحداً لم يفكر بالاستفادة من الاسعاف الطبي قبل الآن وأعلـن عن استحالة انقـاذ المريض. وبالفعل فقد قضى نحبه في عربة النقل قبل أن يصل به اخوه إلى داره.

وبعـد ثلاثة أيام دخل بـازاروف على ابيه في غرفته وسأله عما إذا كان عنده حجر جهنم.

– نعم. ما حاجتك إليه؟

– يلزمني... في كي جرح.

– جرح من؟

– جرحي.

– جرحك؟! كيف؟ اي جرح؟ أين هو؟

– هنـا. على الاصبـع. توجهت اليـوم إلى القرية التـي احضروا منها الفلاح المصاب بالتيفوئيد. ولسبب ما قرروا هناك أن يشرحوه. أما أنا فلم اتمرن على التشريح من زمان.

– ثم ماذا؟

– لـذا طلبـت من طبيـب القضـاء أن يسمح لي بالتشريـح، فجرحت اصبعي.

شحـب لون فاسيلـي ايفانوفيتش علـى الفور، و لم ينبس ببنت شفة. هـرع إلى مكتبه وعاد في الحـال يحمل قطعة صغيرة من حجر جهنم. هم بازاروف بان يأخذ الحجر ويخرج، ولكن فاسيلي ايفانوفيتش قال:

– بالله عليك، اسمح لي أن افعل ذلك بنفسي.

ضحك بازاروف ساخراً:

– ما أشد رغبتك في الممارسة!

– لا تمزح، رجاء. أرني اصبعك. الجرح طفيف. إلا يؤلمك؟

– اضغط بشدة، لا تخش شيئاً.

توقف فاسيلي ايفانوفيتش:

– ماذا تعتقد يا يفغيني، أليس الأفضل كيه بالحديد؟

– كان ينبغي القيام بذلك في حينه. أما الآن فحتى حجر جهنم لا يفيد في الواقع. فإذا كنت قد اصبت بالعدوى فقد فات الاوان.

– كيف... فات الاوان... – نطق فاسيلي ايفانوفيتش بالكاد.

– كيف لا؟! مر على ذلك أكثر من اربع ساعات.

كوى فاسيلي ايفانوفيتش الجرح بقدر أكبر وقال:

– الم يكن لدى طبيب القضاء حجر جهنم؟

– كلا.

– كيف، يا إلهي؟! طبيب ولا يمتلك هذا الشيء الضروري.

– يا ليتك رأيت مباضعه! – قال بازاروف وانصرف.

ظل فاسيلي ايفانوفيتش حتى ساعة متأخرة من المساء وطوال النهار التالي يتحجج بأية وسيلة ممكنة لدخول غرفة ابنه، ومع أنه لم يكن يلمح إلى الجرح، بل يحاول التحدث عن أمور ثانوية تماماً، فأنه كان يحدق في عيني ابنه باصرار ويراقبه بقلق حتى نفذ صبر بازاروف وهدده بالسفر. قطع فاسيلي ايفانوفيتش عهداً بأنه لن يقلق، لا سيما وأن آرينا فلاسيفنا التي اخفى عنها هو كل شيء طبعاً، أخذت تلاحقه متسائلة عما حدث له وعن السبب في عدم نومه. في غضون يومين كاملين كان يتشجع بالرغم من أن مظهر ابنه الذي تفحصه خلسة طوال الوقت لم يكن يرضيه تماماً... ولكن صبره نفد في اليوم الثالث أثناء الغداء. فقد جلس بازاروف مطأطأ الرأس و لم يمس شيئاً من طعام.

– لم لا تأكل يا يفغيني؟ – سأله أبوه متظاهراً بعدم القلق – الطعام، على ما اعتقد، قد اعد جيداً.

– لا اشتهي، فلن آكل.

– هل انعدمت شهيتك؟ ورأسك؟ هل يوجعك؟ – اضاف الاب بوجل.

– يوجعني. فما الذي يجعله لا يوجعني؟

عدلت آرينا فلاسيفنا قامتها وتأهبت. وواصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه:

– ارجوك، يا يفغيني، لا تزعل. هلا سمحت بأن اجس نبضك؟

نهض بازاروف:

– أقول لك أن حرارتي مرتفعة حتى بدون جس النبض.

– وهل شعرت بقشعريرة؟

– أجل. أنا ذاهب لارقد، فارسلوا لي قدحاً من نقيع الزيزفون. اصبت بزكام ولا بد.

– لذا سمعتك البارحة تسعل – قالت آرينا فلاسيفنا.

– أصبت بزكام – كرر بازاروف وانصرف.

انشغلت آرينا فلاسيفنا باعداد نقيع زهر الزيزفون، بينما دخل فاسيلي ايفانوفيتش الغرفة المجاورة وتشبث بشعر رأسه صامتاً.

لم ينهض بازاروف في ذلك اليوم وقضى ليلته كلها في وسن ثقيل يشبه الاغماء. بعيد منتصف الليل فتح عينيه بمشقة فرأى في ضوء القنديل وجه ابيه الشاحب محنياً عليه وأمره بالانصراف، فلبى هذا أمره ولكنه عاد في الحال على اطراف اصابعه واطل من وراء باب الخزانة وظل يتطلع إلى ابنه طوال الوقت. لم تنم آرينا فلاسيفنا هي الأخرى، فقد فتحت باب المكتب بعض الشيء وصارت تتردد بين الفينة والأخرى لتسمع «كيف يتنفس ينيوشا» وتلقى نظرة على فاسيلي ايفانوفيتش. كانت ترى فقط ظهره المحدودب الجامد، ولكن ذلك بحد ذاته كان يخفف عليها احزانها لدرجة ما. في الصباح حاول بازاروف أن ينهض، لكن الدوار ألم به ونزف الدم من انفه فرقد من جديد. وكان فاسيلي ايفانوفيتش يرعاه بصمت. دخلت عليه آرينا فلاسيفنا فسألته عن حاله، فأجاب: «احسن»، واستدار نحو الجدار. وأما فاسيلي ايفانوفيتش لزوجته إيماءة غاضبة بكلتا يديه، فعضت هي على شفتها كيلا تنتحب وانصرفت، احلولك كل ما في الدار فجأة، وأغتمَّت كل الوجوه وخيم سكون غريب. ونقل من الباحة إلى القرية ديك مصياح لم يفهم لامد طويل لماذا تصرفوا معه على هذا النحو. ظل بازاروف راقداً ووجهه إلى الجدار. حاول فاسيلي ايفانوفيتش

أن يوجه إليه أسئلة مختلفة ولكنها كانت ترهقه، فتسمر العجوز في مقعده، واكتفى بطقطقة اصابعه أحياناً. كان يتوجه للحظات إلى البستان فيقف هناك متجمدا كما لو أن حدثاً لا مثيل له اثار دهشته (وكانت الدهشة الشديدة لا تفارق وجهه) ثم يعود إلى ابنه من جديد متحاشياً تساؤلات زوجته. وأخيراً امسكت بيده وسألته بارتعاشة وبشيء من التهديد: «ماذا به؟». تنبه الاب في الحال وحمل نفسه على الابتسام رداً على سؤالها. بيد أنه، ويا للفظاعة، اطلق ضحكة عفوية بدلاً من الابتسامة. كان قد بعث في طلب الطبيب منذ الصباح. ورأى أن من الضروري اخبار ابنه بذلك كيلا يزعل.

استدار بازاروف على الاريكة فجأة وأخذ يحدق في ابيه ببلادة وطلب ماء.

قدم له فاسيلي ايفانوفيتش قدح الماء ولمس جبهته عرضاً. كانت ملتهبة للغاية.

فقال بازاروف بصوت بطيء ابح:

– يا شيخ، حالتي سيئة جداً. اصبت بالعدوى. وسوف تدفنني بعد بضعة أيام.

ترنح فاسيلي ايفانوفيتش كما لو أن أحداً ضربه على رجليه. ثم تمتم:

– يفغيني! ما هذا الكلام!... سامحك الله! لقد اصبت بالبرد لا أكثر...

– كفاك – قاطعه بازاروف على مهل – لا يجوز للطبيب أن يتكلم هكذا. كل اعراض العدوى موجودة، وأنت تعرف ذلك بنفسك.

– أين هي اعراض الـ... عدوى؟ عفوك يا يفغيني!

– فما هذا اذن؟ – قال بازاروف ورفع ردن قميصه وعرض على ابيه البقع الحمراء الفظيعة التي ظهرت واضحة.

ارتعد فاسيلي ايفانوفيتش واقشعر من الرعب. ثم قال في الاخير:

– لنفرض، لنفرض... حتى... ولو كان هناك شيء من قبيل... العدوى...

– تقيح الدم – قال الابن مصححاً.

– نعم... من قبيل... العدوى...

– تقيح الدم – كرر بازاروف بوضوح وصرامة – أم أنك نسيت دفاترك الطبية؟

– أجل، أجل، كما تشاء... ومع ذلك فسوف نعالجك!

– هيهات! ولكن القضية ليست في ذلك. فأنا لم أكن اتوقع بأني سأموت بهذه العجالة. تلك صدفة، وصدفة، إذا قلنا الحق، غير سارة ابداً. عليك الآن مع أمي أن تستفيدا من قوة الدين فيكما، وهذه فرصة سانحة لكي تجرباه. – ارتشف قليلاً من الماء وواصل كلامه: – لدي اليك رجاء... ما دمت لا زال مسيطراً على افكاري. فغداً أو بعد غد سيحيل دماغي نفسه على التقاعد كما تعلم. وأنا الآن أيضاً لست واثقاً تماماً مما إذا كنت اتكلم بوضوح أم لا. فطوال رقادي خيل الي أن كلاباً حمراء تتراكض حولي وأنك خيمت علي كما لو أني دجاجة برية سوداء، وأنا الآن كالمخمور. هل تفهمني جيداً؟

– بالطبع يا يفغيني، أنك تتكلم على ما يرام تماماً.

– ذلك افضل. قلت لي أنك بعثت في طلب الطبيب... لقد هدأت نفسك بذلك... أما الآن فهدئني أنا: ابعث رسولاً...

– في طلب اركادي نيكولايفيتش – عاجله العجوز.

– من هو اركادي نيكولايفيتش هذا؟ – قال بازاروف كما لو كان يتأمل – آ، أجل! ذلك الفرخ! كلا، لا تمسه، اصبح زاغاً. ولا تستغرب،

فليس ما اقوله هذياناً. ابعث رسولاً إلى اودينتسوفا، إلى آنا سيرغييفنا... تلك الاقطاعية، هل تعرفها؟ (هز فاسيلي ايفانوفيتش رأسه بالايجاب). وليقل لها أن يفغيني بازاروف يبعث إليها بالتحية وأنه يحتضر. هل ستنفذ طلبي؟

– سأنفذه... ولكن هل يجوز أن تموت أنت، أنت يا يفغيني... حكم عقلك! فأين هي العدالة اذن؟

– ذلك أمر لا علم لي به. ولكن ابعث الرسول.

– سأبعثه في الحال، وسأكتب لها رسالة.

– كلا. لا داعي للرسالة. فليقل بأني ابعث إليها بالتحية ولا شيء آخر. أما أنا فسأعود من جديد إلى كلابي. ما اغرب الأمر! اريد أن اوقف التفكير بالموت، ولكنني لا أستطيع. لا ارى غير بقعة ما...

استدار بعسر إلى الجدار من جديد، فخرج فاسيلي ايفانوفيتش من المكتب، وحالما وصل إلى غرفة زوجته انهار على ركبتيه أمام الايقونات. ودمدم بانين:

– ابتهلي، يا آرينا، ابتهلي! ابننا يحتضر.

وصل الطبيب، طبيب القضاء الذي لا يملك حجر جهنم. فحص المريض ونصح بالانتظار وقال في الحال بضع كلمات عن احتمال الشفاء. فسأل بازاروف:

– هل صادف وأن رأيت اناساً في مثل حالتي لم يتوجهوا إلى «دار الخلود»؟

ثم امسك فجأة بقائمة الطاولة الثقيلة الموجودة قرب الاريكة وهز الطاولة وزحزحها من مكانها. وقال:

– لا ازال قوياً، بينما يتعين علي أن اموت!... ذلك الفلاح العجوز

استطـاع على الاقـل أن يمل من الحياة، أمـا أنا... ولكن مـن يتجرأ على رفض الموت؟! فهو يرفضنـا وكفى! – واضاف بعد لحظة: – من ينتحب هناك؟ أمـي؟ يا للمسكينة! فمن الذي ستطعمه بعـد الآن حساء الكرنب المدهش؟ وأنـت، يا فاسيلي ايفانوفيتش، تبكي أيضـاً كما يخيل الي؟ فما دامـت المسيحية لا تعينك حاول أن تكون فيلسوفاً، رواقياً على الأقل! ألم تكن تتباهى بأنك فيلسوف؟

– أي فيلسـوف أنا؟! – جأر فاسيلـي ايفانوفيتش وانهمرت الدموع على خديه.

اخـذت حالة بازاروف تتدهـور ساعة بعد ساعـة، واستفحل المرض علـى نحو سريع، مما يجري عـادة في حالات التسمـم الجراحي. لم يكن قد فقد وعيه بعد. وكان يفهم ما يقال له، ولا يزال يصارع الموت. همس شـاداً على قبضته: «لا اريد أن اهذي، فما اسخف ذلك!»، ولكنه قال في الحال: «إذا خصمنا عشرة من ثمانية فكم يبقى؟». كان فاسيلي ايفانوفيتش يجول كالمجنون وهو يعرض هذه الوسيلة أو تلك ويغطي رجلي ابنه طوال الوقـت. وكان يقول بانفعال: «ينبغي لفه بشراشـف باردة... واستخدام المقيئات... واللصقات على البطن... وفصد الدم». وكان الطبيب الذي استعطفـه كي يبقى يـرد عليه بالايجاب ويسقى المريض شراب الليمون، ويطلب تارة غليوناً وتـارة ما «يقويه ويدفئه» هو، اي الفودكا. وجلست آرينا فلاسيفنا على مصطبة واطئة قرب الباب، و لم تغادر مكانها إلا لتصلي بـين حين وآخر. فقبل بضعة أيام انزلقـت من يديها مرآة الزينة وتحطمت، بينما اعتادت هي على اعتبار ذلك فألا سيئاً. و لم تستطع حتى انفيسوشكا أن تقول لها شيئا. أما تيموفييتش فقد توجه إلى اوديتسوفا.

قضـى بـازاروف ليلة سيئة... فقـد عذبته حمى قاسيـة، وعند الفجر تحسنـت حاله شيئاً فطلب من آرينـا فلاسيفنا أن تمشط له شعره وقبل يدها

واحتسى جرعتين من الشاي. وانتعش فاسيلي ايفانوفيتش بعض الشيء فقال:

– الحمد لله؟ حل البحران... وانتهى.

فقال بازاروف:

– ما أشد تأثير الكلمة! عثر عليها فقال: «البحران» وهذا باله. لا يزال الإنسان يؤمن بالكلمات. شيء مدهش. فإذا نعتوه، مثلاً، بالاحمق و لم يضربوه اكتأب، وإذا امتدحوا ذكاءه و لم يعطوه مالاً شعر بالارتياح.

تأثر فاسيلي ايفانوفيتش لخطبة بازاروف المقتضبة هذه والتي تشبه «تهجماته» السابقة، فهتف متظاهراً بالتصفيق:

– عظيم!

ابتسم بازاروف بحزن، ثم قال:

– ماذا تعتقد؟ هل انتهى البحران أم حل؟

– حالك أفضل. هذا ما اراه وهذا ما يفرحني – اجاب فاسيلي ايفانوفيتش.

– حسناً. الفرحة لا تضر مطلقاً. ولكن هل بعثت في طلب تلك؟ أتذكر؟

– بعثت بالطبع.

لم يستمر التغير نحو الافضل أمداً طويلاً. فقد تكررت نوبات المرض. وجلس فاسيلي ايفانوفيتش ازاء بازاروف. وبدأ العجوز وكأن الما شديداً ينهشه. هم بالكلام مراراً ولكنه كان عاجزاً عن النطق، ثم قال أخيراً:

– يفغيني! يا ولدي، يا عزيزي، يا حبيبي!

أثـرت هذه المناجاة غير المعتادة على بازاروف... فرفع رأسه قليلا كي يتخلص على ما يبدو من الغيبوبة التي ارهقته وقال:

– ماذا يا ابتي؟

واصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامـه وركع أمام بازاروف بالرغم من أن هذا لم يفتح عينيه و لم يكن بوسعه أن يراه:

– يفغينـي، يا يفغينـي! حالك الآن أفضل، وسـوف تشفى بعون الله. ولكـن انتهـز هذه الفرصـة وابعث السلـوى في نفس أمـك ونفسي وأد واجـب المسيحـي! ما أصعب علـي أن أقول لك ذلك، أنـه أمر فظيع... والافظع منه... أنه إلى الأبد، يا يفغيني... فكر في الأمر، ما افظعه...

تقطـع صوت العجـوز بينما انسحبـت مسحة غريبة علـى وجه ابنه بالرغم من أن عينيه ظلتا مغمضتين. وقال أخيراً:

– لا ارفض إذا كان ذلك يبعث السلوى فيكما. ولكن يخيل الي أنه لا داعي للاستعجال. فأنت نفسك تقول أن حالتي غدت أفضل.

– أفضـل، يا يفغيني، أفضل، ولكن من يـدري؟ كل شيء بيد الله. أما الذي يؤدي واجبه...

– كلا. سأنتظر قليلاً – قاطعه بازاروف – أنا متفق معك بأن البحران قـد حل. وإذا كنا على خطأ، فما العمل؟ فالقرابين تستلم حتى ممن هم في غيبوبة.

– ماذا تقول يا يفغيني؟..

– سأنتظر. أما الآن فأريد أن أنام. لا تزعجني.

وهبط رأسه على الوسادة.

نهض العجـوز فجلس على المقعـد وامسك بذقنـه وراح يعض على اصابعه...

طرقــت سمعه فجـأة طقطقة مركبــة ذات نوابضـ، وهي طقطقة مسموعــة خصوصــاً في سكــون الارياف. كانت العجــلات الخفيفة تقــترب أكثر فأكــثر، وها قد ترامــى إليه نخير الخيــول، نهض فاسيلي ايفانوفيتشـ على عجــل واندفع إلى النافذة. دخلــت باحة داره مركبة ذات مقعديــن تجرهــا أربعة خيــول. فهرع الي الباحــة في غمرة فرحة خرقــاء دون أن يميز من هو القادم. فتح خــادم ببزة رسمية باب المركبة فظهرت منها سيدة بوشاح أسود وبدلة سوداء...

– أنــا اودينتسوفا. يفغيني فاسيليفيتشـ على قيد الحياة؟ أنت أبوه؟ احضرت معي طبيباً.

– سيدتــي الكريمــة! – هتــف فاسيلــي ايفانوفيتشـ وتلقف يدها وضغطها بارتعاش إلى شفتيه، في حين نزل من المركبة على مهل طبيب قمــيء بملامح المانية يرتدي نظــارات، – لا يزال حيــاً، ولدي يفغيني حي، وسوف يحيا! يا زوجتي! هبط علينا ملاك من السماء...

– مــاذا؟ يــا إلهي! – تمتمــت العجوز راكضة من غرفــة الاستقبال وسقطت في الحال عند قدمي آنا سيرغييفنا دون أن تفهم شيئاً وراحت تقبل اذيال بدلتها كالمجنونة.

– لا داعــي لذلك! لا داعــي! – قالت آنا سيرغييفنــا، بيد أن آرينا فلاسيفنــا لم تكن تسمعهــا، في حين راح فاسيلــي ايفانوفيتش يكرر: «ملاك! ملاك!».

– أيــن المريضــ؟)[٧٢] أيــن هو؟ – ســأل الطبيب أخــيراً بشيء من الغضب.

فعاد فاسيلي ايفانوفيتش إلى رشده وقال:

---

(٧٢) في الأصل بالالمانية Wo ist der kranke?.

– هنـا، هنا، تفضـل واتبعني – واضـاف مما يتذكـره بالالمانية: (أيها الزميل المحترم)[٧٣].

–آ– قال الالماني وابتسم بتكشيرة ذاوية.

اقتـاده فاسيلـي ايفانوفيتش إلى المكتب. وانحنى علـى اذن ابنه حتى لامسها وقال:

– طبيب من آنا سيرغييفنا اودينتسوفا. وهي هنا أيضاً.

فتح بازاروف عينيه فوراً:

– ماذا قلت؟

– قلـت آنا سيرغييفنـا اودينتسوفا هنا وقد احضـرت إليك هذا السيد الطبيب.

نظر بازاروف إلى ما حواليه:

– أنها هنا... اريد أن اراها.

– ستراها، يا يفغيني، ولكن يتعين في البداية التكلم مع السيد الطبيب. سأحدثه عن سـير المرض لأن طبيب القضاء ارتحل، وسوف نتشاور بعض الشيء.

– لا بأس، تحدثا على عجل، ولكـن ليس باللاتينية، فأنا أفهم ما تعنيه (jam moritur)[٧٤].

وبدأ الطبيب الجديد كلامه مخاطباً فاسيلي ايفانوفيتش:

– (يبدو أنك تجيد الالمانية يا سيدي)[٧٥].

---

(٧٣) Wertester Herr Collega.

(٧٤) يحتضر.

(٧٥) في الأصل بالالمانية Der Herr scheint des Deutschen Mächtig zu sein.

– (عندي... لدي...)[٧٦]، ولكن حبذا لو تكلمت بالروسية.

فقال الطبيب بروسية ركيكة:

– آ! هكذا اذن... لعل...

وبدأ التشاور.

بعد نصف ساعة دخلت آنا سيرغييفنا المكتب بصحبة فاسيلي ايفانوفيتش. وتسنى للطبيب أن يخبرهما همساً بأنه لا أمل مطلقاً في شفاء المريض.

نظرت إلى بازاروف... فتوقفت عند الباب لشد ما ادهشها وجهه الملتهب والمحتضر في الوقت ذاته بعينيه الغائمتين المتجهتين صوبها. لقد ارعبها خوف بارد مرهق. ولاحت في ذهنها للحظة فكرة: ربما شعرت بشيء آخر لو كانت تحبه حقاً.

فقال هو بجهد:

– شكراً، لم أكن أتوقع ذلك. فعلت خيراً. ها قد التقينا من جديد كما وعدت أنت.

– ما أطيب آنا سيرغييفنا.

– أتركنا يا ابتي. هل تسمحين يا آنا سيرغييفنا؟ يخيل الي الآن...

وأومأ برأسه إلى بدنه المسجى العاجز.

انصرف فاسيلي ايفانوفيتش. فكرر بازاروف:

– شكراً. لقد فعلت كما يفعل القياصرة. يقال أن القياصرة أيضاً يعودون المحتضرين.

(٧٦) في الأصل بالالمانية ich habe.

– يفغيني فاسيليفيتش، آمل...

– آه، يـا آنـا سيرغييفنـا. فلنقل الحقيقـة. لقد انتهيـت. وقعت تحت العجلـة. ولـذا ما كان هناك داعٍ للتفكـير في المستقبل. الموت شيء قديم، إلا أنـه يداهـم كل شخص بشكل جديد. لم اجبن حتـى الآن... وستحل الغيبوبـة، ثم النهاية! (لوح بيـده تلويحة يائسة واهنـة). فما الذي ينبغي أن اقولـه لـك... كنت أحبك! وما كان لهذا الأمـر أي معنى في السابق، وليس لـه أي معنى الآن بالطبـع. فالحب مجرد شكل، أمـا شكلي أنا فقد أخـذ يتفسخ. الافضل أن اقول: مـا اروعك! أنك الآن أيضاً جميلة... ما احلاك...

ارتعشت آنا سيرغييفنا عفوياً.

– لا تقلقي... اجلسي هناك. ولا تقتربي مني، فأن مرضي معد.

اجتـازت آنـا سيرغييفنـا الغرفة مسرعـة وجلست علـى المقعد قرب الاريكة التي يرقد عليها بازاروف. فهمس هو:

– ما انبلها! آه، ما أقرب ذلك! وما أشد فتوتها ونضارتها وصفاءها... في هـذه الغرفة الكريهة!... وداعـاً! عيشي طويلاً، فذلـك أفضل شيء، وتمتعـي ما دام في الوقت متسع. انظـري ما افظع هذا المشهد: دودة تكاد تكون مسحوقـة ولكنها لا تزال مغرورة. ألم أكن أفكر بأني سأنجز أعمالاً كثـيرة ولن أموت؟ فأين مني الموت؟ لـدي مهمة، وأنا جبار! أما الآن فأن كل مهمة هـذا الكائن الجبار تتلخص في أن يقضي نحبه بشكل لائق، مع أن ذلك لا يشغل بال أحد... غير أنني، رغم كل شيء، لا اخاف...

صمـت بازاروف وأخذ يتلمس قدحه بيـده. فناولته آنا سيرغييفنا أياه دون أن تخلع قفازها وهي تتنفس بخوف. وتكلم هو من جديد:

– سـوف تنسينـي. فـلا رفقة بين الميـت والحي. وسـوف يقول لك أبـي، مثلاً، ما أعظم خسارة روسيـا بفقداني... ذلك هراء، ولكن لا تثنيه

عـن اعتقاده. فليكـن ذلك على الأقل مبعثاً للسلـوى في نفسه... حاولي أن تـداري أمـي أيضاً. ففي مجتمعك الراقي الكبير لـن تجدي أناساً مثلهما أبـداً... هـل أن روسيا بحاجـة الي، يا تـرى؟.. كلا، ليست بحاجة الي، علـى ما يبدو. فمن هـي بحاجة إليه؟ أنها بحاجـة إلى الاسكافي والخياط والقصـاب... يبيـع اللحـوم... والقصـاب... عفـواً، بـدأت افكاري تتشوش... هناك غابة...

وضع بازاروف يده على جبينه.

وانحنت عليه آنا سيرغييفنا:

– يفغيني فاسيليفيتش، أنا هنا...

سحـب يده فوراً ونهض قليلاً، فقال بقـوة مفاجئة ولمعت عيناه بآخر بريق:

– وداعً، وداعـاً... اسمعي... أننـي لم اقبلك آنذاك... فانفخي على القنديل المحتضر كي ينطفئ...

لامست آنا سيرغييفنا جبينه بشفتيها فقال:

– كفاية!

وهبط على الوسادة:

– الآن... حل الظلام...

انصرفـت آنا سيرغييفنا بهدوء. فسألها فاسيلـي ايفانوفيتش همساً: – ماذا؟

– غفا – اجابت بصوت يكاد لا يسمع.

مـا كان مقـدراً لبـازاروف أن يستيقظ. فعنـد المساء غـط في غيبوبة مطبقـة، وفي اليوم التالي قضى نحبـه. أدى الأب الكسي الطقوس الدينية

اللازمة. وعندما جرى تطهيره ولامس الزيت المقدس صدره تفتحت احدى عينيه وخيل للحاضرين أن شيئاً ما يشبه ارتعاشة الرعب انعكس، للحظة، على وجهه الجامد، من رؤية القس بغفارته الكهنوتية والمبخرة المدخنة والشموع أمام الايقونة. وعندما لفظ النفس الأخير وعم الدار العويل استولى على فاسيلي ايفانوفيتش هياج مباغت فراح يصرخ بصوت مبحوح وبوجه ملتهب معوج، ويهز قبضته في الهواء كأنه يهدد أحداً: «قلت بأني سأثور، وسأثور، سأثور!». إلا أن آرينا فلاسيفنا تعلقت بعنقه والدموع تنهمر من عينيها، وانكب كلاهما على وجهه. وفيما بعد تحدثت انفيسكوشكا في غرفة الخدم فقالت: «نكسا رأسيهما جنباً إلى جنب كنعجتين في الظهيرة...».

غير أن قيظ الظهيرة يتبدد ويحل المساء ثم الليل، وعندها تحين العودة إلى المأوى الهادئ حيث يحلو المنام للمتعبين والمرهقين...

٢٨

مضت ستة شهور. خيم الشتاء بصقيعه الصامت القارس الصافي وثلجه الصرار ونداه الوردي المتجمد على الاشجار وسمائه الزمردية الشاحبة، واكاليل الدخان فوق المداخن واعمدة البخار المتصاعدة من الابواب التي لا تفتتح إلا لماماً، ووجوه الناس الغضة وعناء الجياد المقشعرة من البرد. اشرف ذلك اليوم من شهر يناير على الافول، وعصر برد المساء الهواء الساكن وضغطه بمزيد من الشدة. وانطفأ الغسق الدامي بلمح البصر. واشتعلت الانوار في نوافذ الدار في مارينو. انشغل بروكوفيتش، ببدلته الرسمية السوداء وقفازيه الابيضين ومسحته المهيبة أكثر من المعتاد، في اعداد المائدة لسبعة أشخاص. قبل أسبوع جرت في كنيسة الابرشية الصغيرة، بهدوء وبدون شهود تقريباً، مراسيم زفاف اركادي وكاتيا

وزفاف نيكولاي بتروفيتش وفينيتشكا. وفي ذلك اليوم اقام نيكولاي بتروفيتش مأدبة توديعية لاخيه الذي ينوي السفر إلى موسكو لتصريف بعض الشؤون. أما آنا سيرغييفنا فقد سافرت إلى موسكو أيضاً على أثر الزفاف بعد أن انعمت على الزوجين الشابين بسخاء.

في تمام الساعة الثالثة التأم الجمع حول المائدة. اجلسوا ميتيا إلى المائدة أيضاً. وقد ظهرت لديه مربية ترتدي قبعة من الديباج المخرم. جلس بافل بتروفيتش بين كاتيا وفينيتشكا واستقر «الزوجان» قرب عروسيهما. لقد تغير اصحابنا هؤلاء في الآونة الأخيرة: فقد بدوا وكأنما اصبحوا أكثر رواء ونضجاً. أما بافل بتروفيتش فهو الوحيد الذي اصيب بهزال، مما اضفى، بالمناسبة، المزيد من الرشاقة والرصانة على ملامحه المعبرة... ثم أن فينيتشكا لم تعد على ما كانت عليه. ارتدت بدلة حريرية جديدة وشدت شريطاً مخملياً عريضاً على شعرها مع سلسلة ذهبية تطوق جيدها. جلست بسكون ووقار ورزانة. فهي رزينة أزاء نفسها وازاء كل ما يحيط بها. كانت تبتسم وكأنما تريد أن تقول: «اعذروني، فليس الذنب ذنبي». و لم تكن تبتسم وحدها على هذه الشاكلة. فالآخرون أيضاً كانوا يتبسمون وكأنما هم يعتذرون. لقد كانوا جميعاً يشعرون بشيء من الحرج وبشيء من الحزن، ولكنهم في الواقع كانوا على أحسن حال. كان كل منهم يداري الآخر بحذر مدهش وكأنما اتفقوا جميعاً على تمثيل ملهاة ساذجة. بينما كانت كاتيا اهدأ الجميع: فهي تتطلع إلى ما حواليها وادعة اليفة. وكان بامكان المرء أن يلاحظ أن نيكولاي بتروفيتش قد أحبها بجنون. وقبيل انتهاء الغداء نهض يحمل قدحاً وتوجه إلى بافل بتروفيتش قائلاً:

– أنك تتركنا... تتركنا، يا أخي العزيز، لامد غير طويل طبعاً. ومع ذلك لا يسعني إلا أن أقول لك بأنني... بأننا... وأنني بقدر ما أننا... الطامة الكبرى في أننا لا نجيد القاء الخطب! يا اركادي، هلا تكلمت أنت!

– كلا، يا ابتي، فأنا لم استعد لذلك.

– وهـل تعتقد بأني قـد تهيأت جيداً؟ اسمح لي، يـا أخي، أن اعانقك واتمنى لك التوفيق، وعد إلينا بأسرع ما يمكن!

تبادل بافل بتروفيتش القبلات مع الجميع دون أن يستثني ميتيا بالطبع. وبالاضافـة إلى ذلـك قبل يـد فينيتشكا التـي لم تتعود بعد علـى مد يدها بالشـكل اللازم. وارتشف القدح الذي مـلأوه له من جديد وقال بتنهدة عميقة: «فلتكونوا سعداء يا اصدقائي!» واضاف بالانجليزية Farewell[77] . لم ينتبه أحد إلى هذه الكلمة ولكن الجميع تأثروا تأثراً شديداً.

– تكريمـاً لذكرى بازاروف – همسـت كاتيا في اذن زوجها وقرعت كأسهـا بكأسه. وورد عليهـا اركادي بأن شد على يدهـا بقوة، ولكنه لم يتجرأ على رفع هذا النخب بصوت عال.

تلك هـي الخاتمة، أليس كذلك؟ ولكن ربما يرغب أحد من القرّاء في معرفـة ما يفعله الآن، الآن بالـذات، كل من شخوص روايتنا. فنحن على استعداد لتلبية رغبته.

تزوجـت آنـا سيرغييفنا مؤخراً ليـس بدافع من الحب، بـل بدافع من المعتقد. وزوجها إنسان لبيب للغاية، قانوني شديد البأس في بلوغ مقاصده العمليـة، وهـو يتحلى بـإرادة صلبة وموهبـة كلامية رائعة، وهـو إنسان طيب وبـارد كالثلج، لا يزال في مقتبل العمر ولكنـه سيغدو فيما بعد من الشخصيـات الروسية المرموقة. وهمـا يعيشان في وئام تام، ومن المحتمل أنهمـا سيتمتعان بالسعادة... بل ومن المحتمـل أنهما سيبلغان الحب. أما الأمـيرة خ... فقد توفيت وطواهـا النسيان منذ يوم وفاتها. وسكن الاب كيرسانـوف مع ابنه في مارينو واخذت احوالهما تتحسن. فصار اركادي

---

(٧٧) وداعاً.

اقتصادياً غيوراً وغدت «المزرعة» تعود بدخل غير ضئيل وأصبح نيكولاي بتروفيتش وسيطاً عقارياً، وهو يعمل بكل ما اوتي من قوة، فيتجول بلا كلل في منطقة عمله ويلقي الخطب المسهبة (كان متمسكاً بالرأي القائل بضرورة «افهام» الفلاحين، اي تكرار كلمات بعينها طوال الوقت حتى يستولي عليهم الارهاق)، ومع ذلك، إذا قلنا الحق، فهو لم يكن يرضي تماماً لا النبلاء المثقفين الذين يتكلمون عن «الانعتاق» تارة بلهجة حماسية وتارة بلهجة سوداوية ولا النبلاء غير المتعلمين الذين يتهجمون بوقاحة على «هيذا الانعتاق». فأن نيكولاي بتروفيتش بالنسبة لأولئك وهؤلاء متساهل أكثر من اللازم. أما كاتيا فقد رزقت ولداً اسمته نيكولاي. وصار ميتيا يمشي على نحو ممتاز ويتكلم بطلاقة. ولا تعجب فينيتشكا بأحد، بعد زوجها وميتيا، اعجابها بكنتها. وعندما تجلس هذه إلى البيانو تستطيع فينيتشكا أن تظل قربها مسرورة طوال النهار. ونذكر بالمناسبة شيئاً عن بيوتر. فقد تحجر نهائياً بسبب الغباوة والغطرسة وصار يتلفظ الكلمات بغير الصيغة المعتادة. ولكنه تزوج هو الآخر وتسلم صداقاً كبيراً من أهل العروس. وهي ابنة بستاني من سكان المدينة رفضت خطيبين صالحين لمجرد أنهما لا يمتلكان ساعة يد. أما بيوتر فكانت لديه جزمة قصيرة لماعة عن الساعة.

على مدرج برول في درزدن بوسعكم أن تروا، في أفضل أوقات النزهة ما بين الثانية والرابعة، رجلاً في حوالي الخمسين اشيب الشعر كلياً وكأنما يعاني من النقرس ولكنه لا يزال وسيما أنيق الملبس، يتحلى بتلك السمة الخاصة التي لا تتهيأ إلا لشخص يتواجد أمداً طويلاً في ارقى فئات المجتمع. أنه بافل بتروفيتش. غادر موسكو إلى الخارج من أجل استعادة صحته وصمم على الاقامة في درزدن حيث يتلاقى أكثر ما يتلاقى مع الانجليز والسياح الروس. كان يسلك مع الانجليز سلوكاً بسيطاً أقرب إلى التواضع، ولكنه يحافظ على كرامته. وكانوا هم يعتبرونه شخصاً مملاً بعض

الشيء إلا أنهم يحترمون فيه رجلاً نبيلاً حقا «a perfect gentleman». وكان هو أقل تكلفاً مع الروس، حيث يطلق العنان لحدة طباعه ويسخر مازحاً من نفسه ومنهم، إلا أن ذلك كله يصدر عنه بشكل مقبول تماماً لا يتعارض وأصول اللياقة. وهو يتمسك بالنزعة السلافية، الأمر الذي يحظى، كما هو معروف (بالاحترام والتقدير)[٧٨] في المجتمع الراقي. أنه لا يقرأ شيئاً بالروسية، ولكن لديه على مكتبه منفضة فضية بشكل خف فلاحي روسي. ثم أن سياحنا يتقاطرون عليه بكل رغبة. وقد تفضل ماتفي ايليتش كوليازين، الذي أصبح في المعارضة الموقتة، بزيارته وهو في طريقه إلى مياه بوهيميا المعدنية. أما السكان المحليون الذين نادراً ما يتقابل معهم، والحق يقال، فيكادون يبجلونه تبجيلاً. وما كان بوسع أحد أن يحصل على تذكرة إلى جوقة البلاط أو المسرح والخ. بنفس السهولة والسرعة اللتين يحصل بهما عليها (البارون كيرسانوف)[٧٩]. ولا يزال يعمل المعروف على قدر المستطاع، ولا يزال يخلق ضجة بعض الشيء: فليس عبثاً أن كان في وقت ما كالليث. ولكن حياته غدت عسيرة... أكثر عسراً مما يتوقع هو... فيكفي لمعرفة ذلك القاء نظرة عليه في الكنيسة الروسية، حيث يغرق في تأملاته مائلاً إلى الجدار في ركن ما دون حراك، ويعض على شفتيه بمرارة، ثم يعود إلى رشده فجأة ويرسم شارة الصليب على نحو لا يكاد يلحظ...

ولقد سافرت كوكشينا هي الأخرى إلى الخارج. فهي حالياً في هيديلبرغ تدرس المعمار الذي اكتشفت فيه، على حد تعبيرها، قوانين جديدة، و لم تعد تدرس العلوم الطبيعية. ولا تزال كالسابق تعاشر الطلبة وخصوصاً طلبة الفيزياء والكيمياء الروس الذين تعج بهم هيديلبرغ

---

(٧٨)- في الأصل بالفرنسية très distinguè.

(٧٩)- في الاصل بالالمانية der Herr Baron von Kirsanoff.

والذين يدهشون للوهلة الأولى الاساتذة الالمان السذج بنظرتهم الواقعية إلى الأمور، كما يدهشون نفس أولئك الاساتذة فيما بعد بتبطرهم التام وكسلهم المطبق. ومع اثنين أو ثلاثة من أمثال هؤلاء الكيمياويين الذين لا يميزون بين الاوكسجين والآزوت، ولكنهم مفعمون بالرفض والاعتزاز بالنفس، ومع يليسيفيتش العظيم في بطرسبورغ، يتسكع سيتنيكوف الذي يستعد هو الآخر لكي يكون عظيماً، ويواصل، على حد قوله، «قضية» بازاروف. ويقال أن شخصاً ما ضربه مؤخراً، ولكنه ثأر منه، حيث لمح في مقالة تافهة مشبوهة دست في مجلة تافهة مشبوهة إلى أن ذاك الذي ضربه جبان. وهو يسمي ذلك تهكماً. ولا يزال ابوه متعسفاً ازاءه، أما زوجته فتعتبره مغفلاً و... اديباً.

هناك مقبرة ريفية صغيرة في أحد ارجاء روسيا النائية. وهي، شأنها شأن جميع مقابرنا تقريباً، ذات منظر كئيب: فقد اعشوشبت من زمان الخنادق المحيطة بها، وتدلت الصلبان الخشبية الرمادية اللون وصارت تتعفن تحت سقوفها التي كانت مطلية بالاصباغ في غابر الزمان، وازيحت الالواح الحجرية عن أماكنها جميعا كما لو أن أحداً قد دفعها من الاسفل، وبالكاد تعطي شجرتان منتوفتان أو ثلاث ظلالاً شحيحة، وتجول الاغنام بين القبور دون عائق... ولكن بين تلك القبور قبراً لا يمسه إنسان ولا يدوسه حيوان. الطيور فقط تحط عليه وتصدح عند الفجر. يحيط به سياج من حديد وقد غرست شوحتان فتيتان عند جانبيه. في هذا القبر يرقد يفغيني بازاروف. ومن قرية غير بعيدة غالباً ما يتردد عليه عجوزان بلغا من العمر عتياً. يسيران بمشيتهما المتثاقلة وهما يسندان بعضهما البعض، وعندما يقتربان من السياج يهبطان فيركعان على ركبهما ويبكيان بمرارة لأمد طويل، ولأمد طويل أيضاً يتطلعان بانتباه إلى الحجر الصامت الذي يرقد ابنهما تحته. ويتبادلان بضع كلمات، وينفضان الغبار عن الحجر ويعدلان وضعية بعض أغصان الشوحتين، ويصليان من جديد ولا يقويان

على مغادرة هذا المكان الذي يبدو وكأنه أقرب الاماكن الموصلة إلى ابنهما، وإلى الذكريات المرتبطة به... فهل يعقل أن صلواتهما ودموعهما عقيمة يا ترى؟ وهل يعقل أن الحـب المقدس، الحب المخلص، عاجز يا ترى؟ كلا! فهمـا كان القلب الذي اطبقت عليه ظلمة القـبر متحمساً متمرداً خاطئاً، فأن الزهور التي تنمو على ترابه تتطلع إلينا مطمئنة بعيونها البريئة: فهي لا تحدثنـا فقط عن السكون الابدي، عن لجة سكون الطبيعة «اللاابالية»، بل تحدثنا أيضاً عن الرضوان الابدي وعن الحياة اللانهائية...

١٨٦٢

بصدد «الآباء والبنون»

كنت استحم على ساحل البحر في مدينة فينتنور الصغيرة بجزيرة وايت في اغسطس ١٨٦٠، وعندها تبادرت إلى ذهني لأول مرة فكرة «الآباء والبنون»، هذه القصة التي انتهى بسببها – وإلى الأبد كما يبدو – ميل جيل الشباب الروسي إليّ وحسن موقفهم مني. وقد سمعت وقرأت مرارا في المقالات النقدية بأنني، في مؤلفاتي، «انطلق من الأفكار» أو «امرر الافكار». امتدحني البعض على ذلك، ولامني البعض الآخر. أما أنا فأريد، بدوري، أن اؤكد بأنني لم أحاول مطلقا أن ارسم أية شخصية إلا إذا توفر لدي منطلق استند إليه، ومنطلقي هذا ليس فكرة بل هو شخص حي تضاف إليه العناصر المناسبة وتختلط به تدريجيا. وبما أنني لا امتلك قدراً كبيراً من حرية الابتكار، فأنا أشعر دوما بحاجة إلى هذه التربة التي امكن من السير عليها بثبات. وهذا بالذات ما حدث لقصة «الآباء والبنون»، فقد استندت في تصوير بطلها الرئيسي بازاروف إلى شخصية فعلية لطبيب من الاقاليم أثار دهشتي واعجابي (توفي قبيل عام ١٨٦٠ بقليل). وقد تجسدت في هذا الإنسان الرائع، في رأيي، تلك البداية التي ولدت للتو وكانت في دور الاختمار والتي سميت فيما بعد بالنهلستية أو الرفض. كان تأثير هذه الشخصية علي شديداً للغاية، ولكنه غير واضح تماماً في الوقت ذاته. فأنا نفسي، في بادئ الأمر، لم أتمكن من فهمه بشكل عميق. فصرت انصت واتطلع باهتمام كبير إلى كل ما يحيط بي وكأنني أريد التثبت من صحة أحاسيسي. ومما كان يحيرني أنني لم أجد في أي نتاج من نتاجاتنا الادبية ولا تلميحا لما كان يلوح أمام انظاري ويخيل الي في

كل مكان، فأخذ الشك يدب في ذهني: الست اركض وراء شبح لا غير؟ واتذكر أن روسياً كان يعيش معي في جزيرة وايت، وهو يتحلى بذوق رهيف جداً وتقبل رائع لما نعته المرحوم ابولون غريغوريف[٨٠] «بنفحات العصر». اطلعته على الأفكار التي تشغل بالي، فعقدت الدهشة لساني عندما سمعته يقول: «اعتقد أنك سبق وقدمت نموذجاً من هذا النوع... في شخصية رودين، أليس كذلك؟». لم أحر جوابا، فبماذا أجيب؟ رودين وبازاروف نموذج بشري واحد!

تأثرت بهذه الكلمات درجة كبيرة حتى بقيت عدة أسابيع اتحاشى التفكير بما عزمت عليه. ولكنني عندما عدت إلى باريس شرعت بالعمل من جديد: فالحبكة قد اختمرت في ذهني شيئاً فشيئاً. وفي الشتاء كتبت الفصول الأولى، إلا أنني اكملت القصة في روسيا، في الريف، خلال تموز. وفي الخريف قرأتها على بعض معارفي واجريت بعض التنقيحات والاضافات عليها. وفي آذار ١٨٦٢ نشرت «الآباء والبنون» في مجلة «روسكي فيستنك» «البشير الروسي».

وأقول هنا، دون الدخول في تفاصيل الاثار التي تركتها هذه القصة، أنني عندما عدت إلى بطرسبورغ... سمعت آلاف الاصوات تكرر كلمة «نهلستي»... وشعرت آنذاك بأحاسيس متنوعة ولكنها مرهقة ممضة بقدر واحد. شعرت بالبرود الذي بلغ حد الغضب عند الكثيرين من الذين اعزهم واتعاطف معهم، وتلقيت التهاني التي تقرب من التقبيل من أناس أكرههم، من معسكر الاعداء. اربكني ذلك وحيرني... وآلمني. لكن ضميري لم يؤنبني: فكنت أعرف جيداً أن موقفي من النموذج الذي ابتدعته موقف نزيه خال من التحيز ضده، بل هو موقف متعاطف

---

(٨٠) شاعر وناقد أدبي روسي (١٨٢٢–١٨٦٤).

معه[٨١] ، فأنا احترم رسالة الفنان والاديب لدرجة لا تسمح لي بالافتراء في هـذا المجال. ولعل كلمة «احترم» في غير محلها تماما هنا. فأنا، ببساطة، لا أستطيـع، ولا أجيد العمل على نحو آخر. كما لم يكن هناك ما يدفعني إلى ذلك...

أن السـادة النقاد لا يتصورون بشكل صائـب تماماً ما يعتمل في نفس الكاتب ولا يعرفـون مم تتكون على وجه التحديد افراحه واتراحه، أمانيه وطموحاتـه، نجاحاتـه واخفاقاته. فلا علـم لهم، مثلا، بتلـك المتعة التي يشير إليها غوغول وتتلخص في تعذيب النفس وسوط عيوبها من خلال الشخوص الوهميـين الذين يصورهم الكاتب. والنقـاد واثقون تماما من أن الكاتـب لا يفعـل شيئا غير «تمرير أفكاره» مـن كل بد، ولا يريدون أن يصدقـوا بأن تجسيد الحقيقة، وتصوير واقع الحياة بقوة ودقة، اعظم سعادة للاديـب حتى إذا كانت هذه الحقيقة تتعارض مع ميوله... عندما صورت شخصية بـازاروف استبعدت من مجـال اهتماماته كل ما لـه علاقة بالفن واضيفـت عليه حدة وخشونة في أسلـوب الكلام، و لم يكن ذلك بسبب رغبـة هوجـاء في أهانة جيل الشبـاب (!!!)، بل بفعـل مراقبتي لصاحبي الدكتـور د. وأمثاله. «تلك هي الصورة التـي نشأت عليها الحياة»، وهذا مـا اوحتـه لي التجربة التي ربما كانت خاطئة، ولكنهـا، وأنا، أكرر ذلك، تجربة نزيهة. ما كان يلزمني أن افتعل وانتحل، ولذا توجب علي أن اصور شخصيـة بازاروف على هذا النحو بالـذات. و لم تلعب ميولي الشخصية

(٨١) اسمـح لنفسي هنا بايـراد المقطع التالي من يومياتـي: «الأحد، ٣٠ يوليو، قبل ساعـة ونصف تقريبا فرغت، أخيرا، من كتابة روايتي... ولا ادري هل ستلقى نجاحا. ربمـا ستنهال علي «سوفريمنـك» («المعاصر») بسيل من الاهانـات بسبب بازاروف، ولـن تصدق بأني كنت، طوال كتابتـي للرواية، اشعر بميل عفوي نحوه...» (ملاحظة تورغينيف).

أي دور بهـذا الخصوص. وربما سيدهش الكثيرون من قرائي إذا قلت لهم بـأني اؤيد بـازاروف في كل معتقداتـه تقريباً، ما عـدا آراءه في الفن. كل ذلـك والبعض يقول بأني التزم جانب «الآبـاء»... مع أني جانبت الحقيقة في تصويـر شخصية بافل كيرسانوف وبالغـت في عرض نواقصه بصورة كاريكاتورية تقريباً وجعلت منه اضحوكة!

ويكمـن سبب سوء الفهم كلـه، و«الطامة الكبرى»، كما يقال، في أن النمـوذج الذي عرضته بشخصية بازاروف لم يمر بعد بالاطوار التدريجية التي تمر بها النماذج الادبية عادة. و لم يكن من نصيبه – كما كان من نصيب اونيغـين[٨٢] وبيتشوريـن[٨٣]– عصر كامل من التمجيـد والمديح والرضا. فمنـذ لحظة ظهور هذا الإنسان الجديد – بازاروف – كان موقف المؤلف منه انتقاديـاً... موضوعياً. وهذا ما شوش على الكثيرين. من يدري؟ ربما كان في ذلـك ظلـم أن لم نقل خطأ. فأن لنموذج بـازاروف، على الأقل، حقوقـا في المديح والرضا بقدر حقوق النمـاذج التي سبقته. وقد ذكرت تـوا أن موقف المؤلف من بطـل الرواية قد شوش علـى القارئ. فالقارئ يشعر بالحرج دومـا وسرعان ما تستولي عليه الحيرة، وحتى الكآبة، عندما يرى المؤلف يعامل الشخصيـة التي يصورها معاملته لكائن حي، فيلاحظ ويعرض علـى الملأ جوانبها الرديئـة والجيدة، والاهـم إذا كان المؤلف لا يبـدي تعاطفاً جليـا أو نفوراً واضحـاً ازاء بطله. والقـارئ على استعداد للانسياق وراء الغضـب، إذ يجد نفسه مضطراً إلى أن يشق الطريق بنفسه بعد أن اعتـاد السير على درب مطروق. وتتبادر إلى ذهنه افكار من قبيل: «هـذه قضية شاقة! الكتب موجودة لأجـل التسلية وليس لاجهاد الفكر. ثـم هل كان من الصعب علـى المؤلف أن يخبرني كيف أفكر بهذه الشخية

---

(٨٢) بطل ملحمة بوشكين «يفغيني اونيغين».

(٨٣) الشخصية الروسية في رواية ليرمونتوف «بطل زماننا».

كمـا يفكر فيها هو؟!» أمـا إذا كان موقف المؤلف من تلك الشخصية أقل تحديـداً ووضوحاً، وإذا كان المؤلف نفسـه لا يدري هل يحب بطله أم لا (كمـا حدث لي بخصوص بازاروف، «فالميـل العفوي» الذي أشرت إليه في يومياتـي لا يعنـي الحب) فالحـال تغدو على اسوأ مـا يكون! والقارئ مستعد، عندئذ، أن ينسب إلى مؤلف أو يفرض عليه تعاطفا لا وجود له أو نفوراً لا أساس له، وذلك لمجرد أن يخرج من حالة «اللاتحديد» المزعجة.

قالت لي سيدة ظريفة بعد أن فرغت من مطالعة كتابي: «العنوان الحقيقي لقصتـك هو «لا الآبـاء ولا البنـون». وأنت نفسك نهلستـي». واعرب البعض عن مثل هذا الرأي بشدة أكبر عندما صدرت «الدخان»[٨٤]. وأنا هنـا لا اجرؤ على الاعتراض. فلربما كانت هذه السيدة على حق. في مجال التأليـف (وأنا احكم على ذلك من تجربتي) يفعل المرء ليس ما يريده بل ما يستطيـع فعله وبالقدر الـذي يوفق فيه. اتصور أن الحكـم على النتاجات الادبيـة ينبغي أن يصـدر en gros[٨٥] ، وعندما نطالـب المؤلف بالنزاهة الكاملة ينبغي أن ننظر إلى سائر جوانب نشاطه بهدوء، أن لم أقل بلا ابالية. ورغم رغبتي الشديدة في ارضاء نقادي فانني لا استطيع القول بأني مذنـب في تجنب النزاهة.

تجمعت لدي بخصوصـ «الآباء والبنون» طائفة من الرسائل والوثائق الأخرى التي تستحق الاهتمام. وقد لا تخلو المقارنة بينها من فائدة. ففي الوقت الذي يتهمني فيه البعض باهانة جيل الشباب وبالتخلف والظلامية ويقولون لي انهم «يحرقون صوري الفوتوغرافية وسط قهقهة الاحتقار»، يلومنـي البعض الآخر غاضبين، علـى العكس، بالتزلـف إلى نفس جيل الشباب هذا. وكتب لي أحدهم قائلا: «أنك تزحف عند قدمي بازاروف!

---

(٨٤) صدرت رواية ايفان تورغينيف «الدخان» عام ١٨٦٧.

(٨٥) عموما (بالفرنسية).

فأنــت تتظاهر فقط بأنــك تشجبه، ولكنك في الواقع تتزلــف إليه وتنتظر منه، كالصدقة، ابتسامة تافهة!»...

وهكــذا يا اخواني الشبــاب، أوجه كلامي إليكم. أريــد أن أقول لكم على لسان غوته معلمنا جميعاً:

Greift nur hinein ins volle Menschneleben!

Ein jeder lebt's – nicht vielen it's bekannt،

Und wo ihr's packt – da ist's interessant! (٨٦)

أن قوة هذا «التشبث»، قوة «تصيد» الحياة هذا، لا تمنحها إلا الموهبة، ولكــن الموهبــة لا تكتسب، ثــم أن الموهبة وحدها غير كافيــة. فلا بد من التفاعل المتواصل مع البيئة التي ينوي الكاتب تجسيدها: لا بد من الصدق، الصدق الــذي لا يرحم، فيما يخص أحاسيس الكاتب الشخصية، ولا بد من الحرية، الحرية الكاملة في الآراء والمعتقدات، ولا بد، أخيراً، من التعلم والمعرفــة!.. فالعلم نور، كما يقول المثل الشعبــي، ولكنه ليس نورا فقط، أنــه الحرية أيضاً. ليس هناك ما يحرر الإنسان أكثر من المعرفة، وليس هناك ميــدان يحتاج إلى الحريــة أكثر من ميــدان الفن والشعــر، وليس من قبيل الصدفــة أن يقال عــن الفن حتى في اللغة الرسميــة بأنه حر «طليق». فهل يستطيــع الإنســان أن «يتشبث» بما يحيطه و«يتصيــده» إذا كان مقيدا من الداخــل؟ كان بوشكين قد تحسس هذه الحقيقــة بعمق. فليس عبثا أن قال في السوناتا الخالدة التي يتعين على كل كاتب مبتدئ أن يحفظها عن ظهر قلب ويتذكرها كالوصية:

(٨٦) اغــرز يــدك (لا استطيع أن اترجــم هذا التعبير بشكل أفضــل) في الداخل، في أعمــاق الحيــاة البشرية! الجميــع يعيشون تلك الحيــاة، ولكن ما اقل الذيــن يعرفونها. وعندما تتشبث بركن منها ستجد المتعة هناك! (ملاحظة تورغينيف).

سر على طريق الحرية

بهدي العقل الحر... [٨٧]

... كلا، لا يمكن للفنان الحقيقي أن يعيش بدون الصدق، بدون المعرفة بأوسع معاني الكلمة، في الموقف من نفسه ومن الافكار والانظمة التي يتبناها، بل وحتى في الموقف من شعبه ومن تاريخ بلاده. لا يمكن العيش بدون هذا الهواء...

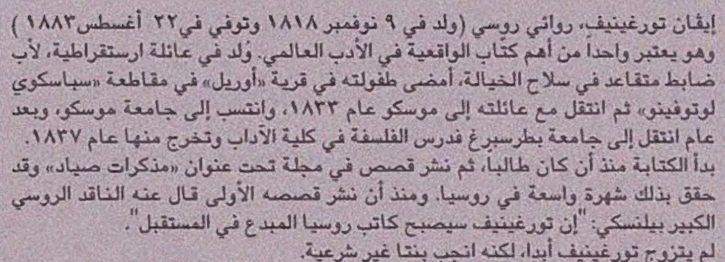
ايفان تورغينيف

١٨٦٨-١٨٦٩

بادن - بادن

---

(٨٧) من قصيدة الكسندر بوشكين «ايها الشاعر»، ١٨٣٠.



إيڤان تورغينيف، روائي روسي (ولد في ٩ نوفمبر ١٨١٨ وتوفي في٢٢ أغسطس١٨٨٣)
وهو يعتبر واحداً من أهم كتّاب الواقعية في الأدب العالمي. وُلد في عائلة ارستقراطية، لأب
ضابط متقاعد في سلاح الخيالة، أمضى طفولته في قرية «أوريل» في مقاطعة «سباسكوي
لوتوفينو» ثم انتقل مع عائلته إلى موسكو عام ١٨٣٣، وانتسب إلى جامعة موسكو، وبعد
عام انتقل إلى جامعة بطرسبرغ فدرس الفلسفة في كلية الآداب وتخرج منها عام ١٨٣٧.
بدأ الكتابة منذ أن كان طالباً، ثم نشر قصص في مجلة تحت عنوان «مذكرات صياد» وقد
حقق بذلك شهرة واسعة في روسيا. ومنذ أن نشر قصصه الأولى قال عنه الناقد الروسي
الكبير بيلنسكي: "إن تورغينيف سيصبح كاتب روسيا المبدع في المستقبل".
لم يتزوج تورغينيف أبداً، لكنه انجب بنتاً غير شرعية.
خلال السنوات الأخيرة اختار فرنسا للاقامة فيها نهائياً، واستقبل فيها بحفاوة
من جانب ادباء من طبقة جورج صاند وغوستاف فلوبير والأخوين غونكور،
هو الذي لم يتمكن من التفاعل حقاً مع الحياة الأدبية الروسية، واشتهرت
سجالاته مع تولستوي ودوستويفسكي فيها. ولكن لئن كانت الحياة الأدبية
الروسية لم تستسغ تورغنيف وأسلوبه الثوري الساخر في التعامل مع الأمور
الجادة، فإن القراء الروس تابعوه جيداً.

ISBN 284306226-8

